

الإمارات العربية في بلاد الشام

منتدى سور الأزبكية

www.books4all.net
والقرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين

تأليف

والكتور محمد محمد موسى الشبيخ

أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

الطبعة الأولى

١٩٨٠



الهيئة المصرية العامة للكتاب
فرع الإسكندرية

منتدى سور الأزبكية

www.books4all.net

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

<https://www.facebook.com/books4all.net>



الإمارات العربية في بلاد الشام

في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين

تأليف

دكتور محمد مصطفى الشاذلي

أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

الطبعة الأولى

١٩٨٠



المطبعة المصرية العامة للكتاب
دمشق - سورية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الإمارات العربية في بلاد الشام

في القرنين الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين

بنو مرادس في حلب	١٠٢٤ — ١٠٧٩ م
بنو همار في طرابلس	١٠٧٠ — ١١٠٩ م
بنو منقذ في شـيزر	١٠٨١ — ١١٥٧ م

مقدمة

يهتم مؤرخو الحروب الصليبية المحققون اهتماما متفاوتا بالأسباب والعلل التي تكمن وراء السهولة التي اخترق بها الصليبيون بلاد الشام وفلسطين في أواخر القرن الحادى عشر الميلادى (الخامس الهجرى) في طريقهم إلى بيت المقدس، ثم فرض وجودهم واستقرارهم في أطراف العراق وبلاد الشام والأراضى المقدسة المسيحية.

وليس هناك شك في أنه لا يخفى على المحايدين والمدققين من أولئك المؤرخين أن ذلك لم يكن راجعا لقوة الصليبيين بقدر ما كان دليلا على ضعف الجانب الإسلامى واضمحلاله، وإن النجاح الذى أحرزه الصليبيون في الشرق في ذلك الوقت أسهم المسلمون أنفسهم في صنعه أكثر مما صنعه الصليبيون، إذ لم يصادف الصليبيون في زحفهم نحو بيت المقدس مقاومة فعالة تردعهم أوجهة إسلامية قوية تكبح جماحهم وتنبى مخططاتهم ومشروعاتهم في الشرق. ولهذا قدر لهم أن يحققوا أهدافهم في الاستيلاء على الأراضى المقدسة بل ويفرضوا وجودهم واستقرارهم في أطراف العراق وبلاد الشام وفلسطين قبل أن يفيق المسلمون من هول الصدمة ويتنبهوا إلى مغبة تقصيرهم وضعفهم.

ولم يكن ضعف الجبهة الإسلامية في ذلك الوقت وليد الساعة أو حدثا وقتيا ألم بالمسلمين حينئذ، بل أنه كان نتاج سنوات طويلة وحصاد أحداث جمة. منذ أن ضعفت الخلافتين الإسلاميتين في بغداد والقاهرة وانتابتها حالة

مزرية من الاضمحلال أدت إلى انسلاخ في أملاكها وإلى قيام لون من الانعزالية والطائفية وظهور نزعة انفصالية بين قطاعات مختلفة من الرعايا في أطراف العراق وفي بلاد الشام .

ولقد أدت هذه الأوضاع القلقة إلى بروز إمارات مستقلة في المنطقة بدت صغيرة في مساحتها وضيئيلة في إمكاناتها البشرية والمادية ، متباعدة في اتجاهاتها ومتشابهة في عزوفها عن كافة القوى الإسلامية الأخرى ، حريصة على فرض استقلالها وتكريس انفصالها بالوسائل المختلفة ، سواء شمت تلك الوسائل إلى خوض الحرب وشن القتال أو انحدرت تلك الوسائل إلى دفع الجزية وتقديم رسوم التبعية .

وعلى الرغم من بروز كثير من الإمارات المستقلة في منطقة الشرق الأدنى في تلك الفترة ومنها إمارات عربية وتركانية وكردية وسليجوقية نهضت في أطراف العراق والأناضول وبلاد الشام وفلسطين مما يؤكد أن روح المعصر ذاته بكل ما عراه من فوضى في الشؤون السياسية والدينية ، قد غلبت على المسلمين وفرقت جهودهم وأضاعت وحدتهم ، وسط خضم من الأهواء الذاتية والمطامع الفردية ، على الرغم من كل ذلك فإن نمة أشياء جذبتني إلى الإمارات العربية في هذا الموكب الانفصالي ، وأملت على دراستها وإلقاء الضوء عليها لآتمكن من إبراز معالم الجبهة الإسلامية زمن الحروب الصليبية واقف على خباياها ، وأرقب في نفس الوقت أحداث تلك الحروب ، لا كمعابر مع الجيوش الصليبية أقف وقفات متقطعة لانتاول الجانب الإسلامي بالدراسة ، ولكن كواقف على أرض الجبهة الإسلامية ذاتها ، ينكشف أمامي أفق

الأحداث وتنتضح للعلل والأسباب ويظهر مكنون الحقائق بالنسبة لأوضاع المسلمين حينئذ، وما أصابهم من ضعف وما شهدته المنطقة من فوضى واضمحلال.

وليس من شك في أن اختيار الإمارات العربية بالذات في هذا الموضوع قد أعطاني فرصة دراسة الحروب الصليبية من زاوية أخرى تتمثل في موقف تلك الوحدات الإسلامية الصغيرة من الزحف والاستقرار الصليبي، أي من زاوية العلاقات بين الجانبين خلال مرحلة هامة من تاريخ تلك الحروب، كما مكنتني أيضا من بسط طبيعة علاقات تلك الوحدات الإسلامية بالقوى الأخرى الأكبر في المنطقة كالإمبراطورية البيزنطية والخلافة الفاطمية ودولة السلاجقة وهي القوى التي كانت تهيمن حينئذ على أقدار المنطقة بأسرها.

أما الإمارات الثلاث موضوع البحث فهي إمارة بنى مرداس في حلب، وإمارة بنى عمار في طرابلس، وإمارة بنى منقذ في شـبـر، والأولى عاشت الفترة الممتدة لبان القرن الحادى عشر إلى ما قبل الحروب الصليبية بقليل، لكنها تصدت لآفات بزنطة المنقطعة على امتداد ذلك القرن كما تصدت لمحاولات الخلافة الفاطمية والسلاجقة في بلاد الشام، وأما الأخرتان فقد عاشتا أحداث الحروب الصليبية ذاتها كما ناضلتا أيضا القوى الأخرى: فاطمية وسلاجقية وبيزنطية.

وعلى الرغم من أن تلك الإمارات لم تتعاصر تعاصراً كاملاً، أو تبرز إلى الوجود في وقت واحد، بل عاشت على مدى نحو قرن ونصف من الزمان، إلا أنها مع ذلك لم تفقد صفة التعاصر كلية. فقد نهضت إمارة بنى عمار في طرابلس سنة ١٠٧٠م قبل أن تفقد إمارة بنى مرداس استقلالها بنحو عشر سنوات،

كما قامت إمارة بنى منقذ فى شير سنة ١٠٨١ م بعد نحو عشر سنوات أيضا من قيام إمارة بنى عمار ، وظلت تعاصر إمارة بنى عمار نحو ثلاثين عاما بل وتمضى بعدها نصف قرن آخر من الزمان . وعلى هذا يمكن القول أن الإمارات الثلاث تعاصرت تعاصرا جزئيا . بل إن الدارس للأحداث يستطيع فى يسر وسهولة التأكد من أنها تشابهت كثيرا فى حجمها وإمكاناتها وطريقة حكمها وعلاقاتها بغيرها وتقاربت عهودها وتناظرت سياساتها وطريقة حفاظها على أمنها واستقلالها ودفع الأخطار عنها ، لأن اللاحق منها احتذى حذو السابق وقام على غرارهِ . لئلا لم تكن عهود تلك الإمارات تجارب منفصلة لمن قاموا بها ، أو مغامرات خاصة لأولئك الذين أسسوها ، لأنها لم تكن وليدة معاهدات خاصة فى تاريخ بلاد الشام فى ذلك الوقت .

هذا وقد قسمت الموضوع إلى خمسة فصول خصصت الأول منها لدراسة أنساب الإمارات الثلاث وأصولها القديمة ودراسة طوبوغرافية شمال الشام ومراكز الإمارات وتوابعها ، وتناولت فى الفصول الثلاثة التالية الإمارات الثلاث ، يخص كل منها بإمارة بذاتها لدراسة أوضاعها الداخلية وتعاقب الأمراء عليها وسياساتها الخارجية وعلاقاتها بغيرها من القوى . أما الفصل الخامس والأخير فقد خصصته لدراسة المظاهر الحضارية فى الإمارات الثلاث كنظم الحكم ونواحي الخدمات والنواحي العمرانية والمنشآت والاهتمام بالآداب والفنون والشئون الدينية والرعايا فى الإمارات .

وبرغم ما بذلته من جهد فى هذا الموضوع إلا أننى لا أستطيع الزعم بأنه جاء عملا كاملا يسمو عن الهنات ويجمل عن الهفوات ، ولستكن حسبي أننى لم أدخر وسعا فى بذل الجهد وصرف الطاقة لأعرض هذا الموضوع دراسة

جديدة تقدم لأول مرة، إذ ليس بين أيدينا مؤلف يتناول هذه الامارات ويلي الضوء عليها ويفصل علاقاتها بالقوى الأخرى البيزنطية والصليبية والإسلامية وبرز المظاهر الحضارية والنواحي العلمية والفكرية والمذهبية في تاريخها .

ولقد حاولت جهدي الالتزام بالدقة والأمانة والحيدة ما وسعني الجهد، وانصرفت إلى دراسة هذه الإمارات من بطون المصادر الأصلية المعاصرة سواء كانت مطبوعة أو مخطوطة، مع مراعاة وجهة النظر الأخرى في تناول ما يتعلق بالجانب الصليبي، كما أن التعرض لدراسة العلاقات مع بزنطة قد أدخلني إلى حيز المصادر والمراجع البيزنطية على امتداد فترة طويلة شملت جانباً من عهد الأسمرين البيزنطيتين : المقدونية والكومنينية ، ثم أن اهتمامي بالشئون الحضارية في الفصل الأخير قد عرّج بي على المصادر الأدبية المعاصرة والكتب المتخصصة في تلك النواحي ، هذا فضلاً عن أن الكتابة عن الأنساب والطوغرافيا في الفصل الأول قد ألزمني بالرجوع إلى المصادر المتخصصة في الأنساب العربية وأصول القبائل النازحة إلى بلاد الشام وكذلك الكتب الجغرافية ، وكتب الرحالة لاسيما المعاصرين منهم لتلك المرحلة ، مع قراءة كل ما يتصل بالموضوع من بعيد أو قريب من الكتب المحدثه بالعربية والأجنبية، هذا وأرجو ألا أكون قد قصرت في شيء أو جانبني الصواب في شيء آخر ، أو أكون قد أهملت عن قصد — شيئاً كان بوسعى تناوله أو يتصل بهذه الدراسة ، أو غصضت الطرف عن مصادر تتصل بجانب أو أكثر من هذا الموضوع .

وفي النهاية لا يسعني إلا أن أتقدم بوافر الشكر والامتنان والعرفان بالجميل لأستاذي الأجل الأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور

فقد كان هذا الكتاب فى أصله رسالة تقدمت بها للجمهور على درجة
 الدكتوراه من جامعة القاهرة تحت إشراف سيادته لقيت خلال إعدادها من
 سيادته كل رعاية وعناية وحسن توجيه ، فألى سيادته أقدم شكرى وتقديرى
 وعظيم امتنانى .

والله ولى التوفيق

محمد محمد مرسى الشيخ

الإسكندرية فى سبتمبر سنة ١٩٨٠م

شوال سنة ١٤٠٠هـ

(١) أنساب الإمارات العربية

يعتبر قيام الإمارات العربية المستقلة في بلاد الشام في القرنين الخامس والسادس الهجريين (١١ ، ١٢ م) أمراً هاماً ، وحدثاً فريداً يجذب الانتباه فعلاً ، لا لأن تلك الإمارات تنسب لقبائل عربية بدوية معروفة ، ولكن لأن بروز هذا النوع من الدويلات المستقلة يعد أمراً جديداً في تاريخ المنطقة التي خضعت منذ الفتح العربي الإسلامي للحكومة مركزية واحدة ، باستثناء فترة العهد الحمداني وبعض فترات الفوضى والاضطراب .

وسيمكن للظروف التي تمخضت عن قيام مثل هذه الإمارات نصيب واف في هذا البحث دون شك ، ولكن ما يهمني الآن هو معالجة التطور الذي طرأ على الوضع القبلي ببطونه وأفعاله وعشائره ، مما أدى إلى مشاركة هذه الواحدات - بمرور الوقت - في الجوانب السياسية والحضارية. مشاركة مطردة متزايدة ، أدت إلى إقامته نظاماً ثابتة للحكم ، كانت من قبل أبعد ما تكون عن مركز تفكيره ومجال مخططاته

على أنه يجب أن نرد هذه الإمارات إلى أصولها القبلية وإلى مضاربها القديمة ولو اضطررنا إلى العودة إلى الوراء كثيراً ، في محاولة لتتبع جذور هذه القبائل ، وتلمس تاريخها القديم عبر قرون طويلة قبل قيامها بدورها الجديد في بلاد الشام في العصور الوسطى .

فن الثابت أن الإمارات الثلاث موضوع هذا الحديث يرجع نسبها إلى قبائل كبيرة مرحت في جوف الجزيرة العربية ردحا من الزمن ، وقامت

به نشاط جم فيها، قبل أن تنتقل إلى بلاد الشام لعلب دورها المثير هناك ، وتؤسس تلك الدويلات المستقلة، على الرغم من أن انتقالها إلى مسرحها الجديد لم يحدث في وقت واحد، ولم يقع دفعة واحدة ، بل حدث على مراحل زمنية امتدت أحيانا لتسفر قسرونا طويلة .

وليس من السهل تحديد زمن معين لوصول القبائل والبطون العربية إلى مسرحها الجديد ، لأن دخول البدو إلى الشام كان ظاهرة مستمرة وعادية حتى قبل ظهور الإسلام ، كما أن الصلات بين بلاد الشام ووسط وجنوب الجزيرة العربية صلات قديمة بطبيعة الحال (١) وإذا كان الفتح الاسلامي الذي حدث في القرن السابع الميلادي يبدو كما لو كان حدثا فريدا في اتساعه، فهو في الحقيقة يعد حركة طبيعية للقبائل العربية التي كانت تتجه دائما لا إلى الأقاليم الحضارية فحسب ، بل إلى الإقامة فيها أيضا (٢) .

هذا إلى أن بادية الشام التي تمتد شمالا حتى نهر الفرات ، تعد بالضرورة جزءا من المجال العربي ، وكان نزول البدو إلى الجهات الحضرية بكثير زمن الحصاد ، إذ تنتشر أغنامهم في الحقول لترعى جذور سيقان الحنطة والشعير ، فضلا عن الاستفادة من المراعى الطبيعية (٣) .

هذا إلى أن كل قبيلة لها مضاربها الصيفية وسط الحضرين أو على مقربة منهم ، ويرتبط شيخ القبيلة بعهد الأخوة ، بشيوخ القرية أو عدة قرى ...

(١) Demombynes : Muslim Institutions. P. 15

(٢) ديسو : العرب في سوريا قبل الاسلام ص ٢ (ترجمة الدواخلي ، مراجعة د.زياد)

(٣) نفس المرجع ، ص ٤

فالأخوة هنا هي العرف الذي ينظم العلاقات بين البلد والحضر . وحينما لا توجد وراء الحضري حكومة تحميه، فإن البدوي يقوم بهذه المهمة نظير منحه حرية استعمال الحقول بعد الحصاد ، ودخول المراعى الطبيعية والارتواء من الآبار ومجارى المياه ، وفي بعض الأحيان ، كان يفرض مالا على الحضري زيادة على ذلك . ولاشك في أن هذا العرف هو الذى أتاح لرؤساء البدو أن يمكنوا سلطانهم في البلاد الشامية (١)

وفي ظل هذه الأوضاع ، نستطيع فهم الدور الذى لعبته القبائل النازحة إلى وطنها الجديد ومدى ما كان يربطها من علاقات مع السكان المجاورين ، وكيف تمهد السبيل إلى ازدياد سلطة القبيلة ، فلا غرابه أن تطلع زعماء القبائل إلى إقامة إمارات ونظم للحكم ثابتة ، تسندها وتؤيدها قاعدة عريضة من أفراد تلك القبائل والبطون ورغبة أكيدة في إرساء قواعد التغيير الجديد في العالم القبلي العربى .

لكن كيف حدث ذلك لقبائل خشنة، حملت معها إلى وطنها الجديد سمات عالم قبلى حاد، وطابع مجمع بدائى متعجرف، لعل أبرز صفاته العصبية القبلية والحروب الطاحنة بين ما عرب القيسية والكلبية أو المضربة واليمنية، شى العرب الكبيرين، وهى الحروب التى فرقت العرب ردحا طويلا من الزمن، وامتصت جانبا هاما من نشاطهم قبل الإسلام وبعده، وخاصة أن تلك القبائل النازحة إلى بلاد الشام كانت تفتسب إلى كلا العصبيتين الكبيرتين ، وتحمل معها أبرز سمات المجتمع القديم ؟ فهل حدث ونام بين العصبيتين النازحتين ، وحل تفاهم بينهما أعطى كلا منهما حرية العمل فى المنطقة ، لإرساء قواعد حكم ثابت ، وتأسيس إمارة

(١) ديسو : العرب فى سوريا قبل الإسلام ص ٤

جديدة؟ أم أن ظروفنا أخرى أملت عليهم نسيان الماضي بكل ما فيه من تجارب ونبد الأساليب القديمة وسمات العهود البائدة ، وفتح صفحة جديدة في العلاقات بين الشقين الكبيرين ؟ هذا ما سوف نكشف عنه بعد قليل .

ذلك أن معظم النسابين والكتاب القدامى انفقوا على رد الأمة العربية في مجموعها إلى رجلين ، قالوا بأنحدار جماعتين كبيرتين منها كانتا أصل الأجرام العربية الكبيرة التي عمرت الجزيرة العربية جنوبها وشمالها ، وانسابت إلى بلاد الرافدين وبلاد الشام ومصر في أزمنة متفاوتة أحيانا ، متداخلة أحيانا أخرى .

وأقدم الرجلين دون شك هو قحطان ، الذي قالوا أن نسله غزوا بلاد العرب الجنوبية قبل الميلاد بعدة قرون ، وأخضعوا لحكمهم الجنس الذي يسكن تلك البقعة ، ومن ثم جرت العادة على تسمية القحطانيين باسم الينيين ، نسبة إلى أكثر أقاليم جنوب شبه الجزيرة رخاء ^(١) .

أما الشعب الآخر ، فينسب إلى عدنان ، أحد حفدة إسماعيل ، الذي يروون أنه سكن منطقة الحجاز الممتدة من فلسطين حتى اليمن ، والتي توجد بها مكة والمدينة فضلا عن نجد ^(٢) ، وسمى هذا الشعب بمعد أو نزار أو مضر أو قيس ... فقيس من ولد مضر ، ومضر من ولد نزار ، ونزار من ولد معد ^(٣) . وهكذا اكتسب الشعبان بمرور الوقت اتجاهات خاصة وعرف

(١) ر. دوزي : تاريخ مسلمي أسبانيا ، ج ١ ص ٧٦ / ترجمة د. حسن حبشي

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٢ ص ٣٠٠

(٣) دوزي : نفس المرجع ، ج ١ ص ٧٦ - ٧٧

كل منها بأسماء متعددة ، إن اختلفت في لفظها ، فإنها لم تختلف في جوهرها أو مدلولها ؛ فعرف القحطانيون باليمنيين والكليبيين ، وعرف العدنانيون بالقيسيين والمعديين والمضريين^(١) ، وارتبطت معظم التسميات بفروع هذين الشعبين الكبارين أو أقسامها الكبيرة للتعبير عن الأصل ذاته . وكانت أخبار هذين الشعبين تطفئ على ما عداها خاصة في أوقات المحن والحروب القبلية التي كانت تستشري بينهما بين الحين والحين ، خاصة بعد ظهور الإسلام واضطرارهما للاحتكاك المستمر ، مما كان ينجم عنه تضارب المصالح وقيام الحروب المروعة^(٢) .

ومن أهتم بأخبار النزاع بين العصبية القيسية والكابية ، المستشرق الهولندي ذائع الصيت «دوزي» الذي تناول في كتابه «تاريخ مسلمي أسبانيا» أصول هذا النزاع وتبعه في الجزيرة العربية ، وسار في أثره إلى شمال إفريقيا والأندلس ؛ فعلى عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، كانت القيسية تنتقل في شمال جزيرة العرب ووسطها ، وعلى شاطئ البحر الأحمر ، وعلى تخوم العراق ، وجاءت الفتوح الإسلامية فأقسم القيسيون فيها أسهاما فعالا ، واستقر معظمهم في الشمال على أطراف بلاد الشام وأطراف بلاد الرافدين ، وكان منهم معظم سكان المدينتين العراقيتين : الكوفة والبصرة .

أما العصبية الأخرى الكابية أو عرب قحطان ، فعلى الرغم من طول المدة التي انقضت منذ خروجهم من اليمن ، إلا أنهم عرفوا باليمنية ، وكان

(١) جواد علي : تاريخ العرب قبل الإسلام ج ١ ص ٢٩٢

(٢) دوزي : نفس المرجع ج ١ ص ٨٨

اشتراكهم في الفتوحات الإسلامية اشتراكاً ثانوياً ، ولهذا احتفظ الإسلام للقيسية - دونهم - بمركز ممتاز في أول الأمر ، مما أدى إلى إثارة روح البغضاء بين العصبيتين واندلاع الحروب بينهما ، هذا فضلاً عن مسئولية خلفاء بني أمية في إذكاء الحقد والضغينة بينهما لأغراض شخصية بحتة أو بسبب انتساب بعض الخلفاء منهم إلى الكلبيين من ناحية الأم ، مما كان يؤثر في روح الاعتدال ويميل بميزان الحيدة ، وبالتالي تندلع الحرب بين العصبيتين (١) .

ولا يعني هذا تنقيح تفاصيل تلك الفتن ، فهذا موضوع يخرج عن نطاق بحثنا دون شك ، ولكن يكفي القول بأن الوفان بينهما كان نادراً ، بل إن كثيراً من البطون العربية خاصة من القيسية ، فضلت ترك مسرح الأحداث في المشرق ولجأت إلى الانحراط في الجندية في المغرب ، فعبرت إلى الأندلس حاملة معها ذكريات أليمة لحروب مروعة لعل أبعدها أثراً كان موقعة « مرج راهط » سنة ٦٤ هـ ، التي هزم فيها القيسية أمام الكلبية هزيمة ساحقة ظلت ذكرها ماثلة في الأذهان فترة طويلة (٢) .

وفي بلاد الشام التي عدت مرتعاً خصباً للقبائل العربية النازحة ، سواء كان نزوحها قديماً أو حديثاً ، بقي التوتر بين العصبيتين فترة بعد ذلك ، على

ابن الأثير : الكامل ، ج ٣ ص ٣٢٨ (سنة ٦٤ هـ)

(١) دوزي : تاريخ مسلمي أسبانيا - ج ١ ، ص ٨٠ - ٨١

ابن الأثير : الكامل - ج ٣ ص ٣١٧ ،

Demombyras : op. cit. 22 — 3

(٢) دوزي : نفس المرجع ، ج ١ ، ص ٨٨

الرغم من أن حدثه أخذت تخف تدريجيا وتخبو ناره شيئا فشيئا ، ولم تأخذ الحروب بينها تلك الصورة القديمة المروعة ، وأن اقتضت على الإغارات المتبادلة والحروب المحدودة التي حدثت بعد اتساع نطاق الدولة الإسلامية شرقا وغربا ، واضطرار كثير من البطون العربية إلى الانسياب إلى أطرافها وعدم التمرکز في مناطق النزاع الأزلي بين العصبيتين . هذا فضلا عن قيام الدولة العباسية واهتمامها بإثارة الأحقاد القديمة ، ثم قيام دول مستقلة عن تلك الخلافة كان شاغلها يخرج حتما عن نطاق تارات العرب القديمة ، ونزاع العصبيتين ، ويتعدى تلك الأمور التي تحمل في طياتها معنى القـدم . هذا كله بالإضافة إلى أن العصبية الكلبيّة التي كانت لها اليد الطولى أمام بني أمية ، ضعفت بعد سقوط الدولة الأموية واضطرت بطون كثيرة تحت ضغط العناصر القيسية إلى التقهقر والانحسار إلى وسط الشام ، بعد أن أخذت تلك المناطق الشمالية من هذه البلاد للبطون القيسية (١)

على أن الأمر لم يخل من احتكاكات ومصادمات بين العصبيتين ، خاصة بعد تدفق بطون عربية كثيرة على بلاد الشام في أوائل القرن الرابع الهجري ، بطون قيسية من بني عامر بن صعصعة ، وبطون كلبية من بني كلاب بن وبرة . من ذلك ما نسمعه من اندلاع الفتن بين بني كلاب - أبرز البطون القيسية في شمال الشام - وبني كلاب القحطانيين ، وذلك على عهد سيف الدولة الحمداني ، الذي استطاع أن يحسم هذا الخلاف ويكبح جماح بني كلاب ، الذين تعهدوا بعدم الإغارة على منازل الكلبيين (٢) .

Lammens : Encyc. isl. art. "Kalb"

(١)

Mauris Canard : Hist. de la Dynastie des

(٢)

كذلك يبدو أن انفاس القيسية ، لاسيما بنى كلاب ، فى أحداث المنطقة بعدئذ وانحيازهم إلى جانب دون الآخر من الأطراف المتنازعة على ملك الشام من بقايا الأخشيديين والحمدانيين ، فضلا عن انفاسيين الباحثين عن الاستقلال ، كل ذلك كان له أثر فى شغلهم عن العصبية الأخرى ، وكان له ضلع فى تمهيد الطريق أمام عهد جديد فى العلاقات بين العصبيتين^(١) ، وهكذا حتى نلمح فى الفترة التى تعيننا فى أوائل القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) قيام تحالف بين العصبيتين وحدوث وفاق بينهما وهو التحالف الذى أسفر عن تغيير خريطة المنطقة ، وساعد على بروز الإمارات العربية المستقلة مما يعد ، أمرا جديدا ومثيرا فعلا فى تاريخ العلاقات بينها وبالنسبة لحاضر ومستقبل المنطقة بأسرها .

ثم كان أن أدى تقادم العهد بالنسبة للعصبيات القبلية بعد أربعة قرون من الهجرة ، فضلا عن التطور الطبيعى نحو الاستقرار الذى جذب كثيرا من البطون والعشائر ، وكذلك انعدام روح التجاسد وأسبابه بينها : أدى ذلك كله إلى خمود جذوة العصبية وهذوها كثيرا ، على الرغم من احتفاظ كل فريق بأبرز مكوناته وقيامه بدوره كشعب ينتسب إلى عصبية واحدة ويمثل اتجاهها واجدا .

وطبقا لهذا المفهوم ، حل الوفاق والتحالف محل الحروب والفتن ، وأدركت البطون العربية فى بلاد الشام أن مصالحها المشتركة تحتم هذا

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ١ ص ١١١-١١٢ ، ص ١١٧-١١٨

اللقبة-ارب لبلوغ الألف-راض المنشودة ، فنتج عن ذلك تحالف بين بني كلاب بقيادة صالح بن مرداس ، وهم من القيسيين ، وبين الكلبيين والعتاتيين بقيادة سنان بن عليان وحسان بن المفرج ، لاقتسام بلاد الشام سنة ٤١٤هـ (١٠٢٣م) ^(١) كما سيلي ، وهكذا نستطيع القول أن ثمة تغيرات طرأت على العالم القبلي في تلك الفترة كان من نتيجتها جنوح معظم القبائل إلى محاولة إقامة حكم مستقر في أجزاء من بلاد الشام ، مع إهمال التزمه العصبية وإحلال روح التفاهم بين عناصره ، مما كان له أثر كبير في الأحداث التي جرت في المنطقة بعدئذ .

وينتسب أصحاب الإمارة الأولى في بلاد الشام - وهم بنو مرداس - إلى بني كلاب . وبنو كلاب هؤلاء بطن من ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية ابن بكر بن هوازن ابن منصور بن خصيفة بن قيس . أى أنهم من العرب المضربين ^(٢) قال ابن خلدون : منهم بنو الوحيد بن كعب بن عامر بن كلاب ، وبنو ربيعة المجنون بن عبد الله أبي بكر بن كلاب . وبنو عمرو بن كلاب وبنو صالح بن مرداس أمراء حلب ، ^(٣)

وكانت منازلهم في أول الأمر حى ضربة وحى الربذة في جهات المدينة

Sobernheim : Encyc. Isl. art. "Halab"

(١)

ابن الأثير : الكامل ، ج ٧ ، ص ٢٦١

(٢) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر - ج ١ ص ١١٢

Kay : op. cit. P. 526-7

(٣) ابن خلدون العبر ، ج ٢ ص ٣١١ :

وفدك والموالى (١) ، أى أنهم كانوا يتجولون في المنطقة المحيطة بمدينة الرياض في وسط الجزيرة العربية ، وأهم عمل يسجل لهم هو قيامهم مع قبائل أخرى من عامر بالانتصار الحاسم على تحالف بنى ذبيان وأسد في موقعة جبلا التي غدت لدى العرب القدامى إحدى أشهر ثلاث معارك في الجاهلية (٢) .

وقد ظلوا في مضاربهم الأصلية لم يرحوها في القرون الأولى للهجرة وكان يرسل إليهم ولاة من قبل الحكومة في المدينة أو في دمشق دون معارضة منهم ، حتى نسمع أن بعا الكبير اضطرب في سنة ١٣١ هـ (٨٤٦ م) إلى القبض على نحو ١٥٠ من رجالهم بسبب ما أحدثوه من الشغب والإغارات في المناطق المحيطة بهم في نوبة حنين إلى جاهليتهم وأعمالهم القبلية القديمة (٣) ، ثم انتقلوا بعد ذلك إلى بلاد الشام .

على أن انتقالهم إلى بلاد الشام كان بداية فصل هام في تاريخهم ، على الرغم من صعوبة تحديد زمن ذلك الانتقال وتعيين وقته بالذات - كما سبقت الإشارة - فابن خلدون يشير إلى ذلك إشارة غامضة لا تعين لنا زمنا محمداً إذ يقول : « ... ثم انتقل بنو كلاب إلى الشام ، فكان لهم في الجزيرة الفراتية صيت وملك ، وملكوا حلب وكثيراً من مدن الشام ، تولى ذلك منهم

(١) أبو العدا : المختصر ، ج ١ ، ص ١١٢

جواد على : تاريخ العرب قبل الاسلام ، ج ٤ ، ص ٣٢٢-٣٢٤

عمر كحالة : معجم القبائل العربية ، ج ٣ ، ص ٩٨٩-٩٩٠

(٢) Krenkow : Encyc. art "Kilab"

(٣) Ibid : Art "Kalb"

بنو صالح بن مرداس ثم ضعفوا، (١) . . . ثم يعود في موضع آخر فيقرر أن ذلك حدث في بداية عهد الدولة الحمدانية، أي أوائل القرن الرابع الهجري (١٠ م) حيث نزحوا إلى الشام مع بطون أخرى من بني عامر بن صعصعة (٢).

وتشير بعض الدلائل إلى أن بني كلاب شاركوا بقية البطون الأخرى من بني عامر بن صعصعة في الرحيل من جوف الجزيرة إلى سهول بلاد الشام في أوائل حكم الخلافة العباسية. وفي عهد المأمون بصفة خاصة، تدفقت أعداد وفيرة منهم إلى هناك حيث استقرت في موطنها الجديد ولعبت دورها إلى جانب بقية الفروع القيسية (٣).

ويذكر المؤرخ ابن العديم أن ثمة رحيل جماعي لبني كلاب إلى بلاد الشام حدث في نهاية العهد الإخشيدى وبداية العهد الحمداني، بل أنه زاد فحدد للسنة ذاتها التي شهدت هذا التحرك الكبير فذكر أنها سنة ٣٢٥ هـ (٩٣٧ م). ويبدو أن استعمال محمد بن طهجة الإخشيد رجلاً من بني كلاب يدعى أبو العباس أحمد بن سعيد بن العباس السكلابي والياً على حلب، قد شجع بني كلاب على النزوح إلى الشمال، فشدوا الرحال إلى هناك سنة ٣٢٥ هـ في ولاية هذا السكلابي، وفي ذلك يقول ابن العديم: «وفي ولاية أبي العباس السكلابي، وردت بنو كلاب إلى الشام من أرض نجد، وأغار على»

(١) ابن خلدون: العبر، ج٢، ص ٣١٢ - أبو الفدا: المختصر ج١، ص ١١٢

(٢) ابن خلدون: العبر، ج٤، ص ٢٥٥

Kay : op. cit. P. 505

(٣)

معرة النعمان فخرج إليهم والي المعرة معاذ بن سعيد بجندته ، وتبعهم إلى البراغيتى فعطفوا عليه وأسروه وأكثر جندته ... فخرج إليهم أبو العباس أحمد بن سعيد الكلابي والي حلب فخلصه منهم وكان ورودهم في سنة خمس وعشرين وثلاثمائة (١).

ويمكن القول أن جانباً من بني كلاب كان قد رحل فعلاً إلى بلاد الشام في زمن سابق ، ربما مع حركة الفتوح الإسلامية التي أسهم فيها القيسيون إسهاماً فعالاً ، وربما قبل ذلك ، ثم تدفقت أعداد منهم إلى بلاد الشام ببداية عهد الخلافة العباسية وفي عهد الخليفة المأمون بصفة خاصة ، ثم كان تحركهم الكبير في أوائل القرن الرابع الهجري ، كما أشار إلي ذلك كل من ابن خلدون وابن العديم ، حيث كانت مشاركتهم في أحداث شمال الشام التي أسفرت عن إقامة إمارة لهم في حلب ، وتولى ذلك منهم بنو صالح بن مرداس ، الذين توارثوا تلك الإمارة أكثر من نصف قرن من الزمان كما سيلى .

وأما أصحاب الإمارة الثانية وهم بنو عمار في طرابلس ، فعلى الرغم من أنه ليس هناك شبهة في كونهم من العرب المخلصين يرجعون إلى الأرومة العربية الأصيلة ، وسيأتي ذلك من تناول تاريخهم ومن قرائن أخرى . نقول على الرغم من ذلك ، إلا أنه من المعقولة بمكان تحديد الأصل الذي انحدروا منه أو القبيلة التي ينتمون إليها ، أو حتى التأكد من أنهم عرب مشاركة أو عرب مغاربة ، كما تنور بعض الشكوك في ذلك .

(١) ابن العديم : زبدة ، ج ١ ، ص ٩٨-٩٩

ورغم خطورة هذه القضية بالنسبة لتاريخ آل عمار ، إلا أنها لم تلق اهتماماً كافياً من الدارسين ، ولم تحظ بأي نصيب من الجهد في هذه الناحية ، وكل ما قدم في هذا المجال لا يبدو رأياً لأحد المؤرخين المحدثين — برغم ما فيه من التشكك — مؤداه أن بني عمار هؤلاء ينتسبون إلى أسرة مغربية شيعية انحدرت مع الفاطميين إلى مصر فأصبح لها أن تلعب دوراً بارزاً في مصر ثم في طرابلس ، التي يذكر اسم بني عمار مقروناً بها في أوج عظمتها^(١).

وعلى الرغم من وجاهة هذا الرأي واحتمال صحته ، إلا أننا لا نرکن كثيراً للمصادر التي استقي منها هذا المؤرخ المحدث هذه الأخبار، ولا نرتاح كثيراً للمراجع التي اعتمد عليها في تكوين هذه القضية، بسبب ضآلتها من ناحية وتأخرها من ناحية أخرى^(٢) فضلاً عن أنه لم يعين لنا مؤرخاً معاصراً يحتمل أنه كان مصدر هذه الأخبار وكانها لنحكم على مدى صدقه وأصالته وقربه — أو بعده — من الأحداث . ومع هذا ، فإن أماننا نتفـاً من الأخبار المتفرقة عن بني عمار ، لا بد وأنها كانت أصل هذه القضية ومحورها .

من ذلك ماورد في تاريخ ابن ميسر من ذكر القاضي يدعى الحسن ابن عمار كان أحد رجال الدولة في عهد الحاكم بأمر الله ، وكان أحد رجلين خاطبها العزيز بالله وهو على فراش الموت في أمر البيعة لولده الحاكم

(١) Sobernheim : Encyc. Isl. art " Ibn Ammar "

(٢) أنظر Sobernheim في مقالته الي كتاب النويري « نهاية الارب » كمصدر أساسي لهذه الأخبار .

قبل أن يسلم الروح سنة ٨٣٨٦هـ^(١) ثم حين تخلف جماعة من شيوخ كتامة عن الحضور لمبايعة الحاكم ، خرج إليهم هذا القاضي المغربي فحضرُوا بعد امتناع وشكوا من عيسى بن نسطورس وسألوا صرفه وأن تكون الوساطة لرجل من المغاربة ، فندب لذلك الحسن بن عمار... فقرر الأمر بينهم وبين الخليفة^(٢) . وواضح أن الحسن بن عمار هذا كان رجلاً مغربياً رضى به بوساطته جماعة المغاربة ، وبؤكد ذلك المؤرخ ابن القلانسي ، حين يصفه بأنه كان شيخاً كتامة^(٣) .

ولعب ابن عمار هذا دوراً هاماً في الأحداث بعدئذ ، حتى أصبح محل ثقة الخليفة ، فقال له الحاكم : «أنت أمينى على دولتى ورجالى»^(٤) ، إلا أنه استبد بشئون الحكم وأكثر من المظالم ، وقدم الأحداث من المغاربة وآخر الشيوخ ف وقعت فتن بسبب ذلك ركبوا فيها للحرب غير مرة^(٥) ، وانتهى الأمر بالهجوم على ابن عمار «ونهبته دورته واسطبلاته وآل الأمر إلى انفرادها في دارة بمصر» وانتهى أمر هذا المغربي إلى النسيان «وكانت مدة نظره أحد عشر شهراً غير خمسة أيام» .

وتنقضى فترة أخرى لانسمع فيها شيئاً عن ابن عمار أو أمرة بنى عمار ، حتى يرد ذكر لقاضى آخر يدعى ابن عمار أيضاً كان قاضياً على الاسكندرية

(١) ابن ميسر : أخبار مصر ، ج ٢ ص ٥٠ (تحقيق هنرى ماسيه سنة ١٩١٩)

(٢) نفس المرجع ص ٥٣

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٤٩

(٤) ابن ميسر : أخبار مصر ، ج ٢ ص ٥٣

(٥) نفس المرجع ص ٥٥

لإبان الفتنة التي أثارها نزار بن المستنصر ضد الخلافة وهروبه إلى الإسكندرية ، وبها أفتكين الذي عاونته ، وأخذ له البيعة من أهل البلد وساعده ابن عمار قاضى الإسكندرية ، وأقاموا على ذلك سنة فخرج الأفضل من القاهرة بالعساكر سنة ثمان وثمانون (٤٨٨) فحصر الإسكندرية ، (١) وانتهى الأمر بهزيمة نزار وأسر أفتكين وابن عمار ، وجرى إعدام ابن عمار بعد اعتقاله بفترة ، ويقول أحد المؤرخين القدامى عن ابن عمار هذا أنه : كان من حسنات الدهر ، (٢) .

نلك هي الشذرات الباقية من أخبار بني عمار في القاهرة والإسكندرية ، وما استطعنا الحصول عليه من معلومات عن هذه الأسرة . فهل هي أسرة واحدة فعلا انحدرت مع الفواطم من المغرب واستقرت فروع منها في مصر ، وأخرى رحلت إلى الشام وشارك رجالها في أحداث العصر ، مرتقين سلم الوظائف القضائية ، وخاصة أن ابن عمار مصر كان قاضا ، وابن عمار الإسكندرية كان قاضيا ، وحاكم طرابلس الشامية كان قاضيا أيضا ؟ فهل هي أسرة واحدة فعلا ؟ وهل هناك علاقة بين تأييد ابن عمار قاضى الإسكندرية لثورة نزار ضد الخلافة وبين استقلال آل عمار بطرابلس بالشام ، وهو حدث يسبق هذه الثورة فعلا ؟ الحقيقة أن هذه القضية لا تزال في حاجة إلى أقوى أدلة وفي حاجة إلى قرائن أدق ولكنها على كل حال أعطتنا تعليلا لما ذهب إليه المؤرخ المحدث المشار إليه آنفا ، إذا سلمنا أن هذه الأخبار كانت أمامه وهو يكون هذا الرأى ويعالج هذه القضية .

(١) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ١٠ ورقة ٢٤٠ (مخطوط)

(٢) نسس المرجع : ص ٢٤١

ومن ناجية أخرى ، لدينا تتف من الأخبار المتفرقة عن بنى عمار
كبطن من البطون العربية الأصيلة في الشرق ، فيذكر أنهم بطن من الدواسر
إحدى قبائل بادية نجد^(١) ويذكر أيضا أنهم من أشهر قبائل الزبدية في
بلاد قعطبة بجنوبي شبه جزيرة العرب^(٢) ويذكر عنهم أيضا أنهم فرقة من بنى
سعيد ، إحدى عشائر سورية الشمالية^(٣) ، فإن صح ذلك كله ، فلا بد وأنهم نزحوا
إلى الشام كما فعلت البطون الأخرى واستقروا بها وكانوا أصل هذه الأسرة
الحاكمة في طرابلس ، فلا سبيل إلى التشكك اذن في عروبتهم ، سواء كانوا
عربا شرقيين أو عربا مغاربة ، لأن هؤلاء الأخيرين لم يكن قدمضى على انسيابهم إلى
شمال إفريقيا وقت طويل ، وفي عودهم إلى الشرق عود إلى أوطانهم وعود
إلى ديارهم السالفه . ولا يجب أن يشوب حقيقة عروبهم قول ابن القلانسي
عن ابن عمار أنه كان شيخ كتامة ، فإن كتامة ذاتها معدودة في رأى الطبرى
من قبائل حمير اليممية النازحة إلى إفريقيا ، أى من جملة قبائل العرب كما يقرر
الفاشندى^(٤) ، على أن المؤرخ ابن ميسر أغفل ما جاء بحديث ابن القلانسي
عن ابن عمار ، وعمم هذه الرئاسة ولم يعين جنس زعيمها بقوله عن ابن عمار

(١) الألويسى : تاريخ نجد ، ص ٨٩ — عمر كجالة : معجم القبائل العربية ج ٢

ص ٨٢١

(٢) نعم شعير : تاريخ سينا ، ص ٦٦٧

عمر كجالة : معجم القبائل العربية ، ج ٢ ، ص ٨٢١

(٣) وصفى زكريا : عشائر الشام ، ج ٢ ، ص ٢١٢

عمر كجالة : معجم القبائل العربية ، ج ٢ ، ص ٨٢١

(٤) الفاشندى : نهاية الارب في معرفة أنساب العرب ص ٤٠٥ (تحقيق ابراهيم

الايبارى سنة ١٩٥٩) .

المقصود أنه « رجل من المغاربة ، كما مر بنا من قبل ، وبهذا القول مبع ما سبقه إليه ابن القلانسي وعمه ولم يخصه به . وهكذا نجد أنفسنا أما أسرة عربية خالصة لا سبيل إلى التشكك في نسبها العربي الأصيل ، وسيوضح فيما بعد أبعاد وحدود هذه الحقيقة بقرائن أخرى وأدلة أدق .

أما أصحاب الإمارة الثالثة في شيزر - وهم بنو منقذ - فيردون في أصلهم إلى كنانة ، وكنانة اسم معروف لبطون عربية كبيرة وشهيرة ، وعلى الرغم من أن هناك بطون عربية وأفخاذ وقبائل تحمل اسم كنانة وتنسب إلى كلا الشعبين العظيمين المضربة واليمنية إلا أن ذلك لا يغير كثيرا من طبيعة الأمور ، ولا يؤثر في القضية ذاتها ، فالكتاب القدامى والنسابون يوردن اسم كنانة كفرع من العدنانية وكفرع أيضا من القحطانية ، فيقال إن كنانة قبيلة عظيمة من العدنانية ، وهم : بنو كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس ابن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، ويذكرون أن ديارهم كانت بجهات مكة في أول الأمر ، وأن طائفة منهم قدمت إلى مصر إبان القرن السادس الهجري ... وانقسمت كنانة إلى عدة بطون منها : قريش وعبد مناة بن كنانة ، وبنو مالك بن كنانة ، وبنو الليث بن بكر بن عبد مناة ابن كنانة ، وبنو ضمرة ابن بكر بن عبد مناة بن كنانة ، وبنو فراس بن غنم بن ثعلبة بن مالك ابن كنانة ... وكانت أغلب منازلهم بالحجاز وتهامة ووديان بين مكة والندبة ومن أشهر أيامهم يوم الفجار ، يوم مع بني هوازن ويوم مع بني عامر ابن صعصعة وفروع أخرى من المضربة ولهم وقعات معروفة مع خزاعة (١) .

(١) البلاذري : أنساب الأشراف ج ١ ص ٣٧-٣٨ (تحقيق د. محمد حميد الله)

الطبري : تاريخه ج ٢ ص ٢٤ (طبع القاهرة ١٩٣٩-١٣٥٨)

كما ذكر أيضا أن كنانة بطن من تغلب بن وائل من العدنانية^(١) ويقول ابن خلدون عنهم أنهم بنو كنانة بن خزيمة بن مدركة بن خندف بن إلياس بن مضر، ويجعلهم إخوة بني أسد، ويقول إن ديارهم بجحات مكة وإن غيهم بطونا كثيرة أشرفها قريش وهم بنو النضر بن كنانة... ثم بنو عبد مناة بن كنانة وبنو مالك بن كنانة^(٢)... ويبدو أن أخبار قريش بالذات طغت على أخبار الفروع الأخرى من كنانة لأن شرف البحث في عمود النسب الكريم نسب الرسول صلى الله عليه وسلم قد طغى على أخبار البطون الأخرى.

على أنه من الثابت أن منازل كنانة في بداية العهد الاسلامي كانت تمتد من تهامة جنوب غرب مكة حتى شمال شرقها في الأراضي المتاخمة لمنازل بني هذيل حيث تآخروا لإخوتهم بني أسد بن خزيمة^(٣)

ولم تغلب كنانة دورا هاما في التاريخ باستثناء ما قامت به قريش من الاستحواذ على حكم مكة من قبيلة خزاعة^(٤)، ولم يقض دور كنانة

= ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ١٠-١١ (تحقيق عبد السلام هارون)
 الهمداني : صفة جزيرة العرب ص ٥٤ (تحقيق محمد النجدي مهر ١٩٥٣)
 القلقشندي : صبح الأعشى ج ١ ص ٣٥٠-٣٥١ ، نهاية الارب ص ٤٠٨-٤٠٩
 (تحقيق الايواري)

(١) ابن منظور : لسان العرب ج ١٧ ص ٢٤٣ (طبع بولاق سنة ١٣٠٣ هـ)

الزبيدي : تاج المروس ج ٩ ص ٣٢٤ (طبع بيروت)

القلقشندي : نهاية الارب ص ٤٠٨-٤٠٩

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٢ ص ٣٢٠ ، القلقشندي : نهاية الارب ص ٤٠٨-٤٠٩

(٣) Kre.kow : Encyc. Isl. art "Kinaana"

(٤) جواد علي : تاريخ العرب قبل الاسلام ج ٤ ص ٣٣٦-٣٣٧

بفروعها وبطونها في بداية العهد الإسلامي، لكن أحد بطونها وهم بنو فراس كانوا من دعائم جيش علي بن أبي طالب في وقعة صفين، ويأتي ذكر الكنانيين في حوالات الطبري في عام ٢٣٠هـ^(١) حينما كانوا لا يزالون يعسكرون قرب مكة، ولكنهم كانوا من الضعف بحيث لا يستطيعون مقاومة إغارات القبائل التي غدت أكثر قوة، ولم تنزل بقاياهم معكسة في أراضي حوران وقرب صرخد^(٢).

هؤلاء هم بنو كنانة العدنانيون، وواضح أنهم كانوا يمثلون فرعاً كبيراً من العرب المضربين الذين استقروا في جوف الجزيرة العربية، والذين ينتسب إليهم عمود النسب الشريف، نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أما بنو كنانة الذين يرد ذكرهم على أنهم بطن من القحطانيين، فيذكر أنهم بنو كنانة ابن بكر بن عوف بن عذرة بن زيد اللات بن رفيدة بن ثور ابن كلاب بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة، ويذكر أن بعضهم ورد إلى مصر وكانت مساكنهم بشرقي الدلتا في القرن التاسع الهجري^(٣)... ويرد ذكر الكنانية على أنها عشيرة تنزل بمنطقة عجلون من مكان قريبة سمر شرق الأردن^(٤)، ويروي باقوت الحموي

(١) الطبري : تاريخه ج ٧ ص ٣٢٧ (سنة ٢٣٠ هـ)

(٢) Krenkow : Encyc. Isl. art. " Kinana "

(٣) ادون: العرب ج ٢ ص ٢٤٨ ، الزويدى : تاج المروس ج ٩ ص ٣٢٤

القفاشدى : نهاية العرب في معرفة أنساب العرب ص ٤٠٨-٤٠٩

أحمد الحى السيد : قبائل العرب في مصر : ج ١ ص ٥٠

(٤) بيك : تاريخ شرق الأردن وقبائلها ، ص ٣١٦

عمر كماله : معجم القبائل العربية ج ٣ ص ٩٩٨

عن أبي عبيد السكوفي أن دومة الجندل ، حصن وقرى بين الشام والمدينة قرب جبلى طى . كانت به بنو كنانة بن كلب ، ^(١) وهذه الروايات الأخيرة تجل من كنانة فرعا من العرب القحطانيين أى العرب الجنوبيين أى أن هؤلاء الكنانيين يردون إلى العصبية اليمنية ويضعون ضمن العرب الكلبيين .

فتحن إذن أمام اتجاهين بالنسبة لنسب الكنانيين ، اتجاه يجعلهم عربا شماليين مضربين ، وآخر يجعلهم عربا يمنيين كلبيين .

وليس من شك فى أن ذلك يضع الباحث فى مقابلة من التكمينات بالنسبة لنسب آل منقذ ، الذين يردون إلى هؤلاء الكنانيين ، وخاصة أن الميل إلى هذا الاتجاه أو ذاك تسنده وتؤيده شواهد مختلفة وقرائن متعددة . فالقيسية أو العدنانية كانت دون شك أكثر مشاركة من القحطانية فى حركة الفتوح الإسلامية — كما سبقت الإشارة — وكانت بطونهم — أكثر انتشاراً على مسرح الأحداث وأكثر أثراً فى جهات الاستقرار الجديدة خاصة فى بلاد الشام ... حقيقة أن الحروب بينهم وبين الكلبيين أدت إلى تفرق الكثير منهم وهربه من سيوف الكلبية أيام بنى أمية ، إلا أننا نسمع عن تركز جانب كبير من القيسيين بقيادة زعيمهم زفر بن الحارث الكلابي شرقى جند قنسرين فى قرقيساء التى غدت بالتدريج معسكراً للقيسيين المناهضين للكلبيين ^(٢)

(١) ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٦٢٦

(٢) دوزى : تاريخ مسلمى أسبانيا ج ١ ص ٩١

ان الاخير: السكامل ، ج ٢ ص ٣٢٦ (سنة ٤٠ هـ)

وقرقيساء على نهر الفرات عند قدم الحايوز : Kay : op. cit. P. 503

كل هذا يضع الباحث في حيرة من أمره ، ربما تصرفه من حجم هذه المسألة ، وتناهى به عن جوهرها ، إذا لم يكن معنيا عناية تامة بإبراز نسب آل منقذ ، مصرأ على تتبعه والوصول به إلى نتيجة حاسمة ، ولعل ذلك مما حدا بالكتاب المحدثين إلى الإحجام عن الخوض في هذا الموضوع وعدم إعطائه أى قدر من الاهتمام ، حتى أولئك الذين كتبوا عن أسامة بن منقذ وآل منقذ بحوثا ضافية ، سواء في الشرق أو في الغرب (٣) ... فباستثناء

(۲) ابن القلافی : ذیل ص ۴۳ ، ص ۹۶

(٣) فيايب حتى: مقدمة كتاب الاعتبار لأمامة (برنتون، الولايات المتحدة سنة ١٩٣٠)

Derenbourg : vie d' Ousama. P. 499

cl. Huart : Ousama Ibn Mounkid

Journal Asiatique (1890) P. 504

Honing nann : Encyc. Isl. art. "Shaizar" أور

إشارتين سرّيتين لكنايين محدّين ذكرنا فيهما انتساب آل منقذ إلى كنانة الكلبين دون إيضاح لذلك أو ذكر للمصادر التي استقيا منها هذا النسب^(١)، لا نجد بين أديبنا من اهتم برد آل منقذ الكنايين إلى أصولهم الأولى أو حاول في جديّة تجميع نسبهم .

وليس برسمنا نحن أن نترك هذه القضيّة دون تحديد لا نقطع فيها برأي، خاصة وأنّ بين أديبنا العديد من الروايات القديمة الموثوق بها والأخبار الصحيحة التي نطمئن عليها . من ذلك ما أورده الحمّداني حين قال : « وما وقع في ديار كلب من الفرج تدمر وسلمية والعاصمة رحمن . . رحمة وشيزر وكسر طاب لكناية من كلب »^(٢) ، وما ذكره الحمّداني ونقله عنه القلقشندي في نهاية الأرب إذ قال : « وقد ذكر الحمّداني أن بشيزر من بلاد حاب يوم من بني كلب وبحاب بنسب قوم من بني كلب أيضا »^(٣) . وقد أبدى معظم المؤرخين وكتاب الأنساب هذه الروايات وعدها قرا عليها ومنهم ابن خلدون والنويري والقلقشندي^(٤) ، وهكذا خُطت بها هذه التسمّوص خطيرة أولى حين قررت أن سكان شيزر وما حوّلها من كنانة الكلبين

(١) زامباور : معجم الأنساب والأسرات السامية ج ١ ص ١٦٥

طاهر النعماني : أسامة بن منقذ ص ٤ (حاة سنة ١٩٢٩)

(٢) الحمّداني : حفة جزيرة العرب ص ١٢٩ - ١٣٢

(٣) القلقشندي : نهاية الأرب ص ٤٠٨

(٤) ابن خلدون : العبر ج ٢ ص ٢٤٩ ، النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب ج ٢ ص

٢٩٥ القلقشندي : صبح الأشمى ج ١ ص ٣١٦

Lammens : Encyc. Isl. art « K-lb »

وليسوا من كنانة القيسيين . لكن أياً من هذه النصوص لم ينص صراحة على نسبة منقذ الكنانى إلى هؤلاء الكلبين المشار إليهم حتى قطع ابن عساكر — وهو معاصر لبني منقذ — الشك باليقين ، فنص على انتساب بني منقذ إلى قضاعة في ذكره لنسب أبي العساكر سلطان ابن منقذ ، أى أنه رد بنى منقذ إلى كنانة الكلبين (١) وأؤكد سبط ابن الجوزى ذلك حين أمدنا بمعلومات عن نسب سيد الملك أبو الحسن على بن منقذ، فنص صراحة على أنه من عرب قحطان ، أى أنه ينتسب إلى كنانة الكلبين (٢) ، وأؤكد ابن خلكان في ترجمته لأسامة ابن منقذ نسبة منقذ الجد الأول لأسامة للكنانين بن بنى كلب ، وفضلاً عن أن ابن خلكان محدود في ثقافة المؤرخين وكتاب التراجم فإنه أشار إلى اعتماده في هذه الأخبار إلى مصادر متقدمة زمنياً . فزاد اطلاعنا وثقتنا فيما أورده (٣) .

وهكذا ثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن بنى منقذ أصحاب الإمارة المشاة في هذا الموضوع يردون إلى أصل قحطاني ويرجعون إلى عصبية كلبية ، ومن ثم غداً لزاماً علينا تناول هؤلاء الكلبين بالدراسة ما داموا هم الأصل الذى انحدر منه بنو منقذ الكنانيين . وقد كانت منازل هؤلاء الكلبين في أول الأمر — كما تحدثنا النصوص — هي دومة الجندل وتبوك وأطراف بسلاد للاسلام ، ومع أن الشك يكثف كثيراً من أخبار الكلبين قبل الإسلام ، إلا

(١) ابن عساكر : تاريخ دمشق ج ٦ ص ١٨٧ (دمشق سنة ١٢٤٩ هـ)

(٢) سبط بن الجوزى : مرآة ج ١٠ ورثة ١٠٦

٣ نسب ابن خلكان هذه الأخبار إلى أبي البركات — المستوفى في تاريخ ابريل ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ١٧٥ ، ١٧٨ (تدقيق محمد بنى الدين عبد الحميد)

أن البلاذري ذكر أن بطونا من قضاة استقرت في بلاد الشام قبل الإسلام. واعتنق بعضهم النصرانية حتى دعاهم أبو عبيدة إلى الإسلام فأسلم البعض وأقام البعض الآخر على نصرانيته^(١). ومع ظهور الإسلام وبداية عهد الهجرة، غدا بنو كلب أكثر البطون العربية أهمية في بلاد الشام وأكثرها قوة وجاها، ولم ينتصف القرن الأول الهجري حتى أصبح لهم اليد الطولى هناك خاصة بعد مصاهرتهم الخليفة الأموي معاوية ابن أبي سفيان، وتردد في النصوص تخصيص نحو ألف درهم لأشرافهم من ديوان العطاء، فزاد جاههم وانتشروا بقطعاتهم وأماكن إقامتهم على امتداد السامرة وبين العراق وبلاد الشام فتسببت لهم كثير من الأماكن، فقبل سحابة بني كلب، وصحراء بني كلب، وفي قلب الشام تركز كثير منهم حول سلمية وتدمر وإقليم حمص — كما مر بنا وفي وادي نهر العاصي الأدنى وفي غوطة دمشق، ويبدو أن جانباً من اهتمامهم انصب على السيطرة على طرق النقوافل والتجارة عبر هذه البلاد، وبذلك يكونون قد ورثوا الفساسة من العرب القدماء ذائعي الهبة^(٢).

على أن تحركات هؤلاء الكلبيين بعدئذ ارتبطت بمسألة نزاعهم الدائم مع القيسيين، لاذ زاد انتصارهم في مرج راهط من قبل نفوذهم وسلطانهم، لكن تحرق القيسيون بعد ذلك للأخذ بالنار والانتقام، مما كلف بني كلب كثيراً، فقد نجح القيسيون في طردهم من أطراف العراق كلية، وبسقوط الدولة الأموية لم يستطع بنو كلب الحفاظ على مكاسبهم القديمة، إذ نظر إليهم

(١) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ١٧٢ (تحقيق المنجد سنة ١٩٥٣)

(٢) Lammans : Encyc. Isl. art. «Kalb»

Kay : op. cit, p. 503

العباسيون نظرة شك وريبة بوصفهم دعاة العهد البائد ، ومن ثم بدأ نجمهم
 يأفل شيئاً فشيئاً ، وأزدادت رغبتهم في الحركة بمرور الوقت ، حتى ليذكر
 ابن سعيد أن كثيراً من دشائهم رحلت بعدئذ بعيداً ، فأستقر بعضها على
 شاطئ القسطنطينية (١) ، وهكذا بدأت موجاتهم تنحسر مندفعة إلى أواسط
 بلاد الشام بعد أن أخلت المنطقة للبطون القيسية المناهضة ، وغدت بلاد الشام
 ينتظمها من شمالها إلى جنوبها : بنو كلاب في الشمال ، وهم من البطون القيسية ،
 ثم بقايا هؤلاء الكلابيين في الوسط ، ثم بنو طيء في الجنوب وهم كلابيون
 أيضاً ، وكان أن أسفرت الأحداث السابقة عن قيام هذا الوضع ابتداء من
 المرحلة التي تهمنا في أوائل القرن الخامس الهجري وأبانة عن هذا التوزيع
 القبلي الجديد الذي ستردد ذكره كثيراً في هذا البحث ، والذي نجمه نتيجة
 للأوضاع سالفة وحصاد أحداث طويلة في القرون الأربعة الأولى للهجرة .

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١ ص ٣١٦

(٢) شمال سوريا ومراكز

الإمارات العربية

لعله من الأوفق قبل أن نمضى فى عرض تاريخ هذه الإمارات ، أن نعالج - من الناحية الطبوغرافية - المسرح الذى دارت عليه الأحداث وجرى فيه التاريخ ، والأرض التى شهدت مولد هذه الدويلات العربية وشهدت نهايتها أيضاً .

لنس هناك شك فى أن جغرافية تلك المنطقة أسهمت إلى حد بعيد فيما شهدته من ظهور لون من الاستقلال الذاتى ، غذته وأتمته عناصر طبيعية وأخرى بشرية وساعدت على استمراره فترات متقطعة أو متصلة أو متداخلة أحياناً عبر التاريخ الطويل لتلك البلاد .

ويمثل مسرح الأحداث التى سنعرض لها خلال هذا البحث منطقة شمال سوريا ، يحددها لنا فى الجنوب خط أقرب إلى القوس ، جوفه إلى الشمال ، محتويًا جانبًا كبيرًا من بادية الشام ، ثم يصل إلى بعلبك وينتهى عند ساحل البحر المتوسط قرب بيروت ، وسوف لا نتعدى هذا الخط إلى الجنوب تقريبًا ، إذ تمثل بعلبك أقصى نقطة امتدت إليها أملاك إمارة حلب فى عهد المراداسيين ، كما تعتبر منطقة بيروت أقصى أملاك إمارة طرابلس جنوبًا فى عهد بنى عمار .

وفى التقسيمات العسكرية والإدارية التى استحدثها المسلمون الأوائل فى بلاد الشام ، عرفت هذه المنطقة بمجند حمص ، واعتبرت قسم قائم بذاته مثل مجند

دمشق وغيره من الأجناد ، إلا أن جند حمص هذا تعرض للتقسيم من جديد في فترات لاحقة ، فقام يزيد بن معاوية بفصل ماعرف بجند قنسرين عنه ، وقام بعدئذ الخليفة هارون الرشيد بفصل جند العواصم من كل منها^(١) ، فأضحى شمال الشام ينظمه ثلاثة أجناد أو ثلاثة تقسيمات إدارية وعسكرية ، هي جند حمص ثم جند قنسرين ، ثم أجزاء كبيرة من جند العواصم .

ومع ذلك ، فهناك اختلاف واضح لدى الجغرافيين والرحالة القدامى في حدود وأبعاد هذه الأجناد والأماكن التابعة لكل منها ، ولاسيما إلى الاعتماد على الروايات القديمة في هذه الناحية فبعض الأماكن التي يوردها جغرافيون على أنها تابعة لجند حمص ، نجدها لدى غيره تابعة لجند قنسرين^(٢) ، ولا يهملنا الالتزام بحدود وأبعاد هذه الأجناد ، بقدر ما يهملنا رسم الملامح الطبوغرافية للمناطق التي شهدت حكم الإمارات موضوع البحث .

ويمكن إجمال الصورة العامة لمنطقة شمال الشام كلها ، ورسم ملامحها البارزة وخطوطها العريضة ، قبل المضي في عرض تفاصيلها والتعرض لمذنبها

(١) ياقوت : معجم البلدان ، ج٣ ص ٧٤٢ (طبع وستنفلد سنة ١٨٦٨)
البلاذري : فتوح البلدان ، القسم الأول ، ص ١٧٤-١٧٩ (نشر د. صلاح الدين المنجد) ،
Canard : op cit. p. 204

(٢) اليعقوبي (ت ٢٨٤ هـ) : البلدان ، ص ٣٢٥-٣٢٧ (طبع بريل ١٨٩٢ م)
ابن خردادبة (ت ٣٠٠ هـ) : المسالك والممالك ص ٧٥-٧٦ (نشره De Geoe)
الأصطخري (ت للنصف الأول من القرن ٤ هـ) : المسالك والممالك ص ٤٦ (تحقيق
د. جابر الجيبي سنة ١٩٦١) ، المقدمي (ت ٣٧٥ هـ) : احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم
ص ١٥٤ (طبع لندن ١٩٠٦ م) ، ابن حوقل (ت نهاية القرن ٤) : صورة الأرض ص ١٦٢ /
١٩٦٣ (طبع بيروت ١٩٦٤)

وحصونها وقراها ، فالمنطقة التي نهمننا على وجه الخصوص ، وهي الواقعة بين مجرى نهر الفرات شرقا وساحل البحر المتوسط غربا ، تتسع قاعدتها في الجنوب باتجاه نهر الفرات نحو الشرق وانحسار شاطئه البحر نحو الغرب ، ويحدها شمالا سلسلة المرتفعات التي تمثل منابع الأنهار المتجهة إلى الجنوب ، والتي أهمها نهر قويق ، الذي يمر بحلب ويصب في منخفض المناخ جنوبى قنسرين ، وكذلك نهر عفرين الذي يصل إلى منخفض العمق وبحيرة العمق شمال غرب أنطاكية ، وكذلك بعض روافد نهر الفرات التي تلتحق بالنهر مترادفة ، أحدها نهر الساجور الذي يصب في الفرات شمالى جسر منبج ، وهناك نهر العاصى الذى ينبع من وسط الشام ويمجرى شمالا مارا ببعض المدن الشامية الشهيرة أمثال حمص وحماه وشيزر ، وقرب مصبه تقع أنطاكية ، وهناك كذلك النهر الكبير الذى ينبع من السفوح الجنوبية لسلسلة الجبال الغربية التي تضم جبل النصيرية ، ويصب في البحر شمالى طرابلس . أما المرتفعات ، فهناك سلسلة الجبال الساحلية التي يفصلها عن شاطئ البحر سهل ساحلى ضيق ، وتتجه هذه السلسلة في الاتجاه الجنوبي الشمالى إلى الغرب من مجرى نهر العاصى حتى أنطاكية ، تقطعها بعض الممرات واللاجوات التي يمكن عبورها أو اجتيازها ، وتبدأ سلسلة أخرى شمالى أنطاكية تسير محاذية للساحل حتى شمال الإسكندرونة ، هذا بخلاف مجموعات المرتفعات والجبال المتفرقة منها في الغرب أيضا جبل الوسطاني الموازى للسلسلة الغربية ، وجبل الأعلى الواقع إلى الشمال منه ، وكلها تقع إلى الشرق من مجرى نهر العاصى وجبل سمعان الواقع إلى الشمال قليلا بين مجرى نهر قويق ومجرى نهر عفرين ، وفي أقصى الشرق وفي جنوب غرب قنسرين وجنوب شرق بالس ، هناك جبل غبيث وجبل الأحص ، وتقطع هذه المساحة مجموعة من الطرق الهامة التي تربط

أهم المدن السورية بعضها ببعض ، وتصل بين أهم المراكز العمرانية في شمال الشام : بين حلب وقنسرين وحماة وحمص ، وبين حلب وأنطاكية ، وبين حلب وقنسرين وسامية وتدمر على حافة صحراء الشام التي ضمت مجموعة من المراكز كانت نقاط عبور للقوافل والرحلات الصحراوية بين الشام والجزيرة العربية .

والمعروف أيضا أن المدن الشهيرة كحلب وأنطاكية وحمص وحماة وشيزر وقنسرين ومدن الساحل أمثال اللاذقية وجبلة وبنياص ومرقية وأنطارطوس وطرابلس ورجيل وبيروت، مدن قديمة معروفة لاهمنا منها سوى الإلام بتفاوت ازدهارها أو انحطاطها في الفترة التي تعيننا . أما فيما يخص الأماكن والحصون والقلاع التي سيرد ذكرها في الصفحات التالية ، فقد تحققنا من وجودها في نهاية القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) ومطلع القرن الحادي عشر (الخامس الهجري) وذلك برواية الرحالة والجغرافيين العرب كاليعقوبي ابن خردادبة والإصطخري والمقدسي وابن حوقل وغيرهم . ويمكن التجاوز عن بعضها بالحذف والإضافة طبقاً لما لدينا من معلومات أخرى وطبقاً للروايات التي تعود إلى الفترة الزمنية اللاحقة ، لكننا نستطيع أن نقرر - مطمئنين - أن طوبوغرافية هذه المنطقة لم تتغير كثيراً إبان الفترة الزمنية التي تعيننا ، ويمكن الاعتماد إلى حد كبير على ما لدينا من معلومات عنها منذ نهاية القرن العاشر الميلادي في أواخر أيام الدولة الحمدانية ، ومع هذا فلدينا معلومات هامة عن هذه المنطقة من رحلة وجغرافيين عاصروا المرحلة التي تهمنا بالذات ، أو جاءوا بعدها بقليل ، أمثال الرحالة ناصر خسرو الذي زار بلاد الشام سنة ١٠٤٧ م وقدم معلومات طيبة عنها في كتابه "سفرنامه" ، وكذلك الرحالة الإدريسي

المولود سنة ١١٠٠م (٥٤٩٣هـ) ، والذي عاش في النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي ، وكذلك ياقوت الحموي المتوفى سنة ١٠٢٩م (٥٢٦هـ) ، وابن جبير الذي عاش في القرن الثاني عشر الميلادي وقام برحلة بين عامي ١١٨٢ — ١١٨٥م (٥٧٨ — ٥٨١هـ) ومن جاء بعدهم أمثال ابن الشحنة والعمرى وغيرهم من اهتم بأخبار هذه المنطقة ، مما يجعل تفاعلنا لهذا الممرح أكثر دقة ومعلوماتنا عنه أكثر تفصيلا . (١)

جند حمص :

إذا أرجأنا الحديث عن المدن الساحلية الواقعة إلى الجنوب من مصب النهر الكبير ، وهي التي اعتبرها أغلب الكتاب العرب تابعة لجند دمشق ووسط الشام ، نجد على الساحل شمالي مصب ذلك النهر مجموعة من انوائى والمدن الهامة ، أولها أنطارطوس التي كانت إبان صدر الإسلام تمثل أهم النفور في جند حمص ، تحيط بها أسوار شاهقة وتحصينات قوية (٢) وأخذت اسمها هذه

(١) الفترة التي شهدت حكم الامارات الثلاث موضوع هذا البحث امتدت نحو اربع ونصف من الزمان وشهدت مرحلة دامة من تاريخ الحروب الصليبية ، كما أن الامارات الثلاث ضمت مساحات في شمال الشام متناوثة الكبر تردد اسم كثير من مدنها الصغيرة وقرىها وحصونها كتتابع لتلك الامارات ، رأينا لزاما علينا التحقق منها والتأكد من وجودها في تلك الفترة لاعطاء الامارات أبعادها ، ملتزمين في ذلك بالنقائبات الادارية والعسكرية الاسلامية .

(٢) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ١٦٣

الأدرسي : وصف الشام . من كتاب نزهة اللهاق في الختراق الاقلاق ص ١٤ — ١٥

نشره Ro en Muller

في عهد الحروب الصليبية وهي طرطوس الحالية ، ثم إلى الشمال منها نجد مرقية ، التي وصفها ياقوت الحموي بأنها كانت محصنة أيضاً مثلما كانت جبلة وأنطرطوس منذ عهد معاوية بن أبي سفيان (١) وبلى مرقية شمالاً بانياس وهي لأحدى الموانئ الهامة أيضاً على ساحل البحر ، وثمة ميناء هام آخر في جند حمص هو جبلة ، على الرغم من أن ابن حوقل ذكره على أنه ضمن جند قدسرين (٢) . وقد استولى البيزنطيون على جبلة سنة ٣٥٧ هـ (٩٦٨ م) بعد وفاة سيف الدولة الحمداني ، وظلت بأيديهم حتى سنة ٤٧٣ هـ (١٠٨٠ م) حين وثب عليها قاضيهما ابن صليحة فاستولى عليها مستعيناً بابن عمر صاحب طرابلس ، فجاءه منها مال عظيم . . . أما اللاذقية فكانت ثغراً بحرياً هاماً لتلك المنطقة ، وتقع في أطراف جند حمص (٣) .

وقد غطى السفح الغربي لجبل النعيرية في عهد الحروب الصليبية بالقلع والحصون التي أفتسمها الفرنج والإسماعيلية ، وكان بعضها دون شك موجوداً في نهاية القرن العاشر الميلادي وأوائل القرن الحادي عشر . فعلى نحو ٣٥ كيلو متراً إلى الشرق من أنطرطوس على جبل الخليل ، كانت تقع قلعة الصفيح التي سميت مؤخراً ، حصن الأكراد أو قلعة الحصن ، وقد أقيمت هذه القلعة مكان قلعة قديمة في الجنوب الشرقي من البقعة التي يمر بها طريق طرابلس -

(١) ياقوت : معجم البلدان ج٢ ص ٢٥-٢٦ ، البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٠٠/٢٠١ .

(٢) ابن حوقل : صورة الأرض ص ١٦٤ .

(٣) ياقوت : معجم البلدان ج٢ ص ٢٥/٢٦ ، المتقدمي : أحسن التقاسيم ص ١٥٤ ،

Le Strange : Palestine under the Moslems, p 453-60

حصن ، وذكرت في بعض قصائد أبي فراس في معرض وصفه لعملية تتبع
بني كلاب من عرقة حتى كفر طاب ، كما جاء ذكرها في إحدى الحملات
العسكرية البيزنطية سنة ٩٨٣ م (١)

أما حصن مصيف ، بين أنطوطوس وحماء وعلى بعد متساوى بينهما ،
فنسمع عنه قبل نهاية العاشر الميلادي ، وكان هذا الحصن تابعاً لإمارة شيزر
وبني منقذ حتى سنة ٥٣٤هـ (١١٤٠م) حين استولى عليه جماعة من الإسماعيلية (٢)
أما حصن الخوابي على بعد نحو كيلو متر إلى الشمال الشرقي من أنطوطوس
فجاء ذكره عند المقدسي وقال الإدريسي عنه أنه « منيع وأهله حشيشية خوارج
عن الإسلام » (٣) وقد كان هذا الحصن تابعاً لإمارة بني عمار في طرابلس على
عهد فخر الملك أبو علي بن عمار ، وقد أمر فخر الملك بسجن ابن عمه أبا
المناف سنة ٥٠٢ هـ في هذا الحصن ، وإلى الجنوب من مصيف وجدت قلعة
رفنية التي نعرفها من ابن خرداذبة وهي لا تزال قائمة حتى اليوم ، وجاء ذكرها
في العمليات العسكرية البيزنطية في نهاية القرن العاشر الميلادي ، وفي نفس
المنطقة ، تقع بعربن ، وهي Monteferrand عند الصليبيين ، وكذلك
العوج وكل الإقليم الواقع بين مصيف في الشمال والبقعة في الجنوب نعرف
ملاحمه من ابن خرداذبة وياقوت (٤)

Canard : op. cit. P. 206

(١)

(٢) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ص ١٥٥

(٣) المقدمة : أحسن التقاسيم ص ١٥٤ ، الإدريسي : نزهة المشتاق ص ١٤/١٥

(٤) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ٧٦ ، Canard : op. cit. p. 203

وعلى السفح الشرقى لجبل النصيرية عند الطرف الشمالى للغاب يقع حصن أبو قيس الذى عرف خلال الحملات البيزنطية فى القرن العاشر ، وتدل آلا هذا الحصن إلى بنى منقذ فى شيزر ، وإلى الشمال الشرقى من اللاذقية تقع قلعة صهيون المشهورة أيام الحروب الصليبية باسم Saone وكانت معروفة سنة ٥٣٦٤ (٩٧٥ م) (١)

أما فيما يختص بحمص ، فقد سجل كل من المقدسى وابن حوقل اضمحلال هذه المدينة بعد الضربات التى تلقتها على أيدى البيزنطيين ، خاصة فى عامى ٥٣٥٨ (٩٦٩ م) ، ٥٣٧٣ (٩٨٣ م) ، ولذلك يبدو أنها لم تكن فى نهاية القرن العاشر وأوائل القرن الحادى عشر ذات أهمية كبيرة ، يدل على ذلك لهجة ابن حوقل فى حديثه عنها لاذيقه — « ول : وكانت أيام عمارتها صحيحة الهـواه من أصبح بلدان الإسلام تربة » ، وواضح أنه يتحدث عنها حين كانت عامرة من قبل ، لكن يبدو أنها أخذت تستعيد مكانتها بمرور الوقت ، لاذ اتخذها بعض أمراء حلب مقراً له كما سيلي ، وزارها ابن جبير بعد ذلك فوصفها وصفا يدل على عظمتها (٢) .

أما حماء ، فتقع على الطريق الذى يؤدى شمالاً إلى معرة النعمان وكفر

(١) ياقوت : معجم ج ٣ ص ٤٣٨ ،

Canard : op. cit. p: 30

(٢) ابن حوقل : صورة الأرض ص ١٦٢ ، ابن جبير : الرحلة ص ٢٤٥/٢٤٦ تحقيق

ده حسين نصار ، Le Strange : op. cit. P. 353

العمري : مسالك الأقطار ج ٢ مجلد ٣ ورقة ٤٤٤/٤٤٥ (مصورة)

طاب وقنسرين وحلب ، وكانت مدينة صغيرة في نهاية القرن العاشر ، لكنها مع ذاك كانت لطيفة متمعة كما يعفج من وصف ابن حوقل وابن جبير لها . لكن من الواضح أن حماه وسابقتها حصص وكذلك شيزر لم تكن مدناً كبيرة في القرن الحادي عشر ، على الرغم من أن هذه المدن كانت ركناً أساسياً في إمارة بني مرداس قبل أن تصبح شيزر مقراً لإمارة مستقلة لبني منقذ بعد ذلك (١)

وعلى طرفين آخرين حماه وقنسرين ، تقع تل مذس قرب معرة النعمان ، وعلى بعد يسير منها ، أما معرة النعمان نفسها فقد كانت أيام المرادسيين مدينة هامة زارها الرحالة ناصر خسرو قرب منتصف القرن الحادي عشر الميلادي (رجب سنة ٤٣٣ هـ / يناير سنة ١٠٤٧ م) فكذب عنها أنها مدينة شامسة لها سور عظيم « ورأيت أسواق معرة النعمان وافرة العمران » بني مسجدها الجامع على مرتفع وسط المدينة ، وكان سكانها يزرعون القمح ونخيلها شجر روفير من الذن والريثون والمستق واللوز والنخيل ومياه المدينة من المنظر والآبار (٢)

أما شيزر ، فهي مدينة قديمة تقع على نحو خمسة عشر ميلاً إلى الشمال من حماه ، على أكمة صخرية منتصبة على ضفة العاصي الغربية ، ياتف حولها نهر

(١) ابن حوقل : صورة الأرض ١٦٣

ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٤٣ - ٢٤٤

(٢) ناصر خسرو : سفرنامه ، ص ١١ (ترجمه د. يحيى انشاه)

باتوت : معجم ج ٤ ص ٥٧٥

ابن جبير : الرحلة - ص ٢٤٣ - ٢٤٤

العاصي من ثلاث جهات . فهي إذن شبه جزيرة منيعة ، زاد من مناعتها حفر
خنادق في الصخر أوصل بين شبه الجزيرة والبر ، مما يجعل الوصول إليها
أمراً متعذراً (١)

وكانت شيزر ضمن جند حمص (٢) وعلى النقيض ، قسم منها كان يقع ضمن
القلعة على الرابية هو البلد ، والقسم الآخر كل يقع قرب الجسر على
العاصي وعلى المسببة ، وكان للقلعة ثلاثة أبواب أهمها يفتح نحو الجسر ، وحين
آلت شيزر إلى بني مقذ على يد سيد الملك ابن منقذ سنة ١٠٨١ ، غدت شيزر
من كراهاة و نواة لإمارة صغيرة ضمت على عهد عن الدولة أبو المرحف نصر
ابن مقذ — خليفة سيد الملك — كلا من أقامية وكفر طاب والادقية (٣)

وفي شمال غرب شيزر ، ليس بعيداً عن مستنقع الغاب ونهر العاصي الذي
يجري بعد خروجه من شيزر من الغرب إلى الشرق ، توجد قلعة أقامية التي تقع
في شرقي مجراه الذي يعود إلى الاتجاه نحو الشمال من جديد ، وتقع أقامية
هذه أسفل جبل الزاوية فتشرف بذلك على منخفض الغاب الذي يسمى أحياناً
بحجة أسيرة وكانت قلعة أقامية وشيزر تتحكما في أحد الطريقين الهامين

(١) فيليب - بي : مقدمة كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ ص ١٠

(٢) Demonbynes : La Syrie. P. 89.

Honingmann : Encyc. Isl. art. «Shaizar»

(٣) بي : نفس المرجع ص ١٠ خ ،

Canard : op. cit. P. 200-210

لغزو سورية مما يعطيها أهمية حربية كبيرة . (١)

وإلى الشرق من بعلبك ، وعلى نفس خط عرضها تقريباً ، تقع نبق التي تبدأ منها مجموعة من المراكز ناحية الشرق في شبه قوس متوغل في بادية الشام ، فإلى الشرق من نبق تقع القريتين ، ثم إلى الشرق منها تقع تدمر المركز البدوي المعروف ومركز القوافل القديم ، ولم تكن تدمر في القرن العاشر مدينة هامة ، فقد هدمت أسوارها في عهد مروان الثاني ، ولم تكن خرائب هذه المدينة مرتانة كثيراً باستثناء رحلات البدو عبرها ، وعلى بعد ٣٠ كيلومتراً منها شرقي تدمر تقع أراك Arak وهي A-acha القديمة ، قال ياقوت إنها قرب تدمر ، ثم الخسنة (٢) وبين القريتين جنوباً وحمص شمالاً توجد أميين ، وهي ماهين اليوم ، وكذلك حوارين التي اتخذها من قبل يزيد بن معاوية محل لقائمة (٣) وإلى الشمال الغربي من هذين المكانين توجد صدد على طريق دمشق سليمة المار بنبق ، وإلى الشمال الشرقي منهما أيضاً تقع الحداث ثم غنتر . وكثير من أسماء هذه الأماكن يرد ذكرها في الأحداث التي سنعرض لها سواء في تحركات بني كلاب أو كسرح لمعارك هامة حدثت مجرى الأمور في الفترة التي تهبطنا في هذه المنطقة .

وهناك مدينة شهيرة في جند حمص أيضاً ، ألا وهي سليمة وهي تقع إلى

(١) جتي : نفس المرجع ص : ث

Canard : op. cit. P. 210

(٢) ابن حوقل : صورة الأرض ص ١٥٤ ، ياقوت : ج ١ ص ٢١٠ ،

Canard : op. cit. p. 211 - 12

(٣) ياقوت : معجم ج ٢ ص ٣٥٥

للشمال الشرقي من حمص وإلى الجنوب الشرقي من حماه ، وكانت في يوم ما أكثر أهمية منها . فهي تقع في سهل أكثر خصوبة أسفل هضبة بركانية تغطي المنطقة بين حماه ومنخفض المنساخ ، وكانت سامية مركزاً متقدماً على حافة الصحراء وملتقى الطرق المتجهة إلى حلب ناحية الشمال وإلى الرصافة في الشمال الشرقي وإلى حماه وحمص في الغرب وإلى تدمر في الجنوب الشرقي . . ولكن سامية كانت في نهاية القرن العاشر الميلادي مدينة منسحطة ، وذلك منذ تخریبها على يد القرامطة سنة ٢٩٠ هـ ، وكانت سامية مركزاً قليلاً هاماً ونقطة تجمع للقبائل العربية المعروفة ، كما كانت في وقت ما مركزاً للدعاية الإسلامية^(١)

جند قنسرین :

تلك كانت أهم المراكز التابعة لجند حمص ، أما جند قنسرین — كما وصفه أغلب الرحالة والجغرافيين العرب — فإنه كان يشمل مساحة كبيرة جنوبي حلب وشمالها وامتد فشمّل مناطق كثيرة في شمالها الغربي وشمالها الشرقي ، فدخلت بذلك مجموعة من العواصم ضمن هذا الجند، وكانت أنطاكية في البداية وتيزين ودلوك وكوروس وربعان ومنبج تابعة لهذا التقسيم ، ولم تكن قنسرین أهم مدنه ، وإنما كانت حلب تشغل تلك المنزلة ، ويتميز الإقليم بمعظم خصائص وسط سورية ، لكن الجهة الشرقية منه أقل ارتفاعاً من الجهة الغربية التي تمتد بها بعض المرتفعات وسلاسل الجبال^(٢).

Demombynes : La Syrie/p. 77-8

(١)

وفيما يختص بطرق سامية والأماكن المباركة : ياقوت : معجم ج ٣ ص ١٢٣ ،

ابن خردادبة : المسالك والممالك ص ٩٨ ، المقدسي : أحسن التقاسيم ص ١٩٠

Canard : op. cit. P. 213

(٢)

وفي كل العصور استمد هذا الإقليم أهميته من أنه لإقليم عبور أو معبر ، يحوى كثيراً من نقط العبور التي لا يمكن تحاشيها ، وهو يحوى جانباً من وادى نهر العاصي ويمر بجانب منه نهر عفرين ، وجانباً من وادى نهر قويق الذي يمر بحلب ، وفي الشرق منه الهضبة المعروفة التي تمتد حتى شواطئ نهر الفرات ناحية الجزيرة ، وتربط مراكزه في الجنوب مجموعة طرق هامة سهله مع حماه وغيرها في وسط سورية (١) .

ومن أهم نقط ومراكز هذا الجند برزية ، فهي تقع في بقعة تشرف على وادى نهر العاصي ، تتحكم في طريق اللاذقية إلى إقليم نهر العاصي (٢) وقد ذكرها ياقوت باسم برزويه وقال إنها ، حصن قرب السواحل الشامية على من جبل شامق ... تحيط بها أودية من جميع جوانبها ، وقال إن العامة تقول عنها برزية .

أما جسر الشغور أو الشغور الذي كان المعبر — كما هو اليوم — بين اللاذقية ووادى نهر العاصي ، فلا شك أنه كان موجوداً قبل القرن العاشر الميلادي ولكن اسمه لم يذكر في النصوص المعاصرة لتلك الحقبة . وعلى العكس ، فهناك جسر الحديد إلى الشمال منه ، وهو مشهور في عهد الحروب الصليبية قرب طريق أنطاكية — حلب عبر نهر العاصي (٣) .

Canard : op cit. P. 214

(١)

(٢) ابن حوقل : صورة الأرض ص ١٦٤ ،

Cohen : La Syrie du Nord. P. 164 (Paris 1940)

Dussud : Topographie Historique de la Syrie antique (٣)

et médiévale. P. 155 (Paris 1927)

وإلى الشرق من نهر العاصي، وعلى الطرف الشمالي لمستنقع الغاب، يمتد جبل
الوسطاني الذي ينفصل عن جبل الزاوية أو جبل بني عليم بواسطة منخفض
الروج، وبعد قليل من برزية يقع الطريق المؤدى إلى أكامية وممر جسر الشفور،
وكانت تحرسه قلعة حصينة (١).

وإلى الجنوب الغربي من معرة النعمان وجدت قلعة كفر روما الصغيرة (٢)
وكانت هذه للقلعة موجودة إبان القرن للعاشر الميلادي، وإلى الغرب من
من المعرة في جبل الزاوية كانت توجد قلعة البارة التي يردد ذكرها كثيراً
في عهد الحروب الصليبية.

وفي الاتجاه الشمالي الشرقي من جبل الزاوية يوجد جبل الماق، وكان يمتد
إلى الجنوب الغربي لقنصرين على بعد نحو ٣٠ كيلو متراً منها، طرفه الأعلى
عند قنصرين مبعداً عن المعرة نحو هذه المسافة تقريباً إلى الشمال منها. وعلى
نحو ١٢ كيلو متراً إلى الشمال الغربي من سرمين كانت توجد معرة مصرين (٣)
أما جبل الزاوية، فهو يمتد بواسطة سلسلتين متوازيتين تتجهسان ناحية
الشمال وإلى الغرب منها يقع الجبل الأعلى، وجبل ليلون (جبل سمعان) الذي
يمتد حتى نهر عفرين فيكونان بين حلب وأنطاكية حاجزاً يمكن عبوره مع
ذلك، وهناك حارم تقع في مكان يشرف على سهل فسيح، وكانت محمية

Canard : op. cit. P. 215

(١)

(٢) ناصر خسرو : سفرنامه ص ١١ ويدكر ياقوت (معجم - ج ٤ ص ٢٨٨) أن كفر روما

خربت سنة ٣٩٣هـ على يد لؤلؤ السبي.

(٣) ياقوت : معجم ج ٣ ص ٨٣ ج ٤ ص ٧٤

بجزء من المدخل الشمالى لجبل الأعلى ، وكانت نقطة استراتيجية هامة . استخدمها البزنطيون دوماً كلما تقدموا بعد أنطاكية « كأنها الحصانيتها يحرمها العدو وتكون حرماً لمن فيها » (١) وقليلاً إلى الشمال هناك أرتاح ، التى كثيراً ما تعدى وتيزين — إلى الجنوب منها — ضمن جند العواصم . وإلى الشرق قليلاً نجد سرمدا ، قال ياقوت لأنها موضوعة من أعمال حلب ، وتل عقبرين قبل الدخول إلى جبل ليلون ، ثم بعد ذلك إلى الجنوب الشرقى من حارم و (تيزين) تقع الأثارب وهى توجد على مدخل القلعة القريبة من حلب ، وبين الأثارب وتل عقبرين يرى بقايا الطريق الرومانى الذى كان يربط بين أنطاكية وقنسرين (٢)

وإلى الشرق من جبل الزاوية وجبل السماق يوجد منخفض المناخ حيث يصب نهر قويق ، وفي شمال المناخ وإلى الغرب من مصب نهر قويق تقع قنسرين وكانت قنمرين Chalcis القديمة مدينة آهلة بالسكان ممتدة إلى الشرق أكثر مما هى اليوم ، كما كانت على جانب كبير من الأهمية العسكرية ومركزاً هاماً ضد بدو الشرق ، وأصبحت عاصمة لهذا الأقليم قبل أن تسلبها حلب هذه المكانة شيئاً فشيئاً ابتداء من منتصف القرن الرابع الهجرى ، خاصة بعد الغزو البزنطى لهذه الجهات (٣) ، ويقول ياقوت أنها كانت عامرة بالسكان إلى

(١) ياقوت : معجم ج ٢ ص ١١٨٤

Cahen : La Syrie du Nord. P. 154

(٢)

Demombynes : La Syrie. P. 29

(٣)

قرب منتصف القرن الرابع الهجري عند غزو الروم لحلب «فخاف أهل قنسرين
وتفرقوا في البلاد» (١) .

وإلى الجنوب الشرقى من قنسرين ، وعلى نحو ٥٠ كيلومتراً تقريباً شمال
شرقي حماه ، يوجد الطريق المتجه من حلب إلى سلمية ، وبين قنسرين ونهر
الفرات يمتد منخفض بحيرة الجبول التي يصب فيها نهر الذهب الذي يأتي من
الباب وبزاعا ، وإلى الجنوب من هذه البحيرة الملحية ، نجد الجبلين الكبيرين
المسميان جبل غبيث وجبل الأحص (٢) وكثيراً من أماكن هذا الإقليم ورد
ذكرها في نصوص القرن العاشر الميلادي . وإلى الشرق من قنسرين ،
وجدت العجم والفرا ديسى وسبعين ، وهذه الأخيرة تقع على ضفة نهر الذهب ،
وقد تردد ذكرها في بعض العمليات العسكرية الهامة في نهاية للقرن العاشر
وبداية القرن الحادي عشر ، وإلى الجنوب من جبل الأحص وفي وادي صغير
كانت تقع خناصره ، على طريق حلب من تدمر على نحو ٦٠ كيلومتراً جنوب
شرق حلب ، وعلى نفس البعد تقريباً من الصحراء ، وكانت خناصره مشهورة
من قبل كقبر للخليفة عمر بن عبد العزيز ، وكانت تقع على طريق حلب —
بغداد (٣)

(١) الاصطخرى : المسالك والممالك ص ٤٦ ، المقدسي : أحسن التقاسيم ص ١٥٥

ابن حوقل : صورة الأرض ص ١٦٤ ، ياقوت : معجم ج ٤ ص ١٨٦

(٢) ياقوت : معجم ج ١ ص ٤٣٧ ، ج ١ ص ٦٠٣ ،

Le Strange : op. cit. P. 385

Dussaud : op. cit. 231

(٣)

أما حلب ، فكانت عاصمة جند قنسرين وأهم مراكز هذا التقسيم الإداري ، وهي تقع وسط بعض التلال فتبدو وكأنها وسط طبق تعلو حوافه وتلتوى ، وتحيط بها المرتفعات التي أهمها في الجهة الغربية جبل جوشن ، وهي تشرف على نهر قويق وهو نهر صغير لم تكن منابعه تبعد عنها بأكثر من « أربعة وعشرين ميلا » — وأحد هذه المنابع — قرية يقال لها الحسينية بالقرب من إزاز ، (١) ، ومنها أيضا قرية تدعى سنياب شمالي دابق . ولم يكن نهر قويق سوى جدول فقير بسبب الري منه قبل وصوله إلى حلب ، لذا لم تكن الأمطار غزيرة في فصل الشتاء (٢) مع صيف شديد الحرارة ، ولهذا فالنهر ينضب في فصل الصيف ، فيعتمد السكان إلى ملء صهاريج بمياه المطر للشرب ، ويبدو أن قلة المياه كان لها أثر في حياة حلب الزراعية ، فهو بلد قليل الفواكه والبقول والنبذ إلا ما يأتيه من بلاد الروم ، ولكن يزرع مع ذلك بأراضي حلب : القطن والسمن والبطيخ والخيار والدخن والكروم والذرة والمشمش والتين والتفاح « لا يسقى إلا بماء المطر ، ويجيء مع ذلك رخما غضا روبا يفوق ما يسقى بالمياه » (٣) ويقول ابن جببر عن سكانها أنهم كانوا دائما في ظلال وارفة ، وأنهاء من بلاد الدنيا التي لا نظير لها والوصف فيه بطول « ويقول عنها للعمري أن بها المروج الفيح والبر الممتد

(١) ابن الشحنة : الدر المنتخب ، ص ١٣٤

(٢) ابن بطالان في ياقوت ج ٢ ص ٣٠٧

ابن حوقل : صورة الأرض ص ١٦٣

المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ١٥٥

(٣) ابن بطالان وياقوت : معجم ج ٢ ص ٣٠٧ ، ٣٠٨

حاضرته وباده» (١) ، وكان لها طرق معبدة وقناة للمياه تأتي من نبع هيلان على نحو ١٣ كيلو متر إلى الشمال منها (٢) .

وقد استعادت حلب مكانتها و مركزها الهام في القرن العاشر الميلادي وبداية القرن الحادي عشر ، وذلك بعد فترة ركود من جراء إهمال العباسيين لها ولكل سورية فغدت مركزا حيويا هاما ونشطا ، وقد سجل ابن حوقل هذا التغير في مركز حلب قرب نهاية القرن العاشر الميلادي ، فلما خربها نقفور فوقاس ، أعاد بناءها سيف الدولة الحمداني وخلفاؤه ، فاستعادت مكانتها التجارية الهامة وأخذت تمارس التجارة مع البلاد الإسلامية ومع الإمبراطورية البيزنطية أيضاً (٣) .. وزارها ناصر خسرو فكتب أنها مدينة عامرة أبنتها متلاصقة وفيها تحصل المكوس بما يمر بها من بلاد الشام والروم وديار بكر ومصر والعراق ، ويذهب اليها التجار من جميع البلاد (٤) هذا ويبدو أن ازدهار التجارة في حلب كان نتيجة طبيعية للأوضاع الزراعية السائدة وقصور هذه من استيعاب طاقة سكان المدينة الذين بلغ عددهم — في رأي بعض للكتاب — نحو نصف مليون نسمة إبان

(١) ابن جبير : الرحلة ص ٢٤٠-٢٤١

العمري : مسالك الأبصار ج ٢ مجلد ٣ ورقة ٤٤٨

Canard : op. cit. P. 221 :

(٢)

Canard : op. cit. P. 221

(٣) ابن حوقل : صورة الأرض ١٦٣ ،

(٤) ناصر خسرو : سفرنامه ص ١٠

الحقبة المرداسية (١) وليس من شك في أن مدينة حلب كانت في النصف الأول من القرن الحادى عشر الميلادى مدينة كبيرة هامة تعد قصبته شمال الشام بأسره وأكبر مراكز جند قنسرين برواية المصادر المعاصرة.

وإلى الشرق قليلا من حلب وفي اتجاه الناعورة كانت توجد نيرب وبيت إياس وتل أعرن (٢) وإلى الشمال الشرقى من حلب في اتجاه منبج كانت توجد البلدتين الصغيرتين الباب وبزاغا (٣) متواجهتين الواحدة اتجاه الأخرى الأولى منها على يمين نهر الذهب والثانية على يساره .

وبعد ذلك يسير حد جند قنسرين شمال وشمال غربى حلب ، فيمتد في شمالها الغربى ليشمل مدينة تيزين التى تقع على خط عرض واحد تقريبا مع أنطاكية وحلب ، واعتبرت أحيانا من جند العواصم ، ويصعد حد جند قنسرين من جند بيد في الوادى المرتفع لنهر عفرين ودلوك في إقاييم منابع نهر سروج أحد روافد نهر الفرات ، ثم ينزل مرة ثانية إلى الجنوب الشرقى على منبج ، ويعتبر إقليم جل سمعان وكل وادى قويق أجزاء من جند قنسرين وليست من جند العواصم (٤)

وثمة كورة أخرى هامة في جند قنسرين ، تقع على نحو ٤٥ كيلو متر إلى الشمال الغربى من حلب هي عزاز ، كانت عاصمة أومركز لأراض خصبة تضم نحو ٣٠٠ قرية هي ضياع مملوكه لأهالي حلب ، وكانت تروى

(١) الفزى : نهر الذهب في تاريخ حلب ص ٣٣٠

(٢) ابن الفلانى : ذيل ص ٣٤ ، ياتوت : معجم ج ١ ص ٨٦٣

(٣) ياتوت : معجم ج ١ ص ٤٣٧ ، ٦٠٣

Canard : op. cit. P. 224

(٤)

بروافد نهر قويق ، وكانت لها قلعة خربتها الزلازل والهزات الأرضية سنة ٢٠٣-٢١٧٤م^(١) ولإلى الجنوب الشرقى من عزاز على نحو ١٢ كيلو متر تقع قرية تعرف اليوم باسم « كول — جبرين » أوجبرين الشمالى ، وذلك لتمييزها عن جبرين للفستق من ضواحي حلب ، وعلى بعد يسير إلى الشمال من عزاز على طريق كلز وجدت قرية تل أو توبال ، ترتفع فى إقليم مغطى بالكروم وشجر الزيتون . أما كلز فتقع على بعد ٢٣ كيلو متر إلى الشمال من عزاز وهى تقع فى إقليم حدائق الكروم وللزيتون^(٢) ، وفى نفس وادى قويق وجدت نقطة هامة جداً وهى دابق ومرجها الذائع الصيت كانت فى جهة انحدار النهر قرب ملتقى نهر قويق بأحد روافده على تل مرتفع^(٣).

تلك هى أهم المراكز فى جند قنسرين وحول حلب ، وهناك عديد من القرى والحصون مبعثرة فى تلك الجهة المتسعة ، كانت تعد القاعدة العريضة والممدد المتصل لإمارة حلب حينما نظم فى الاستقلال ، وقد ذكر لنا ياقوت أسماء كثير من هذه القرى المنتشرة حول حلب نذكر منها : كفر غما ، وكفر لانا وكفر نبو ، وكفر لهثا ... إلى غير ذلك من القرى الكثيرة التى كانت تزدهر وتظهر إبان فترات السلم والاستقرار بصفة خاصة^(٤) .

(١) ياقوت : معجم ج٣ ص ٦٦٧

(٢) ياقوت : معجم ج٢ ص ١٩ ، ج ٤ ص ١٥٨ ، ويقول كانار انه من الصعب تحديد ما إذا كانت كلز من جند قنسرين أم من جند العواصم .

Canard : op. cit. P; 225

(٣) ياقوت : معجم ج٢ ص ٥١٣

(٤) ياقوت : معجم ج٤ ص ٢٩٠ — ٢٩١

جند العواصم :

أما جند العواصم ، فلا نعتقد أن كل المدن والقرى والأماكن التي ورد ذكرها تابعة لهذا للجند تهما أو نتصل بالمرح الذي سنعرض له إبان هذا البحث ، ولذلك فسوف نكتفي بتناول بعض مدن هذا الجند التي لها صلة فقط بالأحداث في حلب أو التي يثبت أنها كانت تابعة لإمارة الرداسيين في حلب أو في غيرها من الإمارات موضوع البحث ، منوهين بأن قصبات هذا الجند مثل منبج وربعان وكوروس ودلوك وتيزين وأنطاكية - في البداية - كانت مدناً متقدمة على الحدود ، سميت بالثغور في بعض أدوار الحرب مع الروم ، والاختلاف واضح بين الرحالة والجغرافيين بالنسبة لحدود وأبعاد هذا الجند . فبينما يصل ابن خرداذبة بحدود هذا الجند إلى الرصافة ليشمل جانباً من بادية الشام ، نجد من جاء بعده - خاصة ابن حوقل - يصل بحدود هذا الجند إلى بالس وسميساط على نهر الفرات في الجهة الشرقية ، واعتبر ابن شداد قصبات هذا الجند وأهم مدنة مدينة أنطاكية بضواحيها مثل (تيزين وجاندارس وأرتاح والسويدية ... الخ) ، وكذلك ربعان ودلوك وكوروس وكيسوم ومنبج وقلعة نجم ، والتي كانت قديماً جمر منبج^(١) . وكانت عاصمة هذا للجند مدينة أنطاكية قبل أن يستولي عليها البيزنطيون .

وأهم مدينة في جند العواصم والتي تقع في الجهة الشرقية منه مدينة منبج ، وهي هيرابوليس القديمة^(٢) في الاتجاه الشمالي الشرقي من حلب على بعد

(١) ابن خرداذبة : المسالك ص ٧٥ ، الاصطخرى : المسالك ص ٤٦

ابن حوقل : صورة الأرض ص ١٧١

(٢) Le Strange : The lands of the Eastern Caliphate, P. 10/ (-)

١٢ كيلومتراً من نهر الساجور الذي يمر إلى الشمال منها وعلى بعد نحو ٣ كيلومتراً من نهر الفرات الذي يجري إلى الشرق منها ، وهي تقع في سهل موج كثير المياه ، وكانت فيما مضى محاطة بالحدائق والمزروعات ، ولدت من قبل دوراً تجارياً ودينياً هاماً في العهد الهليني والروماني (١) ، ولكنها لم تستعد أهميتها في القرن للعاشر والقرن الحادي عشر بسبب موقعها على الحدود السورية العراقية ولقربها من نهر الفرات ولمدينة حلب . وكان هارون الرشيد قد أقام حولها أسواراً حجرية ظلت في حالة جيدة إلى ذلك الوقت (٢) ، كما أنها ظلت تشرف على الأراضي المتسعة الممتدة بين حلب والساجور والفرات ، كما ظلت من أهم الثغور الإسلامية في مواجهة الروم من ناحية وملاحظة بدو صحراء سورية حتى بالس في جنوبها من ناحية أخرى ، وقد أعطى مجرى نهر الفرات إلى الشرق منها ميلاد مدينة صغيرة سميت « جسر منبج » ، التي أطلق عليها فيما بعد إسم « قلعة نجم » ويعتبر ناصر خسرو مدينة منبج « أول مدن الشام » (٣) .

أما بالنسبة للمدن الواقعة جنوب النهر الكبير ، والتي اعتبرها أغلب الرحالة والجغرافيين العرب تابعة لجند دمشق ، فأهمها مدينة طرابلس ، ثالث المراكز الكبيرة في بلاد الشام ومقر الإمارة العربية الثالثة في هذا البحث ، وهي مدينة

(١) Canard : op. cit. P. 233

(٢) ابن حوقل : صورة الأرض ص ١٦٦ ، ويبدو أن سورها قد تهدم بعد ذلك لأن ياقوت يقول عنها « وكان عليها سور مبني بالحجارة يحكم » ياقوت : معجم ج ٤ ص ٦٥٠

(٣) ناصر خسرو : سفرنامه ص ١٠ ، Le Strange : op. cit. P. 107

ياقوت : معجم ج ٤ ص ٦٥٥ ، ابن جبير : الرحلة ص ٢٣٦-٢٣٧

كبيرة قديمة كحجاب وشيرر ، وإحدى أكبر موانئ على ساحل البحر الأبيض المتوسط .

فبين سلسلة جبال لبنان المرتفعة وجبال النصيرية القريبة من ساحل البحر المتوسط ، يوجد منخفض هام عرف بممر حمص ، وهذا الممر يعتبر من أهم معالم إقليم طرابلس ، وهو يربط بين بلاد الشام الداخلية — فيما وراء نهر العاصي — بالإقليم الساحلي ، كما يضم إقليم طرابلس أيضاً وادياً وعراً هو وادي نهر قادشنة الذي يبدأ عند سفح غابة الأرز وينحدر سريعاً في انحناءات وتعرجات متواصلة إلى أن ينتهي بسهل طرابلس عند الساحل . ويصل عمق هذا الوادي في بعض أجزائه إلى ١٧٠٠ قدم (١) . ويضم هذا الإقليم جزءاً هاماً من السهل الساحلي الضيق أهمها سهل مرقية في الشمال وسهل جبيل في الجنوب ، ولكن أهم السهول الساحلية في إقليم طرابلس السهل الواقع على مصب النهر الكبير وروافده ، وعليه تقع مدينة عرقه وثغر أنطربطوس (٢) .

ومدينة طرابلس القديمة كانت شبه جزيرة يحيط بها البحر من ثلاث جهات ، مشيدة بحيث تكون ثلاثة من جوانبها مطلة على البحر ، أما الجانب المطل على اليابس فيه خندق عظيم عليه باب حديدى محكم ، (٣) ... أذن « فالبحر يأخذها من ثلاثة أوجه » ... ويمتد بإزاء المدينة في البحر أربع جزر صغيرة تبعد عنها بنحو عشرة أميال كانت على التوالي مما يلي البر كما ذكر الإدريسي :

(١) فيليب حقي : لبنان في التاريخ ، ص ١٦

(٢) السيد عبد العزيز سالم : طرابلس الشام ، ص ١٦

(٣) ناصر خسرو : سفرنامه ، ص ١٣

« جزيرة النرجس » وإليها جزيرة العمدة وإليها جزيرة الراهب ثم وإليها جزيرة أرذكون ، (١) وأكبر هذه الجزر الأربعة جزيرة أطلق عليها بعض الجغرافيين والرحالة اسم « جزيرة النخلة » (٢) ، لا زالت تحتفظ باسمها حتى الآن ، ولعلها هي نفس الجزيرة التي عرفت باسم جزيرة القديس نيقولا (٣) وتتصل بهذه الجزيرة ثلاثة جزر صغيرة بينها وبين الساحل .

ويخترق مدينة طرابلس نهر عرف قديماً باسم نهر قاديشا ، ذكر في التوراة باسم نهر كاديشة (٤) ويسمى اليوم بنهر أبي علي ، يرجح أحد المؤرخين المحدثين أنه سمي كذلك نسبة إلى الأمير فخر الملك أبي علي بن عمار ، آخر أمراء بني عمار . أما اسم قاديشا فقد احتفظ به هذا النهر حتى الوقت الحاضر وشاعت تسميته بذلك خاصة في العصور الوسطى بسبب التجاء رهبان الموارنة إلى كهوفه ومغاوره (٥) .

وينبع هذا النهر من مغارة تعرف بمغارة قاديشا بأدنى غابة الأرز ، وطوله من منبعه إلى مصبه يناهز ٢٨ كيلو مترا ، ويخترق المدينة من الجنوب إلى الشمال بين تلين ، أحدهما على الضفة اليمنى ويطلق عليه اسم « تلة القبة » (٦) والآخر

(١) الأدرسي ٤ وصف الشام من نزعة المشتاق ، ص ١٣

(٢) الأنصاري : دمشق : نخبة الدهر ، ص ١٤٢

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٧٥

(٤) محمد بهجت ورفيق التميمي : ولاية بيروت ، القسم الشمالي ، ص ١٨٣

(٥) السيد عبد العزيز سالم : طرابلس الشام ص ١٠ (حاشية ١٧)

(٦) ابن الشحنة : الدار المنتخب ، ص ٢٦٤

على يسار النهر باسم « تلة أبي سمرة » وسميت في عهد الحروب الصليبية بـ « جبل الحجاج Mons Peregrinus » (١) وأقيمت عليها قلعة صليبية سميت قلعة صنجيل نسبة إلى مؤسسها « ريموند دي سان جيل » الذي عرفه كتاب العرب باسم الصنجيل ، وبعد أن ترك النهر مدينة طرابلس بسير نحو الشمال وسط بساتين ومروج خضراء إلى أن يعصب في البحر .

وأدى مرور هذا النهر بطرابلس إلى كثرة بساتينها ومزارعها وحدائقها وتنوعت ثرواتها الزراعية والتجارية في العصر الإسلامي خاصة (٢) فكانت نموذجاً طيباً للمدن الكبيرة ذات القاعدة الزراعية المتسعة والدعامة المالية الكبيرة والمكان المناسب لأصحاب الطموح والاجتهاد ومحبي الاستقلال والانفصال .

ومن الناحية التجارية ، كانت طرابلس مرفأ هاماً ومركزاً لتجمع كثير من البضائع ومدينة تجارية نشطة يقصدها التجار وتأنيها « ضروب الغلات و صنوف التجارات » وكذلك كانت « شوارعها وأسواقها جميلة ونظيفة حتى لتظن أن كل سوق قصر مزين .. وتحصل الكوس بهذه المدينة فتدفع السفن الآتية من بلاد الروم والفرنجة والأندلس والمغرب العشر » (٣) .

وكان يتبعها في الفترة التي تهيئنا مجموعة من المدن الصغيرة والقرى والحصون ذكرها الإدريسي منها « أنف الحجر وحصن القالمون (القلمون حالياً) وحصن

(١) Buhl : Encyc. Isl art, «Tarabulus»

(٢) ناصر خسرو : سفرنامه ص ١٣ ، الإدريسي : وصف الشام ص ١٣ ،

ياقوت : معجم ج ٣ ص ٥٢١ ، العمري : مسالك ج ٢ مجلد ٣ ورقة ٤٩ ؛

(٣) ناصر خسرو : سفرنامه ، ١٣

أبى العدى وأرطوسية ، ولها من أمهات الضياع المشهورة أربعة ، منها القرية المعروفة بالشفقة فالزبتونة والرابعة والحدث ، (١) ، وفي عهد بنى عمار ، كان يتبعها مدن : جبلة ، وعرة وجيـل ، فضلاً عن بعض الكور والبساتين المتصلة بها في الجنوب الشرقي مثل بشرى والحدث ، وفي الجنوب مثل البترون (٢) .

والأماكن التي يشملها كل من جند حمص وجند قنسرين وجند المواسم كانت منطقة هامة في كل العصور ، ربطتها شبكة من الطرق ووصلت بين أهم المدن فيها ، وكانت كل من أنطاكية في سورية والرها في العراق قطبي الإستراتيجية الرومانية من قبل ، لكن حلب بدأت تأخذ مكان أنطاكية في سورية الشمالية فتشعبت منها الطرق : (١) إلى قنسرين وحماه وحمص — (٢) إلى أنطاكية وإسكندرونة وقيليقيا — (٣) إلى دلك ومزعرش أو إلى الفرات وسامساط — (٤) ناحية منبج والجزيرة عبر الفرات — (٥) ثم إلى بلس والركة والجزيرة أو إلى العراق — (٦) وأخيراً إلى تدمر، المركز الصحراوي المعروف (٣) .

وتؤدي تلك الطرق في الغرب أيضاً : من حمص إلى عرة ، ومن حماه إلى أنطرطوس ومن حلب إلى اللاذقية ، وفي الشرق : من حمص إلى تدمر أو من حماه إلى تدمر وكانت هذه الطرق الفرعية أقل أهمية من سابقتها. لكن

(١) الأدرسي : وصف الشام ص ١٢

(٢) السيد عبد العزيز سالم : طرابلس الشام ص ١٥

Canard : op. cit. P. 234

(٣)

هذا الموقع الجغرافي الهام قد منح حالب بالذات في ظروف ضعف الخلافة العباسية وضعف سلطانها فرصة تاريخية هامة ، وجعلها كعاصمة هامة لكل سورية الشمالية ، وجعل منها ملتقى الطرق ومعبداً لمختلف البقاع ، ومكنها من أن تلعب دورها في التاريخ كعاصمة لإمارات مستقلة ومركزاً لدويلات عازفة عن بقية القوى الإسلامية في ذلك الوقت (١)

... ..

بنو مرداس في حلب ١٠٢٤ — ١٠٧٩ م

- أ — حلب قبل تأسيس الإمارة المرادسية فيها
نشاط بني كلاب حينئذ
- ب — تأسيس الإمارة المرادسية في حلب
- ج — خلفاء صالح بن مرداس
- د — بنو مرداس والدولة البيزنطية
- هـ — بنو مرداس والخلافة الفاطمية

(أ) حلب قبل تأسيس الإمارة المرادسية فيها ، نشاط

بنى كلاب حينئذ

رأينا كيف قدم بنو كلاب من جوف الجزيرة العربية إلى الشام ، في
حركة شبه جماعية حدثت قرب نهاية العهد الإخشيدى ، وبداية العهد الحمدانى
أى فى أوائل القرن الرابع الهجرى .

وعلى هذا يمكن القول أن بنى كلاب عاشوا نحو قرن من الزمان فى بلاد
الشام قبل أن يتمكنوا من إقامة إمارتهم فى حلب ، وعلى الرغم من ما فُتِم
على معظم مقوماتهم القبلية وتحركاتهم المتسمة بالطابع القبلى بين صحراء
سورية وشمال الشام ، إلا أنهم كانوا عنصراً هاماً فى جميع الأحداث التى شهدتها
المنطقة خلال القرن الرابع الهجرى كله قبل إقامة إمارتهم فى حلب (١) .

ونستطيع القول — مطمئنين — أن دورهم فى الأحداث التى جرت
حينئذ فاق دور بنى عمومتهم من القيسيين أمثال بنى نعيم وبنى خفاجة وبنى
ريهه فى إقلايم الجزيرة ، كما فاق دور الكلبيين فى وسط الشام وجنوبه ، وليس
من شك فى أن ذلك يرجع فى بعض جوانبه إلى قوتهم وكثرتهم العددية التى
استطاعوا عن طريقها فرض نفوذهم وسلطانهم فى المنطقة ، وليس أدل على
ذلك من أنهم استطاعوا إقامة إمارة لهم فى حلب عمرت أكثر من نصف قرن
من الزمان ، فى حين لم يستطع ذلك بنو طىء الكلبيين رغم طموحهم ورغبتهم
فى ذلك . وكل ما استطاع هؤلاء عمله ، هو إقامة حكم لهم فى فلسطين خلال

سنوات قليلة في نهاية القرن الرابع الهجري قام به بنو الجراح تحت زعامة
 كأميرهم مفرج ابن دغفل بن الجراح الذي تار بالرملة سنة ٣٨٨ هـ (٩٩٨ م)
 ولكن حركته لم تعمر طويلا أمام نشاط الفاطميين في تلك الجهات ورغم
 تكرار خروج آل الجراح في تلك المنطقة إلا أنهم حرموا من نفوذهم في
 فلسطين في نهاية الأمر ، وطردوا منها ، وهرب قائدهم حينئذ حسان بن
 المفرج إلى البيزنطيين^(١) .

وليس من شك في أن بني كلاب كانوا أحد العناصر الرئيسية التي
 شكلت تاريخ المنطقة ، خاصة إبان حكم الحمدانيين . وسيتضح من العرض التالي
 أهمية الدور الذي نهضت به تلك القبيلة طوال القرن الرابع كله .

على أن أهم ما يميز وجه الأحداث خلال تلك الفترة هو وجود ثلاث قوى
 متصارعة في شمال الشام ، متحفزة للدفاع عن مصالحها ، نشطة في فرض
 وجودها وهي :

١ () الإمبراطورية البيزنطية ، برغبتها الدائبة في احتواء جانب من سورية .

٢ () ثم الخلافة الفاطمية في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري .

٣ () وأخيراً ، بني حمدان في حلب .

وفي إطار تحفز هذه القوى الثلاث وترقبها ، دارت الأحداث التي سنعرضها
 حول كاز فيها على دور بني كلاب بصفة خاصة ، وهي الأحداث التي شملت ثلثي
 القرن المذكور بعد سنة ٣٣٣ هـ والسنوات الأولى من القرن الخامس ، أي

(١) ابن الأثير : الكامل ج٧ ص ٣٣٣

الفترة التي عاشتها الإمارة الحمدانية في حلب .

ذلك أنه كان على الإمارة الحمدانية — محور الحديث — أن تتعامل مع القبائل العربية النازحة قديماً وحديثاً والتي استقرت على طول السهول الممتدة بين شمال العراق وسورية لتلعب دورها في تاريخ المنطقة منذ ذلك الوقت (١).

ومن بين هذه القبائل ، قبيلة بني كلاب القيسية ، وأول أنباء عن بني كلاب نعت عليهم في المراجع — مما يهمنا ويخص موضوعنا — ما أورده المؤرخ ابن العديم عن زمن وصولهم إلى بلاد الشام ، وهو ما سبقت الإشارة إليه من قبل ، حين قالوا بأول لغارة لهم على معرة النعمان سنة ٣٢٥ هـ (٢) .

ويبدو أن بني كلاب كانوا قد بدأوا ممارسة نشاطهم القبلي المتسم بالإغارات والسلب والنهب ، لأننا نسمع أن أبي الهيثم — والد سيف الدولة — اضطر إلى محاربتهم من قبل ليمنع ضررهم ، وأنزل بهم هزيمة ساحقة في طريق الحج ، لكنه عاملهم بإحسان ورد عليهم نساءهم وقطعائهم وعفائهم (٣) .

ازداد نشاط بني كلاب في شمال الشام ازدياداً مطرداً بعد وصولهم إلى هناك حتى أن المؤرخ ابن العديم أرجع دخول حلب في حوزة سيف الدولة الحمداني لدورهم وتدبير قادتهم في ذلك الوقت . ففي عام ٣٣٣ هـ (٩٤٤ م) ولي محمد بن طنج الإخشيد أحمد البكلايين وبدعى أبا الفتح عثمان بن سعيد

(١) Kay : Notes on the Hist. of the Banu Okayl. P. 506

(٢) ابن العديم : زبدة الحجاب ج ١ ص ٩٨ — ٩٩

(٣) أبو فراس الحمداني : ديوان شعره برأوية ابن خالويه ٣ أجزاء ، ج ٢ ص ١٦٧

نشره د. سامي الدهان ، دمشق ١٩٤٤ ،

Canard : op. cit. P. 608 , 611.

الكلابي مدينة حلب ، وتصدى لهذا الوالي إخوته وبعض أفراد أسرته ومنهم والي أنطاكية وحقّدوا عليه ، فراسلوا سيف الدولة الحمداني يعدونه النصر والمساعدة للاستيلاء على حلب ، فأسرع سيف الدولة لانتهاز الفرصة ، ولم يكدهر الفرات حتى هرع اليه لإخوة أبي الفتح منحازين اليه ، وعند ذلك لم يجد أبو الفتح بداً من الخروج هو الآخر للانضواء تحت راية سيف الدولة فأكرمه هذا دون إخوته وأركبه إلى جواره وجعل يسأله عن كل قرية يمر بها ، وكان دخول سيف الدولة مدينة حلب في ربيع الأول سنة ٣٣٣ هـ . (٩٤ م) .

وكان أن غدت حلب عندئذ تابعة لبني حمّسّدان ، وأصبحت مراكزاً للجزء الشامي من الإمارة الحمدانية . وبدأ سيف الدولة عهده الجديد بإقامة الخطبة للخليفة العباسي المستكفي بالله ، ولأخيه ناصر الدولة الحمداني أمير الموصل ، ثم لنفسه ، ثم ما لبث أن سار إلى حمص في طريقه إلى دمشق وأستطاع أن ينزل الهزيمة بالجيش الإخشيدى عند الرستن واستولى على دمشق وراح يتتبع فلول الإخشيدية ناحية الجنوب .

وعلى الرغم من خروج محمد بن طفج الإخشيد بنفسه لمحاربة سيف الدولة ونجاحه في إزال الهزيمة به عند قنسرين ، واسترداده دمشق ، بل ودخوله حلب ذاتها ، إلا أنه آثر في النهاية أن يعقد صلحاً مع الحمدانيين في ربيع الأول سنة ٣٣٤ هـ (أكتوبر سنة ٩٤٥ م) اعترف بمقتضاه بأن يكون لسيف الدولة حلب وما يليها من بلاد الشام شمالاً ، على أن تكون دمشق وأعمالها الإخشيديين ، وتضمن الصلح أيضاً أن يدفع الإخشيد لسيف الدولة جزية

سنوية (١) . ويبدو أن الإخشيد رحب بهذا الصالح ليجعل من سيف الدولة حصناً منيعاً بينه وبين البزنطيين (٢) ، لكن سيف الدولة استطاع بهذا الصالح أن يدعم نفوذه في الشمال ، ثم ما لبث أن تحالف مع بنى كلاب واستطاع في السنوات القليلة التالية الاستفادة بهم في حروبه وجعل منهم حليفاً له ضد أعدائه .

ثم ترتب على وفاة محمد بن طغج الإخشيد في العام التالي ، وسحب الحامية الإخشيدية من دمشق ، أن طمع سيف الدولة في دمشق ، فسار إليها بجيشه وعندئذ بادر إليها الإخشيدى بالاستسلام له ، فدخلها سيف الدولة ، لكنه ما لبث أن طالب أهلها بدائع الإخشيد ، فأستاء هؤلاء وكانوا السلطات الإخشيدية في مصر ، فحضر كافور بجمجمة سيده أنرجور بن الإخشيد ، واستطاع أن ينزل الهزيمة بسيف الدولة قرب دمشق في جمادى الآخرة سنة ٣٣٥ (يناير ٩٤٧ م) وتقهقر هذا إلى حمص ، وهناك أعاد تنظيم قواته وضم إليها بنى كلاب وكثيراً من القبائل الأخرى من نمر وعقيل و كلب (٣) .

وعلى الرغم من قيام هذا الحلف الذى اشترك فيه بنو كلاب إلى جانب سيف الدولة ، إلا أن سيف الدولة عاجز عن وقف تقدم الجيش الإخشيدى والاستفادة الكاملة من حلفه ، فدارت الدائرة عليه في النهاية عند مرج عذراء قرب حمص ودخل الإخشيديون حلب بعد أن فر منها سيف الدولة إلى

(١) سيدة السكشاف : مصر في عصر الإخشيديين ، ص ٣٥٠

(٢) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي ج٣ ص ٢١١

جمال الدين مرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ١١٤-١١٥

(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج١ ص ٣١٨

الركة (١) . ثم دارت مفاوضات بين الطرفين انتهت بعقد صلح بنفس الشروط السابقة ، ماعدا دفع الجزية فإن الإخشيديين لم يقبلوا دفعها هذه المرة وكان من نتائج هذا الصلح أن ساد الصفاء بين الحمدانيين والإخشيديين (٢) .

وواضح من هذه الأحداث أن بنى كلاب غدوا حلفاء لسيف الدولة وكانوا ركنا ركينا في جيشه ، ولكن مع هذا لم يدم الصفاء بين الاثنين طويلا ، وذلك بسبب نشاطهم المتزايد من جهة ، وبسبب التقارب بين سيف الدولة وبنى كلب من جهة أخرى . وتحدثنا النصوص أن سيف الدولة « كان قد أجار بنى كلب وأدناها ، وأذم بينها وبين بنى كلاب ، ولكن هذه الخطوة لم تحظ - بطبيعة الحال - برضاء بنى كلاب ، الذين بلاشك أنكروا عليه هذا الميل إلى العصبية الأخرى ، فانتهزوا فرصة انشغاله بمد نفوذه في الإقليم الساحلي وحر به ضد الأكراد ونشاطه ضد أنطربوس ، » فغنمت بنو كلاب بعده وأغارت على بنى كلاب غارة نالت منها فيها (٣) .

وحيثما علم سيف الدولة بهذا الهجوم ، اضطر إلى قطع رحلته في الجهات الساحلية ورحل مسرعاً من هرقه إلى الرستن إلى قرون سماه إلى شير ، وعند الصباح وصل إلى كفر طاب ، وهناك فاجأ معسكر الكلابيين فأنزل بهم هزيمة ساحقة وألحق بهم خسائر جسيمة ، وأجبرهم على التعمد بعدم تكرار هذا الهجوم فوعدوا بذلك وأعطوه الضمان على احترام هذا العهد (٤) .

(١) ابن العديم : زبدة ج ١ ص ١١٧-١١٨

(٢) سيدة الكاشف : مصر في عهد الإخشيديين ، ص ٣٥٤

(٣) ابن خالويه : في ديوان أبي فراس الحمداني ، ج ٢ ص ٣٧٦

Canard . op. cit. P. 599-600

(٤)

على أن هذه الحادثة كان لها دون شك أثر عميق في نفوس بني كلاب ، وجاءت خاتمة لفصل من التعاون بينهم وبين سيف الدولة ، إذ مثلوا بعدئذ عنصر قلاقل سلطته ، واستأثروا بجانب هام من حروبه واستنزفوا قدراً كبيراً من جهوده ، بخروجهم المستمر عليه ورفعهم راية العصيان ضده ، وليس ثمة شك في أن ذلك بعد أبرز سمات نشاطهم في تلك المرحلة ، على عهد هذا الأمير الحمداني الكبير .

على أن سيف الدولة بعد مسؤولاً عن تفجير هذه الثورة في نفوس بني كلاب ، واندلاع الحرب معهم ، إذ يبدو أن ما أقدم عليه من إلحاق عشائر كلابية بجيشه المصاحب له إلى الجهات الساحلية هو الذي أثار حفيظتهم وعجل بانفجار ثورتهم ، فدبروا الهجوم على منازل الكلبيين ، وتعرضوا من أجل ذلك لعقاب سيف الدولة وتنكيله ، ولعب أبو فراس الحمداني — رغم ضعفه دوراً بارزاً في المعركة التي جرت عند كفر طاب ، ولم يوقف سيف الدولة القتال ضدهم إلا حينما سمع صرخات نساء بني كلاب ، فلم تكتمل فرحة ابن هليان زعيم الكلبيين الذي كان برفقة سيف الدولة في تلك الحملة (١) .

وليس بين أيدينا تاريخ محدد لوقوع هذه الحادثة ، التي حددت مصير العلاقات بين سيف الدولة وبني كلاب ، لأن مصدر الأخبار عنها يأتي في أغلبه من القصائد الشعرية لأبي فراس الحمداني ، ولا يعني الشاعر بطبيعة الحال بتحديد زمن ما يرويّه أو تعيين تاريخ ما يتناوله ، ولكن المؤرخ المحدث ،

(١) أبو فراس الحمداني : ديوان شعره ، ج ٣ ص ٣٧٦ وما بعدها ،

« كانار » يرجع أنها حدثت في نهاية عام ٣٣٧ هـ (٩٤٨ م) معتمداً على أن حصار سيف الدولة لبرزيه كان في نفس العام بعد عودته من كفر طاب ، حيث واصل حصاره لهذه القلعة حتى خريف نفس العام ، ثم استأنف جولاته في الجهات الساحلية التي كانت الأحداث بين بني كلاب وبني كلب قد قطعها من قبل (١) .

ولم يخلد الكلابيون بعدئذ إلى السكينة ، فهم لا شك لم ينسوا ما نزل بهم في كفر طاب على يد الحمدانيين ، كما أن أبا فراس كان أكثر شدة عليهم وقد أنزل بهم هزيمة جديدة في إقليم بالس ، وقتل أحد زعمائهم وبدعى كثير بن عوسجة (٢) ، رئيس عشيرة بني قريطع ، ولا بد أن ذلك حدث قبل عام ٣٣٩ هـ (٩٥٠ م) ، فقد جاءت إشارة إلى ذلك في إحدى قصائد أبي فراس وفي التعليق عليها ، وذكر مهمل بن نصر بن حمدان في تلك القصيدة وأشيد بدوره في الحرب ، فلا بد وأن ذلك حدث قبل العام المشار إليه ، الذي نعلم جيداً أن مهمل هذا قد توفي فيه (٣) .

ونظراً لشدة أبي فراس على الكلابيين ، اضطر هؤلاء للزوح إلى مشارف صحراء سورية ، إلى مناطق أكثر انعزلاً ، ومنها أخذوا يمارسون نشاطهم مما دفع سيف الدولة في سنة ٣٤٢ هـ (نهاية صيف ٩٥٤ م) إلى توجيه حملة

Canard : op. cit P. ٤01

(١)

(٢) الثلث أبي : يتيمة الدهر ، ج ١ ص ٢٩ — ٣٠

(٤) لدهان : ديوان أبي فراس ، ص ٣٠٥

الثلث أبي : نفس المرجع ج ١ ص ٣٥

جديدة اليهم فخرج بنفسه من حلب وأمر أبا فراس بالخروج من منبج للحاق به ، وعند جبل بشر التي الأميران وقاما معا بالانقضاض على بني كلاب ليلا وأنزلا بهم هزيمة كبيرة ومذبحة رهيبية ، واستولى سيف الدولة على قطعانهم ونسائهم ، ولكنه أظهر روحا طيبة تجاه النساء وعاملهن معاملة كريمة ووردهن إلى ذويهن ، ثم أعاد في النهب إلى بني كلاب قطعانهم كما فعل والده أبو الهيثم من قبل معهم على طريق الحج (١).

على أن نشاط بني كلاب هذا لم يكن شيئا مستجدا أو أصرا غريبا ، لأنه بعد أحمد مقومات الحياة القبلي لم تبرأ منه القبيلة بعد ، بل إنه كان جزاء من نشاط بقية القبائل في بلاد الشام والجزيرة ، وهو النشاط الذي كان يسبب اضطرابا وقلقا للدولة الحمدانية ، خاصة إذا تم عن تحالف وتأزر بين القبائل واتحاد جهودها وتوجيه ذلك ضد سلطة الدولة ، وكذلك إذا قام به من ينتسبون إلى عصبيية واحدة ، ومن يردون إلى أصل واحد ، فكثيرا ما سبب تحالف القيسيين من بني كلاب وبني فخير وبني عقيل ضغطا ولما حقا واستنزافا لقوى الحمدانيين ، بعد أن تكرر خروج تلك القبائل ورفعهم راية العصيان ضد سلطة الدولة ونظمها (٢).

لم ينقض غير عام واحد على آخر حملة لسيف الدولة ضد بني كلاب ، حتى اندلعت ثورة جديدة سنة ٣٤٤ هـ (٩٥٥ م) كانت ثورة قبلية عامة اشتركت

(١) Canard : op. cit. P. 608 وتد سجل ذلك أبو فراس في

شعره : كما أهلسكت كذا غداة جناتها وعم كلابا ماجنته الجعافر

(٢) Canard : op. cit, P. 611.

وأبو فراس ديوان شعره ج ٢ ص ٧٤ - ٧٥

فيها في هذه المرة عناصر يمنية من بني كلب وبني طيء ، بالإضافة إلى القيسيين من بني عامر بن صعصعة ، مثل بني نمير على حدود الفرات وفي إقاييم الرقة ، وبني كعب بن ربيعة بعشائرهم من عقيل وقشير ، هذا بالإضافة إلى بني كلاب ، ويبدو أن سلطات سيف الدولة قد أرهقت هذه القبائل وقيدت حركتها ، فلما سنحت الفرصة للثورة أشترك فيها الجميع معبرين عن سخطهم وحنقهم على الدولة ^(١) ، فاجتمع « نزاريةا وبما نيةا » ، وتراسلت وانفقت على الاجتماع بسلامية » ، ولم تكد الحشود القبلية تتجمع حتى سارعت بالهجوم على قنسرين حيث أنزات الهزيمة بعامل الحمدانيين فيها ، ويدعى الصباح بن عمارة المخارقي وعندئذ نهض سيف الدولة ومعه ابن عمه أبو فراس وأسرعوا بلقاء الحشود القبلية وعليها حينئذ الندي بن جعفر ومحمد بن قريع العقيليان ، ودارت الحرب ضارية بين الفريقين انتهت بهزيمة القبائل للعربية وقتل كثير من فرسانهم وفرار قلوبهم حيث تنبهم أبو فراس قتلا وأسرا « حتى ألحقهم بالغوير ولم ينج منهم الا من سبق به فرسه » ، وأنهم سم سيف الدولة حتى لحقهم بتدمير فقتلهم وأهلكهم عطشا وقتلا بالسماوة وأرضها ^(٢) . أما بنو كلاب فقد عادوا إلى إظهار خضوعهم وبعثوا بما عليهم من مستحقات ومكوس ، كما قدموا مجموعة من فرسانهم للالتحاق بقوات سيف الدولة النظامية .

و تعتبر حملة سنة ٣٤٤ هـ (٩٥٥ م) التي قام بها سيف الدولة ضد القبائل العربية آخر حملة كبيرة من هذا النوع ، إذ لم نسمع عن حملة مثلها بعد ذلك

Canard : op. cit, P. 612 - 14

(١)

(٢) الدهاز : ديوان أبي فراس ، ج٢ ص ١١ - ١٢

للعام ، ويبدو أن القبائل العربية - وخاصة بني كلاب - أدركت عبث المضي في رفع راية العصيان ضد سيف الدولة واستمرار الخروج عليه بالصورة التي حدثت من قبل وخاصة أنه كان يميل نمو الكلابيين ويؤثر مؤازرتهم ، وفي ذلك كبح لجناح الكلابيين ، هذا في الوقت الذي أدرك سيف الدولة نفسه حاجته إلى تأييد كل القبائل ، وأهمية مسالمتها وكسب تأييدها (١) . ولهذا لم يحدث احتكاك مباشر بين الطرفين في السنوات العشر الأواخر من حكمه ، ولم تجر حروب بينها بالصورة التي حدثت من قبل . حقيقة أن الكلابيين لم يخلدوا للسكينة ولم يهدؤوا نهائياً ، إلا أن ثوراتهم في تلك الحقبة لم تكن ذات أهمية كبيرة ، ولم تؤد إلى نتائج حاسمة ، بل لأنها لم تثر انتباه سيف الدولة نفسه الذي حرص حينذاك على نشر الهدوء والسلم في مضارب هذه القبيلة ، بل والاستعانة ببعض رجالها في حروبه مع البيزنطيين (٢) .

ولعل أهم حادث خرج فيه بنو كلاب عن طاعة سيف الدولة في تلك الفترة وأزروا الخارجين عليه ، ما حدث في أواخر أيامه إبان الثورة التي فجرها بعض عماله في أنطاكية منتهزين فرصة انشغاله وضعفه ومرضه . ففي ذي القعدة سنة ٣٥٤ هـ ، (ديسمبر - يناير ٩٦٥ - ٩٦٦ م) ، طرح رشيق النسيمي وابن الأهوازي طاعة بني حمدان في أنطاكية ، بل وتجرأ أولهما وزحف إلى حلب وهاجمها ، وعلى الرغم من نجاح الحمدانيون في القضاء على حركة النسيمي وقتله ، إلا أن قائداً آخر وبدعي دزبر ابن أوينم واصل العصيان في أنطاكية ،

ولما حاول الحمدانيون إنهاء عصيانه تعرضوا للهزيمة ، ودخل دزبر حلب في جمادى الأولى سنة ٣٥٥ هـ (مايو ١٦٦ م) وترك يد بن الأهوازي - شريك دزبر - حرة في شمال الشام ، فاستقر في د حاضر قنميرين وجمع اليه بني كلاب ، وجي الخراج من بلد حلب وحمص ، (١) .

ولم يجد سيف الدولة عندئذ بدا من الخروج بنفسه إلى حلب للقضاء على تلك الثورة ، ولم يكذب يفترب منها حتى خرج الثأران بقواتها إلى شرقي المدينة ، فدخلها - سيف الدولة - وعلى الرغم من مرضه وحمله على محفة ، إلا أنه لم يمكث سوى ليلة واحدة أصر بعدها على لقاء الثوار ، فسار مسرعاً إليهما ، وحدث اللقاء في مكان شرقي المدينة يسمى « سبعين » في إقليم الناعورة ، وعند ظهوره محمولا على محفة ، قام بنو كلاب - وكانوا يمثلون الجانب الأكبر من القوات المعادية - بالتخلي عن أماكنتهم مستأمنين إليه ، مما أدى سريعاً إلى هزيمة جيش الثوار ، وانتصار سيف الدولة ، ووضع للسيف في مسكر دزبر وضع محنق مغيظ ، فقتل جمعا كبيرا وأسر خلقا فقتلهم صبرا ، . ويرجع الفضل في ذلك - كما هو واضح - لحركة بني كلاب ، وانحيازهم إلى جانبه (٢) ولم تنقض أيام على تلك المعركة حتى اشتد المرض على سيف الدولة وكان حينئذ بشير ، فتركها إلى حلب ، فلم يمض بها أكثر من ثلاثة أيام حتى جاز إلى ربه يوم الجمعة العاشر من صفر سنة ٣٥٦ هـ (يناير ١٦٧ م) (٣) .

(١) ابن العديم : زبدة ج ١ ص ١٤٩ - ١٥٠

Canard : op. cit. P. 652-3

(٢)

(٣) ابن العديم : زبدة ج ١ ص ١٥١

وقد واصل بنو كلاب نشاطهم في المنطقة على عهد خلفاء سيف الدولة ، بل أن نشاطهم اطرء وزاد خلال النصف الثاني من القرن الرابع الهجري ، ولعل ذلك راجع في أغلبه إلى طلاقة أيديهم عن ذي قبل ، بعد أن زالت سطوة سيف الدولة عنهم وتخلصوا من ربة التبعية له ، وأحسوا بشيء من الارتياح والانطلاق ، لكننا يجب أن نسرع إلى تسجيل ملاحظة هامة تتعلق بدورهم خلال النصف الأخير من القرن المذكور ، ذلك أن أغلب البطون الكلاية لعبت دورا هاما وجديدا في نفس الوقت إلى جانب الحمدانيين وفي سبيل نصرتهم ، والتزمت بالانحياز إلى هذا البيت وتأكيده أحقية في إمارته ، وهو اتجاه جديد في سياسة هذه القبيلة دون شك بخلاف ما حدث إبان الفترة المنصرمة .

ولكن على الرغم من التزام أغلب البطون الكلاية بهذه السياسة ، والمحافظة على هذا الاتجاه ، إلا أننا نجد عشائر كلاية أخرى تنحاز إلى جانب المناوئين لمستطبة البيت الحمداني وتنضم إلى الأحزاب المعارضة لحكمهم ، وليس لدينا تعليل لذلك إلا أن كثيرا من العشائر الكلاية كانت قد تنارت في جهات متفرقة من بلاد الشام ، فنسمع عن كلابي دلوكة^(١) و كلابي حمص ، فضلا عن البطون الأخرى من بني كلاب على مشارف صحراء سورية عند تدمر وقرب حلب وجهات أخرى في شمال الشام ، ولابد وأن الرغبة في الاستقرار قد جذبت جانبا من تلك العشائر وكانت فرصة ضمها إلى جانب أو إلى آخر لا يخضع للحركة الكلية للقبيلة الكلاية في مجموعها . وطبقا لهذا المفهوم ، وجدنا بعضهم أحيانا في الجانب المعارض لسلطة الأمراء الحمدانيين في شمال

الشام ، في الوقت الذي انحازت فيه الجموع الأخرى إلى جانب الأمير الحمداني نفسه .

والواقع أن سيف الدولة كان قد خلف لابنه أبي المعالي سعد الدولة ٣٥٦ - ٣٨١ هـ (٩٦٧ - ٩٩١ م) تركة مثقلة بالأعباء والمتاعب ، وإمارة تتكاثر من حولها الأطماع وتتجمع في أفقها الغيوم والعواصف ، لكن من حسن حظ هذا الأمير أن معظم الجملع الكلاية كانت قد انتهجت سياستها الجديدة المشار إليها وغيرت موقفها المألوف والتزمت بنصرة هذا البيت ومعاوضة أمرائه .

فبعد وفاة سيف الدولة بعام واحد (سنة ٣٥٧ هـ) تفجر الصراع بين سعد الدولة هذا وابن عمه أبي فراس الحمداني ، الذي كان حينئذ بمحصى يتأهب لخوض الحرب طمعا في الإمارة ، وعندئذ خرج إليه سعد الدولة متجها نحو الجنوب فنزل بسلمية ، وجمع بني كلاب وغيرهم ، بينما ترك أبو فراس حمص منحاذا إلى عشار أخرى من بني كلاب في الجنوب الشرقى من حمص عند حصه ، ويبدو أن جموع بني كلاب وبني عقيل التي وقفت بجانب سعد الدولة وحاجبه قرغوبة كانت أقوى وأكثر من الكلابيين الذين وقفوا في صف أبي فراس لأن الدائرة دارت في النهاية على هذا الأخير واستأن معظم أصحابه إلى الجانب الآخر ، فأمر قرغوبة بضرب هنيق أبي فراس وذلك في أوائل سنة ٣٥٧ هـ (٩٦٨ م) وانتهى بذلك أول خطر دهم سعد الدولة وهدد إمارته (١) .

١ ابن العديم : زينة جاص ١٥٦-١٥٧

وحين تغلب قرغوية وبكجور على حلب واتخذ سعد الدولة من حمص مستقراً^(١) ، قام بنو كلاب بمؤازرة سعد الدولة لاسترداد إمارته وساروا معه إلى حلب وكان قد وقع شقاق بين بكجور وقرغوية وأودع الأخير السجن ، فلم يجد سعد الدولة صعوبة كبيرة في استعادة المدينة بعد أن استسلم له بكجور ، فعفا عنه في النهاية وولاه مدينة حمص سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٦ م) وكافأ بنو كلاب أيضاً فممنحهم الإقطاع المعروفة بالخصي^(٢) .

ولكن بكجور عاد من جديد إلى مغامراته ضد حلب ، وكان قد ترك حمص إلى دمشق في طاعة الفاطميين ، ثم ما لبث أن طردته القوات الفاطمية منها في رجب سنة ٣٧٨ هـ (أكتوبر ٩٨٩ م) فهرب إلى الرقة ومنها أخذ يتطلع إلى الاستيلاء على حلب ، خاصة بعد وفاة الحاجب قرغويه سنة ٣٨٠ هـ (٩٩٠ م) « فجمع بنو كلاب واستغوى بنو فهر وراح يبعث فسادا في شمال الشام وألقى الحصار على بالس ، عندئذ سارع سعد الدولة بمشدد جيشه وخرج من حلب « في جميع عسكره وبنو كلاب » ، وكان جيشه يتكون من نحو ستة آلاف مقاتل من الأتراك والديلمة ونحو خمسمائة من بنو كلاب من عشيرة عمرو بن كلاب ، ولحقته به نجدة بزنطية من أنطاكية تحت قيادة ميخائيل بورتزبه (البرجي في المصادر العربية) والبقى الجميع في الناعورة في المحرم سنة ٣٨١ (أبريل ٩٩١ م)^(٣) ، وعلى الرغم من حشود بكجور وكثرة بنو كلاب في جانبه ، إلا أن الدائرة دارت

(١) ابن القلانسي : ذيل ص ٢٧

(٢) ابن العديم : زبدة ج ١ ص ١٧٠ - ١٧١

Canard : op. cit. P. 688

(٣) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٧٧

عليه في النهاية وانتهى الأمر بهزيمة ومقتله ووضع حد لأطماعه في حلب .
ولم يعمر سـعد الدولة بعد ذلك طويلا ، إذ أنه توفي في رمضان سنة ٣٨١ هـ
(ديسمبر ٩٩١ م)^(١) .

تجمعت الأطماع حول الإمارة الحمدانية من جديد ، وازدادت الأخطار
المحدقة بها بعد أن تولى الأمير الجديد أبو الفضائل سعيد الدولة (٣٨١-٣٩٣ هـ)
(٩٩١ - ١٠٠١ م) في وصاية أوأو السيفي ، فتعرضت حلب لهجمات الجيش
الفاطمي مما دفع سلطاتها إلى التماس المساعدة من الإمبراطور البيزنطي
باسيل الثاني^(٢) ، وتكررت هجمات الفاطميين على حلب بقيادة منجوتكين
(بنجوتكين) حتى أنها تعرضت للحصار ثلاث مرات متتالية في يوليو سنة
٩٩٢ م (جمادى الأولى سنة ٣٨٢ هـ) ، وفي فبراير سنة ٩٩٣ م (ذي القعدة
سنة ٣٨٢ هـ) وفي مارس سنة ٩٩٤ م (صفر سنة ٣٨٤ هـ) فسادت أحوالها
وأوشكت على الاستسلام^(٣) .

على أن الإمبراطور البيزنطي ما لبث أن كاتب ميخائيل بورتزيه حاكم

(١) ابن القلانسي : ذيل ص ٣٤ ،

ابن العديم : زبدة ج ١ ص ١٧٨ - ١٧٩ ،

Camb. Med Hist. 5. P. 251

(٢) سعيد هاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ص ٦٨

(٣) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٧٤ - ١٧٥

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٤ ص ١١٨ ،

Grousset : L'Empire du Levant. P. 124

Vasiliev: Hist de L'Empire Byzantine, P. 412

أنطاكية بأمره بالسير إلى حلب لدفع المغاربة عنها^(١) فسار في قواته ونزل جسر الحديد بين حلب وأنطاكية . عندئذ رأى القائد الفاطمي بنجوتكين وبقية القادة ضرورة المبادرة ببقاء الروم قبل وصولهم إلى حلب والاجتماع بقواتها ، وساروا مع عدة أخرى كثيرة انضفت إليهم من أهل الشام وبنى كلاب ونزلوا تحت حصن إزاز ، ، ثم التقوا بالقوات البيزنطية في النهاية على ضفاف نهر العاصي وأنزلوا بها هزيمة ساحقة ، حتى ليذهب المؤرخ ابن القلانسي إلى أن خسائر الروم بلغت نحو عشرة آلاف قتيل أرسلت رؤوسهم إلى مصر وشهرت بها^(٢) . ويبدو أن الجيش الإسلامي المنتصر تقدم بعد ذلك إلى أسوار أنطاكية ، لكنه لم يستطع المضى في مشروعه فعاد مرة أخرى إلى ضواحي حلب^(٣) .

وما يهمنا من هذه الأحداث كلها هو موقف بنى كلاب في هذه المرة في جانب القوات الفاطمية ، ويبدو أن تحصن الحمدانيين في حلب وعدم انطلاق أيديهم في اجتذاب بنى كلاب ، فضلا عن استنجاد لؤلؤ بالبيزنطيين ، لم يكن ليرضى زعماء بنى كلاب ، ففضلوا الحرب في جانب القوات الإسلامية ضد الروم ، ولا بد وأنهم خضعوا أيضا لمغريات مادية من أعطيات ورواتب وغيرها . على أنه لا يجب أن نحرم هؤلاء الأعراب من شرف القتال مع الجانب

Camb. Med Hist. 5. P. 251

(١)

(٢) ابن القلانسي : ذيل ص ٤١-٤٢

Grousset : op. cit P. 124

(٣)

Ostrogorsky : Hist. of The Byzantine State. P. 213 (tran. by Joan Hussey)

الإسلامي ضد مسيحي الروم بوازع ديني أو على الأقل بحماسة عربية واندفاع يهودي ، والدليل على ذلك أن هذا المثل تكرر بعد ذلك ، ولو أن موقفهم لإبانه تشابه شيء من الغدر لا نجد له سببا إلا طبيعتهم البدوية وحرصهم على الاستفادة للمادية في كافة الظروف .

ذلك أنه في سنة ٣٨٧ هـ (٩٩٧ م) شهدت بلاد الشام وفلسطين قلاقل وثورات ضد الحكم الفاطمي ، وخرجت صور عن طاعتهم وهوجمت أفامية على يد القوات البيزنطية بقيادة حاكم أنطاكية دلاسنوس سنة ٩٩٨ م (١) وأثار المفرج بن دغفل بن الجراح الاضطرابات في فلسطين ، مما دفع السلطات المصرية إلى إنفاذ جيش كبير لإنهاء هذه الفتنة وقتال الروم . وقد نجح الجيش الفاطمي بقيادة ابن الصمصامة في إخماد تلك الثورات فعلا ودخل دمشق يتجهز لقتال البيزنطيين ، وعندئذ هرع إليه نحو ألف فارس من بني كلاب (٢) ولما نشبت المعركة في مرج أفيح قرب أفامية على نهر العاصي بين القوات الإسلامية والروم ، ولاحت نذر الهزيمة على الجانب الإسلامي واضطربت القوات الإسلامية وأخلي بعضها أماكنه في ساحة القتال ، اعتقد بنو كلاب أن الهزيمة واقعة لا محالة فسارعوا بنهب ما استطاعوا ولاذوا بالفرار ، غير أن جانبا من القوات الإسلامية صمد في المعركة ، فتحوات الهزيمة إلى نصر حاسم للمسلمين ، وقتل حاكم أنطاكية ومنيت القوات الرومية بخسائر فادحة

Schlumberger : L'Épopée. 11. P. 110

(١)

أبو شجاع : ذيل تجارب الأمم ، ص ٢٢٧

(٢) ابن القلانسي : ذيل ص ٥١

في الأرواح (١) .

ورغم هذا الموقف الذي اتخذته بنو كلاب ، إلا أنه لا يقلل من قيمة الدور الذي لعبوه في هذه المعركة ، خاصة وأنهم أعادوا كل ما استولوا عليه إلى المعسكر الإسلامي بعد انتهاء المعركة (٢) .

على أن هؤلاء الكلايين العرب أقنعونا بعد تدارس المثل العالي بضرورة هدم حرمانهم من شرف القتال مع الجانب الإسلامي ضد مسيحي الروم بوازع ديني وحماسة عربية بدوية في هذا الدور من نشاطهم في المنطقة ، ففي العام التالي (٩٩٩ م) ٢٨٩ هـ قام الإمبراطور باسيل الثاني بحملة على بلاد الشام بهدف رد اعتبار الإمبراطورية بعد الهزيمة التي تعرض لها دلاسيوس حاكم أنطاكية عند أفامية ، وقد أسفرت هذه الحملة عن استيلاء باسيل على شيزر حيث وطن بها جالية من الأرمن ، كما استولى على حصن وبعليك وأحرق حصن عرقة ودمر قلعته ، لكنه مع ذلك لم يصادف نجاحا أمام طرابلس (٣) أشد أهلها وقوة مراسهم ، فاضطر إلى رفع الحصار عنها ، كما وقعت في يده أرتاح والجهات القريبة من أنطاكية وكفر عزوز في الجنوب الغربي من الرها (٤) .

(٢) ابن القلانسي : ذيل ص ٥١-٥٢ .

يحيى بن سعيد : التاريخ ، ص ١٨٢ .

(٢) ابن القلانسي : ذيل ص ٥١-٥٢ .

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٩٦ .

(٤) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٨٦ - ١٨٧ .

وعلى الرغم من أن باسيل أوقف نشاطه بعد ذلك ، وماد إلى أنطاكية في
يناير سنة ١٠٠٠ م ، ثم ما لبث أن عقد معاهدة صلح مع الخلافة الفاطمية مدتها
عشر سنوات ابتداء من سنة ١٠٠١ م^(١) ، إلا أن ما جرى إبان حملته من
الحرق والتدمير والقتل أثار كثيراً من الشخصيات الإسلامية والعربية ، فأعلن
الأصغر التغلبي سنة ١٠٠٥ م (٣٩٥ هـ) حركة الجهاد المقدس ضد الروم ،
وانضم إليه كثير من العرب وسكان القرى ، وأخذ في التحرك من الجزيرة
إلى شمال الشام فانضم إليه عرب بني نمير وبني كلاب بقيادة وئاب النميري حاكم
سروج ، وأقوى زعماء الجزيرة من العرب^(٢) .

وقد لعب السكلايون دوراً هاماً في هذه الحركة ، فهاجموا مع الأصغر
الجهات التي سقطت مؤخراً في يد باسيل مثل شيزر^(٣) وأرتاح وضواحي
أنطاكية وكفر عزوز قرب الرها . وقد استمر نشاط الأصغر نحو مامين من
١٠٠٥ — ١٠٠٧ م ، (٣٩٥ — ٣٩٧ هـ) لكنه لم يحرز نجاحاً كبيراً ، فتخلى
عنه في النهاية أتباعه وسقط في يد أوأو حاكم حلب فاعتقله في قلعة المدينة^(٤) .
وواضح أن موقف بني كلاب جلال هذه الحركة كان متمشياً مع

Grousset : L'Empire du Levant. P. 125-6 ()

Vasiliev : Hist. de L'Empire Byzantine

I. P. 412.

Brébier : Vie et Mort de Byzance. P. 227

(٢) ابن العديم : زبدة ، ج ١ ص ١٨٦

Honingmann. Inc. Islam art. «Shaizar» (٣)

(٤) ابن العديم ، زبدة ، ج ١ ص ١٩٦ .

ما التزموا به مؤخرا من الانضمام إلى الجانب الإسلامي في مواجهة الروم
المسيحيين .

ما حدث بعد ذلك في حلب يوضح مدى الضعف والاضمحلال الذي
آلت إليه الإمارة الحمدانية ، وازدياد قوة الأعراب بما فيهم بنو كلاب ، فقد
توفي سعيد الدولة ثالث الأمراء الحمدانيين بحلب ^(١) في صفر سنة ٣٩٢ هـ
(يناير ١٠٠٢ م) — وتحكم لؤلؤ الشيفى الكبير في ولديه أبا الحسن عليا
وأبا المعالي شريفا ، فسيرهما إلى مصر وانقرض بالأمر دونهما سنة ٣٩٤ هـ
(١٠٠٣ م) فأترف بتبعيته للفاطميين ، وكذلك دفع رسوم التبعية للإمبراطور
البيزنطى ^(٢) .

ولما توفي لؤلؤ عام ٣٩٩ هـ (أغسطس ١٠٠٩ م) آلت حلب إلى ابنه
منصور الملقب « مرئضى الدولة » ، فتفرد بحكمها فشهدت حلب فترة ضعف
واضمحلال وقلق ساعدت بنى كلاب على المشاركة الإيجابية في الأحداث
أكثر من قبل ، حتى ليصفهم المؤرخ ابن العديم في هذه الفترة بأنهم « المتدبرين
ببلد حلب » ^(٣) ، ولما زاد ظلم منصور بن لؤلؤ وتعمفه ، استقر رأى أهل
حلب وبنو كلاب على محاولة إعادة البيت الحمدانى . وكان لسعد الدولة ولد
يدعى أبو الهيجاء ، وقد فر من حلب خوفا من لؤلؤ وابنه ولجأ إلى البلاط

(١) Lane - poole : op. cit. P. 112

(٢) سبط بن الجوزى : مرآة ج ٨ ورقة ٧٧ ،

« Camb. Med. Hist. 5, p, 254

(٣) ابن العديم : زبدة ، ج ١ ص ١٩٩ .

البيزنطي، فكاتب أهل حلب وبنو كلاب ابن مروان أمير ميافارقين يطلبون وساطته في إعادة أبي الهيثجاء، لما بينهما من صلة المصاهرة، ولما قدم أبو الهيثجاء تصحبه معونة عسكرية كردية من ابن مروان، انحاز إليه بنو كلاب وساروا في صحبته إلى حلب سنة ٤٠٠ هـ (١٠٠٩ م)، عندئذ استنجد ابن لؤلؤ بالفاطميين، وأخذ في استمالة بني كلاب فلوح لهم بالإقطاعات والأعطيات « وحلف لهم أن يساهمهم أعمال حلب البرانية »^(١) فالوا عن أبي الهيثجاء وتقاعدوا عن نصرته، وفي نفس الوقت وصلت إلى حلب معونة فاطمية تحت قياده ابن حيدرة قاضى طرابلس مما عجل بهزيمة أبي الهيثجاء، فقرر عائداً إلى القسطنطينية وأقام بها^(٢).

على هذه الصورة أصبح لبني كلاب ضلع فيما يجرى من أحداث في شمال الشام بأسره، وببداية القرن الخامس الهجري زاد نشاطهم كثيراً وغدوا من القوة بحيث أصبح من العسير على حاكم حلب تجاهلهم أو الخط من شأنهم؛ وليس من شك في أن ذلك كان حصداً لقرن طويل من النشاط والدأب، ونتيجة حتمية لمشاركتهم الفعلية في شئون المنطقة، حتى استطاعوا في النهاية تأسيس إمارتهم في حلب كما سيلي.

يستنتج من كل ما سبق — فيما يختص بدور بني كلاب — أنه خلال النصف الأول من القرن الرابع الهجري، وإبان حكم سيف الدولة، كان بنو

(١) نفس المرجع ونفس الصفحة .

كلاب وغيرهم من القبائل يمثلون الشغل الشاغل لهذا الأمير وعنصراً هاماً من عناصر القلاقل للدولة ، ويستأمرون بجانب من جهود الأمير . وليس من شك في أن عملية ترويض هذه البطون البدوية حديثة العهد ببلاد الشام لا يعد أمراً هيناً، خاصة بعد أن أحيوا العصبيّة القبليّة واتبعوا أساليب النهب والسلب والإغارات والسكر والفر ، لهذا جندت ضدّهم الجنود واستهدفتهم الحملات المتلاحقة ، فاضطروا في النهاية للاذعان على مفضض وأعلنوا التبعية ورضوا بمحدودها وأبعادها ، ولم يكن لهم تأثير في مجريات الأمور في الدولة ، وإن استنزفوا جانباً من قواها ونشاطها كانت في أشد الحاجة إليه في صراعها مع المتربصين بها ، خاصة من البيزنطيين .

أما في عهد خلفاء سيف الدولة، وابتداء من النصف الثاني من القرن الرابع الهجري ، فقد أطلقت أيديهم وأصبحوا عنصراً هاماً في الأحداث التي شهدتها المنطقة حينذاك ، وإن التزم جانب كبير منهم بمناصرة الحمدانيين ، إلا أن جانباً آخر انجذب إلى صفوف الثوار والخارجين والطامعين ، سواء عن اقتناع أو عن رغبة في مغنم وإقطاعات وأعطيات ، وشارك آخرون منهم في الحروب ضد البيزنطيين وفي صفوف القوات الفاطمية، ولا يزال نشاطهم يطرد وتزداد قوتهم حتى غدوا المدبرين في شمال الشام بأمره .

على أنه لا يفوتنا أن ننوه بأنه على الرغم من مرور قرن طويل على مجيئهم إلى هذه البلاد وانجذاب كثير منهم إلى حياة الاستقرار أو شبه الاستقرار ، إلا أن أكثرهم ظل أميل إلى حياة الانطلاق والحرية ، وأكثر عزوفاً عن حياة القصور والمدن ، وفرسانهم أكثر رغبة في عرض خدماتهم على هذا الجانب أو ذاك ، وفي ظل حياة الانطلاق وحياة الاستقرار ، ومع حماسة بدوية وفهم

حضري ، ومزيج من نظم عربية أصيلة وأخرى بدوية جافية ، قامت إمارة بني
مرداس السكلاية في حلب لتعمر أكثر من نصف قرن من الزمان ، ونعطينا
نموذجاً للحكم العربي الذي يستند إلى جذور ضاربة في القدم ، ويعود إلى
أصول قبلية مرحت أجيالاً في جوف الجزيرة التي كانت على مر الزمن المعين
الذي تدفقت منه الهجرات المتتالية إلى بلاد الشرق الأدنى في أزمنة متلاحمة
أحياناً متداخلة أحياناً أخرى .

(ب) تأسيس الإمارة المراتسية فى حلب

ببداية القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) غدت الظروف أكثر ملائمة لقيام بنى كلاب بتأسيس إمارة لهم فى شمال الشام ، والواقع أن ذلك كان أمرا متوقعا ، نظرا لازدياد نفوذهم مع ضعف السلطات الحاكمة فى حلب ، وتكالب الأطماع من حولها . وقد كشفت تلك الأحداث المتلاحقة عن شخصية فريدة بين زعماء بنى كلاب ، وقائد محنك من قادة هذه القبيلة ، كان له فضل تأسيس الإمارة السكلاية فى تلك المنطقة ، ألا وهو « صالح بن مرداس » .

وعلى الرغم من أن أخبار المراتسين وتاريخ إمارتهم فى حلب قد ملأت صفحات ضافية فى المصادر العربية المعاصرة واللاحقة، إلا أن تلك المصادر خلت تقريباً من ترجمة وافية لصالح بن مرداس نفسه، مؤسس هذه الإمارة ومنشئها ، فلا نجد بين أيدينا ترجمة معقولة لهذه الشخصية يمكن أن تفى بما نحن فى حاجة إليه عن حياته ، وخاصة قبل قيامه بالحكم^(١) . ولعل ذلك راجع فى أغلبه إلى أن عشيرته السكلاية لم تكن من عشائر بنى كلاب القاطنين قرب حلب وفى شمال الشام منذ زمن ، وإنما كانت قد أنتت وتوأت تحت قيادته من شمال العراق حيث كانت تمرح هناك قبل أن تدلى بدلوها فى أحداث حلب^(٢) . ولهذا

(١) Sobernheim : Encyc. Isl. art (SALIH UBN MIRDAS)

Canard : op. cit. P. 712

(٢)

فمنعنا لا نعرف عنه شيئاً قبل سنة ٣٩٩ هـ ، (١٠٠٨ م) حين ظهر فيجأة عند الرحبة واشترك فيما جرى بهذه المدينة من أحداث (١) .

وتشير كثير من الأدلة إلى أنه كان رجلاً حازماً شجاعاً (٢) - . ذا بأس وعزيمة وأهل عشيرة وشوكة ، ، مع شيء من القسوة والغلظة (٣) .

وقد جاء ذكر صالح بن مرداس لأول مرة في أحداث سنة ٣٩٩ هـ ، لدى المؤرخ ابن الأثير ؛ ففي ذلك العام حدثت فتن في مدينة الرحبة على الفرات وآلت هذه المدينة إلى رجل يدعى ابن محكان ، الذي كان يرغب في حفظ مدينته من الأطماع المحيطة ، فراسل صالحاً بن مرداس ليستعين به في ذلك . فقدم إليه هذا وأقام عنده مدة ، .

وبدل سيم الحوادث بعدئذ على أنه هذا القائد كان لا يزال أسير عاداته الجافية وقسوته البدوية ، إذ سرعان ما تغير على حليفه ابن محكان ، وقادله على البلد وقطع الأشجار « ولم ينقذ هذا الحليف حينئذ سوى مسارعته إلى طلب الصلح وشراء رضا صالح بتزويجه من ابنته ، إلا أن ذلك كله لم يمنع صالحاً

(١) ابن خلدون : العبر ، ج ٤ ص ٢٧١ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ١ ص ٢٠٢ - ٢٠٣ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ص ١٨٠ (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد)

ابن الوردي : تاريخه ج ١ ص ٣٣٦ . ويذكر أنه تبس في سنة ٤١٥ هـ على القاضي

أبي أسامة بحباب ودفنه حياً في قلعة المدينه . فقال الشاعر في ذلك :

وأد القضاء أشد من وأد البنات عمى وغيا

أدفت قاضي المسلمين بقامة الشهباء حيا

من الغدر به ، فانتهمز فرصة قيام ثورة في مدينة حانة — التابعة للرحبة — واستنجد ابن محكان به لانتهاء الثورة بها ، فسار بصحبته لاختصاصها ، وفي الطريق مالا على قتله ، فاعتيل ابن محكان فجأة ، وسار صالح إلى الرحبة فلما كان واستولى على أموال ابن محكان فيها ، وأقام الدعوة بها للمصريين (١) ، وفي العام التالي مباشرة ٤٠٠ هـ (١٠٠٩ م) بدأ لأول مرة يتدخل في شؤون حلب (٢) .

وفي الوقت الذي قام فيه صالح بهذا الدور ، كانت أمور حلب مضطربة فعلا وساءت أحوالها كثيراً ، نظراً لسوء تصرف حاكمها منصور بن لؤلؤ ، وازدياد سلطة بني كلاب . فقام منصور في سنة ٤٠٢ هـ (١٠١١ م) — طبقاً لمعلومات غير دقيقة وصات لايه بوفاة الخليفة الحاكم — بمحاولة الاستيلاء على الحصون والمدن القريبة منه ، معتمداً على مساعدات بيزنطية من أنطاكية ، فقتل بجيشه معركة النعمان قاصداً إقامة وعندئذ استغاث إلى الحصن بالحليفة الحاكم ، كما بعث يستنجد بوالي حمص ووالي طرابلس ، فألقه النجيدات منها ، ثم أتت أخبار تترى بأن الحاكم أخذ يتأهب للحرب (٣) وعندئذ خاف منصور وأخذ يتراجع إلى حلب ، وبعث في نفس الوقت إلى والي حمص وطرابلس

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ٧ ص ٢٤٣ .

(٢) Lane-poole : op cit. P. 114

(٣) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ورقة ٧٨ .

ابن العديم : زبدة ، ج ١ ص ٢٠١ .

Canard : op. cit. P. 713

يستعطفها ، وأرسل إلى صالح بن مرداس يطلب عونه ومساعدته ، ولما قدم صالح إلى حلب ، رأى خوف ابن لؤلؤ وجزعه فطمع فيه وسلط العرب عليه فاستطالوا وطلبوا الإقطاعات والخراج ، (١) .

وقد تعسف بنو كلاب في مطالبهم وشروطهم في هذه المرة بالإضافة إلى مطالبهم المطروحة بعد فتنة أبي الهيثم — كما سبقت الإشارة ، ولكن منصوراً ما طلبهم ودافعهم فتسلطوا على بند حلب وعانوا فيه وأفسدوا ورعوا الأشجار وقطعوها ، (٢) . وعندئذ لم يجد منصور بدا من الاحتيال عليهم في محاولة للتخلص من زعمائهم ، فدعاهم إلى حلب تحت ستار بحث طلبائهم ، وأظهر الرغبة في استقامة الحالة بينه وبينهم ، فدخل منهم نحو خمسمائة فارس إلى حلب ، فدلهم السباط فأكثروا ، لكنه أمر فجأة بإغلاق أبواب المدينة ، وقبض على مائة وعشرين رجلاً من زعمائهم منهم صالح بن مرداس وحبسهم بالقلعة وقتل مائتين آخرين وأطلق الباقى منهم (٣) ، وذلك في ذى القعدة سنة ٤٠٢ هـ (١٠١٢ م) . ولم يكنف منصور بذلك ، بل إنه ألزم صالحاً بطلاق زوجته طرود ، وكانت من أجمل أهل عصرها فطلقها وتزوجها هو ، وأساء معاملة الزعماء المسجونين حتى « مات أكثرهم في الضر والهوان والفلة والجوع » (٤) .

(١) سبط بن الجوزي : المرجع السابق ص ٧٨ .

(٢) يحيى بن سعيد : تاريخه ، ص ٢١١ — ابن العديم : زبدة ج ١ ص ٢٠٢ .

(٣) ابن الاثير : الكامل ج ٧ ص ٢٦٠ ،

Schlumberger : op. cit. II, P. 449

(٤) ابن العديم : زبدة ج ١ ص ٢٠٢ ،

Canard : op. cit. P: 712

وأهمية هذه الأحداث لا تسكن في أنها تعبر عن إذلال قوم أو للخط من شأن قبيلة على يد حاكم أو وال بقدر ما تعبر عن روح الجشع لدى ذلك الحاكم ، وامل هذه الحادثة كان لها ضلع في تصميم بني كلاب على الإطاحة بهذا الحاكم وهدم إمارته ، ومن جهة أخرى كانت فرصة لإلقاء الضوء على صالح بن مرداس بالذات ، وبث الحماسة في نفسه للانتقام ممن أذله وسجنه واغتصب زوجته ، وشئت شئت .

بني صالح سجيناً في قلعة حلب نحو ثلاث سنين (٤٠٢ — ٤٠٥ هـ) عزم منصور خلالها أكثر من مرة على قتله والتخلص منه فاضطر صالح إزاء ذلك إلى الهرب من سجنه مخاطراً بنفسه ، وذلك في المحرم من سنة ٤٠٥ هـ (١٠١٤ م) فنجى في قيده بأعجوبة ^(١) ، وسار إلى مرج دابق حيث أهله وعشيرته ، ثم سار إلى الحلة حيث تجمع حوله بنو كلاب من جديد وقويت نفوسهم بخلاصه ، وأخذ يتأهب لقتال منصور ولم يمض أكثر من أربعين يوماً حتى كان صالح قد نزل بقواته على تل حاصد قريباً من حلب ^(٢) .

(١) تشير الروايات إلى أنه احتال في سجنه حتى وصله في طعامه « مبرد » فبرد حلقه قيده الواحدة وفكها واستعصت الأخرى عليه ، فشد القيد في سائه ، وثقب حائط السجن وخرج منه ليلاً وتدلّى من القاعة إلى التل فوقع سالماً . وقد اضطر إلى الاستتار في مغارة جوش أثناء البحث عنه ، ثم مالبت أن سار إلى الحلة حيث اجتمعت لديه بنو كلاب وفرحوا بنجاة .
ابن العديم : زبدة ج ١ ص ٢٠٢ / ٢٠٣ ، ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ٢٦٠ .

(٢) يذكر ابن الأثير (الكامل ج ٧ ص ٢٦٩) أن صالحاً حاصراً ذاتها ٣٣ يوماً .

حشد منصور جيشه وخرج في ١٢ من صفر سنة ٤٠٥ هـ (١٠١٤ م) للقاء صالح عند تل حاصد ، وتم اللقاء فعلا هناك وانجحت المعركة عن هزيمة منكورة لمنصور وفرار معظم رجاله ، ومقتل كثير من جنوده ووقع هو في الأمر بينما فر أخ له إلى حلب وقام بالدفاع عنها . وحينما حمل منصور إلى صالح بن مرداس قيده بنفس القيد الذي كان مقيدا به هو من قبل ^(١) . ثم دارت المفاوضات بين الطرفين وانتهت بإطلاق سراح منصور نظير تعهده بدفع فدية كبيرة وتقديم بعض الهدايا وإطلاق من بحلب من بني كلاب وإقطاع صالح « الثلث من نواحي حلب وبالس ومنبج » ^(٢) واتفق كذلك على زواج صالح من ابنة منصور تدهيما لتلك المصالحة وزيادة أواصر الصداقة .

وعلى الرغم من أن منصوراً قد وفي بمعظم هذه الشروط ، وخاصة الفدية والهدايا ، إلا أنه تلمكأ في موضوع زواج ابنته من صالح ، ولهذا لم تعمر هذه المصالحة طويلا ، وسرمان ما توترت العلاقات بينهما من جديد ، فانتهر صالح فرصة شقاق وقع بين منصور والى قلعة حلب ويدهى فتح القلعة ، فقام صالح بإغذاء النزاع وتوسيع شقة الخلاف بينهما ، فعصى والى القلعة منصوراً ورفض فتح أبواب القلعة ، وبعث إلى منصور يقول : إما أن تخرج من حلب وإلا سلمت للقلعة إلى صالح ، وفي نفس الوقت أخذ في الاتصال

(١) ابن العديم : زبدة ج ١ ص ٢٠٥ ،

Sobernheim. Salih ibn Midras

(٢) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ورنة ٨٠ - ٨١ .

بالفاطميين لإقامة الدعوة للحاكم في حلب (١) .

ولما تأكد منصور من تكاثر أعدائه عليه ، فضلا عن استياء العامة وكرهيتهم له سارع بالحرب من حلب في يناير سنة ١٠١٦ م (رجب ٤٠٦ هـ) حيث لجأ إلى حاكم أنطاكية البيزنطى ، فأمر الإمبراطور باسيل الثانى بإكرامه ومنحه قصرا فى جبل إيلون قريبا من حلب ، فأقام فيه وأخذ يرقب - على البعد - الأوضاع فى حلب ، ولكنه لم يجرؤ على العودة إليها (٢) .

لم يمض وقت طويل حتى تخلى فتح عن قلعة حلب للفاطميين وعرض عنها بصيدا وبغروت وصور (٣) ، وتسلم عامل الفاطميين ويدعى عزيز الدولة فاتك (الأرمنى) حكم حلب ، وذلك فى فبراير سنة ١٠١٧ م (رمضان سنة ٤٠٧ هـ) ، إلا أنه سرعان ما طرح طاعة الفاطميين واستقل بحلب سنة ١٠١٨ م ، وضرب الدينار والدرهم باسمه « ودعا لنفسه على المنبر ، وتبادل الرسائل مع الإمبراطور باسيل يبذل له الطاعة والولاء ، فأمر الخليفة الحاكم بإعداد الجيوش لمحاربتة سنة ١٠٢٠ م (٤١١ هـ) لكن هذا المشروع أوقف بسبب اختفاء الحاكم فى نفس العام (٤) .

(١) ابن العديم : زبدة ج ١ ص ٢٠٥ - ٢٠٧ .

Canard : op cit. P. 712

(٢)

Camb. Med Hist. 5, P. 255

يعقوب بن سعيد : التاريخ ، ص ٢١٤ .

(٣) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ؛ ج ٢ ص ١٤٠ .

(٤) يعقوب بن سعيد : التاريخ ، ص ٢١٦ ، ابن العديم : زبدة ج ١ ص ٢١٨/٢١٦

Schlumberger : op. cit. 11. P. 455

ولما تولى الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله في وصاية عمته ست الملك ، عملت هذه على التخلص من فائق بالحيلة ، ونجحت في تأليب بعض أنبساطه عايشه فاغتاله غلام له وهو نائم في ربيع الآخر سنة ٤١٣ هـ (١٠٢٧ م) ، وبذلك عادت حلب إلى حظيرة الدولة الفاطمية من جديد ، إلا أنهم اضطروا مع ذلك للاعتراف بامتيازات ومكانة بني كلاب ^(١) .

ثم كان أن تقلب على ولاية حلب عمال فاطميون بعد ذلك ، حتى إسندت ولايتها في جمادى الأولى سنة ٤١٥ هـ (١٠٢٥ م) إلى سيد الدولة تبعان بن عهد الكناشي ، وولى القلعة موصوف الخادم للصقلبي ، فظلا يسيران أمورها حتى قيام حلف القبائل العربية لاقتسام البلاد الشامية ، وهو الحلف الذي ضم الفيسيين والكليبيين والذي أسفر عن تغيير أوضاع المنطقة بأسرها كما سبقت الإشارة .

فقد اجتمع كل من حسان بن المفرج بن الجراح زعيم طيء ، وسنان بن عليان زعيم بني كلب ، وصالح بن مرداس زعيم بني كلاب ، واتفق الثلاثة على اقتسام بلاد الشام فيما بينهم ، فتكون فلسطين وما برسمها لحسان ، ودمشق وما ينتسب إليها لسنان ، وحلب وما معها لصالح ^(٢) . وطبقا لهذا الاتفاق ، فإنه يتعين عليهم شن الحرب ضد الخلافة الفاطمية صاحبة النفوذ في هذه البلاد ، والاستيلاء على أملاكها . ويذهب المؤرخ المحدث Wiet إلى

Canard : op. cit. P. 712

(١)

(٢) ابن العديم : زبدة ج ١ ص ٢٢٣ ، ابن الأثير : ج ٧ ص ٢٦١ .

ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٢٧٢ ، Lammens : La Syrie. I. P. 153

أن هؤلاء الزعماء أعلموا الإمبراطور البيزنطي بقيام هذا الحلف والتمسوا
عونه ضد الخلافة الفاطمية ، ولكنه لم يعبأ بهم (١) ، لكنهم مع ذلك كانوا
واقفين من إمكان نجاح مشروعهم نظرا لسوء أحوال مصر والشام بصفة
عامة ، بعد اختفاء الحاكم بأمر الله وضعف سلطة الولاة في المنطقة (٢) .

لم تدخر الخلافة الفاطمية جهدا في سبيل كسر هذا الحلف العربي وحماية
ممتلكاتها في بلاد الشام وفلسطين ، وجهزت لذلك أنوشتكين الدزبرى (٣)
وأمدته بجيش كبير للقضاء على هذه الحركة ، إلا أنه تعرض للهزيمة على أيدي
الأمراء العرب ، فانسحب إلى عسقلان ، واستولى حسان بن الجراح على
الرملة في رجب سنة ٤١٥ هـ ، (١٠٢٥ م) ، وبعث صالح بن مرداس طلائع
جيشه بقيادة كاتبه أبو منصور سليمان بن طوق فاستولى على معرة مصرين
ولحق به صالح نفسه وألقى الحصار على حلب نحو ستة وخمسين يوما . وبها
ابن ثعبان والخادم موصوف ، فسألت أحوال المدينة ودب الشقاق بين

Wiet : L'Egypte Arabe. P. 216

(١)

(٢) ابن القلانسي : ذيل ص ٧٣ .

(٣) ذكره ابن الأثير باسم « البربرى » ، وابن القلانسي « الدزبرى » وابن العديم
باسم « الدزبرى » . والاسم الأخير هو الأصح نسبة إلى القائد دزبر ابن أويتم الذي
استراه سنة ٤٠٠ هـ وحمله إلى الخليفة الحاكم في مصر سنة ٤٠٣ هـ وتغاب في خدمة الخلافة
الفاطمية حتى ولى فاطنين سنة ٤١٤ هـ .

ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ٢٦١

ابن القلانسي : ذيل ص ٧١ - ٧٢

ابن العديم : زبدة ج ١ ص ٢٢٣

ابن خلكان : وفيات ج ٢ ص ١٨٠

موصوف زعيم الحزب الحمداني بها وهو سالم بن مستفاد غلام سيف الدولة،
الذي وجه اليه موصوف تهمة الخيانة^(١) فقام ابن مستفاد بفتح باب قنسرين
بحلب واستسلم لصالح وأخذ الأمان لأهل المدينة ، وهكذا سقطت حلب في
يد صالح في ذي القعدة سنة ٤١٥ هـ (فبراير سنة ١٠٢٥ م)^(٢) ، ولكن
قلعتها لم تستسلم ولجأ اليها ابن ثعبان وشرع في الدفاع عنها عندئذ كلف صالح
كاتبه سليمان بن طوبوق وسالم بن مستفاد بحصارها وضربها بالمنجنيق ، بينما
سار هو مسرعا إلى فلسطين لمعاونة حسان بن المفرج الطائي ضد الدزيري .

استمر حصار القلعة نحو سبعة أشهر ، وأخيرا استسلمت فدخلتها قوات

(١) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٤٦

(٢) هناك خلاف بين المؤرخين في تحديد السنة التي استسلمت فيها حلب لصالح بن
مرداس . فبينما يحدد ابن العديم استسلامها بيوم ١٣ ذي القعدة سنة ٤١٥ هـ (فبراير سنة
١٠٢٥ م) في كتابه (زبدة الحلب ج ١ ص ٢٢٨) — نجد أنها عند ابن الأثير (الكامل
ج ٧ ص ٢٦١) وأبى الفداء (المختصر ج ٢ ص ١٤١) وابن خلدون (العبر ج ٤ ص ٢٧٢)
هي سنة ٤١٤ هـ (١٠٢٣ — ١٠٢٤ م) وقد أخذ معظم المؤرخين المحدثين الأجانب بالرواية
الأخيرة أي سنة ٤١٤ هـ ومن هؤلاء Wiet في كتابه : L' Egypte Arabe P. 216
وجروسية Grousset في كتابه : Hist. des Croisades. I. P. XXI-XXII
وسوبرنهايم Sobernheim في مقالته في دائرة المعارف الإسلامية عن صالح بن مرداس ،
ولامنس Lammens في كتابه La Syrie 1. P. 153 وكذلك المؤرخ Schlumberger
في كتابه L'Épopée Byzantin. 11. P. 608 وكذلك المؤرخ Lane-poole
في كتابه The Mohammed Dynasties P. 114 وقد أيدت Camb. Med. Hist 5. P: 255
ما جاء لدى ابن العديم فحددت يناير سنة ١٠٢٥ م ، وهو يوافق ذي
القعدة سنة ٤١٥ هـ .

صالح في مستهل جمادى الأولى سنة ٤١٦ هـ (يونيو سنة ١٠٢٥ م) طبقا لرواية المؤرخ ابن العديم ، وقبض على موصوف وابن ثعبان والقاضي ابن أبي أسامة. فأما موصوف فقد ضرب صالح عنقه ، وأما ثعبان فقد افتدى نفسه بمبلغ من المال ، وأما القاضي ابن أبي أسامة ، فقد أمر صالح بدفنه حيا ^(١) . وهكذا غدت حلب تحت حكم صالح بن مرداس ، وقامت بها إمارة كلابية لأول مرة بعد جهود دائبة ونشاط متواصل !

لم يضع صالح وقتنا بعد ذلك ، ففي نفس السنة شرع في تأسيس الإمارة بحيث تكون حلب مركزها وقصبتها الكبيرة ، فاستولى على حمص وبلبك وصيدا وحصن ابن عكار بناحية طرابلس ، فضلا عما كان بيده من قبل من الرحبة ومنبج وبالس ورفنية ^(٢) . ويحمل المؤرخون ملك صالح واتساع إمارته بأنها امتدت « من بعلبك إلى عانة » أي من شمال دمشق حتى حدود نهر الفرات ، وضمت ، عددا كبيرا من المدن والحصون والقللاع في جنوبي غرب حلب ، وفي شرقيها وشمالها الشرقي ، وأقرب إلى القول أن تلك الإمارة كانت أشبه بدائرة مركزها حلب ، يتغلغل فيها لسان من بادية الشام ، أو أن هذه الإمارة كانت أشبه — من الناحية العمرانية — بهلال مكتمل ، طرفه الأعلى في بالس والآخر في حماه وبلبك ، ويمر محيطه في اتجاه المركز قرب

(١) ابن الرردى : تاريخه ج ١ ص ٣٦٦

(٢) ابن العديم : زبدة ، ج ١ ص ٢٣٠

ساحل البحر الأبيض المتوسط ، ويحتضن جوفه جانبا من صحراء سورية (١) .
وليس من شك في أن الإمارة المرداسية أتاحت لها قاعدة عريضة من المدن
والقرى والحصون وأراضى شاسعة وضياع ورساتيق كانت بمثابة القاعدة
والمدد الذي يضمن الكفاية للإمارة ، ويضمن بقاء استقلالها في أغلب
الأحيان .

حدث التحول الكبير في حياة صالح بن مرداس بعد قيامه في الحكم ، فقد
اتخذ وزيرا واستكمل مظاهر الأبهة والعظمة ، وعين قاضيا وباشرا الحكم على
امتداد تلك الإمارة ، وأخذ يتنقل بين حلب في الداخل وصيدا على
ساحل البحر (٢) .

أما وزيره فيدعي نادر بن الحسن النصراني « وكان هذا النصراني
متمكنا عند صالح ، وكان صاحب السيف والقلم ... وقيل إنه كان يترجل
له — لعنه الله — الولاة والقضاء فمن دونهم » . وأما قاضيه فقد كان أبا يعلى
عبد المنعم بن عبد الكريم بن سنان ، المعروف بالقاضي الأسود « واستمر على
القضاء في أيام ابنة شبل الدولة » . ولم تصادف صالحا أية مشاكل داخلية في
تلك الإمارة إبان السنوات التي باشر فيها الحكم ، باستثناء ما حدث في معركة
النعمان بسبب وزيره النصراني هذا ، إذ تحدثنا المراجع أن أهل قرية « حاس »
وهي إحدى قرى معركة النعمان قتلوه ، « وكان يقال له الخورى ، وكان من

(١) ابن الأثير : السكامل ج ٧ ص ٢٦١ ، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٢٧٢

أبو الفدا : المختصر ج ١ ص ١٤١ ، ابن الوردي : تاريخه ج ١ ص ٣٢٣

(٢) ابن العديم : زبدة ، ج ١ ص ٢٣٣

أهل منس ، لأذيتهم لهم » ، ولما علم تادرس بقتله خرج ومعه بعض جند حلب وراح يتعقب أهل حاس في الجبال والضياع حتى أقامية ، وهناك قام والى أقامية بتسليمهم له ، وعندئذ استأذن تادرس صالحا في قتلهم ، فأمره صالح بذلك ، فقتلهم وصلبهم « فلما أنزلوا عن الخشب ليصلى عليهم ويدفونوا صلى عليهم خلق عظيم » ، وقد تركت هذه الحادثة دون شك أثرا سيئا في نفوس أهل المعرة وقراها تجاه هذا النصراني (١) .

وحدث بعد ذلك أن صاحبت امرأة مسلمة يوم الجمعة في جامع المعرة واستغاثت ، وذكرت أن صاحب الماخور النصراني أراد اغتصابها « فنفر كل من في الجامع غير الأكابر والقاضى فهدموا الماخور وأخذوا خشبه ونهبوه » (٢) وكان صالح بن مرداس حينئذ في صيدا سنة ٤١٧ هـ (١٠٢٦ م) فلما عاد الى حلب في السنة التالية « لم يزل به تادرس حتى اعتقل مشايخ المعرة وأماثلها ، فاعتقل منهم سبعين رجلا قطع عليهم ألف دينار » وبقوا في السجن نحو سبعين يوما إلى أن اجتاز صالح بالمعرة فخرج إليه الشيخ الجليل أبو العلاء المعري ليتوسط في فك أسرهم ، ومما قاله أبو العلاء لصالح : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » فقال صالح « قد وهبتهم لك أيها الشيخ » (٣)

(١) ابن العديم : المرجع السابق ص ٢٣٢ - ٢٣٣

(٢) ابن الوردي : تاريخه ، ج ١ ص ٣٣٨

(٣) قال أبو العلاء في ذلك :

تغيبت في منزلى برهة	ستير العيوب فقيد الحسد
فلما مضى العمر الا أقله	وحسم لروحي فراق الجسد
بمنت شفيماً لي صالح	وذاك من القوم رأى فسد
فيسمع مني سجع الحمام	وأسمع منه زئير الأسد

ابن العديم : زبدة ، ج ١ ص ٢٣٤

وليس بين أيدينا — دون ذلك — ما ينبئ عن وجود مشاكل داخلية أخرى واجهها صالح بن مرداس في حلب ، بل على العكس تؤكد المصادر سكون بني كلاب وانتظامهم في جيش صالح وإخلاء كثير من عشائرهم إلى السكينة ، ولهذا فنحن لا نسمع عن نشاط معاد لهم أو لبعض فئاتهم إبان السنوات الست التي حكمها صالح ، ولا نسمع من قلائل أخرى أثارها الطوائف الأخرى ، لذا مارس صالح حكمه بطول وعرض هذه الإمارة في كثير من الارتياح والثقة .

أما عن سياسته الخارجية ، فتتمثل القوى المجاورة في ثلاث: الإمبراطورية البيزنطية ، وأسماء النواحي القريبة ، والخلافة الفاطمية .

أما بالنسبة للإمبراطورية البيزنطية ، فكان لديها ما يشغلها عن أحداث هذه المنطقة إبان قيام صالح بتأسيس إمارته ، إذ أخذ الإمبراطور باسيل الثاني ٩٦٦ — ١٠٢٥ م إبتداء من أوائل القرن الحادي عشر الميلادي يتجه وجهة غربية في حروبه وفتوحاته ، وقدم لذلك بعقد معاهدة صلح ومهادنة مع الخلافة الفاطمية مداها عشر سنوات ابتداء من سنة ١٠٠١ م^(١) ، وانطلق بعد ذلك بخوض حروباً ضارية في بلغاريا دامت سبع عشرة سنة إبتداء من سنة ١٠٠١ — ١٠١٨ م تمكن خلالها من إنزال بعض الهزائم بخصمه صموئيل

Grousset : L'Empire du levant. P. 125-9

(١)

Vasi Vasiliev: Hist. de L'Empire Byzantin;

I. P. 412

Brehier : Vie et Mort de Byzance, P. 229

ملك البلغار (١) .

ولم يكد باسيل ينتهى من هذا الصراع حتى دخل فى صراع آخر استغرق معظم السنوات الخمس الأخيرة من حكمه (١٠٢٠ — ١٠٢٥) شغل أثناءها بمحاولة السيطرة على إيطاليا والاستعداد لإخراج العرب من صقلية ، فضلا عن محاولة تأمين حدود الإمبراطورية عند القوقاز (٢) وكذلك العمود في وجه الأتراك الذين أخذوا ينسابون إلى أملاك الإمبراطورية البيزنطية .

وقد أعقب وفاة باسيل الثانى في سنة ١٠٢٥ م فترة ركود في حياة الإمبراطورية البيزنطية ، وخاصة في الميدان الخارجى (٣) ، وكان ذلك في نفس الوقت الذى أخذ المرداسيون يقومون بإرساء حكمهم في شمال الشام فصادفهم في ذلك حظ موآت وفرصة سانحة . ذلك أنه خلف الإمبراطور باسيل الثانى على العرش الإمبراطور قسطنطين الثامن (١٠٢٥ — ١٠٣٨) ولم يكن له نشاط خارجى ملموس ، بل إنه سجل بعقد إتفاقية صلح ومهادنة مع الخليفة الظاهر الفاطمى سنة ١٠٢٧ (٤) ٤١٨ هـ فدلل بذلك على رغبته في إحلال السلام في الشرق .

(١) عمر كمال توفيق : تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ص ١١٨ ،

أسد رستم : الروم العرب ، ج ١ ص ٥٧

(٢) Ostrogorsky : Hist. of the Byzantine State - P. 273

(٣) عمر كمال توفيق : تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ، ص ١١٨ — ١١٩

Oman : The Byzantine Empire. P. 244

Camb. Med . Hist. 5. P. 256

(٤)

Byzantium. edited by Eaynes and Moss. P. 317.

ويهمنا من ذلك كله ، أن الفترة الأخيرة من حكم باسيل الثاني واللاحقة لموته وهي التي شهدت نشاط صالح بن مرداس لتأسيس إمارته ، انسمت بهدوء ظاهر من قبل السياسة الخارجية البيزنطية ورغبة من حكومتها في عدم الانغماس في أحداث المنطقة ، وذلك باستثناء ما كان يشهده دوق أنطاكية البيزنطي في علاقاته بجيرانه المسلمين في شمال الشام ^(١) .

أما بالنسبة لعلاقة صالح بالأمراء اللقرييين ، فليس ثمة ما يوحي بوجود عداوة أو نزاع بينه وبينهم ، بل على عكس ذلك ، تؤكد المصادر قيام صالح ابن مرداس بالوساطة فيما كان يثور بينهم من نزاع ، وتحدث عما كان يربطهم بهذا الأمير الجديد في حجاب من علاقات ود وحسن جوار ، والمعروف أنه قامت في ديار بكر إمارته كردية أسسها بنو مروان الأكراد ابتداء من سنة ٩٩٠ م (٨٣٨٠) عمرت في ميافارقين واستمرت نحو قرن من الزمان ^(٢) . وتشير الدلائل إلى قيام نوع من الود بين أمير الأكراد نصر الدولة بن مروان وبين صالح بن مرداس ، لا بد وأن محوره وأصله اتجاه كل منهما إلى الاستقلال عن الخلافتين في بغداد والقاهرة ، وسلوك طريق ذاتي في الحكم بعيداً عن مراكز القوى في الشرق ، فضلاً عن تشابه الظروف التي تمخضت عن تأسيس هاتين الإمارتين ^(٣) .

(١) Crousset : op. cit. P. 126 - 7

(٢) ابن الأزرقي الفارقي : تاريخه ، ص ٥١ - ٥٢

Amedroz : The Hist. of the City of Mayyafarigin.

P. 795,798 (J. R. A. S. 1902)

(٣) الفارقي : نفس المرجع ، ص ٥٨

وتحدث المراجع عن قيام صالح بن مرداس بدور الوسيط في حل النزاع الذي نشب بين نصر الدولة المرواني الكردي — أمير ديار بكر — وبين عطير النميري أمير الرها ، وأن صالحاً شفع أكثر من مرة لدى الأمير الكردي في عطير هذا . وكان ذلك فيما بين سنتي ٤١٦ - ٤١٨ هـ ، فقد كانت الرها في يد عطير ، وهو من بني نمير أحد الفروع القيسية في شمال العراق (١) ، ولسكنه أساء السيرة في أهلها ، فكانت أهل المدينة الأمير الكردي ليسلموا البلد إليه ، فأرسل إليهم نائبه بآمد ويدعى زنك ، فاستولي على المدينة سنة ٤١٦ هـ (١٠٢٦ م) . وهرع عطير النميري إلى صالح بن مرداس يطلب شفاعته لدى الأمير الكردي لاسترداد مدينته ، وبعد تدخل صالح في الأمر وقيامه بالوساطة في هذا الموضوع رضى الأمير الكردي برد نصف المدينة فقط إليه وتسلم عطير نصف البلد ظاهراً وباطناً وأقام فيه مع نائب نصر الدولة ، ولكن سرعان ما دبت الخلافات من جديد بين عطير ونائب المروانيين بالرها ، لقي عطير على أثرها مصرعه بتجريض من النائب الكردي زنك ، مما دعا آل نمير العرب إلى طلب الثأر له ولم تهدأ لهم نائرة حتى قتل زنك عام ٤١٨ هـ ، وللمرة الثانية يتدخل صالح بن مرداس ليشفع لدى الأمير الكردي لرد الرها برمتها إلى ولد عطير المقتول وإلى شبل النميري زعيم النميريين ، فسلمت المدينة إليهما في النهاية (٢) .

(١) ابن خلدون : الغبر ج ٢ ص ٣٠٩ - ٣١٠

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١ ص ٣٢٢ - ٣٢٣

ابن الوردي : تاريخه ج ١ ص ٣٣٩

أبو الفدا : المختصر ج ٢ ص ١٥٧

ويهمنا من ذلك كله قيام صالح بن مرداس بدور بارز إبان هذه الأحداث،
 فضلا عما تذيى عنه هذه الوقائع من تأكيد علاقة الود وحسن الجوار بينه وبين
 الأمراء المجاورين . وليس من شك في أن الإمارة المرادسية كانت في السنوات
 الأولى لتأسيسها بحاجة إلى نوع من الاستقرار وحسن الجوار، حتى يمكن أن
 تنقلب على المتاعب التي أثارها بانفصالها عن الخلافة الفاطمية واستقلالها بحلب
 عن القاهرة .

وإذا كانت الإمبراطورية البيزنطية قد انصرفت عن شئون الشام بمشاغلمها
 في أوروبا وعلى حدودها في أقصى الشرق ، وإذا لم يكن هناك أمير من أمراء
 النواحي القريبة له من الطموح ما يرقى إلى مضابغة الإمارة المرادسية الناشئة
 أو يجعلها هدفا من أهدافه أو يحاول ضمها وسلب استقلالها ، فإن الخلافة
 الفاطمية لم تستسلم لضيقاع هذه الإمارة من أيديها ولم تأل جهدا في سبيل
 استعادتها وانقضاء على البدوى الذي أطاح بقدر كبير من هيبتها وسلطانها في
 شمال الشام . هذا وإن كنا سنعرض بالتفصيل للعلاقات بين المرادسيين
 والفاطميين فيما بعد ، إلا أننا نرى لزاما علينا الآن الإشارة إلى مدخل هذه
 العلاقات في مرحلة تأسيس الإمارة المرادسية في إيجاز، على أن نعود إليها
 بالتفصيل فيما بعد .

ذلك أن قيام الحلف العربي بين القبائل الكبيرة في بلاد الشام ، والذي
 عرضنا له من قبل ، والذي تمخض عن قيام الإمارة الكلاية في حلب واستيلاء
 آل الجراح على أجزاء من فلسطين ، هذا الحلف قام في فترة مواتية وفرصة
 سانحة نظرا لاختلال أمور مصر بعد اختفاء الحاكم سنة ٤١١ هـ (١٠٢٠ م)
 ووفاة ست الملك التي سادت الدولة بعده ، بالإضافة إلى أن الظاهر لإعزاز

دين الله (١٠٢١ - ١٠٢٦ م) الذى خلف أباه وهـ - و طفـ لم يكن لديه ما يؤهله الاضططلاع بدور كبير فى أحطاث تلك الحقبة بسبب صغره وضعف بدنه واستبداد رجال الدولة بالأمر دونه (١) . هذا فضلا عما أصاب مصر من كوارث اقتصادية نتيجة انخفاض النيل وانتشار القحط والمجاعة والأوبئة فى عامى ١٠٤٣ - ١٠٤٤ م وهى نفس الفترة التى نشط فيها الحلف العربى فى بلاد الشام (٢) . ويبدو أن هذه الأمور كانت معروضة على القادة العرب حيناً بدأوا مشروعاتهم الكبيرة لاقتسام أملاك الخلافة الفاطمية فى بلاد الشام (٣) .

لكن هذا الوضع لم يستمر طويلاً ، فقد تولى الوزارة فى مصر الوزير الجرجرائى فأتى له أن يلعب دوراً هاماً وخاصة بعد موت ست الملك فلم يظهر أمر هذا الوزير إلا بعد موت عمه الظاهر - ست الملك - بعد خمسة عشرة وأربعمئة (٤) ، ذلك أن هذا الرجل حاول أن يستعيد أملاك الخلافة فى بلاد الشام ويقضى على الحلف انقائى بين زعماء القبائل هناك ، ونجح فى ذلك الى حد كبير .

ففى سنة ٤٢٠ هـ (١٠٢٩ م) ، وبعد نحو ست سنين من حـكم صالح بن مرداس فى حلب ، انتدب الجرجرائى للقائد التركى أنوشتكين الدزبرى - الذى كان حاكماً على قيصريّة من قبل الخلافة ، ثم حاكماً على بعلبك (٥) -

(١) أبو الحسن : النجوم الزاهرة : ج ٤ ص ٢٥٤

(٢) Wiet : L'Egypte Arabe. P. 217

(٣) Camb. Med. Hist. 5. P. 255

(٤) أبو الحسن : النجوم الزاهرة : ج ٤ ص ٢٤٨

(٥) Wiet : op. cit. P. 216

وكله بمحاربة آل الجراح للطائيين وحلفائهم من بني كلاب ، وأمدّه بجيش كبير . فسار هذا إلى بيت المقدس لحرب العرب (١) ، وفي نفس الوقت استغاث حسان بن المقرج بن الجراح بحليفه صالح بن مرداس ، فجمع هذا جيشه ولاحق به على شاطئ نهر الأردن قرب طبرية ، وتجمعت طىء ومن صابها من الأعراب ، (٢) ، وتكاثرت العرب واصطفوا عند الأفحوانة جنوب بحيرة طبرية في انتظار الدزيرى ، فلما وصل هذا بجيشه وجرت الحرب ضارية بين الفريقين فى ١٤ مايو سنة ١٠٢٩ ، انهزم فيها العرب هزيمة ساحقة وقتل صالح بن مرداس وولده الأصغر ، وفر ولد آخر له يدعى نصر إلى حلب ، وأنقذت رأس صالح إلى مصر ، وطيف بها ، كما أنقذت جثته إلى صيدا لتصلب على بابها (٣) واسترد الفاطميون بعلبك وحمص وصيدا ورفنية وحصن ابن مكار ، وزادوا فى التضييق على إمارة حلب (٤) .

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ٧ ص ٣٣٣ - ٣٣٤

(٢) أخبار الدول المنقطعة ، ورقة ٦٦ (مخطوط) ،

أبو الفدا : المختصر ، ج ٢ ص ١٤١ ،

ابن الجوزى : المنتظم ، ج ٨ ص ٤٥

ولم يشترك بنو كلب فى هذه الحرب لأن سنان بن ذبيان زعيمهم كان قد توفى سنة ١٠٢٨

واستسلم خليفته لطاعة الفاطميين Camb. Med. Hist. 5. P. 255

(٣) ابن خلكان : وفيات ، ج ٢ ص ١٨٠ ، دور التيجان : ورقة ٣٠٧ (مخطوط)

ابن القلانسي : ذيل ص ٧٣ - ٧٤ ، ابن خلدون : ج ٤ ص ٢٧٢ ،

Lane - poole : Moh. Dynasties. P. 114.

(٤) يحيى بن سعيد : التاريخ ، ص ٢٥٣ ،

Schlumberger : L' Epopée II. P. 697. III, P. 71

وهكذا انجالت الموقعة عن انقراط عقد التحالف العربي في بلاد الشام
وطرد آل الجراح من فلسطين ، حيث لجأ زعيمهم حسان إلى أراضى بيزنطية (١) ،
وأصبح الدزبري حاكما على دمشق ، وأقوى رجل في بلاد الشام ، ثم ما لبث
أن بدأ في التضييق على حلب ، حتى غدا من الصغب التكن بمصير هذه الإمارة
بناشئة .

وإذا كان قد قيض للإمارة النجاة في هذه المرة ، فإن ذلك لم يكن راجعا
لقوتها أو سرعة القثام شمالها ، بقدر ما كان راجعا لانصراف الدزبري عن
متابعة جهوده في شمال الشام ، وعدم إجهازه عليها ، فضلا عن تلاحق الأحداث
في بلاد الشام ومصر وتدخل للبيزنطيين ، مما منح حلب فرصة أخرى
للاستمرار والبقاء تحت الحكم المرداسي .

وعلى الرغم من أن مقتل صالح بن مرداس جاء بعد سنوات قليلة من تأسيسه
الإمارة ، وجاء ضربة فوية لهذه الدولة الناشئة ، إلا أنه كان قد نجح في إرساء
قواعد الحكم المرداسي في حلب وملحقاتها وأسس إمارة نابغة لأول مرة ابني
كلاب في شمال الشام ، ولم تذهب جهوده عبثا ، فقد خلفه أبناءه وأحفاده من
بعده ، واستطاعوا الحفاظ عليها مدة تقرب من نصف قرن من الزمان .

.. ..

(ج) خلفاء صالح بن مرداس

(١) شبل الدولة نصر بن صالح ٤٢٠—٤٢٩ هـ (١٠٢٩—١٠٣٨ م)

آلت حلب بعد مقتل صالح سنة ٤٢٠ هـ (١٠٢٩ م) إلى ابنه شبل الدولة نصر ، بينما ولي القلعة ابن آخر لصالح يدعى نمال . وهكذا أصبح الامارة المرداسية أميرين من أبناء صالح بن مرداس ، على الرغم من تقلص ألاكها وتعرضها للتضييق الشديد^(١) .

على أن الصفاء لم يدم طويلا بين الأخوين المرداسيين ، فسرعان مادب بينهما الخلاف بعد نحو عام من تلك الأحداث ، وانتهر نصر فرصة خروج نمال من المدينة وقام بالاستيلاء على القلعة وانفرد بالامارة دون أخيه ، وهو ضه عنها بالرحبة وبالس ومنبج ، وقد اختلفت روايات المؤرخين فيما يختص بهذه الحادثة ووقت وقوعها ، فالمؤرخ كمال الدين بن العديم ، وهو المؤرخ الوحيد الذي أعطى تفصيلات ضافية عن ذلك ، روى عن هذه الحادثة روايتين مختلفتين ، قال في الأولى منها: أن ذلك حدث قبل نشوب الحرب مع الإمبراطور البيزنطي رومانوس الثالث ، وهي الحرب التي جرت في أغسطس سنة ١٠٣٠ م (شعبان سنة ٤٢١ هـ) ، والتي سنعرض لها بالتفصيل فيما بعد ، إذ خرج نمال إلى الحلة بظاهر حلب لإعادة زوجته الغاضبة ، فانتهر نصر الفرصة واستولى على القلعة من يد رجال أخيه قائلا لهم : « أن من قدم أخى على فقد أساء ،

(١) ابن العديم : ربيعة ، ج ١ ص ٢٣٧

لأنني أولى بمدارة الرجال وهو أولى بمدارة النساء» (١)، فاستنجد ثمال بالأعراب من بني خفاجة وغيرهم، وعزم على مهاجمة حلب، ففكر نصر في الاستعانة بالإمبراطور البيزنطي، ولكن سرعان ما عاد العصفاء بين الأخوين بعد توسط شيوخ العرب بينهم، وخاصة بعد أن أخذت الأخبار تترى بقرب وصول الجيش للبيزنطي، فاتفقا على أن ينفرد نصر بحلب ويعوض ثمال عنها بيبالس والرحبة ومنبج (٢).

وفي الرواية الثانية يقول ابن العديم: أن ذلك حدث بعد الحرب مع الإمبراطور، فبينما خرج نصر ليباشر القتال ضد البيزنطيين، ظل ثمال في القلعة يدافع عنها، وفي نفس الوقت أخرج كل منها حرمه إلى البرية فلما انتهت الحرب بهزيمة البيزنطيين واطمأن كل منهما على موقعه. خرج ثمال لإعادة حريمه من البرية وعندئذ سارع نصر بالاستيلاء على القلعة في غيبة أخيه، ثم عوضه عنها بالمدن المذكورة وأعمالها (٣).

وقد ساعد على غموض هذه الأخبار واختلاف الروايات فيها، سكوت المؤرخين الآخرين أمثال ابن الأثير وابن خلدون وأبي الفدا وابن الجوزي، واكتفائهم بالإشارة إلى انفراد نصر بحكم حلب، دون تفصيل في ذلك أو تحديد (٤). على أنه يبدو أن رواية ابن العديم الأخيرة أقرب إلى الحقيقة،

(١) المرجع نفسه، ص ٢٣٨

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٣٩

(٣) المرجع السابق، ص ٢٤٥

(٤) ابن الأثير: الكامل ج ٧ ص ٢٦١، ابن خلدون: المعبر ج ٤ ص ٢٧٢ - ٢٧٣

أبو الفدا: المختصر ج ٢ ص ١٤١، سبط ابن الجوزي: مرآة ج ٨ ورثه ٣٤٩

حو أن انفراد نصر بحكم حلب حدث بعد الحرب مع اللبزنطيين، وبعد أن اطمأن
 «وشعر بالأمان من هذه الناحية ، فلا بد وأن ذلك كان إحدى ثمرات انتصاره
 على الأمبراطور ، وأنه كان نتيجة طبيعية لازدياد هيئته ونفوذه بعد هذا
 الحدث الكبير .

انفرد نصر فعلا بالإمارة فراح يتخذ من الخطوات ما يدهم نفوذه وسلطته
 «فأخذ وزيراً يدعى أبا الفرج المؤمل بن يوسف الشماس ، وكان نصرانياً اشتهر
 بحسن التدبير وحب الخير ، وكان أخوه ناظراً في البلد البراني فعمره وعمر
 المساجد البرانية ، (٣) ، وأخذ نصر يمارس سلطته في حلب على مدى تسع
 سنوات امتدت من سنة ٤٢٠ - ٤٢٩ هـ (١٠٢٩ - ١٠٣٨ م)»

وليس هناك ما يشير إلى وقوع أحداث داخلية خطيرة لإبان هذه الفترة
 باستثناء حادثين وقعوا في سنة ٤٢٣ هـ (١٠٣٢ م) على الرغم من أنهم - كما مر - بسلا
 ولم يقطعا تسلسل عهد هذا الأمير المرداسي .

ففي فبراير سنة ١٠٣٢ م (ربيع الأول سنة ٤٢٢ هـ) حدثت فتنة الدروز -
 الجماعة المذهبية المتطرفة - حين اجتمعوا بجبل السماق وجاهروا بمذهبهم
 وخرّبوا ما عندهم من المساجد ... وتفاقم أمرهم وتمحصنوا في مغائر شاهة على
 «الغصا» ، وانضوى إليهم خلق من فلاحى حلب وطمعوا بالاستيلاء على

البلاد، (١)، ويبدو أن هذه الحركة أزعجت كلاً من حاكم أنطاكية البيزنطي (٢)،
نقتاس، المعروف في المصادر العربية باسم « نيقيطا »، وكذلك أمير حلب
نصر، فقد أسرع نقتاس بمهاجمة الدروز، وحاصرهم في المغائر ودخن عليهم،
وكذلك خرج نصر وقام بمعاونته في ذلك، حتى استسلم الدروز فقبض على
دعاتهم وجرى إعدامهم في ربيع الأول سنة ٤٢٣ هـ (فبراير سنة ١٠٣٢ م) (٣).

وفي نفس العام حدثت فتنة أخرى قام بها سالم بن مستفاد، زعيم الحزب
الحداني المشار إليه من قبل، وكان صالح بن مرداس قد استماله وولاه رئاسته
حلب وقدمه على الأحداث، وأقره نصر بعدئذ في وظيفته، غير أن خلافاً وقع
بين الاثنين في ذلك العام جمع ابن مستفاد على أثره أحداث حلب وكثيراً من
رجالها وهزم على محاصرة القلعة، ثم دارت المفاوضات بين الطرفين لكنها لم تنته

(١) الدوروم اتباع محمد بن اسمعيل الدرزي الذي نادى بتأليه الحاكم بأمر الله، واتباع ذلك
أساليب رخيصة لشرده عن طريق شرب الخمر وارتكاب المنكرات، فانضوت
إليه جماعات من أهل الشام، وكانت هذه الثورة هي الثانية للدروز في سورية، وكانت الأولى
في عهد إمامهم سنة ٤١٠ هـ حين نزل محمد الدرزي بإحدى التيمم غربى دمشق واستمال بعض
الجماعات ولكنه تعرض هو وجماعته للهجوم، فانتهت ثورته وتوفي الدرزي في نفس العام وخلفه
رجل آخر على الجماعة ويدعى حمزة بن علي، فواصل نشر الدعوة :

Demombynes : Moslim Institutions. P.41 (Trans. by I. Mag-
regon)، Wiet : op. cit. P. 212 — 13 — 215

محمد كرد علي : خطط الشام ج ٢ ص ٢٦٩ ، ج ١ ص ٢٥١ ،

ابن العديم : زبدة ، ج ١ ص ٢٤٨ — ٢٤٩

(٢) عينه الإمبراطور رومانوس الثالث حاكماً على أنطاكية قبل عودته من حملته الفاشلة على
حلب : Schlumberger : op. cit. III. P. 91

(٣) ابن العديم : زبدة ، ج ١ ص ٢٤٨ — ٢٤٩

إلى نتيجة بسبب معاية كاتب نصراني بينهما، فاندأعت الحرب وانتهت بالقبض على ابن مستفاد، وأودع للسجن بالقلعة، ثم ما لبث أن أمر نصر بإعدامه خنقاً (١).

تلك كانت أم الأحداث الداخلية، في عهد نصر المرداسي، وهذه الفعن في الحقيقة لم تكن في خطورة ماواجهه من أخطار خارجية من جانب البيزنطيين والفاطميين، وهي الأحداث التي سنفرد لها صفحات خاصة.

على أن نهاية نصر لم تكن على أيدي البيزنطيين الذين نهطوا الحربه في جيش جرار، بل لأنها كانت على يد أنوشتهسكين الدزبري، عدو المرادسيين الأول (٢)، الذي استطاع إنزال الهزيمة بجيش نصر وأخيه نمال غربي اطمين في شعبان سنة ٤٢٩ هـ (مايو سنة ١٠٣٨ م) ولقي نصر حتفه في تلك المعركة وغدا الدزبري أقوى رجل في بلاد الشام من جديد (٣).

(١) المرجع السابق، ص ٢٤٩ — ٢٥٠

(٢) Sobernheim : Encyc. Isl. art. «Salih Ibn Mihras»

(٣) ابن العديم : المرجع السابق ص ٢٥٠ — ٢٥١

Lane — poole : Moh. Dynasties, P. 114

(٢) معز الدولة ثمال بن صالح

٢٢٩ - ١٥٤ هـ (١٠٣٨ - ١٠٦٢ م)

بعد مقتل نصر ، آلت حلب إلى أخيه معز الدولة ثمال بن صالح ، الذي
نجاه من القتل في موقعة لطمين واستطاع الفرار إلى حلب (١) .

والواقع أن هذا الأمير المرداسي ، الذي يأتي ترتيبه الثالث بالنسبة لأمرأه
بنى مرداس ، يعتبر شخصية فريدة بين أمرأه أسرته ، كما يعتبر عصره عصرأه
فريداً في تاريخ هذه الإمارة . فبالنسبة لشخصيته ، فقد أجمعت المراجع على
أنه كان كريماً ممدحاً حليماً واسع الصدر (٢) ، وكان إلى جانب ذلك فارساً
مقاتلاً لم تفته شهامة العرب ، ولم تقعد به الأبهة والعظمة ومظاهر الترف والرخاء
على الرغم من إثاره العافية في كثير من الأحيان مع القوى المجاورة ، وتخايه
عن ملك آباءه وقناعته باليسير عوضاً عنه . ولكنه مع ذلك كان أحد المعالم
البارزة في عهد الإمارة المرداسية ، إذ ملأت أخباره وأحداث عصره الكتب
المعاصرة واللاحقة ، وعده عصره العصر الذهبي للإمارة المرداسية ، لاهتمامه
بشؤون الرعية ودأبه على رعاية شعبه ورفع الظلم والغبن عن الناس ، وكان
قصره ملتقى الأدباء والشعراء والمادحين ، وعمره عهد رخاء مادي وفكري ،
وليس من شك في أن عصره كان صدر العهد المرداسي كله ، وحجر الزاوية

(٢) ابن الأثير : الكامل ج٨ ص ١٦ ،

Camb. Med. Hist. 5. P. 257 — 8

(٤) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٨ ص ٢٢٧ ، ابن العديم : زبدة ج١ ص ٢٧١

ابن الأثير : الكامل ج٧ ص ٢٦٢

فيه (١) . أما بالنسبة لحكمه ، فقد امتد قرابة ربع قرن من الزمان ، من سنة ٤٦٩ هـ إلى سنة ٤٥٤ هـ (١٠٣٨ - ١٠٦٢ م) تولى خلاله أمر حلب ثلاث مرات وأبعد عنهما مرتين خلال هذه الفترة الطويلة . ويمكن تقسيم عهده إلى خمسة أقسام :

(١) ولايته الأولى على حلب من شعبان ٤٢٩ هـ إلى رمضان من نفس العام .

(٢) فترة لتجائه إلى الجزيرة من ٤٢٩ هـ — ٤٣٣ هـ .

(٣) ولايته الثانية على حلب من ٤٣٣ هـ — ٤٤٨ هـ .

(٤) فترة لتجائه إلى مصر من ٤٤٨ هـ — ٤٥٢ هـ .

(٥) ولايته الثالثة على حلب من أوائل عام ٤٥٣ هـ إلى أواخر عام ٤٥٤ هـ .

أما عن ولايته الأولى ، فإنها لم تزد على أيام جاءت في النصف الثاني من شعبان سنة ٤٢٩ هـ بعد نجاحه من المعركة ، كما سبقت الإشارة ، فدخل حلب هو وشبيب بن وثاب في ١١ شعبان ، وسارع بمحاولة تنظيم شؤون الإمارة واستماله قلوب الرعية طمعاً في الصمود أمام جيش الخلافة الساعى إلى الشمال في لثمه ، ولاحت في الأفق بوادر آمال في الصمود حين وعده كبار رجال المدينة بالمعونة والمؤازرة ، فطفق يتقرب إلى الرعية ويستميل قلوبهم : « فأطلق للتجار ديونا كانت لهم على أخيه مقدارها ثلاثون ألفاً ذهباً ليستميل الناس بذلك إلى طاعته » (٢) ، وأخذ يعد للقتال ، لكن آماله كلها ما لبثت أن ولت

(١) ابن العديم : زبدة ، ج ١ ص ٢٥٥

أبو الفدا : المختصر ، ج ٢ ص ١٤١ - ١٤٢

(٢) ابن العديم : زبدة ، ج ١ ص ٢٥٥

حين أمّـر إليه أحد رجال المدينة البارزين ويدعى خليفة بن جابر الكعبي بقوله « ربما خذلتك عشيرتك وقعد بك أهل البلد ، ولم يمكنك الثبات والمقاومة أو الانصراف على حال السلامة » . ويقول المؤرخ ابن العديم في تعليقه على ذلك ، إن هذا الرجل « أراد بذلك غشه لانهجته » (١) . ومما يكن من أمر هذا المقال ، فإن نمالا آثر العافية فعلا وخاصة بعد أن أنته الأخبار بقرب وصول الجيش الفاطمي إلى حلب ، فسارع بتولية مقلد بن كامل بن مرداس على قلعة حلب وتولية خليفة الكعبي المذكور آنفا على المدينة ذاتها ، وأمرع بالخروج منها قاصدا الجزيرة مصّة نجدا بأخواله من بني خفاجة (٢) .

ولم يكد شمال يمضى حتى وقعت الفتن في حلب ونهبت دار السلطنة وأموال التجار وأيضا سفير بزنطي كان قد قدم لتوّه إلى حلب ، فنهبت حاجياته ومناعه ودوابه ، ولم تنته هذه الاضطرابات إلا بوصول الدزيري في ٧ رمضان حيث تسلم المدينة والقلعة وخرج المقلد بن مرداس بما أخذه من أموال القلعة ولحق بشمال في الجزيرة ، وغدت حلب ولاية فاطمية وظلت كذلك طيلة أربع سنوات .

أما المرحلة الثانية في عهد هذا الأمير ، وتشمل تلك السنوات الأربع ،

(١) المرجع نفسه . ونفس الصفحة

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ٢٦١

ويقال أن زوجة أخيه « السيدة » التي خرجت معه أخذت من القلعة خمسين ألف دينار وأخذ شمال نفسه ثلاثين ألفا وذلك قبل رحيلها إلى الجزيرة . ابن العديم : زبدة ج ١ ص ٢٥٦ .

فكانت محبة بالنسبة لأمير فقد ملكه وحرّم من إمارته ، ولكنه مع ذلك كان يتطلع لاستعادتها من أيدي الفاطميين ، لذلك عمل جاهدا ليمكن لنفسه في أرض الجزيرة والوصول إلى أقرب نقطة من حاب لمراقبة الأوضاع فيها (١) .

فبعد نحو سنتين قضاهما لاجئا في مضارب العرب ، لاحت له فرصة جديدة حين توفي شبيب بن وثاب النميري سنة ٥٤٣٠ هـ ، واقتسم إخوته أملاكه بأرض الجزيرة واستطاعت أخته علوبة المعروفة باسم « للسيدة » — وكانت زوجة لنصر أخى ثمال — أن تستولى على المدينة التي تقيم بها وهي مدينة الرافقة (٢) ، وعندئذ رغبت في أن تزوج ثمال ، لتقيم هيبته به ويحفظ أمرها ، ووجد هو في ذلك فرصة للتمكين لنفسه ريثما ينجلى الأمر في حاب ، سيما وأنه أعقب ذلك باستيلاء على الرقة ليشرف منها على شمال الشام ويراقب الأوضاع في حاب ، إذ يشير المؤرخ سبط بن الجوزي إلى أنه اضطر في سبيل أخذ الرقة إلى الزواج من امرأة شبيب المتوفى التي لم يكن لها من شبيب سوى طفل صغير هو منيع بن شبيب ، فحصل ثمال عن طريق عن الزواج السيامي على الرقة ، أي

(١) ابن خلدون : المعبر ج ٤ ص ٢٧٢ — ٢٧٣

ابن القلانسي : ذيل ص ٧٥ — ٧٦

Camb. Med. Hist. 5. P. 257 — 8

(٢) « بلد متصل البناء بالرقة وهما على ضفة نهر الفرات وبينهما مقدار ثمانية ذراع » ياقوت :

معجم ج ٢ ص ٧٣٤ — ٧٣٥

أنه تزوج أخت شبيب وامرأته ليحصل على الرافقة والركة^(١)، ولعل أهمية ذلك تكمن في رد الفعل الذي حدث عند الدزبري حينذاك إذ سارع هذه بشراء قلعة دوسر ، ليكون مطلقا عليه ،^(٢) .

وقد أخذ نبال بعدئذ برقب الأوضاع في حلب حتى غدت الظروف مهيأة فيها ، خاصة بعد أن ساءت العلاقات بين الدزبري والخلافة ، فقام نبال بجمع عشيرته لمهاجرة حلب ، وواتاه الحظ بوفاة الدزبري في جمادى الأولى سنة ٤٣٣ هـ ، (يناير سنة ١٠٠٢ م) وبعث إليه المستنصر بتوقيعه بملك حلب ، فسار إليها ونسلمها في جمادى الآخرة من نفس العام ، واستعاد بذلك إمارته وأنهى مرحلة عصيبة في حياته كان خلالها لاجئا في أرض الجزيرة^(٣) .

أما المرحلة الثالثة في عهد هذا الأمير ، والممتدة بين عامي ٤٣٣ - ٤٤٨ هـ فاعلمنا أهم مراحل حياته وأعظمها على الإطلاق ، ليس لطولها فحسب ، أو لما أصاب الإمارة خلالها من السعة والرخاء ، حيث « درت الأرزاق في أيامه على الناس وأحسن السيرة معهم وجاء بالعطاء ، ... وإنما لنجاحه في معالجة المصاعب الداخلية والخارجية التي واجهته ، وانجاحه في حفظ إمارته وسط أنواء وعواصف عاتية عسفت بالمنطقة كلها^(٤) .

(١) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ١ ، ورقة ٣٥ - ٣٦

(٢) ابن العديم : زبدة ج ١ ص ٢٥٩ . وهذه القلعة تقع على نهر الذرات بين نبال والركة

ترب صفين . ياقوت : معجم ج ٢ ص ٨٤

(٣) ابن العديم : زبدة ، ج ١ ص ٢٦٠ - ٢٦١

(٤) المرجع نفسه ص ٢٦٢

ذلك أنه نجح في التصدي لجيوش الخلافة الفاطمية مراراً عندما هاجمته بسبب تقصيره في حمل الأموال إلى مصر ، كما نجح في فتح حمص وحماة واستخلاصها من أيدي ولاية الفاطميين لتستعيد الإمارة حدودها القديمة أيام أبوه صالح بن مرداس تقريباً ، وقضى بقية سنوات هذه المرحلة بعد سنة ٤٤١ هـ في هدوء واستقرار ، وأطمأن ونشر العدل وطابت قلوب الرعية .
وقلد رجلاً من أهل الرحبة يدعى أبا الفضل إبراهيم بن عبد الكريم بن الأنباري وزارته ، ولقبه الفقيه السكافى « وكان رجلاً حسن السياسة » ثم ولى القضاء بحلب للقاضي أبا محمد كسرى بن عبد الكريم بن كسرى ، وذلك بعد موت أبي الحسن بن أبي جرادة سنة ٤٤٥ هـ (١٠٥٣ م) (١) .

ووصل بعد ذلك فخر الدولة بن جبير إلى حلب فقلده ، ثم ال الوزارة « وفرض أموره جميعاً إليه ، فاستقامت ونعماعف ارتفاعه وضبط أمواله » ولكن وقعت وشاية به إلى نعال ، وكان نعال له ولاء وذمة فنبهه على ماسعى به عليه فاستأذنه ابن جبير فى المفارقة ، فأذن له نعال فهاجر حلب سنة ٤٤٦ هـ وقصد أمير ديار بكر للروانى (٢) فولى نعال الوزارة بعده سديد الدولة أبا

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ٢٦١ ، ابن العديم : زبدة ج ١ ص ٢٦٩

ابن الوردي : تاريخه ج ١ ص ٣٢٣ — ٣٢٤

(٢) ابن جبير شخصية هامة وزر بعدئذ للخليفة المقتدي العباسى ٤٦٨ — ٤٨٧ هـ ، وعزله الخليفة سنة ٤٧٦ هـ واستوزر أهدأ بنائه ويدعى عميد الدولة ، لكن السلطان ماسكشاه مالبث أن طالب من الخليفة تسير ابن جبير وبنه الى أصفهان فأرسلوا إليها فمقد السلطان لابن جبير على ديار بكر فسار إليها عام ٤٧٧ هـ ، ابن الأثير : التاريخ الباهر ص .

Amedroz : The Hist. of the City of Mayyafarigin. P. 786 - 7

(J.R.A.S. 1902)

القاسم هبة الله بن محمد بن الربيعي الرحبي .

على أن هذه المرحلة الثالثة والهامة في حياة نبال انتهت نهاية غير منتظرة ، إذ فضل التنحي عن حكم حلب طواعية وآثر تسليمها للفاطمين . ويبدو أنه أدرك صعوبة الحفاظ على إمارته وسط أطماع القوى المجاورة ، فضلاً عن مضايقات بني كلاب ، فقد امتدت أعينهم إلى ما في يده واستقلوا ما كان يصل منه اليهم ، واستبد بهم الطمع وقتلوا دولانا لما صرت إلى ما صرت إليه ، وما أنت بأحق منا بذلك ، (١) . كما يبدو أن ما اتخذته نبال من إعادة الرقة والرافقة إلى منيع بن شبيب صاحبها الشرعي قد أثار حفيظة هؤلاء السكاليين ، وأقنعهم بأن أميرهم ماض في إهمالهم لا يوسع في أرزاقهم ولا يمنحهم من الإقطاعات ما يجود به على غيرهم من النيريين ، فزاد اشتطاطهم ، وكثر فسادهم ، وعندئذ آثر نبال ترك الإمارة فتنازل عنها للفاطمين مقابل بعض المدن هي بيروت وعكا وجبيل ، وتسلم عامل الفاطميين مكين للدولة بن ملهم حلب في ذي القعدة سنة ٤٤٨ هـ (فبراير ١٠٥٧ م) (٢) ، وسار نبال

(١) ابن العديم : زبدة ج ١ ص ٢٧٣ ، Camd. Med. Hist. 5. P. 259

(٢) سبط بن الجوزي : مرآة ج ١ ورقة ١١٨ ، ابن العديم : المرجع السابق ص ٢٧٣ - ٢٧٤ وقد ذكر ابن القلانسي وأخذ منه كل من ابن الأثير وابن خلدون وابن ميسر ، أن ابن ملهم تسلم حلب من نبال في ذي القعدة سنة ٤٤٩ و ليس ٤٤٨ هـ وهي رواية يخالف ما نص عليه ابن العديم من أنها كانت سنة ٤٤٨ ، لكن رواية ابن العديم أوثق لأن ابن القلانسي نفسه ينص على أن ابن ملهم قضى بحلب بعدئذ مدة أربع سنوات يخاطب للمستنصر . ولما كان من النابت أن نبالاً استعاد حلب ثانية في نهاية عام ٤٥٢ وأوائل سنة ٤٥٣ فيكون تنازله عنها قد حدث في أواخر عام ٤٤٨ و ليس ٤٤٩ هـ .

إلى مصر ، فلقى من المستنصر من الكرامة والحباء ما لم يلقه وافد منه ولا من آبائه . .

أما المرحلة الرابعة في عهد نبال ، والممتدة من سنة ٤٤٨ — ٤٥٣ هـ فقد قضاها بمصر ، على الرغم من أنه كان يملك بيروت وعكا وجبيل . ويبدو أنه اكتفى بإقامة بعض رجاله بها واستقر مقامه هو بمصر بعيدا عن صخب السياسة وضيغ الحكم لكن هذه المرحلة شهدت في نفس الوقت محاولات أمراء حرداسيين آخرين لاستعادة ملكهم الضائع ، وأبانت عن شخصيتين من أمراء هن ، الأيرة كالا بطمان في العودة إلى حلب وهما : أبو ذؤابة عطية بن صالح ، ومحمود بن نصر بن صالح ^(١) ، ففاز بها محمود بن نصر بن صالح بعد أن أنزل بالفاطميين هزيمة ساحقة قرب تل السلطان في موقعة الفنديق في أغسطس سنة ١٠٦٠ م ^(٢) ، دخل على أثرها حلب واستقر بها مقاما .

أما آخر مراحل حياة نبال ، وهي المرحلة الممتدة من أوائل عام ٤٥٣ هـ ، إلى نهاية عام ٤٥٤ هـ ، فقد قضاها بحلب بعد أن استردها من ابن أخيه محمود ، فلم يكده محمود يستقر بحلب حتى بعث الخليفة المستنصر نبالا من مصر بعد أن صرفه عن عكا وبيروت وجبيل وقال له ... إن هذه الأماكن أخذتها عوضاً

= ابن القليس : ذيل ص ٨٦ ، ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ٢٦١

ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٢٧٣ ، ابن ميسر : أخبار مصر ج ٢ ص ٨

Lane — poole: op. cit. P. 114

(١) أبو العدا : المختصر ج ١ ص ١٤١ — ١٤٢

(٢) ابن القلانسي : ذيل ص ٨٦ — ٨٧ ، سبط بن الجوزي : مرآة ج ١ ورقة ١٤٤ — ١٤٥

عن حلب ، وقد عادت إلى ابن أخيك فتمضي إلى حلب وتستعيدهما منه ،
وأمدّه بالمال اللازم لتحقيق هذا الأمر . (١)

مضى ثمال إلى شمال الشام وطلق يجمع عشيرته ، ومالبت أن نزل بهم على
معرة النعمان في طريقه إلى حلب ، ولما أحس محمود بذلك سارع بالاستنجاد
بالامبراطور البيزنطي وبشبيب بن وثاب النيرى صاحب حران (٢) ورغم
ذلك تعرض محمود لهزيمة قاسية بقرب حلب في صفر سنة ٤٥٢ هـ (١٠٦٢ م) على
يد ثمال ، وانتهى الأمر بعقد صلح بينه وبين عمه ضمن ثمال بموجبه لمحمود
، معيشة بخمسين ألف دينار وثلاثين ألف مكوك غلة ، وآات حلب
وتلعتها لثمال ، فبعث بدمش الخليفة المستنصر بذلك ، فأرسل إليه الخلع . ثم قام
ثمال بإرسال أخيه عطية بن صالح إلى الرحبة فأقام بها (٣) .

ولم تلبث حياة ثمال أن أشرفت على نهايتها حين مرض في ذى القعدة سنة
٤٥٤ هـ (نهاية سنة ١٠٦٢ م) فسارع باستدعاء أخيه عطية من الرحبة وأوصى
به بحلب وولاه الأمر ، ومالبت أن جاز إلى ربه في نهاية ذلك الشهر ، وبذلك

(١) ابن العديم : زبدة ج ١ ص ٢٨١

ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٢٨٤

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ٢٦٢ . وكان على عرش الامبراطورية حينئذ ، الامبراطور
قسطنطين العاشر (دوكاس) ١٠٥٩ - ١٠٦٧ .

Diehl : Hist. of the Ryzantine Empire. P. ١01 - 5

(٣) ابن العديم : المرجع نفسه ، ص ٢٨٦ ، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٢٧٤

انتهت حياة أمير مرداسي شهيد، وربما أشهر أمراء تلك الأسرة ، لحياته الحافلة وعصره الزاهر ، لأنه بالرغم من كل ما حدث — نجح في حفظ استقلال إمارته من الأطماع المحيطة ، خاصة من قبل البيزنطيين (١) . وقد ملأت أخباره صفحات طويلة من المصنفات المعاصرة واللاحقة .

(٣) عطية بن صالح

٤٥٤ — ٤٥٧ هـ (١٠٦٢ — ١٠٦٥ م)

قدر بعدئذ لعطية بن صالح ، ثالث الإخوة ، أن يرث حلب بعد وفاة نبال ،
وقد بدأت المراجع ترد اسمها منذ سنة ٤٥١ هـ حين نجح في الاستيلاء على
الرحبة بعد مقتل البساسيري (١) ، وشارل الفوز بحلب دون ابن أخيه محمود
أثناء تسعي نبال عنها لكنه فشل في ذلك ، فأقام بالرحبة إلى أن استدعاه نبال
منها وعقد له الولاية على حلب في نهاية سنة ٤٥٤ هـ كما سبقت الإشارة .

ورث عطية إذن حلب ، ليصبح رابع الأمراء من بني مرداس وثالث أبناء
صالح ممن تولوا أمرها ، فاستهل عهده بمنح ابن أخيه نبال وبدعي ثابت بن
نمال معرة النعمان وكفر طاب وحماه ، رداً لجميل والده ، ومارس سلطانه كأبيه
حلب الجديد ، لكن ذلك لم يرض — بطبيعة الحال — محمود بن نصر
المرداسي ، المطالب الدؤوب بذلك حلب ، وكان حينئذ مقبلاً بخلته في عين
سليم (٢) فبعث إلى عمه عطية يقول له : « إن معز الدولة (نبال) شرط على نفسه
أن يرد على البلد عند موته لما تسلمه مني وأنا أخذته بسيفي من المصريين عن

(١) ابن العديم : زبدة ، ج ١ ص ٢٧٥

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ٢٦٢ ، أبو الفدا : المختصر ج ٢ ص ١٤٢

ابن الوردي : تاريخه ج ١ ص ٣٢٤ — ٣٢٥

غلبة وقهر ، وهو إرثي من أبي ، . وقد حازت عدالة هذه القضية عطف كثير من زعماء بني كلاب ، فوقفوا إلى جانبه وساروا معه لمنازلة حاب ، وجرى فرض الحصار عليها أكثر من مرة سنة ٥٤٥هـ (١٠٦٣م) لكن الأمر انتهى حينئذ بعقد صلح بين عطية وابن أخيه محمود ، منح الأخير بموجبه إقطاعا بخمسة وعشرين ألف دينار ، من جملة سرمين وبعض ضواحي حلب ،^(١) .

ويبدو أن هذا الإقطاع لم يقنع محمودا ولم يلبه عن طلب حلب ذاتها ، فسرعان ما نقض الصلح وقام في العام التالي على رأس جيش من بني كلاب بالاستيلاء على حماة وكفرطاب ومعر النعمان ، وهي البلاد التي كانت في حوزة ابن عمه ثابت بن ثمال من لدن عمه عطية ، ثم مالبت أن نزل بني كلاب قريبا من حلب ، ولما حاول عطية دفعه عنها أنزل به محمود هزيمة ساحقة فر على أثرها إلى حلب في حالة سيئة ، وحاصر محمود حلب ذاتها وقاتلها قتالا ضاريا ، ومنع تسرب المؤن إليها حتى ، أشرفت على أمر عظيم من الجوع ، وعندئذ لم يجد عطية بدا من عقد صلح جديد مع ابن أخيه سلمه بمقتضاء كل ما بيده عدا حلب والرحبة وبالس ومنبج وعزاز وقنسرين^(٢) .

وكان أن استبد الخوف بعطية وتأكد عزم محمود على طرده من حلب ذاتها ، فقام باسداء طائفة من الترك كانوا قد نزلوا تحت قيادة رجل يدعى

(١) ابن العديم : زبدة ج ١ ص ٢٩٣

(٢) ابن القلانسي : ذيل ٩٢ ، سبط بن الجوزي : مرآة ج ١ ورقة ٢٨٠

ابن العديم : زبدة ج ١ ص ٢٩٤ ،

عاش ابن خن بديار بكر في أراضى الأمير الكردي ، وذلك ليتخذ منهم عطية عضدا
ضد ابن أخيه محمود ، فقدم هؤلاء إلى حلب د في ألف قوس ، فأكرمهم عطية
وبالغ في الخفارة بهم ، وبشير المؤرخ ابن العديم إلى هذه الحادثة بقوله :
« وكان هذا أول دخول الترك إلى الشام . لكن لم يمض وقت طويل حتى
توَجَّس عطية وأهل حلب منهم خيفة ، فأوعزوا إلى أحداث حلب بعصفتهم
فذهبوا ليلا في صفر سنة ٤٥٧ هـ وقتلوا منهم جماعة ، وفر الباقون حيث التحقوا
بجيش محمود (١) .

على أن الفوضى التي تعرضت لها حلب حينئذ ، واضطراب السلطات فيها ،
وضعف حاكمها عطية ، قد أغرى محمودا بمحاولة إنهاء هذه الأوضاع ، ووضع
حد لما تتمعرض له الإمارة من قلق ، فضلا عما أحدثته انضمام الأتراك وبنو
كلاب إليه من حماسة بالغة ، فزحف إلى المدينة من مرج دابق في جمادى الآخرة
سنة ٤٥٦ هـ ، (مايو سنة ١٠٦٥ م) ، واستطاع إنزال الهزيمة بعطية وحاصره
في حلب مدة ثلاثة أشهر ، آثر عطية بعدها الاستسلام لابن أخيه ، وسلم إليه
حلب ورضى أن يعوض عنها بالرحبة وهزاز ومنبج وبالس ، أى جميع
الضبياع الواقعة شرقي حلب وشمالها ، بينما ظفر محمود د بحلب وقبليها واصطاحا
صالحا خالصا ، (٢) .

وهكذا انقسمت الإمارة إلى قسمين ، كل منها يحكمه أمير مرداسي ، لكن

(١) ابن العديم : زينة ج ١ ص ٢٩٤ - ٢٩٦ ، ابن خلدون : المعبر ج ٤ ص ٢٧٤ .

(٢) ابن العديم : نفسه ، ص ٢٩٧ ، ابن القلانسي : ذيل ص ٩٣ .

ابن الأثير : السكامل ج ٧ ص ٢٦٢ .

عطية أنهى بذلك عهده في حلب وترك الإمارة المرداسية لآخر مرة . ولا شك أن عهده كان قصيرا مليئا بالفوضى والحروب والنزاع ، وليس به ما يلفت النظر في الأمور الداخلية أو الخارجية . والواقع أن عطية لم يكن على شاكلة أخويه نصر وثمان ، ولم يكن له ما اشتهر عنهما من حنكة ودراية بالشئون السياسية والعسكرية ، لذا جاء عصره القصير عصف فوضى واضمحلال وحروب ونزاع لم تفق منه الإمارة إلا بتخليه عن حلب ^(١) لكنه مع ذلك لم يستسلم كلية لضياعا ، فأخذ يداوم الخروج على ابن أخيه وحاول أكثر من مرة مهاجمة حلب مستعينا في ذلك بالبيزنطيين دون جدوى ، فلما يشق نهائيا سافر إلى القسطنطينية فأقام بها إلى أن لقي حتفه هناك حيث سقط من سطح كان نائما عليه وهو سكران فمات سنة ٤٦٤ هـ ، وكان ذلك ختاما لحياة هذا الأمير المرداسي ^(٢) .

Camb. Med Hist, 5. P. 259

(١)

(٢) ابن القلانسي : ذيل ص ١٠٦

Sobernheim : Encyc, Isl. art. «Halab»

(٤) محمود بن نصر صالح

٤٥٧ — ٤٦٧ هـ (١٠٦٥ — ١٠٧٤ م)

استعاد محمود بن نصر حلب بعد نشاط متصل وجهد دائب ، والحقيقة أن بقاء الإمارة المرعاسية واستمرار بني مرداس فيها يدين بالفضل لنشاط هذا الأمير وجهده الدائبة ، بعد أن خرجت فعلا من أيديهم . وليس من شك في أن محمودا كان أميرا طموحا مثابرا حريصا على إرثه ومملكه ، وغيورا على إمارته ، وقد دل على ذلك بقوله عن عمه ثمال الذي تنحى عن حلب للفاطميين : « إنه ضيع مملكتنا وإرثنا ، وقد استعدها يصيفي وبذلت فيها مهجتي » ، وقوله « أنا أخذت البلد بسيفي من المصريين من غلبة وقهر وهو إرثي عن أبي » ، (١) فعودة حلب لهذا الأمير كانت إذن نتيجة حتمية وقضية مادية لأمر أصر على استعادة إرثه والاحتفاظ بملك آبائه .

دخل محمود حلب في رمضان سنة ٤٥٧ هـ (يوليو سنة ١٠٦٥ م) بعد أن خرج منها عطية إلى الرحبة ، فبادر بمحاولة كسب تأييد القبائل العربية وجلب رضاها ، فقام في العام التالي مباشرة بافتداء من وقع في أسر البيزنطيين من نساء بني حماد وبني نمير (٢) وخاصة بعد أن اضطربت أحوال حلب في نفس العام ووقع بها وباء عظيم حتى مات في رجب من تلك السنة أكثر من أربعة

(١) ابن العديم : زبدة ج ١ ص ٢٨٥ ، ٢٩٣

(٢) ابن القلانسي : ذيل ص ٩٣

آلاف شخص فضلوا عن سائر المشهور ، ومنح محمود في نفس العام هارون بن خان — أمير جماعة الترك — معرة النعمان فنزلها هذا في نحو ألف رجل .
 و لما رأى أعف منهم عن اللبساتين والكروم وغيرها ، وكانوا لا يأخذون من أحد شيئاً إلا بثمنه وسقوا دوابهم الماء بثمنه (١) .

على أن ظاهرة انسياب جماعات الترك إلى بلاد الشام منذ عهد هذا الأمير أخذت تزداد وتهكر ، مما يدعونا إلى الاعتقاد بأن محموداً كان يشجع أولئك الترك على القدوم ، ربما ليستخدمهم في جيشه ويرهب الروم بهم ، فقد أغضى للطرف أحياً عن نشاطهم في نواحي إمارته ، فانتشرت جماعاتهم في أراضي الإمارة ينهبون ويقتلون (٢) وإذا كانت جماعة ابن خان المشار إليها قد عفت عما للأهالي في القرى والمدن ، إلا أن الجماعات الأخرى التي أخذت تفد تباها لم تعف عن ذلك ، فأنزلت بالحلبيين وبغيرهم من السكان ضرباً من التعسف وإلحقت بهم كثيراً من الخسائر ، خاصة جماعة صندوق التركي التي وصلت سنة ٤٦٢ هـ (١٠٧٠ م) واجتاحت أعمال حلب إلى معرة النعمان إلى كفر طاب إلى حماه إلى حمص فرفنية ... وشتوا في هذه السنة فنهبوا الضياع وسبوا منها وعاقبوا من وجد هناك وفتحوا جباب الغسلة ومدافنها ، وطفق صندوق هذا يفرض الإتاوات على كثير من القرى والجهات التي امتنعت عليه ، فلما انقضى الشتاء عاد إلى بلاد الروم بعد أن أكرمه محمود بن نصر بتحف وهدايا .

(٣) ابن العديم : المرجع السابق ج ٢ ص ٩ - ١٠

ابن خلدون : المعبر ج ١ ص ٢٧٤

(٤) سبط بن الجوزي : مرآة ج ٩ ورقة ٣٠٤

حملها إليه ، (١) . وعلى هذا يبدو أن سياسة محمود تجاه الأتراك بالذات قد اتسمت بشيء من الملاينة والملاطفة (٢) .

وأول من نزل من الأتراك السلاجقة بلاد الشام هو هارون بن خان المشار إليه من قبل، وقد وصل إلى حلب سنة ١٠٦٢ م باستدعاء عطية بن صالح له، وفي سنة ١٠٦٧ — ١٠٦٨ م هاجم قائد تركي آخر هو « إلفشين » مدينة أنطاكية في ألف من أصحابه واستولوا على سبائا وغنائم كثيرة (كما سيلى)

(١) كان الأتراك السلاجقة قد بدأوا يجتاحون أطراف الإمبراطورية البيزنطية منذ أواخر عهد طغرل بك ١٠٣٧ — ١٠٦٣ م وعهد خليفته ألب أرسلان ١٠٦٣ — ١٠٧٢ م ، وقد صعدت الإمبراطورية في البداية لهم بسبب خطوط الدفع القوية التي كان قد أقامها الإمبراطور باسيل الثاني ، لكنهم عصفوا بعد ذلك بـ رمنية بسبب تراخي الإمبراطورية في تحصينها من ناحية ، ولما أظهره سكانها من الاستياء لما نزل بهم من اضطهاد ديني من ناحية أخرى ، لذا استطاع الأتراك الاستيلاء على مدينة آني سنة ١٠٦٥ م ثم على قيصرية سنة ١٠٦٧ م وكذلك خونت (خوتاز) ولم تفلح جهود الإمبراطور رومانوس الرابع في صدم فقد تعرض لهزيمة ساحقة في مانزكرت سنة ١٠٧١ م .

Diéhl : op. cit P. 104

Ostrogorsky : op. cit. P. 303

Vasiliev : op. cit. P. 415, 468 - 9

Bréhier : Vie et Mort de Byzance. P. 259, 279, 280

Crousset : Histr. de L'Arménie, P, 553

سعيد عبد الفتاح عانور : الحركة الصليبية ج١ ص ٨٢ — ٨٤

عمر كمال توفيق : تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ص ١٣٠

(٢) ابن العديم : زبدة ، ج ٢ ص ١٦

ووصل إلى بلاد الشام سنة ١٠٧٠م (٤٦٢هـ) جيش صندوق التركي، كما تردد المراجع اسم أحد القادة الترك الذي يدعى أحمد شاه بعدائذ، وهو الذي خدم عند نصر بن محمود المرداسي، وعند ابنه سابق، آخر أمراء بني مرداس سنة ١٠٧٥-١٠٧٦م وكذلك يتردد اسم قائد آخر من الترك هو محمد بن دملاج الذي التمس منه «سابق» أمير حلب المعونة ضد أعدائه من بني كلاب، وعندما شرع السلطان ملكشاه السلجوقي في غزو سورية وسير تاج الدولة تنش لضم بلاد الشام إلى الامبراطورية السلجوقية. كان أشهر القادة الترك في شمال الشام ثلاثة هم : إفشين، وصندوق، ومحمد بن دملاج، فأمرهم ملكشاه بالانضمام إلى جيش تنش (١).

ويبدو أن هجمات أولئك الترك كان لها ضلع في تحول محمود المرداسي إلى الولاء للسلجوقية والخلافة العباسية، والتماسه الحماية من السلطان ألب أرسلان (٢) فقد أرسل إلى السلطان ألب أرسلان في سنة ٤٦٢هـ (١٠٧٠م) بموافقة على إقامة الخطبة في حلب للخليفة القائم بأمر الله العباسي، فسر الخليفة والسلطان بذلك وأرسلا إليه الخلع مع نقيب النقباء طراد بن علي الزبني (٣).

(١) ابن العديم : زبدة ، ج ١ ص ٢٩٤ - ٢٩٥ ، ج ٢ ص ١١ - ١٢ ، ١٦ ، ٤٧ ، ٥٤ ، ابن خلدون : المعبر ج ٤ ص ٢٧٤ - ٢٧٥ ، ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ٢٦٢ ، سبط بن الجوزي : مرآة ، ج ١ ص ٢٨٩ .

Camd Med, Hist, 5. P, 261

(٢)

(٣) ابن العديم : زبدة ج ٢ ص ١٦ ، ١٧ - ابن القلانسي : ذيل ص ٩٨

ولم يتنبه محمود إلى مغبة هذه الخطوة إلا حينما وصل ألب أرسلان فجأة إلى الرها في أوائل عام ٤٦٣ هـ (١٠٧٠ م) وأرسل في استدعائه للمثول بين يديه، فلم يجب محمود هذه الدعوة خوفاً منه . وهندئذ تحول ألب أرسلان إلى الشام ونزل بالقيديق قرب حلب، فاستبد الخوف بمحمود وأخذ يحصن حلب استعداداً للحصار، لكن السلطان قال : « أخشى أن أفزع هذا الثغر بالسيوف فيصير إلى الروم » (١) وآثر أن يوسط شيوخ القبائل لإقناع محمود بالخروج إليه وبذل الطاعة له، وفي نفس الوقت، شدد الحصار على حلب، فلم يضع محمود في النهاية إلا أن يرضخ، فاصطحب والدته علوبة (السيدة) وخرج ومعه مفاتيح البلد وقسم فروض الطاعة والولاء للسلطان، فأكرمه هذا، وكتب له توقيعاً بحلب « ثم مالبث ألب أرسلان أن رحل إلى ما نكرت للقاء الروم (٢) » .

ويبدو أن ألب أرسلان طلب من محمود قبل رحيله أن يعمل على تقويض دعائم الحكم الفاطمي في بلاد الشام، بدليل قيام محمود في شعبان سنة ٤٦٣ هـ (مايو سنة ١٠٧١ م) بعد رحيل السلطان بمحاولة غزو دمشق وانتزاعها من الوالي الفاطمي ابن مؤز الكناني، لكنه لم يكدر يعمل إلى بعثك جق أخذ

(١) ابن خلدون؛ العبر ج ٤ ص ٢٧٤ - ٢٧٥ ،

ابن المديم : زبدة ، ج ٢ ص ١٩ - ٢١ ، ابن القلانسي : ذيل ص ٩٩

Wiet : L'Egypte Arabe. P. 238

Brehier ; op. cit p. 280

(٢)

Grousset : Hist. des Croisades. I. P. XXXII

يتراجع بسبب ما وصله من أخبار هجوم عمه عطيه على أعمال حلب . ويؤكد هذا أيضا ما حدث من تفاهم بينه وبين زعماء الترك والتركمان العاميين في وسط الشام وفلسطين من قبل السلاجقة ، أمثال قرلو التركي واتسز بن أوق ، وكانوا « أول من طلع من الترك إلى بلاد فلسطين (١) » ، ومما يكن من أمر ، فإن رحيل السلطان استتبعه الاطمئنان محمود من جهة السلاجقة ، وقيامه بخطوات تؤكد هذا الاطمئنان .

وقد اهتم محمود كثيرا بتدعيم سلطاته في الإمارة واختيار معاونيه ، وكان دقيقا في اختيار رجاله وولاته في القلاع والحصون ، فكان يولي في كل قلعة رجلا من أهل حلب ... وتكون ذريته وأهله تحت يده ، وقد اختار لمدينة عزاز للشاعر الشهير محمد بن سنان الخفاجي بمشورة وزيره ابن أبي الثريا ، وقرب إليه الشاعر الشهير ابن حيوس الذي وفد إليه من طرابلس سنة ٤٦٤ هـ (١٠٧٢م) وكذلك قرب إليه سيد الملك أبو الحسن بن منقذ مؤسس الإمارة المنقذية في شيزر ، لكنه مالبت أن تغير عليه ، فاضطر ابن منقذ إلى ترك حلب إلى كفر طاب ، ثم مالبت أن فر سرا إلى طرابلس سنة ٤٦٥ هـ (٢) فأكرمه أمين الدولة بن عمار ورفض تسليمه لمحمود الذي ألح في طلبه ، وحتى بعد وفاة أمين الدولة ونولية جلال الملك بن عمار ، كرر محمود طلبه ، لكن جلال الملك رفض أيضا تسليم ابن منقذ .

ويبدو أن ذلك كان له ضلع في خروج محمود بجيشه إلى طرابلس ، حيث

(١) ابن العديم : زبدة ، ج ٢ ص ٣٠/٣١ ، ابن القلانسي : ذيل ص ٩٨

(٢) Derenbourg : Vie D'Ousama Ibn Mouunkidh, P. 516

ألقي الحصار عليها فترة ، ولكنه ما لبث أن عاد بعد أن أخذ من أهله مالا ^(١) ودون ذلك كان محمود خفيا بحاشيته دقيقة في اختيار رجاله ، وبرغم أحداث عصره وتلاحق الوقائع في زمنه ، فقد كان كريما مع الشعراء خفية بهم مغدفا عليهم ^(٢) .

وقد مرض محمود في أخريات أيامه ، ثم ما لبث أن توفي في جمادى الأولى سنة ٤٦٧ هـ (يناير سنة ١٠٧٥ م) ، وأوصى ما وجد بخزائنه فكانت قيمته من العين والمتاع والآلات والثياب والمراتب ... د ألف ألف ومخمسائة ألف دينار (نصف مليون) ^(٣) وبعد محمود آخر أمراء بني مرداس الأقوياء ، إذ ترك من بعده ذرية ضعافا لم يكن أيا منهم أهلا للقيام بدور ذي أهمية أو لاحتمال مكانة مرموقة ، فبدأت الإمارة وكأنها تترنح توشك أن تتدهى ، وأخذت تقترب فعلا من نهايتها .

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ٧ ص ٢٦٢

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٤ ص ٦٤ - ٦٧

(٣) ابن العديم : زبدة ، ج ٢ ص ٤٥ - ابن القلانسي : ذيل ص ١٠٨

أبواب الفدا : المختصر ، ج ٢ ص ١٤٢ ، ١٩٣

(٥) - نصر بن محمود

٤٦٧ — ٤٦٨ هـ (١٠٧٥ - ١٠٧٦ م)

أوصى محمود بالإمارة من بعده لأصغر أبنائه وهو شبيب ، لكن رجاله لم ينفذوا وصيته بل أقاموا ابنا آخر وهو نصر بن محمود ، فاستهل هذا حكمه بقتل وزير الدولة أبو الحسن علي ابن أبي الثريا ، لإذاتهم بأنه أشار على والده بولاية أخيه الأصغر شبيبا ، كما أعدم أحد دولاة والده ويدهم ناجية ابن علي (١) .

غير أنه سارع بعدئذ بكسب رضى الحلبيين ، فأطلق من كان في اعتقال أبيه من أحدائهم وعم الناس بمجوده ، ونشر الهدوء في ربوع الإمارة وأمن الناس ، ولذلك عاد سديد الملك بن منقذ من طراباس إلى حاب لأول مرة في عهده منذ فراره إليها أيام محمود (٢) .

وكان نصر بن محمود — كوالده — حفيا بالشعراء مفدقا عليهم ، وخاصة الشاعر ابن حيوس الذي مدحه كثير أفضال رعايته وكريم إغداقه (٣) ، واستوزر بعد ابن أبي الثريا الوزير بن النحاس الحابي ، كما قرب إليه أحمد

(١) ابن العديم : المرجع السابق ج ٢ ص ٤٨ ، ٤٩ ، ابن الأثير : ج ٧ ص ٢٦٢

(٢) ابن العديم : المرجع السابق ج ٢ ص ٥٤

(٣) ابن خلكان : وفيات ج ٤ ص ٦٤ — ٤٧

(٤) ابن خلكان : وفيات ج ٤ ص ٦٤ — ٦٧

سبط بن الجوزي : مرآة ج ٩ ورقة ٤٦٥ — ٤٦٦

زعماء الأتراك بشمال الشام ويدعى أحمد شاه وعهد إليه باستعادة منبج من أيدي الروم (١) .

وفي العام التالي لولاية نصر ، تعرضت أعمال حلب الجنوبية لإغارات شديدة من قبل التركمان تحت قيادة أنسر بن أوق الذي كان يعمل على بسط نفوذه في وسط الشام وجنوبه ، متظاهرا بطاعة السلاجقة ، ماضيا في تقويض دعائم الحكم الفاطمي في تلك الجهات ، لكنه ما لبث أن ظهر فجأة في شمال الشام فأغار على أعمال حلب الجنوبية وضابق إمارة بني مرداس واستولي على رمنية ، وسلمها إلى أخيه جاولي ، الذي اتخذها قاعدة يشن منها هجمات جديدة على أعمال حلب بعد انصراف أنسر إلى الجنوب ، فأحدثت هذه الإغارات خلقا بالغا في الشمال وعلما كبيرا بين سكان حلب ، فجفل أهل الشام بين يديه ... ونهب كل ما قدر عليه .

على أننا نجمل الأسباب التي دعت أنسر إلى القيام بهذه الأعمال العدائية ضد نصر ، مع أن التعاون بينه وبين أمير حلب السابق كان كاملا ، فقد استعان به محمود المرداسي من قبل ضد أعدائه . وليس هناك تعليل لهذه الإغارات إلا رغبة هؤلاء التركمان في اجتياح البقاع الوسطى والشمالية من بلاد الشام بعد أن نجحوا في فرض وجودهم في فلسطين ، ولعل خير دليل على ذلك أن أنسر قام بعد هودته من الشمال مباشرة بالاستيلاء على دمشق سنة ١٧٥ م (٤٦٨ هـ) ، بعد أن ترك جاولي في رمنية لمراقبة الأوضاع في الشمال

ومضايقة حلب (١) .

ولما استفحلت إغارات جاولي ضد أعمال حلب ، جهز نصر جيشا عهد بقيادته لأحمد شاه زعيم الأتراك ، وأمره بقتال جاولي ، ورغم تعرض أحمد شاه في أول الأمر للهزيمة ، إلا أنه نجح في النهاية في الانتصار على جاولي الذي فر إلى دمشق في حالة سيئة ، بينما تعرض أصحابه للقتل والأسر ، فسير أحمد شاه بعضهم ... « في الوثاق إلى حلب مشاة » (٢) .

وهكذا نجح نصر في تأمين حدود إمارته من ناحية الجنوب ، ووضع حدا لأطماع اتسز ابن أوق وأخيه جاولي ، ولكن برغم نجاحه في ذلك ، فقد أقدم على خطوة خطيرة كلفته حياته في النهاية . وذلك حين أمر بالقبض على أحمد شاه — القائد المنتصر — واعتقله في القلعة ، بل إنه لم يكتف بذلك ، فقام بالهجوم على مساكن الأتراك خارج حلب لتسكين ثورتهم والقضاء على هياجهم ، فرماه أحدهم بسهم في حلقه فقتله في الحال ، وذلك في شوال سنة ٤٦٨ هـ (مايو سنة ١٠٧٦ م) (٣) .

ولاد وأن نصر خشي استفحال أمر هذه الجماعة وازدياد نفوذ قائدها ،

(١) - تكثر الروايات أن اتسز بن أوق كان يعمل في بلاد الشام لحساب السلطان ملكشاه الذي كان أكثر تحمسا من ألب أرسلان لتصفية أملاك الفاطميين في تلك البلاد ، ولهذا فانه ترك الحرية للاتراك ليمهدوا للغزو الساجوق الذي ما لبث أن اجتاحت المنطقة بأسرها .

ابن القلانسي : ذيل ص ٩٨

(٢) ابن المديم : زبدة ج ٢ ص ٤٨

ع ٣ (٣) ابن المديم : نفسه ص ٤٩ ، ابن القلانسي : ذيل ص ١٠٩

فبادر باتخاذ هذه الخطوة الخطيرة التي تعرض بسببها للوم المؤرخين . فقد وصفه ابن العديم بأنه كان حينئذ أهوجاً (١) لأنه لم يقدر قوة هذه الجماعة وعظم نفوذ قائدها ، فأقدم على عمل طائش كلّفه حياته في نهاية الأمر ، ودفع ثمناً لهذا التمور ، والواقع أن قوة الجماعات التركبية كانت قد أخذت في الإزدياد منذ عهد محمود ، ولم يكن من السهل استئصال شأفتهم دفعة واحدة ، أو القضاء على خطرهم مرة واحدة ، لهذا فقد أخطأ نصر كثيراً فيما أقدم عليه ، ولم يحسن تقدير الموقف ، فراح ضحية قصر نظره وسوء تصرفه .

(١) نفس المرجع ص ٤٩

(٦) سابق بن محمود

٤٦٨ — ٤٧٢ هـ (١٠٧٩ — ١٠٧٩ م)

بعد أن قتل الأتراك نصر بن محمود ، زحفوا إلى دمشق في ظروف بالغة الخطورة وألقوا الحصار عليها وتجهزوا لقتال أهلها ، عندئذ سارع والي القلعة ويدعى دورد ، إلى استدعاء بعض رجالات الإمارة ومنهم سيد الملك بن منقذ للتشاور في الأمر ، فاستقر رأيهم على إقامة سابق بن محمود — وهو أخ الأمير الراحل — في الحكم ، فحمل إلى المدينة « ورفع إلى القلعة بحبل من السور وهو سكران ونادوا بشعاره » ، وأشاروا عليه بفك أمر أحمد شاه مقدم الأتراك لتسكن الفتنة ، فأمر بإطلاق سراحه ، فنزل أحمد شاه إلى جماعته فأحمد الفتنة وسكن النائرة (١) ، وبدأ حينئذ أن هذا الأمير الرعاصي الجديد قد اجتاز عقبة كبيرة كانت تهدد ملكه .

لكن ذلك سرعان ما غدا موضع شك كبير ، إذ لم ينقض أكثر من شهر حتى حدثت فتنة جديدة أثارها في هذه المرة بنو كلاب ، إذ اجتمعوا حول أخيه وئاب بن محمود وطالبوا له بالإمارة ، وانضم إلى وئاب أخوه الأصغر شبيباً ، وابن خالهما مبارك بن شبل ؛ عندئذ استدعى سابق القائد أحمد شاه واستشاره في الأمر خاصة وقد مات بنو كلاب في أعمال حلب وأفسدوا فيها ، فاستقر

(١) ابن الأثير : لكامل ج ٧ ص ٢٦٢ ،

ابن خلدون : العبر ، ج ٤ ص ٢٧٥

رأى أحمد شاه على مكانة زعيم تركي آخر يدعى محمد بن دملاج للتحالف معه ضد بني كلاب (١) .

خرج أحمد شاه من حلب في نحو ألف فارس ، وانضم إليه ابن دملاج بجماعته وذلك في ذي الحجة سنة ٤٦٨ هـ (يونيو ١٠٧٦ م) ، وكان بنو كلاب قد اجتمعوا في أرض قنسرين وهم في جموع عظيمة ، لكن يبدو أن خروجهم في هذه المرة لم يكن عن اقتناع بشرعية هذا الأمير أو أحقيته في الحكم ، لأنهم لم يثبتوا في ميدان القتال رغم قوتهم وكثرتهم العددية . فلم تكد طلائع الأتراك تقترب وتتدافع إلى ساحة القتال ، حتى تراجع بنو كلاب بغير قتال وأخلوا أماكنهم منهزمين ، تاركين عتادهم وعددهم وأسلحتهم ، فغنم الأتراك حلالهم وكل ما كانوا يملكون (٢) .

وترتب على ذلك مسير واثاب بن محمود وزعماء بني كلاب أمثال مبارك بن شبل وحامد بن زغيب إلى بلاط السلطان ملكشاه السلجوقي يسألونه العون ضد سابق ، فوعدهم السلطان المعونة وأمر أخيه تاج الدولة تنش بالمسير إلى بلاد الشام في أوائل سنة ٤٧٠ هـ (١٠٧٧ م) . وبمسير تنش إلى بلاد الشام تبرز صفحة جديدة في تاريخ هذه المنطقة ، وتشرف على فصل جديد في تاريخها في المعصور الوسطى (٣) .

(١) ابن العديم . زبدة ، ج ٢ ص ٥٤

(٢) المرجع نفسه ص ٥٤ ، «Halab» Sobernheim : Encyc. Isl. art.

(٣) ابن العديم ، المرجع نفسه ص ٥٥ - ٥٦

سابق بن محمود والسلاجقة ونهاية العهد المرداسي :

وصل تاج الدولة تنش إلى بلاد الشام فانضمت إليه جموع من بني كلاب، وأجفل أمامه جماعة الأتراك أصحاب أحمد شاه، وكانوا منتشرين في ضواحي حلب، فدخلوا المدينة، وما لبث أن وصل إليه شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلي، صاحب الموصل، لمساعدته في الاستيلاء على حلب بأمر ملكشاه^(١) ولما اكتملت جموعهم، ألغوا الحصار على حلب في ذي القعدة سنة ٤٧١ هـ (١٠٧٨ م) وامتد الحصار أكثر من ثلاثة أشهر، واشتد القتال عندها واتصل، وقتل خلاله القائد أحمد شاه^(٢). لكن شرف الدولة مسلم لم يكن متحمساً لسقوط المدينة، بل إنه كان يرسل سابقاً في المعركة بما يقوى نفسه وكان ينكر على بني كلاب خلطتهم بهسكر الترك، ثم أوقف ذلك بالانسحاب من أمام المدينة بعد أن نجح في إدخال كثير من المؤن والعتاد إليها لتحصن الحصار، فارتفعت روح الحلبين وقويت نفس سابق^(٣).

أدى انسحاب مسلم من أمام حلب ومحمود المدينة أمام تنش إلى اضطراب هذا إلى رفع الحصار عنها، ولكنه شرع في الاستيلاء على أعمالها وتوابعها،

Kay : po. cit. P. 498

(١) ابن القلانسي : ذيل ص ١١٢ ،

(٢) ابن العديم زينة ، ج ٢ ص ٥٧

(٣) كان شرف الدولة مسلم يرغب في الاستيلاء على حلب وضمها إليه وإتمام حكمه يمتد من كردستان إلى شمال سورية والحيلولة دون انتشار النفوذ الساجوتي في هذه البلاد حتى لا لا يكون خطراً على مملكته .

Grousset : Hist des Croisades. I. P. XLIV

سميد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ١٠٢

فاستولى على منبج وحصن الفايا وحصن الدير وشحنها بالرجال ، وهاجم في عنف حصن بزاعا وفتح عذوة وقتل كل من كان فيه نظرا لشدة مراسهم ، ولما أنزلوه بالترك من نكاية من قبل ، ثم أمر بنهب هذا الحصن ثم شحنه بالرجال ، ثم هاجم عزاز وأنزل بها الخراب والدمار ، فاستسلم له كثير من أهلها ، ورحل بعد ذلك إلى بعض قرى حلب ناحية عزاز فاستولى عليها وشحنها بالمقاتلة (١) . وعلى هذا فقد ضيق على حلب كثيرا وحرمها من قاعدتها وإمداداتها ومركز عمرانها وقوتها ، فزاد ضعفها ثم انهيارها في نهاية الأمر .

وهكذا واصل تتش تقويضه لمعالم الإمارة المرداسية ، فبعد أن تسلم دمشق من أتسز بن أوق سارع بالعودة من جسد يد إلى الشمال فنهب ضياع بعلبك ثم هاجم فجأة رمنية في جمادى الأولى سنة ٤٧١ هـ ، فقتل جماعة من التجار كانوا يجتازون في طريقهم إلى طرابلس واستباح أموالهم وحريمهم وبقي بها نحو عشرة أيام ثم رحل إلى حصن الجسر ، وهو حينذاك لأبي الحسن بن منقذ ، فتلقيه هذا وبالغ في إكرامه وسأله ألا يتعرض لكفـر طاب فأجابه تتش إلى ذلك (٢) .

ثم رحل تتش إلى قسطنطين فنهبها وأنزل بأهلها ضروبا من العقاب ، ثم نزل بجبل السماق « حتى لم يبق بها موضع ولا برج إلا افتتحه وأهلكه واستباح

(١) ابن العديم : زبدة ج ٢ ص ٦٢ - ٦٣

ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٢٧

(٢) ابن العديم : المرجع السابق ص ٦٥ - ٦٦

حريمهم وأولادهم» ولم ينج أهل سمرمين ومعرة مصرين إلا بدفع ما فرضه عليهم من إتاوات ، لكنه نكل بضياع معرة النعمان الشرقية ، وأخذ ما لا يمكن إحصاؤه وغلب أهلها فهلك منهم خلق ، ثم نزل تل منس وفرض عليها الإتاوة أيضا هي ومعرة النعمان ، لكن معرة تارح استعصت عليه فأحرقها ... «وهلك جميع من كان بها» (١) .

وهكذا استطاع تتش أن يهدم معالم إمارة بني مرداس ؛ حتى ليقرر المؤرخ ابن العديم أنه «لم يبق في أعمال حلب ضيعة مسكونة من بلد المعرة إلى حلب ، وأصاب هذه الإغارات شمال الشام في اقتصاده ، فتلف أهله بعد ذلك بالجوع ، وكان ذلك سببا في هروب كثير من الناس إلى بلاد شرف الدولة مسلم ، فأكرمهم وأحسن إليهم وأخذ يفكر جديا في الاستيلاء على حلب ووضع حد لهذا الاضطراب السلاجوقي في جوف بلاد الشام» (٢) .

وفي نفس الوقت أصبح أهل حلب وحاكمها أكثر ميلا للتسليم لهذا الأمير العربي حاكم الموصل ، حفظ المدينة من السقوط في أيدي السلاجقة ، إذ تعرضت من جديد في سنة ٤٧٢ هـ لحصار تتش الذي لم يتراجع عنها في هذه المرة إلا بصعوبة بالغة عائدا إلى دمشق ، وعندئذ قاد مسلم جيشه متوجها نحو حلب فوصل إليها في ذي الحجة عام ٤٧٢ هـ (١٠٢٩ م) ، ولكنه لم يكد يقترب منها حتى أغلقت أبوابها في وجهه وامتنعت عليه . ويد وأن أميرها سابقا كان قد

(١) ابن العديم : المرجع السابق ج ٢ ص ٦٦

(٢) ابن العديم : المرجع السابق ص ٦٧

أعاد النظر في أمر تسليمها لمسلم ، وذلك بتحريض من أخويه شيبيا ووثابا ،
الذين لحقا به في القلعة ، ولم يمكناه من التسليم ،^(١) ، ولا بد وأنهما أنارا
جاسته للحفاظ على الإمارة وقررا الدفاع عنها معه .

ومع هذا لم يأمر مسلم جيشه بقتال أهل المدينة أو اقتحام أسوارها ، وذلك
لرغبته - دون شك - في الاستيلاء عليها كما هي ، مع علمه بضعفها وقلة
الأقوات بها وقصور إمكانيات أميرها . ويشير كل من ابن الأثير وابن العديم
إلى دور بارز قام به الشريف حسن بن هبة لله الختيع ، نقيب الأحداث بالمدينة ،
في تسليم حاب إلى مسلم ، إذ يقال أن ابنه وقع في يد مسلم خارج المدينة فعاملة
معاملة طيبة وسمح له بالدخول إليها ، فاجتمع هذا بوالده واستقر الرأي على
فتح الأبواب لمسلم ، ففتحوها له ونادوا بشعاره وذلك في ذي الحجة سنة ٤٧٢ هـ
فدخلها مسلم . . . وأحسن إلى كافة أهلها وخلع على أحمدهم وتصدق بمال
كثير وغلة ،^(٢) ، وأما سابق وأخويه فقد تحصنوا بالقلعة فحاصرم مسلم
ثم قبض عليهم واستقر الأمر في النهاية على منح شيب ووثاب قلعتي مزاز
والأنارب وعدة ضياع ، ومنح سابق مواضع أخرى في أعمال الرحبة ، وتزوج
مسلم من منيرة أخت سابق ، وكان وسيط هذا المصلح شديد الملك ابن منقذ ،

(١) ابن العديم : المرجع السابق ص ٦٨ ،

ابن خلدون : المعبر ج ٤ ص ٢٧٥

(٢) ابن العديم : المرجع السابق ج ٢ ص ٦٩

ابن الأثير : الكامل ، ج ٨ ص ١٢٧

وقد اقترن ذلك بأن « غار الماء في قلعة حلب ونزل منها أولاد محمود وانقضت دولة آل مرداس » .

وعلى هذه الصورة خرجت حلب من أيدي المرداسيين ولم تعد إليهم بعدها مطلقاً، وانضوت تحت لواء مسلم بن قريش العقيلي قبل أن يستولى عليها السلاجقة^(١) وحق قلعة حراز والأثارب اللتين منحها مسلم لولدي محمود المرداسي ، عاد فطمع فيها وقبض على شبيب ووثاب سنة ٤٧٥ هـ (١٠٨٢ م) وأخذ منها القلعتين ، وهوضها الخانوة وقرقيسيا ودويرا من أعمال الرحبة^(٢)، وهكذا صنف مسلم الإمارة المرداسية ونفي الإخوة الثلاثة المرداسيين إلى جهات قرب الرحبة حتى تصنفوا له حلب وما حولها ، ويضع نهاية للعهد المرداسي في شمال الشام .

والواقع أن نهاية هذه الإمارة العربية كان أمراً محتوما نظراً لتسابق القوى الإسلامية المحيطة في سبيل الاستيلاء عليها ووضع حد لاستقلالها ، فضلاً عن النشاط الدائب للسلاجقة وأمراء التركمان في بلاد الشام ، بالإضافة إلى ضعف واضمحلال الإمارة ذاتها ، وضعف همة أمرائها وحدانة أعمارهم وقلة تجاربهم ، ولهذا انتهت هذه الإمارة في زحمة أحداث العصر ، وانهدمت بذلك أول إمارة عربية قامت في بلاد الشام في القرن الخامس الهجري ، بعد أن عمرت نيفاً وخمسين عاماً .

.. .. .

Lane - poole : op. cit. P. 115

(١)

(٢) سبط بن الجوزي : مرآة ، ج ١ ص ٥٠

(د) بنو مرداس والدولة البيزنطية

تتبعاً للإمبراطورية البيزنطية في النصف الثاني من القرن العاشر، وأوائل القرن الحادي عشر الميلاديين، مركزاً هاماً في الشرق بفضل جهود أباطرتها من الأسرة المقدونية، لاسيما نقفور فوقاس (٩٦٣ - ٩٦٩ م) ويوحنا زمسكيس (٩٦٩ - ٩٧٦) وباسيل الثاني (٩٧٦ - ١٠٢٥ م) بفضل نشاط هؤلاء الأباطرة في الشرق خاصة نقفور وزمسكيس، أتيح للبيزنطيين أن يصلوا في بلاد الشام إلى أقصى ما وصل إليه النفوذ البيزنطي منذ عهد جستنيان واستعادوا للإمبراطورية هيبتها في الشرق بحملات متلاحقة تشوبها حماسة بالغة واندفاع عظيم أغرى بعض المؤرخين المحدثين بالنظر إلى تلك الحملات كحلقة متقدمة من حلقات الحرب المقدسة أو الحروب الصليبية (١).

وقد أشرنا فيما سبق إلى موقف الدولة البيزنطية تحت حكم باسيل الثاني من أحداث الشام لإبان إرساء قواعد الحكم المرداسي في حاب وتوابعها على يد صالح بن مرداس، وخلصنا من ذلك إلى أن الإمبراطور باسيل كان لديه في الجبهة الأوربية ما يشغله عن أحداث الشرق وما يصرفه عن التفكير في الانغماس في شؤون بلاد الشام، فلم يحدث احتكاك بين الإمبراطورية البيزنطية والإمارة الناشئة على عهد هذين الحاكمين، بل على عكس ذلك يعتقد أن صالح بن

(١) سعيد عبد الفتاح ثانور: الحركة الصليبية ج ١ ص ٦٥ - ٦٦

عمر كمال توفيق: تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ص ١١٥

مفدمات العدوان الصليبي ص ٧٨

مرداس وبقية زعماء القبائل قاموا بالاتصال بالامبراطور يسألونه التأييد قبل شروعه في محاربة الخلافة الفاطمية (١)

ولما ولي عرش الامبراطورية قسطنطين الثامن (١٠٢٥ — ١٠٢٨ م) خلفه لباسيل الثاني ، سارع بعقد اتفاقية صالح ومهادنة مع الخ — لالة الفاطمية سنة ١٠٢٧ (٢) فأقر بذلك قواعد السلام في الشرق ، ولم يحدث ما يكرهه هو السلام بين البيزنطيين والمرداسيين في بلاد الشام .

وفي عام ١٠٢٨ م تولى العرش الامبراطور رومانوس الثالث ١٠٢٨ — ١٠٣٤ م خلفا لقسطنطين الثامن ، وولى في حلب نصر بن صالح بن مرداس سنة ١٠٢٩ م يشاركه أخوه ثمال بن صالح ، وأخذت الظروف تتبدل في غير طريق السلام ، فبعد مقتل صالح بن مرداس وانفراط عقد التحالف العربي سنة ١٠٢٩ م ، نجح الدزبري في استعادة كثير من المدن التابعة للإمارة المرداسية لاسيا بعلبك وحمص وصيدا ورفنية وحصن ابن عسكار ، ويبدو أن هذه الظروف أغرت حاكم أنطاكية ميخائيل المعروف باسم اسبونديل Espondele بالخروج لقتال أميري حلب نصر وثمان (٣) فقام بمهاجمة حصن قنبار من أعمال حلب ، دون أن يتلقى بذلك أمرا من الامبراطور ، فنهض الأميرين

(١) Wiet : L'Egypte Arabe. P. 216

(٢) Byzantium. Edited by Baynes and Moss.

P. 317 (Vasiliev)

(٣) ابن العديم : زبدة ج ١ ، ص ٢٣٧ ،

Croussët : L'Empire du Levant, P. 127

المرداسيين للدفاع عن الحصن واستطاعا أن ينزلا بحاكم أنطاكية هزيمة ساحقة وأرغماه على عقد الصلح ، وذلك في نهاية أكتوبر سنة ١٠٢٩ م (شوال سنة ٤٢٠ هـ) (١) .

ونكاد نجزم بأن نشاط الخلافة الفاطمية في بلاد الشام ونشاط قائدها الدزبري حينئذ كان له دخل كبير في إثارة الإمبراطورية البيزنطية وجبرها للحرب وتوريط الإمارة المرداسية نتيجة لكل ذلك . فقد قاد الإمبراطور رومانوس الثالث جيشه في العام التالي وزحف إلى بلاد الشام محاولا الاستيلاء على حلب وهدم إمارة بنى مرداس فلم تكن الهزيمة التي تعرض لها ميخائيل إسبونديل على يد أمراء حلب هي الدافع الوحيد لخروج الإمبراطور حينئذ إلى بلاد الشام في تلك الحملة الكبيرة ، إذ لا بد وأن قيام الدزبري وأمير طرابلس بالاستيلاء على قلعة المنبقة الواقعة على الطريق بين أنطاكية وحلب كان له ضلع في إنفاذ هذه الحملة (٢) ، هذا فضلا عن دأب المسلمين منذ سنة ١٠٢٩ م على مهاجمة الأملاك البيزنطية في ديار بكر (٣) وتضييق بعض المصادر العربية حدوث نزاع بين أميرى حلب نصر وثمان واستنجد نصر بالإمبراطور ضد أخيه (٤) ولا بد

(١) Schlumberger : L'Epopée. III. P. 71

يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٥٣ ، ابن العديم : زبدة ج ١ ص ٢٣٧

Sobernheim. Encyc, Isl. art. «Shibl Al Dawla Nasr»

سبط بن الجوزي : مرآة ج ٨ ص ٢٦٧

(٢) Schlumberger : op: cit. III. P. 71

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ٣٤١ (سنة ٤٢٠ هـ)

(٤) ابن العديم : زبدة ج ١ ص ٢٣٨ - ٢٣٩

عن أن الإمبراطور رومانوس الثالث كان حريصاً أيضاً على أن يكسب شهرة كبيرة بحملته إلى الشرق كذلك التي حازها أسلافه نقفور وزمسكيس وباسيل الثاني .

ومما يكن من أمر ، فقد خرج الإمبراطور رومانوس الثالث بنفسه إلى أنطاكية وحشد جيشاً كبيراً قدره المؤرخ بن العديم بستائة ألف مقاتل ، وقال عنه ابن الأثير أنه بلغ ثلاثين ألفاً منهم البلغار والروس والخزر والأرمن والبيزنطيين والفرنجة والكرج (١) .

وقد بادر الإمبراطور قبل كل شيء بإعفاء حاكم أنطاكية إسبونديل لما حل به من الهزيمة من قبل ، وتولي بنفسه قيادة الحملة ، وجهاز الجيش بآلات الحصار وأدوات اقتحام الحصون ، وسير طلائعهم تحت قيادة زوج أخته البطريق قسطنطين كارانثينوس Karanthenos لحراسة الدروب وتأمين سلامة الحملة ، على أن يلحق به بعد ذلك (٢) ، وعلى الرغم من ارتفاع بعض الأصوات تحذر الإمبراطور منغبة هذا العمل ، إلا أنه أصر على إتمامه « وصرف سمعه عن مشورة المتنصحين له ... وأغفل ما اقتضته السياسة من التحفظ والتمعن والاستظهار في كل باب بما يقتضيه الصواب » (٣) .

ترتب على إصرار الإمبراطور على المضي في حملته أن التأم شمل الأخوين أميري حلب ، فتأهبوا للدفاع عن الإمارة ، بينما سرت نوبة حماسة طاغية بين

(١) المرجع السابق ص ٢٤٠ ، ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ٣٤٩

(٢) Schlumberger : op. cit. P. 73 - 4

(٣) بحبي بن سعيد : التاريخ ص ٢٥٤

المسلمين في المنطقة، بدوها وحضرها، استعدادا للحرب. ومع ذلك أرسل نصر
سفارة إلى الإمبراطور على رأسها ابن عمه مقلد بن كامل بن مرداس يبلغه فيها
تمسكه بشروط الهدنة واستعداده لحمل رسوم التجهية التي كان يحماها أمراء حاب
للإمبراطور باسيل غير أن رومانوس اعتقل مقلد بن كامل ومضى قدما في حملته (١).

سار رومانوس من أنطاكية في جموعه قاصدا حلب، ونزل بجيشه على تبل
من نواحي عزاز في شمال غرب حاب قريبا من الجبل « في موضع بعيد عن
الماء » ، وضرب حول عسكره خندقاً ، بينما نزل العرب في مواضع تكثر بها
المياه ، وكان الوقت صيفاً شديد الحرارة (٢) .

أرسل الإمبراطور بهذا السرية كبيرة على رأسها القائد ليو خير وسفنا كيس
Chirosphaktes إلى حصن إعزاز لمراقبة تحركات العرب وشن الهجوم عليهم
إلا أن هذه السرية تعرضت لكمين نصبه الكلايون قريبا من إعزاز فأزلوا بها
هزيمة ساحقة ... ، وأمسروا جماعة من أولاد الملوك ، وقائد السرية نفسه ،
وقتلوا كثيرا من رجالها (٣) . وقد شجع هذا الانتصار العرب على مهاجمة
المعسكر البيزنطي في أغسطس سنة ١٠٣٠ م (شعبان سنة ٤٢١ هـ) فأخذوا
يندفعون في موجات متلاحقة في قلب المعسكر ، بينما راح آخرون يطوقونه
ويمنعون الماء والمؤن عنه . وعندئذ أسقط في يد الإمبراطور ورجاله واضطربت

(١) ابن العديم : زبدة ج ١ ص ٢٣٩

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٦ ص ٣٤٩ ،

Camb. Med. Hist. 5. 256

(٣) ابن العديم : زبدة ج ١ ص ٢٤١

Schlumberger : op: cit. III, P. 79

خططهم وانهارت معنوياتهم ، وبدأ رجالهم في الفرار فطاردهم المسلمون وأعملوا فيهم السيف وأسروا كثيراً منهم ، ولاحت نذر الهزيمة على جيش الإمبراطور « فاعتذر قائلاً : لولا عطش عسكري لبلغت مرادى » (١) وبدأ ينحلي مكانه متقهقراً ، وعندئذ اندفع نصر المرداسي على رأس فرقة من نحو تسعمائة فارس « على سوق الملك فنبهوه ، وكان الإمبراطور قد اشتد ارتباكاً وتحطمت معنوياته فانهزم هو ورجاله ناحية أنطاكية ، ومنح الله أكتفاهم للعرب فأخذوا يتخطفون العسكر ويأمرون ويقتلون في مؤخرة الجيش المرتد ، فأضحى الارتداد هزيمة ساحقة للجيش الكبير ، واستولى العرب على غنائم هائلة وكليات وافرة من الأسلحة والأموال والقياب والعتاد ، وأخذ شبل الدولة نصر تاج الملك وبلاطه ولباده » (٢) ، أما الإمبراطور نفسه فقد هجم على وجهه بعد أن ... « نزع خفه الأحمر لئلا يعرفه أحد ، ولبس خفاً أسود » ثم اجتمع عليه بعض رجاله الذين عرفوه وعادوا معه إلى بلاده (٣) .

على هذه الصورة انتهت حملة رومانوس الثالث ضد حلب وباءت جهود هذا

« (١) ابن العديم : المرجع السابق ص ١٤١ ،

Grousset : L'Empire du Levant. P. 127

« (٢) ابن العديم : المرجع السابق ص ٢٤٢ ، ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ٣٤٩ ويقول ابن العديم أن طائفة من بني قطن من حمير وردت عند الهزيمة فأخذت ثقل الملك نجوا من ثلاثمائة بقل محملة حتى أنهم تقاسموا الدنانير الأرمانوسية بالجمعة فحصل لكل واحد منهم ثمانمائة عشرة جنية ج ١ ص ٢٤٣

« (٣) ابن الجوزي : المنتظم ج ٨ ص ٥٠ ،

Schlumbereger : op. cit. III P. 87

الإمبراطور بالفشل الذريع وتحتّم على حاكم أنطاكية نقتاس (نقيطا في المصادر العربية) أن يسترد قلعة المنيقة، فقام في خريف نفس العام ١٠٣٠ م (٥٤٢١) بالهجوم عليها وفتحها في البلد العربي وأفسد حصن المنيقة وهجم ريفية وسبي عشرة آلاف من أهلها، ويبدو أنه لم يستطع أن يحقق أهدافه في استرداد المنيقة بالذات فعجل بالعودة إلى أنطاكية (١).

غير أن العلاقات بين أمير حلب المرداسي والبيزنطيين أخذت في التحسن تدريجياً، فقد صالح نصر حاكم أنطاكية بعد ذلك... « وجعله سفيراً بينه وبين ملك الروم في طلب الهدنة » هذا فضلاً عن قيام أمير طرابلس — الذي نجح البيزنطيون في تأليه على الخلافة الفاطمية — بالوساطة بين الطرفين، فتقررت الهدنة على أن « يحمل نصر في كل سنة إلى ملك الروم خمسمائة ألف درهم » ويطلق سراح حيرو سفاكيس القائد البيزنطي الذي أمر عند إعزاز من قبل وفي مقابل ذلك قام الإمبراطور بإطلاق سراح مقلد بن كامل بن مرداس، رسول نصر « وأعطاه صليباً من ذهب مرصعاً أماناً لنصر ووظفه بالشرط » (٢) واستقرت الهدنة بينهما وحمل نصر ما عليه من أموال إلى الإمبراطور ففقرت نفسه.

أدركت بعدئذ القوتان الكبيرتان المتنازعتان في بلاد الشام وهما

(١) ابن العديم : زينة ج ١ ص ٢٤٦ ، يحيى بن سعيد ص ٢٥٧ ، ٢٥٩ ،

Schlumberger : op. cit. III. P. 91

(٢) ابن العديم : المرجع السابق ص ٢٤٦ — ٢٤٧ ،

يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٥٧ ، ٢٥٩ ،

Wiet : L'Egypte Arabe P. 221

الإمبراطورية البيزنطية في أخريات أيام رومانوس الثالث والخلافة الفاطمية أيام الظاهر ، أهمية لإحلال السلام بينهما بسبب ما ترتب على نزاعها من فوضى واضطراب في المنطقة بعد أن تعرضت أملاك البيزنطيين للهجوم على يد العرب وما حل بالنفوذ الفاطمي في بلاد الشام من اهتزاز ، فجرت مفاوضات بين الطرفين لعقد معاهدة أمن وسلام بينهما ^(١) سنة ١٠٣٢ م (٤٢٣ هـ) ، وكان من أهم شروط الإمبراطور البيزنطي ألا يتعرض الفاطميون لحلب وأن يتركوها تؤدي ما هو مقرر عليها من رسوم التبعية السنوية للإمبراطورية ، إلا أن الخليفة الفاطمي لم يوافق على هذا الشرط وترتب على ذلك تعثر المفاوضات بين الطرفين في أخريات أيام رومانوس الثالث وأوائل عهد ميخائيل الرابع البافلاجوني (١٠٣٣ - ١٠٣٤ م) فأخذ الخليفة الفاطمي بضغط على الإمبراطورية البيزنطية ، فقام باستخدام المواد التي انتزعها من الكنائس في عمارة سور أقامه حول بيت المقدس ، وهدم بعض المباني المسيحية ^(٢) ، وكان الخليفة قد نجح في سنة ١٠٣٣ م في استعادة طرابلس التي تمتعت بتأييد الإمبراطور خلال فترة عصيانها على الخلافة ، يضاف إلى ذلك فشل الحملة البحرية التي وجهها الإمبراطور لمهاجمة الإسكندرية سنة ١٠٣٣ م ^(٣) ، هذا فضلا عن أن نصر المرداسي نفسه لم يركن لحدود التبعية للبيزنطيين ، فقام في سنة ١٠٣٥ م (٤٢٦ هـ) بالتصدي

Wiet : L' Egypte Arabe. P. 221 (١)

Wiet : op. cit. P, 223 (٢)

Bréhier : L' Eglise et L'Orient. P. 39 (٣)

لحاكم أنطاكية وأنزل به الهزيمة قرب حلب وتبعه إلى أعزاز ... « وغنم غنائم كثيرة وعاد سالماً » (١) .

وقد تضافرت كل هذه العوامل على تقريب وجهات النظر بين القوتين الكبيرتين فالتنا إلى عقد الهدنة ، التي تمت في سنة ١٠٣٨ م في زمن كل من ميخائيل الرابع والخليفة المستنصر بالله الفاطمي . ونظراً لاضمحلال الإمبراطورية وتداعى نفوذها ، لم تتمسك هذه المرة بالشرط المتعلق بحلب ، فتراخت قبضتها على الإمارة المرداسية ولم تتحمس لاستمرار تبعيتها لها ، فنتج من ذلك إطلاق أيدي الدزبري في شمال الشام بأسره ، فنجح في القضاء على نصر المرداسي سنة ٥٤٢٩ هـ (١٠٣٨ م) والاستيلاء على حلب وهد النفوذ الفاطمي من جديد إلى تلك المنطقة (٢) .

على أننا نلاحظ أن العلاقات بين بزنطة والمرداسيين بعد عهد نصر لم تتخذ شكلاً خطيراً بسبب تحفز الخلافة الفاطمية وترقبها بعد أن استعادت هيبتها في بلاد الشام ، وبسبب ما طرأ على الإمبراطورية البيزنطية نفسها من نواحي الضعف والاضمحلال لتوالي الأباطرة غير الأكفاء والنساء على حكمها بعد عهد باسيل الثاني ، فكانت هذه الظروف بداية مرحلة ضعف واضمحلال بالنسبة

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٩

(٢) بن العديم : زبدة ج ١ ص ٢٥١ ، أخبار الدولة المنقطة ورتة ٦٧ (مخطوط) .

Brehier : op. cit. P. 39

Wiet : op. cit. P. 223

للامبراطورية استمرت بعد سنة ١٠٢٥ م حتى سنة ١٠٨١ م^(١) .

غير أن الأمر لم ينحل بطبيعة الحال من وجود علاقات بين الطرفين استجالت في كثير من الأحيان إلى مظاهر شكلية وفقدت حرارتها وأهميتها ، ولكنها على كل حال كانت تعبيراً عن رغبة كامنة لدى بزنطة في استمرار الشعور بما يربطها بهذه الإمارة من مصالح على أن مقتل نصر المرداسي سنة ١٠٣٨ م (٥١٢٩هـ) واستفحال أمر الدزبري في شمال الشام قد أحدث دون شك قلقاً في البلاط البيزنطي ، فسارع الإمبراطور ميخائيل الرابع (١٠٣٤ - ١٠٤١ م) بإرسال مبعوث إلى حلب لمقابلة ثمال واستجلاء حقيقة الأمر وما يمكن أن تسفر عنه الأحداث ، إلا أن هذا المبعوث وصل في ظروف بالغة الخطورة بينما كان ثمال يستعد للهرب من حلب ، فتهب العامة متاع هذا المبعوث البيزنطي ولم تلبث حلب نفسها أن سقطت في يد الدزبري^(٢) .

ويبدو أن ذلك كان هو الدافع الحقيقي لخروج حاكم أنطاكية للهجوم على حلب قبل أن يدخلها الدزبري « فكمبر عسكري أنطاكية الحلبيين وعاد الدمستق إلى أنطاكية »^(٣)

وحينما أراد ثمال أن يستعيد حلب بعد وفاة الدزبري سنة ٤٣٣هـ (١٠٤٢ م)

(١) ماركال توفيق : تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ص ١٢٨ ،

Vasiliev : op. cit. P: 463

(١) ابن العديم : زبدة ج ١ ص ٢٥٦

(٣) المرجع السابق ص ٢٥٩

جاءت رسولا إلى البلاط البيزنطي يلتمس المعونة والتأييد من الملكة ثيودورا سنة ١٠٤٢م فأرسلت هذه إلى ثال « هدايا كثيرة وشرطت عليه أن يحمل في كل سنة ما كان يحمله أخوه نصر ، على الشروط المشروطة عليه » (١) ولكن يبدو أن نجاح ثال في استعادة حلب في حماية التأيد الفاطمي ، فضلا عن تغير الظروف في البلاط البيزنطي ووصول قسطنطين التاسع إلى العرش بعد زواجه من زوى ZOE أخت ثيودورا قد أوقفت التنسيق بين ثال والبيزنطيين في شمال الشام (٢) .

على أن استرضاء البيزنطيين في عهد ثال ارتبط بمدى ما كان يتعرض له من خطر على أيدي الفاطميين غالباً ، فطيلة عشر سنوات بعد ذلك ، لانهثر على ما ينبغي . باضطراب تلك العلاقات الودية بين إمارة حلب والبيزنطيين أو استمرار أداء حلب رسوم معينة للبلاط البيزنطي ثمناً للسلام ، حتى سنة ٤٤٣هـ (١٠٥١م) حين يذكر أن ثالا أرسل شيخ الدولة علي بن أحمد الأيسر رسولا إلى القسطنطينية « بالمال المقرر عليه في كل سنة وهدية » . وقد لقي هذا المبعوث حفاوة البيزنطيين وتكريمهم ... « عن غيره من الرسل » وعاد إلى حلب حاملاً « هدية سنوية عوضاً عن هديته » (٣) وليس لدينا تفسير لذلك سوى رغبة ثال في كسب تأييد البيزنطيين بعد أن تعرض لخطر النشاط الفاطمي في بلاد الشام

(١) المرجع السابق ص ٢٦٢ - ٢٦٣

Baynes ; The Byzantine Empire. P. 53

(٢)

Diehl : op. cit. p. 104-105

(٣) ابن العديم : زبدة ج ١ ص ٢٦٨ ،

من جديد، فقد تصدى لجيش ناصر الدولة الحسين بن حمدان قائد الفاطميين في سنة ٤٣١ هـ ، ولحزب قوى معارض في حلب شك في تعاونه مع الفاطميين فقبض على زعمائه ولم يطلق سراحهم إلا في عام ٤٤٢ هـ كما تعرض في عام ٤٤١ هـ لقتال رفق الخادم ، القائد الفاطمي ، وأنزل به الهزيمة ؛ كل ذلك لا بد وأنه كان وراءه رغبته في التماس التأييد والعون من البلاط البيزنطي .

على أن الظروف الدولية عادت من جديد في سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) فألقت ظلها على علاقة نبال بالدولة البيزنطية . فيحدثنا المؤرخ ابن العديم أن نبالاً أرسل سنة ٤٤٧ هـ هدية إلى ثيودورا (١٠٥٤ — ١٠٥٦ م) ... « واتمس منها الزيادة في مرتبته فقبلت هديته وعوضته عنها وأجابه إلى ملتمسه » (١) ، ففى نفس العام دخل للسلاجقة بغداد وهرب البساسيري منها إلى الرحبة حيث انحاز إليه نبال ، كما ظهر مبعوث السلاجقة والخلافة العباسية السنية بإقامة الخطبة للخليفة العباسي القائم في جامع للقسطنطينية بأمر الممكة ثيودورا دون مبعوث الخلافة الفاطمية أبا عبد الله القضاء ، الذى أرسل إلى المستنصر بذلك فغضب هذا وأمر بالقبض ... د على جميع ما فى كنيسة القيامة ... وكان هذا من الأسباب الموجبة لفساد ما بين المصريين والروم ، (٢) . وعلى هذه الصورة تشابكت العلاقات الدولية ويغلب على الظن أن نبالاً أراد سفارته إلى البيزنطيين وبانحيازه إلى البساسيري — داعى الفاطميين — الاجتياز بالوضع الراهن

(١) ابن العديم : المرجع السابق ص ٢٧٠ ،

Baynes : op. cit. P. 53

(٢) ابن ميسر : أخبار مصر ج ٢ ص ٧

ومواقفه المعتدلة بين القوتين الكبيرتين المجاورتين له في المنطقة ، وعدم إثارة أى منها ضده .

لكن يبدو أن علاقة شمال بالبيزنطيين قد أصابها التدهور خلال فترة تنحيه عن حلب والتجأه إلى مصر بين سنتي ٤٤٨ — ٥٢٢ هـ ، فحين عاد لينازع ابن أخيه محمود ملك حلب في أوائل عام ٥٣٣ هـ (١٠٦١ م) لجأ محمود إلى الاستنجاد بالامبراطور البيزنطي قسطنطين العاشر (دوقاس) ١٠٥٩ — ١٠٦٧ م ، وكان رسول محمود إلى البلاط البيزنطي هو عبدالله بن محمد الخفاجي ، إلا أن هذا لم يلق أذنا صاغية هناك ... د فبقى عندهم إلى أن ملك شمال حلب ، (١) ودليل آخر على فتور تلك العلاقات في أواخر أيام شمال ، أن أنطاكية أصبحت مأوى للفرار من وجه شمال والمنارئين لحكمه ، فقد هرب إليها أبو العلاء بن سمان بعد فشله في اغتيال شمال ، د فصار إلى أنطاكية ، وصار بها أسقفا إلى أن مات ، (٢) .

على أن الأمر ساء حتى وصل إلى حد الحرب السافرة بين شمال والبيزنطيين في أنطاكية . ففي المحرم من عام ٤٥٤ هـ (يناير سنة ١٠٦٢ م) عمر البيزنطيون حصن قسطنطين وعين التمر (٣) فرد شمال على ذلك بالاستيلاء على حصن أرتاح بين حلب وأنطاكية (٤) في جمادى الأولى سنة ٤٥٤ هـ ، وعندئذ سارع البيزنطيون

(١) ابن العديم زبدة ، ج ١ ص ٢٨١ — ٢٨٢

Diehl : op cit. P. 105

(٢) ابن العديم : المرجع السابق ص ٢٨٦

(٣) من أعمال حلب ، ياتوت : معجم ج ٤ ص ٩٧

(٤) ياتوت : معجم ج ١ ص ١٩٠ — ١٩١

إلى طلب الصلح ، فاشترط ثمال هدم الحصنين المجددين ، ، وأن يكون لبلون للمسلمين لا علاقة لهم فيه ويحملون عن حصن أرتاح مالا ويرده عليهم ففهموا ذلك ، لكن ذلك لم يكن خاتمة المطاف في هذا الدور ، بسبب تأليب حاكم أنطاكية لعمال ثمال في الحصون القريبة خاصة معرة مصرين ، بل أنه قام ورجاله بمهاجمة قرية مريمين من أعمال حلب وأحرقوها ونهبوها في شوال من نفس العام ، فرد ثمال على ذلك بالاستيلاء على قنبار وقتل من بها من الرجال وسبي النساء والصبيان ^(١) وعلى هذه الصورة جرت علاقة ثمال بالبيزنطيين في أنطاكية في أواخر مراحل حياته ولم تنته إلا بوفاة في ذي القعدة سنة ٤٥٤ هـ (ديسمبر ١٠٦٢ م) .

وبعد ذلك آلت حلب لعطية بن صالح لفترة قصيرة مضطربة ٤٥٤-٤٥٧ هـ (١٠٦٢ - ١٠٦٥ م) لا نثر خلالها على ما ينبغي عن أحداث ذات أهمية في العلاقات بين الطرفين ، لسكن من الثابت أن الإمبراطورية البيزنطية منذ بدايه النصف الثاني من القرن الحادي عشر أخذت تتعرض لخطر الأتراك السلاجقة الذين أخذوا ينسابون داخل أراضيها واستطاعوا في غارتين كبيرتين أن ينزلوا بالأقاليم الشرقية منها الخراب والدمار في عام ١٠٤٨ م على يد ابراهيم ينال ، وفي عام ١٠٥٤ على يد طغرل بك نفسه ^(٢) ، واستطاع السلاجقة بعد ذلك أن يعصفوا بأرمينية ، فاستولوا على مدينة آني سنة ١٠٦٥ هـ

(١) ابن العديم : زبدة ج ١ ص ٢٨٧

(٢) سعيد عبد المتاح عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ص ٨٢ ، ٨٤

ثم قيصرية سنة ١٠٦٧ وكذلك على خونت (خوناز) CHONES (١) .

وليس من شك في أن تتابع هذه الأحداث الخطيرة في الوقت الذي خلا فيه العرش البيزنطي من إمبراطور قوى ذو همة ونشاط، قد أوقع الإمبراطورية في اضطراب وقلق انعكسا على علاقاتها بالشرق ، في الوقت الذي شهدت فيه حلب نزاعا متواصلا بين أمير بها المرداسيين عطية بن صالح وابن أخيه محمود بن نصر .

لكن الدلائل كلها تشير إلى أن البيزنطيين مالوا شيئا ما إلى جانب عطية بن صالح ، ربما إحساسا منهم بضعفه وسهولة استمالته ، فعلى الرغم من كراهيتهم للأتراك السلاجقة، إلا أنهم سمحوا بعبور طائفة كبيرة منهم تحت قيادة ابن خان في طريقهم إلى حلب لمعارنة عطية في بداية عهده بها، بل إنهم أمدوا ابن خان، بالخلع والدنانير لإكراما لأسد الدولة عطية لأنه كان مهادئهم ، (٢) ، وحين اضطر عطية في آخر الأمر إلى تسليم حلب لابن أخيه محمود سنة ٤٥٧ هـ (١٠٦٥ م) لجأ إلى البيزنطيين في أنطاكية واستعان بهم أكثر من مرة لاستعادة حلب ، ولما يئس نهائيا من ذلك سافر إلى القسطنطينية فأقام بها إلى أن لقي حتفه هناك سنة ٤٦٤ أو ٤٦٥ هـ في بعض الروايات (٣) .

Vasiliev : op. cit. P. 415, 488 - 9

(١)

Ostrogorsky : op. cit. P. 303

عمر كمال ترفيق : تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ص ١٣٠

(٢) ابن العديم : زبدة ج ١ ص ٢٩٤

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ٢٦٢ ، ابن العديم : زبدة ج ١ ص ٣٢

ابن القلانسي : ذيل ص ١٠٦

وبقيام محمود بن نصر في حكم حلب سنة ٤٥٧-٤٦٧ هـ (١٠٦٥-١٠٧٥) شهد شمال الشام ورود جماعات الأتراك، سبق أن أشرنا الى أهم قياداتهم وقد غزت هذه الجماعات عنصر تخريب ودمار لأملاك البيزنطيين في أنطاكية وأعمالها في الوقت الذي التزمت فيه أنطاكية بسياسة الدفاع، من ذلك أن القائد إفشين خرج سنة ٤٦٠ هـ (١٠٦٧ م) يقود نحو ألف من الأتراك وهاجم بهم أعمال أنطاكية وأنزل بها الخراب والدمار، « وأخذوا منها نحو أربعين ألف جاموس، وأجبروا الأهالي على الاحتماء في الحصون والجبال والمغائر، وتركوا بيوتهم على حالها لم يأخذوا منها شيئاً، وقد نتج من ذلك أن، دُخِرَ بلد الروم خراباً لم يسمع بمثله وبقيت الغلات في البيادر ما لها من يرفعها منهم. » وقد عارِدَ إفشين الكرة في العام التالي ١٠٦٨ م فألقى الحصار على أنطاكية نفسها ولم يتركها إلا بعد أن أخذ من أهلها مائة ألف دينار، « ومثلها من ثياب الديباج والآلة، (١) وفي نفس العام استولى ابن خان التركي على أرتاح بعد أن فرض عليها الحصار نحو خمسة أشهر، « ونهب جميع ما فيها وما في حصنها من الأموال، وقتل من رجالها نحو ثلاثة آلاف رجل » (٢).

تحتّم على رومانوس الرابع (١٠٦٧ - ١٠٧١ م) الذي خلف قسطنطين العاشر على العرش (٣) أن يكسح جماع الأتراك ويستعيد للبيزنطيين شيئاً من هيبتهم في الشرق. وعلى الرغم مما اشتهر به هذا الإمبراطور من حنكة ودراية

(١) ابن العديم : نفسه ج ٢ ص ١١ - ١٢، ابن الوردي : تاريخه، ج ١ ص ٣٧٢

(٢) ابن العديم : نفسه ج ٢ ص ١٢ - ١٣

Dichl : op. cit. P. 105.

(٣)

بالشؤون السياسية والعسكرية ، إلا أن أثره في التصدي للأتراك لم يكن حاسماً^(١) . فند وصل الإمبراطور بجيشه إلى شمال الشام في العام التالي ١٠٦٩م (٤٦١ هـ) واستطاع فعلاً أن يسترد أرتاح ويستولي على منبج ، دونهمها وقتل أهلها بعد أن هزم محمود ، وبني كلاب وابن حسان الطائي ومن معهم من جموع العرب^(٢) . لكنه اضطر إلى العودة إلى بلاده سريعاً بسبب ما تعرض له جيشه من وباء وغلاء .

ويبدو أن هذه الحملة البيزنطية قد أخرجت أنطاكية من جديد إلى دور المهجوم بعد التزامها بسياسة الدفاع سنوات ، لأن حاكمها خرج في نفس العام (١٠٦٩ م) شعبان سنة ٤٦١ هـ فاستولى على حصن أسفونا قرب معرة النعمان ، وقتل كثيراً من رجاله ، ولكن رد محمود المرداسي كان سريعاً ، إذ خرج في حشد عظيم فاستعاد الحصن ونكل بمن كان به من الروم ، ولم يلبث بعد ذلك أن عقد صلحاً مع دوق أنطاكية الأرمني كاشاتور Kachatur وبمقتضاه حصل محمود على قرض قدره أربعة عشر ألف دينار ووافق على هدم حصن أسفونا^(٣) .

وحين تحول محمود من الولاء للفاطميين إلى الولاء للسلاجقة والعباسيين ،

(١) Brehier : Vie et Mort de Byzance, P. 280

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٠٧ ،

ابن الوردي : تاريخه ج ١ ص ٣٧٣

(٣) ابن العديم : زبدة ج ٢ ص ١٤ - ١٥ ، ياقوت : معجم ج ١ ص ٢٤٩

Camb. Med. Hist. 5. P. 261

طلب منه السلطان ألب أرسلان أن يقاتل البيزنطيين في أنطاكية ويحارب الفاطميين فلما تلقا محمود في ذلك قاد ألب أرسلان جيشه في ربيع سنة ١٠٧١ م ونزل على حلب وجرت مفاوضات بين الطرفين انتهت بإذعان محمود واعترافه بالتبعية للسلطان لكنه مع ذلك لم يتعهد بشن الهجوم على أنطاكية (١) ، في حين أن نهاية رومانوس الرابع نفسه كإمبراطور كانت على يد ألب أرسلان في مانزكورت في صيف نفس العام ١٠٧١ (٢) ، وتعرضت الإمبراطورية بعد ذلك لخطر الغزو والإرهاق والسيخط وقامت فيها الثورة بعد الأخرى بقبية هدة الأمرة المقدونية حتى قيام الأسرة الكومنينية سنة ١٠٨١ (٣) .

وكان ولدا محمود وهما نصر وسابق (١٠٧٥ - ١٠٧٩ م) آخر أمراء بني مرداس في حلب ، وبسبب ضعف سلطتهم وازدياد نفوذ الأتراك من ناحية ، ومجاهدة الإمبراطورية البيزنطية في هذه الفترة في النصف الثاني من السلاجقة والنورمان من ناحية أخرى ، بسبب ذلك لم يجر بين حلب والبيزنطيين ما يستحق الذكر حتى سقطت حلب ذاتها في يد شرف الدولة مسلم العقيلي سنة ١٠٧٩ م ، في حين أن أنطاكية وقعت في يد الأرمن بعد أن قتل آخر حاكم بزنطي فيها سنة ١٠٧٨ م ، فسارع أهلها من الأرمن بتسليمها إلى فيلاريتوس الأرمني (٤) ثم ما لبثت أن سقطت بعد ذلك في يد سايمان بن قتائش

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٠٩

(٢) man : The Byzantine Empire. P. 253 - 4

(٣) عركل توفيق : تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ص ١٣٢

(٤) Grousset : L'Empire du levant P. 179-80

سنة ١٠٨٥ م وامتد النفوذ السلجوقي فشمّل المنطقة كلها تقريباً ، وحرمت
الإمبراطورية البيزنطية من أمن قاعدة لها في الشام ومن مدينة كانت تعتبرها
درة عقدها في الشرق ، وهكذا انتهت ملامح قطبي العلاقات البيزنطية-
المرداسية في عامين متتاليين .

.. ..

(هـ) بنو مرداس والخلافة الفاطمية

لم يابث الفاطميون بعد أن استولوا على مصر سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٨ م) ، أن تطلعوا إلى الاستيلاء على بلاد الشام لتأمين وجودهم في مصر ، ولم يكد جوهر الصقلي ينتهي من فتح مصر حتى أرسل حملة إلى بلاد الشام تحت قيادة جعفر ابن فلاح الكتامي في أواخر سنة ٣٥٩ هـ فاستولى على الرملة وأنزل المهزومة ببقايا الإخشيديين في فلسطين ودخل طبرية دون مقاومة ثم مالبت أن استولى على دمشق ذاتها .^(١)

وعلى الرغم من أن هذا للنجاح بسط نفوذ الفاطميين حتى أواسط بلاد الشام ، إلا أنهم كانوا دائمي التحفز لمد سلطانهم أبعد من ذلك ، حتى يستطيعوا منازعة الخلافة العباسية سلطانها الروحي ويسلبونها زعامتها للعالم الاسلامي . وقد عاق هذا الهدف لبعض الوقت تعدد القوى المهيمنة على مقدرات المنطقة ورغبتها في الاحتفاظ بالأوضاع الراهنة ، إن لم يكن تغييرها لصالحها ، فقد كان هناك الحمدانيون في حلب بمن انضم إليهم من بقاء الإخشيديين من عشائر بني كلاب وكذلك البيزنطيون الذين نجحوا لأول مرة تحت قيادة نفقور فوقاس سنة ٩٦٩ م في استعادة أنطاكية . وما لبثوا أن أرغموا أمير حلب على توقيع صلح مهيمن معهم سنة ٩٧٠ م (٨٣٥٩ هـ)^(٢) كذلك كان هناك قرامطة البحرين الذين عولوا على فرض أنفسهم على بلاد الشام بعد نجاح غارتهم على

(١) المقرئى : انطاظ الحنفا ، ص ١٦٨ ، ١٧٣ - ١٧٥

Vasiliev : Hist. de L'Empire Byzantine. I. P. 409

(٢)

تملك البلاد سنة ٣٥٧ هـ^(١) .

وقد استطاع الفاطميون دون شك القضاء على كثير من العقبات التي
امتدعت حكمهم لهذه البلاد ، وقطعت تسلسله أحيانا ، فوضعوا حدا لنشاط
القرامطة في بلاد الشام واستعادوا دمشق منهم سنة ٣٦٣ هـ (٩٧٥ م)^(٢) وكذلك
تفقدوا على حركات المغامرين من أمثال أفتكين التركي سنة ٣٦٧ هـ بعد أن انحاز
إليه الحسن بن أحمد القرمطي ، لكن الفاطميين استطاعوا في النهاية وضع حد
لمشروعاتها معا^(٣) ، كذلك تار بفلسطين بنو الجراح الطائيين سنة ٣٨٨ هـ ،
سنة ٤٠٠ - ٤٠٤ هـ ، إلا أن الفاطميين نشطوا في القضاء على ثوراتهم
واستطاعوا إزال الهزائم بهم في أوائل القرن الخامس الهجري واستعادوا
نفوذهم الضائع هناك ، وظل الحال كذلك بقية عهد الحاكم بأمر الله ومطامع عهد
الظاهر لا عزاز دين الله حتى قيام حلف القبائل العربية سنة ٤١٥ هـ (١٠٢٤ م)
الذي ضم كل من حسان بن الجراح وصالح بن مرداس وسنان بن عليان
زعماء القبائل لتقسيم أملاك الخلافة الفاطمية في بلاد الشام ، وهو الحلف الذي
أشرنا إليه فيما سبق^(٤) .

أدرك الفاطميون خطورة هذا الحلف بالذنبه لأملاكهم في بلاد الشام
فجهزوا جيشا كبيرا عقدوا قيادته لأوشتكين الدزبري سنة ٤٢٠ هـ لمحاربة

(١) المقرئى : اتماظ الحنما ، ص ٢٤٧ - ٢٤٨

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٩٠

(٣) Wiet : L'Egypte Arabe. P. 181 - 2

(٤) ابن العديم : زبدة ، ج ١ ص ٢٢٣ ،

ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ٢٦١

القبائل المتحالفة — كما سبقت الإشارة — واستطاع الدزبري فعلا إلحاق الهزيمة بقبائل الشام المتحالفة على شاطئ نهر الأردن جنوبي طبرية فقتل صالح بن مرداس وهرب حسان ابن الجراح إلى الإمبراطور البيزنطي ، واسترد الفاطميون البقاع الجنوبية والوسطى من بلاد الشام ، لكن حلب ظلت بيد نصر بن صالح بن مرداس (١) .

على أننا يجب أن نسرع إلى تسجيل ملاحظة هامة — قبل المضي في عرض العلاقات بين بني مرداس والفاطميين — وهي أن مضمون تلك العلاقات خلال النصف الأول من القرن الخامس الهجري يمكن في رغبة جامعة لدى الخلافة الفاطمية في الاستيلاء على حلب وبسط سيطرتها على بلاد الشام بأسرها . وقد نجحت في ذلك إلى حد بعيد بين عامي ١٠٣٨-١٠٥٨ م حتى لنستطيع القول بأن النفوذ الفاطمي في بلاد الشام بلغ أوجه في تلك الفترة ، وشمل بلاد الشام كلها تقريبا باستثناء أنطاكية التي ظلت في حوزة الدولة البيزنطية ، بقابل ذلك كله رغبة ملحة لدى أمراء بني مرداس في الاحتفاظ بإمارتهم وضممان استقلالها ، وفي إطار هذه السياسة جرت العلاقات بين الطرفين .

ترتب على انفراط عقد التحالف العربي في بلاد الشام ومقتل صالح بن مرداس وهروب حسان أن أطلقت يد الدزبري في بلاد الشام سنة ٤٢٠ هـ (١٠١٩ م) فغنيق كثيرا على إمارة حلب ، كما قام بمهجة وإلى طرابلس بالاستيلاء

(١) سبط بن الجوزي مرآة ، ج ٨ ، ورقة ٢٦٥ - ٢٦٦ ،

ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٢٧٢

على قلعة المنيفة بين حاب وأنطاكية فأثارا بذلك البيزنطيين^(١). ولكن الدزبري مالبث أن عاد إلى دمشق وترك نصر بن صالح يتصدى لحمة رمانوس الثالث سنة ٤٢١ هـ (١٠٣٠ م) .

ويبدو أن نجاح نصر في إزال الهزيمة بالامبراطور البيزنطي قد أوجد حماسة طاغية في بلاد الشام ، وجدت صداها لدى الخلافة الفاطمية في مصر ، لاسيما وأن نصر بعث رسولا إلى الخليفة الظاهر ... حمل اليه من جملة ما غنمه من الروم من الثياب والصياغات والأواني والالطاف الكثيرة ... ووقع فعلة عندهم أحسن موقع ، ، وبقي الرسول بمصر فترة . فلما توفي الظاهر وتولي المستنصر الخلافة ... سير معه خالها انهر بن صالح ولقبه مخضص الأبراء ، خاصة الإمامة ، شمس الدولة ومجدها ذو العزيمين « (٢) .

ثم كان أن بقيت الأوضاع على ذلك حتى سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٨ م) ، كان الدزبري قد اتخذ من دمشق مقرا لإدارة الأملاك الفاطمية في بلاد الشام ، وطمحت نفسه من جديد للاستيلاء على حلب ، وتشير المصادر العربية إلى دور بارز لوالى طرابلس جعفر بن كلبد الكتامي في تخريب الدزبري على ذلك ، فضلا عن رغبة كامنة لدى الدزبري نفسه في توطيد نفوذه في بلاد الشام ربما نوطئة لمصلحة طاعة الخلافة والاستقلال بما تحت يده من أملاك (٣) . ويبدو أن عقد

Schlumberger . L'Epopée. III. P. 71

(١)

(٢) ابن المديم : زبدة ج ١ ص ٢٤٧ - ٢٤٨ .

(٣) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ورقة ٣٤٩ .

Camb. Med. Hist. 5. P. 258

ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ٢٦١

للصلح بين الإمبراطورية البيزنطية والخلافة الفاطمية في نفس العام هو الذي يفسر اتصال الدزيرى بالإمبراطور البيزنطى قبل أن يشرع في مهاجمة حلب^(١). ومهما يكن من أمر ، فقد حشد الدزيرى جيشه واستمال كثيرا من العشائر القبلية في بلاد الشام ورحل تجاه حماه .

وحينما علم نصر بذلك ، سار في جيشه فنزل قرب سلمية وهناك جرت الحرب بين الطرفين دارت فيها الدائرة على نصر واضطر إلى التراجع لتنظيم قواته ، فاستنجد بشبيب بن وثاب ، ولكن الدزيرى عاد فألحق به هزيمة ساحقة غربى لطمين بقرب حماه وقتل نصر نفسه في المعركة وذلك في شعبان سنة ٤٢٩ هـ (مايو ١٠٣٨ م)^(٢) .

وقد ترتب على مقتل نصر إذ ذاك أن استولى الدزيرى على حلب في رمضان من نفس السنة ، بعد أن هرب منها ثمال بن صالح إلى الجزيرة ، ثم ما لبث الدزيرى أن استولى على قلعة المدينة من يد مقلد بن كامل بن مرداس ، « ونادى فى مدينة حلب بأن يخرج منها جميع الجنود والحواشي الذين كانوا يخدمون ابن صالح » وبعد ذلك سار إلى بالس ومنج فاستولى عليها ثم عاد إلى دمشق بعد أن رتب أمور حلب وولى عليها غلامه رضى الدولة بنجوتكين^(٣).

بقيت حلب في يد الدزيرى مدة أربع سنوات ٤٢٩ — ٤٣٣ هـ (١٠٣٨ —

Wiet : L'Egypte Arabe, P. 223

(١)

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ٢٦١

(٣) ابن العديم : زبدة ج ١ ص ٢٥٧ — ٢٥٨

١٠٤٣ م) كان حريصا خلالها على تأمين سلامتها ومراقبة تحركات ثمال بن صالح في أرض الجزيرة، على أن الدزبري مالبث أن أتى من التصرفات ماجعل السلطات الفاطمية توجس خيفة منه ، فكتب الجرجرائي إلى ولاية الشام بترك الانقياد له ، وكانب أجناد دمشق يفرهم به وكتب المستنصر توقيعا لثمال بن صالح بملك حلب (١) .

سار ثمال بتوقيع المستنصر إلى حلب فتسلمها من بنحو تكين مملوك الدزبري في جمادى الآخرة سنة ٤٣٣ هـ (يناير سنة ١٠٤٢ م) ووصله تشريف من المستنصر وعلى هذا يمكن القول أن حلب عادت إلى الحكم المرادسي في ظل الحماية الفاطمية .

لكن الصفاء بينهما لم يدم طويلا ، لأن ثمال مضى في إصلاح الأوضاع العسكرية والمالية في المدينة ، وأهمل في حمل ما فرض عليه من الأموال ، فبعث نحو مائتي ألف دينار إلى مصر ورصد نحو خمسة وسبعين ألف دينار . . . برسم عمارة القلعة ومساكنها ومهبطاتها « ونحو » (٢) « ثمال ألقا . . » لاقامة العوض عما استنفذ من العدة وهلك من أصحاب الأسلحة باستعمالها والابتذال لها في الحرب ، واستبقى لنفسه ما قيمته نحو خمسة عشر ألفا (٣) .

ويبدو أن هذه التصرفات أثارت قلق السلطات الفاطمية وحركت كواامن

(١) ابن خلدون : المعبر ج ٤ ص ٢٧٣ ، ابن العديم : ج ١ ص ٢٥٩ - ٢٦٠

(٢) ابن العديم : زبدة ج ١ ص ٢٦٣

شكوكهم في نيات الأمير المرداسي الجديد ، فسارعوا بإفاد القائد ناصر الدولة الحسن بن حمدان والى دمشق لقتاله والاستيلاء على حلب سنة ٤٣٩ هـ (١) ، وعلى الرغم من نجاح ابن حمدان في الاستيلاء على حماه ومعرة النعمان وإنزال الهزيمة بالحليين الذين خرجوا لقتاله ، حتى يقال أن آلافاً منهم قتلوا خنفاً وهم يتدافعون على أبواب المدينة هرباً من سيفه ، إلا أنه لم يستطع دخول حلب واضطر إلى النزول بقربها في قرية تدعى صلدى على نهر قويق ، وهناك تعرض في الليل لسيل جارف « لم يسمع بمثله ، ففرق أكثر المضارب وأتلف الرجال وأهلك الدواب » وعندئذ .. « أسرع ابن حمدان بالعودة إلى دمشق ، وليس من شك في أن ذلك كان نصراً آمال على الخلافة الفاطمية استتبعه في العام التالي (٤٤٠ هـ) استعادته لمدينتي حماه وحمص ، بعد أن نكل بالحاميات الفاطمية فيها ، فاستعادت الإمارة المرداسية بذلك حدودها القديمة تقريباً . (٢)

ثم إن ما حدث في العام التالي (٤٤١ هـ) من إنفاذ رفق الخادم من مصر في جيش فاطمي كبير لقتال شمال ، إنما يفسر رد الفعل العنيف لدى السلطات المصرية بعد هزيمة ابن حمدان ، ورغبة الخلافة في استعادة هيبتها في شمال الشام ، فقد أولى المستنصر هذه الحملة بالذات اهتماماً كبيراً فسير رفق « في أبهة وقوة وعدة وافرة وآلات جليلة وعساكر كثيرة تبلغ عدتهم ثلاثين ألفاً وخرج المستنصر لتشجيعه وتقديم لجميع ولالة الشام بالانقياد إليه » (٣) .

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ٢٦١ ، ابن ميسر : أخبار مصر ج ٢ ص ٣

(٢) ابن العديم : زبدة ج ١ ص ٢٦٤ - ٢٦٥

ابن ميسر : أخبار مصر ج ٢ ص ٣

(٣) ابن ميسر : نفس المرحم ص ٤

وصل رفق الى دمشق في مطلع عام ٤٤١ هـ ، وسار منها الى حلب في صفر من نفس العام ، وفي ربيع الأول دارت الحرب بينه وبين الحلبين ، وفي البداية أمر بحمل الأموال والأنقال إلى معرة النعمان ربما لحفظها ، ولكن هذه الخطوة كانت بالغة الخطورة ، لأنها أعطت انطبعا بعدم الاطمئنان إلى نتيجة المعركة فأخذ العسكر في الرحيل وقد داخلهم الوجل « . ولم يجد الحلبيون صعوبة كبيرة في إنزال الهزيمة الساحقة بفلول الجيش الكبير حتى جرح رفق نفسه وأسر في النهاية ، وحمل إلى حلب على بغل ، مكشوف الرأس ومعه جماعة من أمائل عسكره ، فاختلط عقله ومات بالقلعة بعد ثلاثة أيام ، بينما وقع في الأسر معظم قادته وكثير من رجاله ، وانتهت الحملة بالفشل الذريع (١) .

وعلى الرغم من نجاح ثمال في هذه الحرب ، إلا أنه أدرك خطر معاداة الخلافة الفاطمية ، وخطر المضي في حربها . فإلى مسالمتها وكسب تأييدها ، بينما اقتنع الفاطميون بفشل محاولاتهم للاستيلاء على حلب ، حتى أن المستنصر « سخط على الوزير الجرجرائي لشروعه فيما عادت مضرتة على الدولة من تسيير العساكر إلى حلب ونفى إلى صور ، (٢) . ولعل ذلك قد قرب وجهات النظر بين الطرفين ، فأصبحا أكثر رغبة في إحلال السلام ، خاصة وأن ثمال أطلق الأسرى الفاطميين وسيرهم إلى مصر ، ثم مالبت أن بعث ماهو مقرر عليه من أموال كما بعث ببعض الهدايا والألطاف الفاخرة ، فلم يسع المستنصر إلا أن

(١) ابن ميسر : أخبار مصر ، ج ٢ ص ٤ - ٥

(٢) المرجع السابق ص ٥

يرسل إليه «توقيعا بحلب وسائر أعمالها» (١). وكانت تلك الحرب آخر حرب جرت بين ثلك والفاطمييـن ، إذ ظل موال لهم بقية عمده حريصا على مسالمتهم.

ثم أكد ثمال هذا الانجاء من جديد سنة ٤٤٧ هـ بانحياز ه إلى البساسيري حليف الفاطمييـن وداعيتهم ، حينما هرب من بغداد أمام طغرل بك السلجوقي وجاء إلى الرحبة « فلقية ثمال وأكرمه وحمل إليه مالا عظيما » (٢). وعلى الرغم من أن ثمالا أحس بخطر هذا الانحياز وما قد يجره عليه من ويلات، إلا أنه مضى في معاضدة البساسيري ، بل وسلمه مفاتيح الرحبة ليـجعل فيها ماله وأهله، ومالـث أن استجاب لنداء المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي الداعي الفاطمي ومبعوث الخلافة الفاطمية لنصرة البساسيري الذي كتب إليه من دمشق طالبا لنسـهيل مهمته ومعاونته على اجتياز الطريق بما معه من خزائن ، يقول المؤيد : فورد

(٣) ابن العديم : زبدة ج ١ ص ٢٦٦ - ٢٦٧

(٤) البساسيري نائد تركي كان في خدمة الخليفة القائم بأمر الله العباسي في بغداد قرب منتصف القرن الخامس الهجري ، وكان يدين بالـمذهب الشيعي ، فلما ساءت العلاقة بينه وبين الخليفة قام بمحركة سياسية أطاح فيها بالخليفة العباسي ودعا المستنصر بالله الفاطمي في بغداد ونفى الخليفة العباسي إلى أتعى شمال العراق ، وظلت الدعوة الفاطمية تقام في بغداد مدة تقرب من عام ، حتى قدم السلـاجقة بقيادة طغرل بك فأنزلوا الهزيمة بالبساسيري وحلفائه وأعادوا الخليفة القائم بأمر الله وفرضوا حمايتهم على الخلافة العباسية .

الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ٩ ص ٣٩٩ - ٤٠١ ،

المؤيد في الدين : السيرة ص ٩٦ ، ١٨٢ ،

Arnold : The caliphate. P. 80 .

أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٥٤ (سنة ٤٤٥ هـ)

الجواب « بما سكنت نفسى إليه ، وعقدت خنصر تحصيلي عليه »^(١) ، ومالبث ثمالاً أن خرج للقاء المؤيد عند الرستن على نهر العاصى قرب حمص فى حفاوة بالغة ، حتى ايشيد المؤيد بذلك بقوله « ووفق ابن صالح بحسن خدمته توفيقاً أبان عن صالح عمله ، وصافى اعتقاده » ثم سار الجمع إلى حلب ومنها أخذوا يستعدون للأحذار إلى الرحبة^(٢) .

وعلى الرغم من أن ثمالاً سار بصحبة المؤيد إلى الرحبة حيث التأم شمل الدعاة الفاطميين والمتأوين للخلافة العباسية : البساسيرى والمؤيد وثمان وقريش . ابن بدران العميلى صاحب الموصل ، كما نجح المؤيد فى استمالة ديبس بن مزيد ، إلا أنه من الثابت أن ثمالاً لم يتحدر مع البساسيرى إلى بغداد حين دخلها هذا بعد خروج طغرل بك منها فى طلب أخيه إبراهيم بنال^(٣) ، حيث أقام الخطبة فيها المستنصر ونفى الخليفة القائم بأمر الله العباسي . ويبدو أن انحياز ثمال إلى جانب البساسيرى فى الرحبة ، وتسليم مفاتيح تلك المدينة إليه لتكون قاعدة له ، وتسهيل مهمة المؤيد وحفظ ما جاء به من الخزائن ، هي أقصى ما قدمه ثمال لحركة البساسيرى من عون ومؤازرة . وليس من شك فى أن هذا الدور كان انقضاء لعذاء الخلافة الفاطمية ، أكثر من كونه دلالة على اقتناع ثمال بحركة البساسيرى ذاتها .

على أن ثمالاً أدرك صعوبة الحفاظ على إمارته وسط أطماع القوى المجاورة .

(١) المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى : السيرة ص ١٠١ (نشر محمد كامل حسين)

(٢) المرجع السابق ص ١٠٧ - ١٠٨

(٣) ابن الأثير . الكامل ج ٨ ص ٨٣ (سنة ٤٥٠ هـ)

فضلا عن مضايقات بنى كلاب له ، لهذا آثر التنازل عنها طواعية للخلافة الفاطمية فى أواخر سنة ٤٤٨ هـ أو ٤٤٩ هـ فى بعض الروايات (١) فمنحته الخلافة بيروت وهككا وجبيل عوضا عنها — كما سبقت الإشارة — وتسلم مكين الدولة ابن ملهم المدينة التى غدت لمدة أربعة سنوات ولاية فاطمية .

شهدت المنطقة بعدئذ نشاط أميرين مرداسيين مطالبين بمالك حلب وهما هطية ابن صالح ومحمود بن نصر بن صالح ، وفى نفس الوقت تعرض ابن ملهم لثورة أحداث حلب ضده ، وأسفر هذا العصيان عن تسليم المدينة لمحمود بن نصر فى جمادى الآخرة سنة ٤٥٢ هـ ، بينما تحصن ابن ملهم فى قلعه حلب فى انتظارا لنجدة من مصر (٢) .

أمدت الخلافة الفاطمية ابن ملهم بجيش يقوده ناصر الدولة الحسن بن حمدان ، وقد نجح هذا القائد الفاطمى فى أول الأمر فى استعادة حلب ونجدة ابن ملهم والتنكيل بأحداث المدينة ، إلا أنه تعرض فى النهاية لهزيمة ساحقة على يد محمود بن نصر قرب تل السلطان فى رجب سنة ٤٥٢ هـ ووقع فى أمر محمود الذى سارع بدخول حلب فى شعبان من نفس العام ، فلم يجد ابن ملهم بدا من تسليمه القلعة (٣) .

(١) ابن القلانسي : ذيل ص ٨٦ ، ابن ميسر : أخبار مصر ص ٨ ،

ابن خلدون : المعبر ج ٤ ص ٢٧٣ ، Lane-poole: op. cit. p. 114

(٢) أبو العدا : المختصر ، ج ٢ ص ١٤٢

(٣) ابن العديم : زبدة ، ج ١ ص ٢٧٧ — ٢٨٠

على أن ضياع حلب من أيدي الفاطميين أثار غضبا وحنقا لدى السلطات الحاكمة في مصر ، فسارع الخليفة المستنصر بإتخاذ شمال المرداسي المقيم بمصر حينذاك وطاب إليه استعادة حلب من ابن أخيه محمود ، وقد نجح شمال بمعونة الفاطميين في استرداد حلب ، من ابن أخيه في أوائل عام ٤٥٣ هـ ..
« فكانت المستنصر بظفره بحلب ، فسير إليه الخلع مع ظفر المستفادى ولأخيه وأولاده ، (١) ، وهكذا عادت حلب من جديد للحكم المرداسي في ظل الحماية الفاطمية .

آلت حلب بعد وفاة شمال إلى أخيه عطيه بن صالح ، ويبدو أن تغافل النفوذ البيزنطي في حلب على عهد هذا الأمير كان حائلا دون تقاربه مع الخلافة الفاطمية ، كما يبدو أن الخلافة لم تؤمل كثيرا في هذا الأمير ولم تعول على تبعيته ، فبادرت إلى تعضيد محمود بن نصر ، أقوى أمراء البيت المرداسي حينئذ ، والمطالب الذشط بملك حلب ، فلم يكده محمود يلقي الحصار للمرة الأخيرة حتى بادر الخليفة المستنصر بإتخاذ رسوله ظفر المستفادى برسالة ودية إليه ولقبه . . « عظيم أمراء العرب عضد الدولة سيف الخلافة . (٢) » وهي خطوه لاشك أماتها رغبة ملحة لدى الفاطميين في الحفاظ على نفوذهم في حلب بأية وسيلة ، ولو كان نفوذا إسميا . على أن الدلائل كلها تشير إلى أن محمودا لم يكن يعبا حينئذ بالخلافة الفاطمية ، ولم يكن حريصا على ملائمتها . ففي سنة ٤٤٩ هـ ، بعث إليه المستنصر بطالبه . . « يحمل المال وغزو الروم

(١) ابن العديم : نفسه ص ٢٨٦ ، ابن الأثير : الكافي ج ٧ ص ٢٦٢

(٢) ابن العديم : المرجع السابق ص ٢٩٧

وحسب ابن خن ومن معه من الغز أن كان على طاعته ، . فكان رد محمود أنه ليس لديه مالا يحمله إلى مصر . . . أما الروم فقد هادتهم . . . فلا سبيل إلى محاربتهم ، وأما ابن خن والغز فيدم فوق يدي ، (١) . وهذا الرد يحمل في الحقيقة عدم اكتراث بالخلافة وعدم مبالاة بها ، وفي العام التالي (سنة ٤٦٠ هـ) تيجراً محمود على ضم حصن أسفونا قرب معرة النعمان (٢) ، وكان تابعا للفاطميين تسلمه من يد أمير مغربي بواسطة سديد الملك ابن منقذ (٣) ، ثم مالبت في النهاية أن خرج عن طاعة الخلافة كلية وأقام الخطبة للخليفة العباسي سنة ٤٦٢ هـ (١٠٧٠ م) (٤) .

وقد تضافرت عوامل شتى في تشجيع محمود على هذا التحول من بينها : إحساسه — دون شك — بما أضحت إليه الخلافة الفاطمية من الضعف والاضمحلال ، بعد أن نزلت بها الكوارث الاقتصادية واجتاحتها نورات الجند ، وما تعرضت له من حركات انفصالية وانسلاخ في أملاكها ، وعجزها عن حفظ وحدة أراضيها (٥) . . . ومن بين تلك العوامل أيضا

(١) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ٧٩

(٢) ياقوت : معجم ج ١ ص ٢٤٩

(٣) ابن العديم : زبدة ج ٢ ص ١٢

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٠٨

سبط ابن الجوزي : مرآة ، ج ٩ ص ٣٥٧ — ٣٥٨

Wiet : L'Egypte Arabe. P. 238

(٥)

ابن ميسر : أخبار مصر ص ٣٤

ابن ميسر : أخبار مصر ص ٣٤

المقرئى : إغاثة الأمة ص ١٨ ، ٢٠ ، ٢٤

ابن القلانسي : ذيل ص ٩٨

ما شهدته المنطقة من ورود جماعات الترك أمثال إفشين وصندق وغيرهم ،
ولابد أن هجماتهم المتلاحقة كان لها ضلع في تحول محمود إلى الولاء للسلاجقة
والعباسيين ، والتماسه الحماية من السلطان السلاجوقي ألب أرسلان (١)

وقد عبر محمود نفسه عن هذه المشاعر يوم أمر بقطع الخطبة للمستنصر
وإقامتها للقائم العباسي سنة ١٠٧٠ م حين قال لأهل حلب « قد ذهبت دولة
المصريين وهذه دولة جديدة ومملكة سديدة ونحن تحت الخوف منهم وهم
يستحلون دماءكم لأجل مذهبكم والرأى أن نقيم الخطبة خوفاً من أن يجيشوا
وقت لا ينفعنا فيه قول ولا بذل » (٢) .

على هذه الصورة ولي نفوذ الفاطميين من حلب وبدأ يحل محله نفوذ تركي
سلاجوقي وقطعت خطبة المستنصر فيها ولم تحرك الخلافة ساكناً ، وهذا
يؤكد ما أمست فيه الخلافة من ضعف وخور ، وما تعرضت له من عن
واضع حلال .

* * *

تلك هي إمارة بني مرداس التي قامت في حلب في القرن الخامس الهجري.
وعمرت أكثر من خمسين عاماً ، لعل خير ما يميز عهداً أنه محاولة جريئة من
لدى النفوذ القبلي الذي تغلغل في بلاد الشام طيلة قرن من الزمان قبل قيامها ،

Cambr. Med. Hist. 5, P. 261

(١)

(٢) ابن المديم : زينة ، ج ٢ ص ١٧ - ١٨

وتجربة ثانية — بعد التجربة الحمدانية — لعودة الحكم العربي الخالص والاستقلال الذاتي إلى تلك البلاد بعد فترات تبعية للدويلات المستقلة في مصر، الطارحة لنفوذ الخلافة العباسية .

ومن حسن حظ بنى مرداس ، أن صادفت جهودهم في حلب فترة ركود من قبل الإمبراطورية البيزنطية بعد وفاة إمبراطورها الشهير باسيل الثاني وولاية سلسلة من الأباطرة الضعاف ، لم ترق همتهم لم السيطرة بيزنطة على بلاد الشام من جديد مع أن قاعدتهم فيها وهى أنطاكية ظلت شوكة دائمة فى ظهر القوى الإسلامية فى بلاد الشام، فنجوا بنو مرداس بذلك من أخطار داهمة ربما هددت كياناتهم، ولم يتعرضوا سوى لمحاولات قليلة من قبل بيزنطة لم تغير من الأوضاع الموجودة شيئاً يذكر ، وقنع البيزنطيون فى كثير من الأحيان بعلاقات شكلية مع حلب ذرا للرماد فى العيون ، وحفظا على مظاهر ود كاذبة .

لكن من سوء حظ بنى مرداس أن عاصروا فى حلب فترة نشاط من قبل الخلافة الفاطمية ، التى ورثت عبء توحيد الشام ومصر ومد السيطرة على تلك البلاد تجنباً لمخاطر التعرض للقوى الأخرى ، فعانى بنو مرداس من خطر التصدى لجيوش تلك الخلافة الزاحفة إلى الشمال مرارا قبل أن تفر همّة تلك الخلافة وتتردى فى مشاكلها وأعبائها وتنوء بحملها ، وبرت السلاجقة معظم أملاكها فى بلاد الشام ومن بينها حلب وبقياء إمارة بنى مرداس .

بنو عمار في طرابلس ١٠٧٠ - ١١٠٩

- أ — قيام الإمارة وعصر جلال الملك أبو الحسن علي بن عمار
- ب — عصر فخر الملك بن عمار وجهوده ضد الصليبيين
- ج — الانقلاب الداخلي في طرابلس ودخولها في حوزة الفاطميين
- د — سقوط طرابلس في أيدي الصليبيين سنة ١١٠٩ م

(أ) قيام الإمارة وعصر جلال الملك أبو الحسن علي بن عمار

حدث قبل أن تفقد الإمارة المرداسية استقلالها بنحو عشر سنوات و تنضوى حلب تحت لواء قوة إسلامية أخرى ، أن شهدت بلاد الشام قيام إمارة عربية ثانية أسسها أمين الدولة أبو طالب بن عمار سنة ٤٦٢ هـ (١٠٧٠ م) في مدينة طرابلس ، منساجها بها عن طاعة الخلافة الفاطمية ، مستقلا بها عن نفوذ القوى الإسلامية المجاورة ، لتمضي في خطها الاستقلالي نحو أربعين عاما قبل أن تسقط طرابلس في أيدي الصليبيين وتصبح إحدى الإمارات اللاتينية في بلاد الشام .

وليس من شك في أن الظروف كانت مهيأة حينئذ لقيام هذا النوع من الإمارات المستقلة نظرا لما أمست فيه الخلافة الفاطمية من ضعف واضمحلال منذ النصف الثاني للقرن الخامس الهجري ، وما نزل بها من محن وكوارث اقتصادية ، ذلك أن مصر تعرضت سنة ٤٥٧ هـ (١٠٦٥ م) لمجاعة مروعة استمرت سبع سنين متوالية ، عم فيها القحط والفناء وانتشرت الأوبئة ، وجاءت هذه المحنة الشديدة — على حد قول المقرئ — بسبب . « ضعف السلطنة واختلال أحوال المملكة ، واستيلاء الأمراء على الدولة واتصال الفتن بين العربان وقصور النيل وعدم من يزرع ما شمله الرى (١) » . وبلغ من شدة

(١) المقرئى : اغارة الأمة بكشف العمى ، ص ٢٤

تلك السنين السبع وما قاسمه مصر إبانها أن شبهها ابن ميسر بسنين يوسف عليه السلام ... « يمد فيها النيل ويطلع وينزل فلا يجد من يزرع أراضى مصر من من اختلاف العسكر وانقطاع الطرقات في البر والبحر (١) » .

وارتبطت تلك المحنة القاسية بقيام الفتن والقلاقل ونورات الجن من الأتراك والسودان في سنتي ٤٥٩ ، ٤٦٠ هـ (١٠٦٧ — ١٠٦٨ م) . ونظرا لضعف الخليفة المستنصر ولطول مدة حكمه وتسلبت الأمراء والقادة ، أن عجزت السلطات الحاكمة عن كبح جماح تلك الجماعات ، فساءت أحوال مصر واضطربت أمورها ، وأمست في حالة غاية في السوء . وصادف ذلك قيام الفتن والثورات والحروب في بلاد الشام أيضا بين بدر الجاني والي دمشق حينئذ وبين جند دمشق وأهلها (٢) . « فصار الحرب قائما بمصر والشام ، كما يقول المؤرخ ابن ميسر في نعمة أسف وحزن ، زاد لوعتها اشتداد وطأة الغلاء . والفحط العامين التاليين ٤٦١ ، ٤٦٢ هـ (٣) » .

وانعكست هذه الحالة دون شك على نفوذ الخلافة الفاطمية في بلاد الشام ، فكان عام ٤٦٢ هـ (١٠٧٠ م) بالذات عام نكبة على أملاك الفاطميين هناك فقد استقلت صور تحت حكم قاضيها ابن أبي عقيل ، وضاعت بيت المقدس والرملة إلى أيدي الأتراك ، وقطعت الخطبة للمستنصر في

(١) ابن ميسر : أخبار مصر ص ٣٤

(٢) ابن القلانسي : ذيل ص ٩٣

(٣) ابن ميسر : نفسه ص ١٨ ، ١٩ ، ٢٠

حلب (١) ، واستقلت طرابلس تحت حكم ابن عمار .

وهكذا أدت تلك الكوارث الاقتصادية والسياسية ، فضلا عن نشاط السلاجقة وتقدمهم في أملاك الخلافة الفاطمية في بلاد الشام ، إلى ازدياد ضعف تلك الخلافة واضمحلالها وفقدانها السيطرة على كثير من ولاياتها ، فانسلخت بعض الإمارات والمدن عن طاعتها في وقت عجزت فيه عن وضع حد لهذه النزعات والتصدى لتلك الحركات .

أما طرابلس — موضوع هذا الفصل — فكانت قد دخلت في حوزة الفاطميين ابتداء من سنة ٩٧١ م (٣٦٠ هـ) عندما استولت جيوشهم بقيادة جعفر بن فلاح على مدينة دمشق ، في حين كانت طرابلس إحدى مدن إقليم الغرب الذي يضم أيضا بيروت وصيدا ، ويتبع دمشق من الناحية الإدارية ، وفي بداية الأمر ، أقر الفاطميون على إقليم الغرب الأمير — ز الدولة تميم ابن النعمان بن طاهر بن هانيء التنوخي ، وكان مقره مدينة بيروت . وفي سنة ٩٧٤ م (٣٦٣ هـ) جرى فصل طرابلس عن إقليم الغرب ، إذ عهد بها الخليفة المعز لدين الله إلى ريان الخادم الذي اتخذها مقرا ، فلم تعد بذلك تابعة لدمشق بل غدت ولاية قائمة بذاتها (٢) .

ومنذ ذلك الوقت ، تتابع الولاة الفاطميون على طرابلس بعد ريان حتى

(١) ابن القلانسي : ذيل ص ٩٧ ، ١١٢ ، ابن الأثير : ج ٨ ص ١٢٢ (الكامل) .

Wiet : L'Egypte Arabe, P. 238

(٢) ابن الفرات : تاريخه ج ٨ ص ٧٧ (تحقيق زريق ونجلاء عز الدين)

بلغوا ثمانية ولالة إلى وقت استقلالها على يد ابن عمار سنة ٧٠٠ م (٤٦٢ هـ) ،
 وهم بترتيب عهدهم : القائد نزال الكتامي ، وجيش بن محمد بن الصمصامة ،
 وعلى بن جعفر بن فلاح ، والأمير تميم التنوخي ، وميسور الخادم ، والقاضي
 أبو الحسن علي بن عبد الواحد بن حيدر الكتامي ، والقائد أبو سعادة ، ثم
 أخيرا مختار الدولة بن بزال الكتامي ، آخر الولاة قبل استقلالها (١) .

وقد ترتب على استقرار الحكم الفاطمي في طرابلس وفي الجهات الساحلية
 بصفة خاصة ، ورسوخ قدم الفاطميين هناك ، أن انتشر المذهب الشيعي في
 في تلك المدينة ، فضلا عن بعض مناطق من بلاد الشام ، بل غالى الأهالي في
 التشيع ، فعرفت جماعات منهم بالحاكمية والآمرة فضلا عن الدروز والنصيرية
 والرافضة ، وغيرهم من غلاة الشيعة المنتشرين في جهات متفرقة من بلاد الشام ،
 خاصة في الجهات الساحلية (٢) .

وبعدئنا الرحالة ناصر خسرو ، والذي زار طرابلس قرب منتصف القرن
 الحادي عشر الميلادي ، أن سكانها كانوا يباغون حينئذ نحو عشرين ألفا كلهم

(١) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٧٣ ، ٢١٠ - ابن الفرات : تاريخه ج ٨ ص ٧٧

ابن القلانسي : ذيل ص ٣٠ ، ٣٤ ، ٤٨ ، ٥١

ابن العديم : زبدة ج ١ ص ٢٠٠ ، ٢١٥ ،

المقرئزي : اتعاظ الحنفا ص ٣٠٠ ملحق ٢

السيد عبد العزيز سالم : طرابلس الشام ص ٥٠ - ٥٣

Sobernheim : Encyc. Isl. art. «Ibn Ammar»

Wiet : op. cit. New Edition

(٢) الأنصاري الدمشقي : فنية الدهر ، ص ٢٠٠ ، ٢٠٣ ، ٢١١

شيعية (١) ، وتنتمي إلى المدينة كثير من القرى المنتشرة حولها غالبية أهلها من الشيعة (٢) ، ويميل أهل طرابلس بطبيعة الحال للدولة الفاطمية راعية المذهب الشيعي . وليس من شك في أن هذه الميول كان لها وزنها وأهميتها أمام أى فائز ينبغي الانفصال بطرابلس عن الخلافة الفاطمية ، فلم يكن من السهل عليه أن يمضى طويلا فى انفصاله ، قبل أن ينجح فى ذلك القاضى أمين الدولة ابن عمار ، الذى حفظ استقلالها وورثها أسرته من بعده مدة تقرب من أربعين عاما .

على أن حصانة طرابلس ومناعة موقعها وشدة مراس أهلها حفظتها من السقوط أكثر من مرة فى أيدي البيزنطيين الذين راموها منذ دخولها فى حوزة الفاطميين ، فقد هاجمها الإمبراطور حنا زمسكيس (شمشقيق) لإبان حملته على بلاد الشام سنة ٩٧٥ ، فاستعصت عليه وأنزلت حاميتها بمعاونة الأسطول الفاطمي الهزيمة بالجيش الإمبراطوري ، وعندئذ عبر زمسكيس عن غضبه بانلاف الضمياح المحيطة بها وتدمير بساتين الكروم والزيتون (٣) .

وفى سنة ٩٩٥ م (٣٨٥ هـ) هاجمها الإمبراطور باسيل الثانى بعد أن استولى على شيزر وحمص وأنطارطوس ، لكن طرابلس فى هذه المرة أيضا صمدت واستطاعت حاميتها الفاطمية الدفاع عنها ، وحيما عاد باسيل مرة ثانية إلى بلاد الشام سنة ٩٩٩ م حيث استرد شيزر وأحرق حمص واستولى على بعلبك ، حاول

(١) ناصر خسرو : سفرنامه ص ١٣

Bull : Encyc. Isl. art. «Tarabulus»

(٢)

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٦٦

أيضاً الاستيلاء على طرابلس ، لكنه فشل مرة أخرى أمامها ولم يصادف توفيقاً في الأعمال الحربية التي قام بها بعد ذلك ضد المدن الساحلية (١) .

وهكذا استطاعت طرابلس أن تسلم من الغزوات البيزنطية ابتداء من الربع الأخير من القرن العاشر الميلادي ، لكنها في الحقيقة لم تسلم كلياً من إصبع بزنطي وراء بعض القلاع التي اجتاحتها ضد النفوذ الفاطمي في بعض المراحل ، إذ يؤكد مؤرخ الإمبراطورية البيزنطية Schlumberger أن الإمبراطور رومانوس الثالث كان وراء الفتنة التي أثارها أمير طرابلس سنة ١٠٣٠ م عندما جاهر بخلع طاعة الفاطميين وعقد معاهدة صلح ومهادنة مع الإمبراطورية تعهد بموجبها بدفع جزية سنوية للإمبراطور ولا بد وأن اهتمام الدولة البيزنطية بإثارة هذه الفتنة وتأييد أمراء المدن على الخلافة الفاطمية خاصة طرابلس ناتج من إحساسها بأهمية هذه المدينة ، لأنها تفتح الطريق للبيزنطيين في المدن الساحلية في بلاد الشام (٢) .

ولا بد وأن هذا الوالي هو مختار الدولة بن بزال الكتامي ، آخر الولاة على طرابلس قبل استقلالها ، الذي نعلم جيداً أنه تولى أمر طرابلس منذ سنة ٤٠٧ هـ حتى توفي في سنة ٤٦٢ هـ (١٠١٦ — ١٠٧٠ م) (٣) . ويبدو أنه عاد مرة أخرى إلى طاعة الفاطميين ، إذ جرى إبرام معاهدة صلح

(١) المرجع السابق ص ٦٨ ، ٦٩ ،

Schlumberger : L'Epopée, II. P. 156

Schlumberger : op. cit. III. P. 91 (٢)

Sobernheim : Encyc. Isl. art. «Ibn Ammar» (٣)

بين الخلافة الفاطمية والامبراطورية البيزنطية سنة ١٠٣٨ م لم تتضمن إشارة إلى شيء من النفوذ البيزنطى فى طرابلس أو المطالبة بأية امتيازات فى هذه المدينة (١) .

على أن هذه الفتنة لم تكن الوحيدة التى شهدتها طرابلس ضد النفوذ الفاطمى ، على الرغم من سكوت المصادر عن ذكر شيء من ذلك . ذلك أن المؤرخ سبط بن الجوزى انفرد بإمدادنا بمعلومات فريدة عن اندلاع فتنة أخرى أثارها ، د بنى أبى الفتح ، فى المدينة سنة ٤٥٧ هـ (١٠٦٥ م) أى قبل سنوات قليلة من استقلال المدينة على يد ابن عمار ، فقد استطاع بنى أبى الفتح هؤلاء الاستحواذ على السلطة فى طرابلس وخلعوا طاعة الفاطميين وأعلنوا الاستقلال ، إلا أن الخلافة الفاطمية بادرت بإتخاذ فائدها فى بلاد الشام وهو ابن منزو الكفامى (٢) وبصحبته والى الرملة ، ونجح ابن منزو بفضل سياسته وبفضل جهود شخصية هامة بدأت تفرض نفسها على الأحداث حينئذ ، وهى شخصية القاضى أبو طالب ابن عمار ، فى القبض على بنى أبى الفتح حيث د بعث بهم إلى صبور وعاملهم بالمكره ، (٣) وتمكن فى نهاية الأمر من إنهاء هذه الفتنة وإخماد هذه الثورة .

Wiet : L'Egypte Arabe. P. 223

(١)

Camb. Med. Hist. 5. P. 257

(٢) تولى أمر دمشق من قبل الفاطميين سنة ٤٥٦ هـ ثم صرف عنها بعد ذلك وكان من قبل واليا على حمص قبل أن يستولى عليها المراديون .

ابن القلانسي : ذيل ص ٩٢ ، ص ٩٥ — ابن العديم : زهرة ج ١ ص ٢٦٥

(٣) سبط بن الجوزى : مرآة ج ٩ ص ٢٩٣

وعلى الرغم من أن هذه الحادثة لم تسترع انتباه المؤرخين المحدثين ممن أروخوا لمدينة طرابلس في هذه المرحلة ، إلا أننا نجد فيها أهمية كبيرة بالنسبة لابن عمار بصفة خاصة . ففضلا عن أنها تشير إلى محاولات دائبة من قبل بعض الطامعين للانفراد بحكم المدينة وسلطانها عن أملاك الخلافة ، فإن في أحداثها دورا بارزا للقاضي ابن عمار ، الذي تؤكد الرواية احتياله على بني أبي الفتح للخروج معه لمقابلة ابن منزو لمفاوضته في أمر الصلح بينما كان يعمل سرا على التخلص منهم ، فحين وثق أحدهم فيه ، وخرج معه لمقابلة القائد الفاطمي ، فإن له أن القاضي خدمه حتى حصله عند ابن منزو . . . وكان ابن عمار قد أصلح جماعة من أحداث البلد ومقاتلته فاستأن منهم جماعة . . . فضعف أمر أبي الفتح واختلف أهل البلد ففتحوا الأبواب ونادوا بشعار المستنصر ، (١) . فالفضل في إنهاء هذه الثورة يرجع — كما هو واضح — للدور الذي لعبه القاضي ابن عمار ، ولذا أسفر التقارب بين ابن عمار وبين ابن منزو الكناي عن عقد مصاهرة سياسية بينهما ، فتزوج جلال الملك أبو الحسن ابن عمار ، وهو ابن أخي القاضي ابن عمار ، من أخت القائد الفاطمي ابن منزو الكتامي (٢) .

وترجع أهمية ثورة بني أبي الفتح المذكورة إلى أن فيها أول إشارة إلى ابن عمار نفسه ، الذي تشير الدلائل إلى تصاعد نشاطه واطراد نفوذه في المنطقة بعدئذ ، كما أنها تتضمن أول إشارة إلى اهتمام هذا القاضي بمستقبل.

(١) سبط بن الحوزي : مرآة ، ج ٩ ورتة ٢٩٣

(٢) ابن القلانسي : ذيل ص ٩٦

طرابلس ، فضلا عن أنها توحى برغبة كامنة لديه لمحاولة الاحتفاظ بالأوضاع الراهنة في المدينة في ظل النفوذ الفاطمي المتهالك توطئة للوثوب عليها والافتراء بحكمها وهي فوق ذلك كانت سابقة خطيرة وقريبة لإمام ابن عمار احتيذاها في الانسلاخ بالمدينة عن نفوذ الفاطميين .

وليس من شك في أن نظاهر ابن عمار بالإخلاص للخلافة الفاطمية خلال تلك الفترة قد أعطاه رصيذا كبيرا من النفوذ في المدينة ، بل وفي بلاد الشام كلها ، بدليل قيامه بالوساطة بين الخليفة المستنصر وبين محمود بن نصر المرادسي ، أمير حلب ، فيما حدث بينهما من نزاع سنة ٤٥٩ هـ (١٠٦٧ م) أي بعد هذه الفترة بنحو عامين ، حينما بعث المستنصر إلى محمود بطالبه بحمل ما هو مقرر عليه من المال ، وغزو الروم وصرف ابن خان ومن معه من الغز . فكان رد محمود أنه ليس لديه من المال ما يحمله إلى مصر ، وأما الروم فقد هادنهم ولا سبيل إلى محاربتهم ، وأما الغز فيدم فوق يده — أي أنه لم يعبأ بالخلافة ولم يجب أيا من مطالبها ، وعندئذ أمر الخليفة واليه على دمشق ، وكان حينئذ بدن الجمالي ، بمحاربة محمود . . . فدخل القاضي ابن عمار المقيم بطرابلس بينهم وأصلح الحال ، (١) . وليس من شك في أن ابن عمار لمس عن كثب خلال ذلك مدى الضعف الذي آلت إليه الخلافة الفاطمية وعدم استطاعتها الحفاظ على أملاكها ونفوذها في بلاد الشام ، فتأقت نفسه إلى الوثوب على طرابلس وتملكها .

وهكذا وجدت فكرة الاستقلال بطرابلس طريقها إلى نفس ابن عمار ،

(١) أبو المحاسن : التيجون الزاهرة ، ج ٥ ص ٧٩

فما لبث بعد سنوات قليلة — أى فى سنة ٤٦٢ هـ (١٠٧٠ م) — حسين سعت الفرصة بعد موت الوالى الفاطمي ابن بزال وانشغال الخلافة ، بما نزل بها من كوارث وما أصابها من فوضى سنة ٤٦٢ هـ ، أن استولى على أعنة الحكم فى المدينة وسارع بإعلان استقلاله بها ، وتلقب بأمين الدولة وأخذ يباشر السلطة كحاكم مستقل .

وتشير كثير من الدلائل إلى أنه كان رجلا ماقلا ذكيا بعيد النظر ، وكان على جانب كبير من الدهاء والفطنة ، فضلا عن أنه كان فقيها شيعيا محبوبا^(١) ، اكتسب منزلة مرموقة لدى سكان المدينة الشيعية ، لأنه ، د كان عظيم الصدقة كثير المراعاة للعلويين ،^(٢) كل ذلك يفسر سياسة الاعتدال وعدم الاشتطاط التى اتبعها تجاه الخلافة الفاطمية بعد استقلاله ، إذ أنه لم يعلن عداوه لها ومعارضته لسياستها حتى لا يثير أهل طرابلس عليه ، كما أنه لم يعورط فى الموضوع لأى من القوى الأخرى ، بل اكتفى بسياسة حيادية تجاه القوى المختلفة ، وكانت هذه السياسة من أبرز سمات عصر هذا القاضى .^(٣)

أرسى إذن القاضى أمين الدولة أبو طالب بن همارقواعد الحكم فى طرابلس ووضع أسس الإمارة المستقلة فيها، فلم تحرك الخلافة الفاطمية ساكناء،

(١) ابن الفرات : تاريخه ج ٨ ص ٧٧

(٢) سبط ابن الجوزى : مرآة ج ٩ ورقة ٤٠٣ - ٤٠٤

(٣) ابن القلانسي : ذيل ص ١١٢

ابن الفرات : تاريخه ج ٨ ص ٧٧

ولم نستطع منعه من المضي في مشروعه ، فسار في تأسيس إمارته في كثير من الارتياح والاطمئنان .

وليس بين أيدينا ما ينبيء عن تفصيلات الأحداث الداخلية والخارجية طوال السنتين اللتين قضاهما القاضي ابن عمار في الإمارة، لكن يبدو أن اهتمام هذا الأمير بشئون الرعية في النواحي الاقتصادية ، حتى بلغت طرابلس الذروة في الازدهار الاقتصادي، ورغبته أيضا في الارتقاء بمدينته من الناحيتين العلمية والفكرية بحكم ميوله وثقافته ، قد آتت أكلها ، فهو الذي أسس بطرابلس دار العلم التي ضمت أكثر من مائة ألف مجلد والتي ذاع صيتها في الخافقين ، وعلت مفخرة عهد بني عمار بأمره . فضلا عن أن ابن عمار نفسه كان كاتباً مقتدراً ، ومصنفاً بارعاً شجع العلماء ، وطلاب العلم على الوفود إلى طرابلس في طلب العلم ، فغدت المدينة مركز إشعاع فكري وعلمي هام ، ومحط رجال العلم والباحثين . (١)

أما بالنسبة لعلاقة ابن عمار مع الإمارة المرداسية ، فكان يسودها الجفاء بسبب احتواء ابن عمار لسعيد الملك بن منقذ الذي لجأ اليه هارباً من محمود بن نصر في حلب ، فأكرمه ابن عمار ورفض تسليمه لمحمود الذي ألح في طلبه . (٢) وعلى الرغم من تشابه الظروف التي عاشتها الإماراتان في ذلك الوقت ، حيث

(١) حتى : لبنان في التاريخ ص ٣٥٣

Grousset : Hist: des Croisades. I. P. 132

(٢) ابن العديم زبدة ، ج ٢ ص ٣٥

Derenbourg : Vie d'Ousama, Livre de baton. P. 516

تفض محمود طاعة الفاطميين في الوقت الذي استقل فيه ابن عمار عن الخلافة الفاطمية أيضا ، إلا أن ابن عمار — فيما يبدو — لم يكن حريصا على إقامة علاقة وثيقة مع المرداسيين ربما ليظل بعيدا عن دائرة نفوذ السلاجقة التي تغارات في حلب في ذلك الوقت .

وعلى كل حال ، فقد نجح ابن عمار في تخطيط سياسته بعيدا عن كافة القوى المجاورة والبعيدة، وحفظ استقلال إمارته وسط تطاعات تلك القوى طيلة عامين قضاهما في الحكم حتى توفي في رجب سنة ٤٦٤ هـ (أبريل ١٠٧٢ م) (١) .

وبمجرد وفاة أميين الدولة أبي طالب ابن عمار ، دب النزاع بين أفراد أسرته طمعا في الحكم ؛ وامتدت الفتن بينهم إلى أن ظفر به أحمد أبناء أخيه محمد ، وبدعى جلال الملك أبو الحسن على بن عمار .

وتقوم الرواية المتواترة التي ذكرها أحمد المؤرخين المحدثين فيما يخص هذا النزاع على الأسس التالية :

— أن أميين الدولة توفي على الأرجح دون أن يعقب ، ولكن كان له أخ يدعى مجدا ، وأن النزاع دب بين ابني هذا الأخ وها : جلال الملك أبو الحسن وفخر الملك أبو على ، بعد أن استبعد محمد نفسه من الولاية .

— أن الفضل في اعتلاء جلال الملك عرش طرابلس يرجع لمعاونة سديد الملك ابن منقذ الذي كان قد لجأ إلى طرابلس من قبل ، حيث عضد جلال الملك

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١١١ ، السامري : مختصر التواريخ ورنه ٢٦٦ (مخطوط) .

بجما اليكه وساعده ضد مناوئيه فنيجج في الاستيلاء على الحكم في المدينة (١) .

غير أننا لا نرتاح كثيرا لهذه الرواية ، ولا نستطيع أن نغفل ما فيها من قضايا قابلة للنقاش ؛ فبالنسبة لما حوته من أن أمين الدولة توفى دون أن يعقب ، فعلى الرغم من أننا لا نعارض ذلك فعلا ، إلا أن المراجع رددت كثيرا اسم أمير من أمراء هذه الأسرة يدعى ، ذا المناقب بن عمار ، تزعم ثورة ضد ابن عمه فخر الملك إبان تعرض طرابلس لخطر الصليبيين — كما سيلى — مما يوحى بأن هذا الأمير كان يتحين الفرصة للاستيلاء على الحكم ، ربما اقتناعا بأحقية فيه وشرعية ثورته للانفراد بحكم المدينة ، ولو فى ظل الحماية الفاطمية . ولعل ذلك هو الذى دفع المؤرخ المحدث زامباور إلى الاعتقاد بأن ذا المناقب هذا هو ابن القاضي الراحل أمين الدولة أبى طالب بن عمار ، أى الوريث الشرعى للحكم فى طرابلس . (٢)

وبالنسبة لما حوته الرواية المشار إليها من أن النزاع على الحكم جرى بين ولدى عهد وها جلال الملك وفخر الملك ، بعد استبعاد عهد نفسه ، فيعارضه ما ذكره كل من ابن العديم وابن الفرات من أن النزاع وقع بين جلال الملك وبين عمه وأخا أمين الدولة ، حيث تدخل ابن منقذ إلى جانب جلال الملك . فأخرجوا أخا أمين الدولة وتولى جلال الملك ، (٣) . ومن المستبعد أن يكون النزاع قد جرى بين جلال الملك ووالده عهد وبفرض حدوثه ، إذن لنص ابن العديم

(١) السيد نبيد العزيز سالم : طرابلس الشام ص ٦٨ — ٦٩

(٢) زامباور : معجم الأنساب والأمراء الجاكية ، ج ١ ص ١٦٠

(٣) ابن العديم : زب . ج ٢ ص ٢٥ ، ابن الفرات : تاريخه ج ٨ ص ٧٧

حوابن الفرات عليه ، فلم يكن النزاع لاذن بين جلال الملك وأخيه فخر الملك ، ولا بين جلال الملك ووالده محمد .

فمن ناحية ، لا نسمع طوال عهد جلال الملك — قرابة ثلاثين عاما — عن أية مصاعب لقيها حكمه من جانب أخيه فخر الملك أو أية ثورة قام بها هذا الأخ بل تشير الدلائل إلى عكس ذلك من استتباب الأمن وسيادة روح الإخاء والود بين الاثنين . هذا فضلا عن أن جلال الملك وفخر الملك لم يكونا الابنين الوحيدين لمحمد ، فقد كان لهما أخ ثالث يدعى جمال الدولة ، يرجح « هنري ماسيه » أنه مولى بدر الجمالي الذي نسب إليه بدر (١) ويؤيده في ذلك زامباور (٢) .

ومن ناحية أخرى ، لم يقع النزاع بين جلال الملك وبين والده محمد ، وهو أمر — فضلا عن استبعاد حدوثه — لا نجد نصا واحداً يشير إليه ، ومن المرجح أن محمداً هذا قد توفى في حياة أمين الدولة ، أي قبل قيام هذا النزاع بوقت .

كل هذا يجعلنا نعتقد أنه كان هناك أخ آخر لأمين الدولة غير محمد ، لا بد وأن مهمته ارتقت للفوز بالإمارة بعد وفاة أخيه وشعر بأحقية في ذلك دون أبناء أخيه محمد . ولدينا دليل على ذلك ، فقد أشار المؤرخ سبط بن الجوزي في أحداث نفس العام الذي توفى فيه أمين الدولة (٤٦٤ هـ) إلى نجاح جلال الملك في الاستئثار بالحكم بعد أن نفى عمه المدعو أبا الفتح ونكل بالحزب

(١) هنري ماسيه في ابن ميسر : أخبار مصر ج ٢ ص ٣٠

(٢) زامباور : معجم ج ١ ص ١٦٠

الذى يعاضده في المدينة وعلى رأسه ابن المايكى ، أحد الفاطميين اللاجئين إلى طرابلس (١) .

فلا بد وأن أبا الفتح هذا هو الأخ الثانى لأمين الدولة قاضي طرابلس المتوفى وهو الذى جرى النزاع بينه وبين جلال الملك ، ولا بد وأنه لم يكن شخصية هامة أو رجلاً مقتدرًا يستطيع فرض نفسه على الأحداث ، لذا جرى استمهاده وتخطيه فى الحكم . ويبدو أن هذا الرجل لم يوفق فى الحصول على قاعدة عريضة من تأييد أهالى طرابلس أنفسهم ، فلجأ إلى حزب صغير يترعّمه رجل فاطمى لاجئ . مما ساعد على تكتل بقية الأسرة ضده وحرمانه من الوصول إلى السلطة .

هذا ويبدو أن الأمير ذا المناقب المشاعر لليه آتقاً والذى جعله زامبـ اوو ابنا للقاضي الراحل لم يكن كذلك ، بل نرجح أنه ابن لأبى الفتح هذا ، وأنه ظل يتحين الفرصة للاستئثار بالحكم الذى فشل والده فى الحصول عليه ، حتى وافته تلك الفرصة فخلع طاعة ابن عمه وأهان نفسه حاكماً فى الإمارة فى طاعة الخلافة الفاطمية ، كما سنفعل فيما بعد .

ولو كان ذو المناقب هذا ابناً للقاضي أمين الدولة ، إذن لأوصى له بالولاية من بعده وعقد له على الإمارة ولو فى وصاية أفراد أمرته إن كان صغيراً ، وعقد له المصاهرات السياسية - كما مر بنا - مع رجال العصر بدلا من ابن أخيه جلال الملك ، لو كان شاباً .

(١) سبط ابن الجوزى : مرآة ج ٩ ورقة ٤٠٣ ، ٤٠٤

من ذلك كله نستنتج أنه بعد وفاة أمين الدولة أبي طالب وأخيه محمد من قبله ، لم يعد هناك سوى أخ آخر لها يدعى أبا الفتح وابنه ذا المناقب ثم أبناء محمد وهم ثلاثة : جلال الملك وفخر الملك وجمال الدولة . وكان جلال الملك أفواهم وأكثرهم دهاء ، فالتخذ من تأييد الأهالي وهن معاضدة ابن منقذ وسيلة للوصول للحكم ونجح في ذلك أيما نجاح ، حتى ليَقول ابن الأثير أنه ... ضبط البلد أحسن ضبط فلم يظهر لنقد عمه أثر ... (١) وقال سبط ابن الجوزي أنه : « رم البلاد أحسن رم » (٢) وشرع في تسيير دفة الحكم في نفس الخط الاستقلالي الذي بدأه عمه أمين الدولة مؤسس الإمارة من قبل وعلى هذه الصورة انتهت مشكلة الوزارة في إمارة بني عمار التي كانت بحاجة إلى جهود مثل هذا الأمير النشط .

والواقع أن جلال الملك يعد أعظم أمراء الأسرة دون جدال ، إذ نجح في حفظ استقلال الإمارة نحو ثلاثين عاما وسط أنواء الشام وهواصفه ، وبين مطامع القوى المحيطة ، ورغم نشاط الأسطول المصري على السواحل الشامية وندخل السلاجقة في شئون الشام وفرض نفوذهم في كثير من بقاعه ، وفي هذا الإطار ظل جلال الملك في حكم طرابلس طيلة تلك المدة :

ومنذ البداية ، ظهر الاتجاه الاستقلالي والتميز الحيادي في سياسة هذا الأمير تجاه العسكرين المتنازعين الفاطمي والسلاجقي ، إذ طلق جلال الملك

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١١١

(٢) سبط ابن الجوزي : مرآة ج ٩ ورقة ٤٠٣ - ٤٠٤

يصنفى العناصر ذات الميول المشبوهة في طرابلس ، فأظهر في العام التالي لولايته مباشرة (٤٦٥ هـ) تبرما وضيعة لوجود الشاعر ابن حيوس في طرابلس ، فأثر هذا الخروج منها إلى حلب حيث اتصل بأمرها المرداسي وكان طرده من طرابلس بسبب « ميله إلى الدولة المصرية » كما يقول ابن العديم ^(١) . وفي نفس الوقت رفض جلال الملك تسليم سديد الملك بن منقذ للأُمير محمود المرداسي الذي غدا دائرا في فلك السلاجقة منذ سنة ١٠٧٠ م وتعرض ابن عمار من أجل ذلك في أغلب الظن إلى هجوم الجيش الحلبى تحت قيادة محمود بن نصر المرداسي الذى ألقى الحصار على طرابلس فترة ولم يتراجع عنها إلا بعد أن « أخذ من أهلها مالا » ^(٢) وهكذا اتجه جلال الملك منذ البداية في خط حيادى مازفا عن كافة القوى المجاورة غير منحاز لأى منها .

وعلى الرغم من مرونة ابن عمار وكياسته ، لم يسلم من مؤامرات السلاطن الفاطمية الحاكمة التى كانت تنطلق دوما لاستعادة طرابلس ، فقد اكتشف فى سنة ٤٦٠ هـ (١٠٧٦ م) مؤامرة كبيرة كانت تحاك فى طرابلس ، للاطاحة به دبرها جماعة من وجوه المدينة بتعريض من بدر الجمالي الوزير الفاطمى ، فقد وقع فى يد جلال الملك كتاب مرسل من بدر الجمالى إلى زعماء المؤامرة ، « ينبىء عن موافقة تجرى بينهم للقبض على جلال الملك وتسليم

(١) ابن العديم : زبدة ج ٢ ص ٤٠

(٢) ابن الأثير . الكامل ج ٧ ص ٢٦٢

البلد ، (١) ، فسارع باقبض على زعماء المؤامرة ، وصادرهم وقتل منهم جماعة وأنهى المكيدة في مهبها .

ويبدو أن هذه الحادثة كان لها أثر فيما أبداه جلال الملك بعدئذ من لين وملاطفة للفاطميين ، رغبة منه في عدم توسيع الهوة معهم تجنباً لعدائهم واتقاء لضررهم . فقد حدث أن اضطر ابن منزو الكناشي (أخا زوجة جلاله الملك) إلى الهرب من دمشق سنة ٤٩٧ هـ (١٠٧٥ م) على أثر اندلاع الفتن فيها ، فلبى إلى مدينة بانياس وظل قابلاً فيها حتى سنة ٤٧٢ هـ (١٠٨٠ م) ، ونظراً لخروجه عن طاعة للخلافة الفاطمية ، لم يأمن على نفسه في بانياس ، فلبى إلى قاضي صور ابن أبي عقيل الناصر على تلك الخلافة أيضاً ، ثم فضل في النهاية اللجوء إلى زوج أخته جلال الملك بن عمار ، ولكن ابن عمار لم يتردد في تسليمه للسلطات المصرية حيث جرى اعتقاله في مصر ، ثم ما لبث أن لقي حتفه . « قتل بالنعال في سنة ٤٨١ هـ » (٢) . على كل حال حاول جلال الملك تجنب الصدام مع الخلافة الفاطمية ، وعدم إثارة القلاقل معها لأن ذلك يجنبه دون شك إثارة أهل المدينة الشيعيين المائلين إلى تلك الخلافة .

تطلع جلال الملك بعد ذلك إلى توسيع رقعة إمارته ومد نفوذه إلى أبعد من طرابلس ، وحمله ذلك على الاستيلاء على جبلة في سنة ٤٧٣ هـ (١٠٨١ م) بعد أن نجح قاضيها أبو محمد عبد الله منصور بن الحسين التتوخي المعروف

(١) سبط ابن الجوزي : مرآة ج ١٠ ورقة ٤

(٢) ابن القلانسي : ذيل ص ٩٦

بابن صليحة في الاستيلاء على المدينة وتخليصها من البيزنطيين وبعث يستعين بابن عمار فوجد ابن عمار في هذه الأحداث فرصة لضم جبلة إلى إمارته فأات إليه فأقر بها ابن صليحة (١) .

ويذكر المؤرخ سبط ابن الجوزي أن تاج الدولة تنش استولي في سنة ٤٧٧ (١٠٨٥ م) على أنطوطوس وسلمها لجلال الملك بن عمار نظير مبلغ من المال (٢) كما ضم ابن عمار أيضا حصن عرقة وهو على بعد يسير إلى الشمال من طرابلس ، ونجح كذلك في الاستيلاء على جبيل إلى الجنوب من طرابلس ، فعدت إمارته بذلك تضم بالإضافة إلى طرابلس كل من جبلة وأنطوطوس وعرقة وجبيل ، أي أنها شملت شريطا على ساحل البحر المتوسط امتد من جبلة شمالا إلى مشارف بيروت جنوبا. وتلك هي إماره بنى عمار في أوج اتساعها.

غير أن الأوضاع التي أسفر عنها قدوم السلطان ملكشاه للسلجوقي إلى بلاد الشام سنة ٤٧٩ هـ (١٠٨٧ م) كانت نتائجها سيئة بالنسبة لإمارة طرابلس وابن عمار . فقد أقطع ملكشاه حلب لقسيم الدولة آقسنقر ، والرها للأمرير بوزان ، وأنطاكية لياغي سيان ، وحرم تاج الدولة تنش من بسط نفوذه على البلاد بأسرها بعد أن كان قاب قوسين أو أدنى من ذلك ، وجعله يقع في وسط الشام متخذاً من دمشق مقرا ، وقد أوجدت هذه التسوية استياء لدى تنش الذي كان يعمل على بسط هيمنته على المنطقة كلها ، فلم يقنع

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٩٩

(٢) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمن ج ١٠ ورقة ٦٨ .

بدمشق وبيت المقدس ، وعاد من جديد يطلب من السلطان إطلاق يده في بلاد الشام لتقويض ما بقي من دعائم الحكم الفاطمي وتوسيع نطاق إقطاعه على حساب الإمارات المستقلة هناك ، فلم يجد ملكشاه بأسا من ذلك ، بل أمر رجاله وأتباعه آفسنقر وبوزان بمساعدته على ذلك^(١) ، فطلق تتش يعمل على مد نفوذه وتوسيع أملاكه ، فاستولى بمعاونة آفسنقر وبوزان في سنة ٤٨٥هـ (١٠٩٢ م) على حمص من أميرها خلف بن ملاعب الكلابي ، ثم استولى على حصن عرقة التابع لابن عمار وكذلك على أفامية ، ثم قصد طرابلس ذاتها فالتقى الحصار عليها هو وحليفه .

والواقع أن ابن عمار أظهر عندئذ ذكاء وفطنة عظيمين ، فقد وجد أمامه جيشا لا يدفع إلا بحيلة ، على حد قول ابن الأثير ، فأرسل إلى الأمراء الذين مع تاج الدولة وأطمعهم ليصلحوا حاله ، ولم يزل بهم حتى لمس استجابة لدى أحد أعوان قسيم الدولة آفسنقر ، ورأى عنده لينا فاتحته وأعطاه ، وحمل له ثلاثين ألف دينار وتحفا بمثلها وعرض عليه المناشير التي بيده من السلطان بالبلد ، وعندئذ عمل هذا القائد هو وقسيم لدولة في صالح ابن عمار فقال قسيم الدولة لتتش ، « لا أقاتل من هذه المناشير بيده » فأغاظ له تتش وقال ، « هل أنت إلا تابع لي ، فقال آفسنقر : أنا تابعك إلا في معصية السلطان ، ورحل من الغد عن موضعه ، فاضطر تاج الدولة إلى الرحيل غضبان »^(٢) . وهكذا نجت طرابلس من هجوم السلاجقة لتحفظ باستقلالها في ظل

(١) عماد الدين الأصفهاني : تاريخ دولة آل ساجوق ص ٦٥ - ٦٦

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٦٠ - ١٦١

بني عمار ، كما نجا جلال الملك من أطماع تاج الدولة تتش جبار الشام حينذاك ،
الذي ما لبث أن شغلته حرب الوراثة على السلطنة السلجوقية بعد وفاة ملكشاه
في نفس العام ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) ، حتى إذا ما راح ضحية طموحه خلال
تلك الحرب ، تفككت إمارته في بلاد الشام من بعده ولم يعد هناك خطر
حقيقي يهدد ابن عمار من قبل السلاجقة .

هلي أن إمارة بني عمار قدر لها أن تتعرض لعدو آخر لا يقل خطورة
عن ذلك ، وهم الصليبيون الذين ما لبثوا أن طرّقوا أبواب الشام بعد ذلك
بمسنوات قليلة ، ليصفقوا بالقوى الإسلامية المتهاكمة فيه ، ويخترقوا أراضيه
في اندفاعهم نحو الجنوب إلى الأراضي المقدسة في ظروف بالغة الخطورة بالنسبة
للمسلمين عامة ولقوى الشام بصفة خاصة .

ذاك أن الصليبيين في الحملة الأولى وصلوا إلى مشارف الشام في خريف
سنة ١٠٩٧ م (٤٩٠ هـ) واقتحموا مدينة أنطاكية في يونيو سنة ١٠٩٨
(رجب ٤٩١ هـ) بعد حصارها قرابة ثمانية أشهر ، ونجحوا في إنزال هزيمة
قاسية بالجيوش الإسلامية المتحالفة بقيادة قوام الدولة كربوغا أمير الموصل ،
الذي قدم لاستعادة المدينة منهم والتصدى لخططهم في أواخر يونيو ، وكان
أحد أمراء الحملة الصليبية وهو بلدوين البولوني قد نجح في إقامة إمارة صليبية
في مدينة الرها في أقصى شمال العراق في مارس سنة ١٠٩٨ م ، وبعد الهزائم
التي تعرض لها المسلمون على أيدي أولئك الغزاة أصبح نجاح الصليبيين في
الوصول إلى بيت المقدس وإقامة مملكة صليبية في الأراضي المقدسة أمرا
ميسورا (١) .

فبعد استيلائهم على أنطاكية ، تقدم جانب كبير منهم تحت قيادة ريموند دي سانت جيل (الصنجيلي) ناحية الجنوب فاستولوا على البارة في سبتمبر ١٠٩٨ م. وعلى معرة النعمان في ديسمبر من نفس العام (١) ، ووصل ريموند إلى كفر طاب في أوائل مام ١٠٩٩ م ، ومكث بمجيشه هناك حتى ١٦ يناير حيث لحق به قائدان آخران من قادة الحملة هما: روبرت النورماني وتنكرد بفرقةها، وعندما رأى أمير شيزر العربي أبو العساكر سلطان بن منقذ تجمع الفرق الصليبية على مشارف إمارته بادر بإيقاد رسواين إلى القائد الصليبي ريموند لمفاوضته في الصلح مبديا استعداداه لتقديم المعونة للصليبيين وإرسال أدلاء لإرشادهم لعبور نهر العاصي عبر المخاضة وتقديم كافة الإرشادات لهم في اجتيازهم الإقليم ، نظير عدم تعرضهم لإمارته بسوء. (٢)

ثم مر الصليبيون بعدئذ بحصن مصياف في ٢٢ يناير سنة ١٠٩٩ م ، ثم يعرّين ومنها إلى سهل البقاع ، ومالبثوا أن هاجموا حصن الأكراد الذي احتسى به مسلمو تلك النواحي ، فسقط في أيديهم في ٢٩ يناير سنة ١٠٩٩ م ، وهناك استقبل الصليبيون رسل جناح الدولة أمير حمص الذين وفدوا لمجملين بالهدايا ليخطبوا ود الفرنج حتى لا يتعرضوا لبلدكم بسوء. (٣) ويعلق أحد

= ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٨٧ (سنة ٤٩١ هـ) ،

ابن العديم . زبدة ، ج ٢ ص ١٣٧

(١) Grousset : Hist. des Crois I. P. 122-3

(٢) Gesta Francorum. P. 78 (Trans. by s. de Chair)

(٣) Gesta Francorum. p. 80

مؤرخى الحروب الصليبية من المحدثين على مبادرة الأمراء العرب في بلاد الشام
يبدل الطاعة والولاء والمسألة مع الصليبيين بأنهم لاشك أدركوا خطورة
الموقف وعدم وجود قوة إسلامية كبرى قربهم تحميهم من ذلك الخطر، فآثروا
اتباع سياسة مرنة استهدفت الاتفاق مع الصليبيين وقبول ما تقدموا به من
عروض .^(١)

ومن حين الأكراد بدأ الصليبيون يتجهون ناحية عرقه ، وباتجاههم إلى
هذه القلعة يكوّنون في الواقع قد بدءوا في اجتياز أراضي تابعة لأمير طرابلس
إذ كانت عرقه ضمن أملاك بني عمار في ذلك الوقت^(٢) ، الأمر الذي ترتب
عليه رد فعل سريع في طرابلس ، حيث بدأ ابن عمار في رسم ملامح للتعامل
مع هذا الجيش الغازي .

على أنه يجب أن نجيب على سؤال هام قبل المضي في عرض بقية الأحداث
وهو : من الذي كان يجلس على عرش طرابلس في ذلك الوقت ، وقد رله
أن يشهد هذا الحدث الكبير ويتعامل مع هذا العدو الخطير ؟ ، أكان جلال
الملك أبو الحسن على قبيل وفاته ، أم أخاه فخر الملك أبو على بعد ولايته ؟ ،
أو بمعنى آخر : من هو « ابن عمار الصليبيين » ؟ ، على حد تسميته في
المصادر الصليبية .

والواقع أن الآراء تباينت وتضاربت فيما يخص بهذا الموضوع ، واختلف

(١) سعيد عبد الفتاح حشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ص ٢٢٧

Grousset : op. cit. I. P. 141

المؤرخون والكتاب المحدثون في ذلك فاعتقد الأغلبية منهم أنه فخر الملك أبو علي، وذهب آخرون إلى أنه جلال الملك، وساعد على غموض هذه القضية ونضارب الأقوال فيها، سكوت المصادر المعاصرة عن ذلك والتزام المؤرخين القدامى الصمت إزاء هذا الموضوع. لمذسكت ابن القلانسي وابن الأثير وابن العديم وأبو الفدا، وحتى سبط ابن الجوزي الذي نجد له إفاضات خاصة هن بني عمار بالذات سكت هو الآخر أيضاً ولم يذكر شيئاً عن ذلك، وخذت المصادر الهامة من ذكر شيء عن وفاة جلال الملك أو تحديد زمن اعتلاء فخر الملك الولاية بعد أخيه.

والانجاءات البادية في كتاب المؤرخين تشير إلى أن فخر الملك أبو علي هو ابن عمار الصليبيين، أي أنه الأمير الذي قدر له أن يشهد هذا الغزو ويتعامل مع الجيش الزاحف عبر إمارته إلى الجنوب، وذلك لأن جلال الملك في رأيهم توفي سنة ١٠٩٩م (٤٩٢هـ) فتولى أخوه فخر الملك الحكم بعده في ظروف بالغة الخطورة بالنسبة للإماراة، فكان عليه أن يتصدى لهذا الحدث الضخم ويتعامل مع هذا الجيش الغازي.

ومن أشار إلى ذلك سوبرنهايم Sobernheim في مقاله في دائرة المعارف الإسلامية عن ابن عمار^(١)، ووافقه في ذلك جاستون فيت^(٢)، - Gaston Wiet ولكن جروسية Grousset تمحاشى التصريح بذلك عند حديثه عن

(١) Sobernheim : Encyc, Isl. art. «Ibn Ammar»

(٢) Wiet : Encyc, Isl. art «Banu Ammar» N. E.

موقف بنى عمار من تقدم الصليبيين ، فلم يعين أى الأخوين شهد هذا الحدث :
 أهر جلال الملك أم فيخر الملك . فأكتفى بقوله « ابن عمار » دون تحديد^(١)
 وقد أيد بعض المؤرخين المحدثين فى الشرق^(٢) ما ذكره كل من سو برن-ايم
 وفيت لكن رانسمان Runciman أشار إلى أن جلال الملك هو الذى راسل
 الصليبيين يطلب السلام حينما كانوا عند حصن الأكراد^(٣) ، وعلى هذا فإن
 هناك شبه إجماع بين المؤرخين المحدثين على أن فيخر الملك هو ابن عمار
 الصليبيين .

وإذا جاربنا أولئك المؤرخين المحدثين فى روايتهم ، فلا بد لنا أن نعتقد
 أن جلال الملك توفى فى أوائل عام ١٠٩٩م ، وبالذات فى يناير ، أى قبل أن
 توجه الصليبيون ناحية عرقة بعد استيلائهم على حصن الأكراد فى ٢٩ يناير
 سنة ١٠٩٩م حتى يمكن القول أن فيخر الملك هو الذى بدأ عهده بالتعامل مع
 الجيش الصليبي الذى أخذ يطرق أبواب الإمارة . إلا إذا كان جلال
 الملك قد تنحى عن الحكم لأخيه فيخر الملك فى مطامع ذلك العام لأى سبب من
 الأسباب .

غير أننا نكاد نجزم بأن جلال الملك أبو الحسن هو « ابن عمار الصليبيين »

(١) Grousset : op. cit. I. P. 123 - 3

(٢) حبشى : الحرب الصليبية الأولى ص ٧٥

السيد عبد العزيز سالم طرابلس الشام ، ص ٧٣

(٣) Runciman : A Hist . of the Crusades. I. p. 270

وليس فخر الملك أبو علي ، وأن جلال الملك هو الذي شهد هذا الغزو الصليبي قبيل وفاته وتعامل معه ، وهم في طريقهم ناحية الجنوب عبر إمارته ، ودليلنا على ذلك :

— لدينا ١ - نص للمؤرخ ابن الفرات ذكر فيه أن جلال الملك توفي في شعبان سنة ٤٩٣ هـ إذ يقول : « فلم يزل (جلال الملك) مستولياً عليها حتى مات في سلخ شعبان سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة ، كما هو مذكور في ترجمته ، وملكها بعده أخوه فخر الملك ، (١) . فإذا علمنا أن شعبان سنة ٤٩٣ هـ يوافق يوليو سنة ١٠٩٩ وأن هذا الشهر هو الذي سقطت فيه بيت المقدس في أيدي الصليبيين آخر المطاف . أدركنا في يوم وسهولة أن جلال الملك هو الذي كان يتولى أمر طرابلس أثناء اجتياز الصليبيين أراضي الإمارة ، وأنه هو الذي تعامل مع هذا الجيش الغازي عبر أراضيه في طريقه إلى بيت المقدس ، كما أن قول ابن الفرات : « فملكها بعده أخوه فخر الملك » ينفي كلية تنحى جلال الملك عن الحكم قبل وفاته ، فاعتلاء فخر الملك لاحق مباشرة لوفاة أخيه جلال الملك ، كما أن ابن الفرات زاد أطمئناناً بقوله : « كما هو مذكور في ترجمته ، أي أنه أخذ مادونه من مصنف معاصر ترجم حياته .

— ولدينا نص آخر للمؤرخ سبط ابن الجوزي ، يشير إلى أن جلال الملك كان لا يزال في حكم طرابلس في سنق ٤٩٣ — ٤٩٤ هـ حين تعرضت جبلة لخطر الصليبيين في ذلك الوقت ، وهذه الفترة توافق سنة ١١٠٠ م ، أي

(١) ابن الفرات : تاريخه ج ٨ ص ٧٧

بعد نجاح الصليبيين في غزوهم لبلاد الشام (١)، وعلى الرغم من أننا نوافق هذا المؤرخ على المضي بعهد جلال الملك أبعد من سنة ٤٩٢ هـ، إلا أن ما يهمنا في هذا النص هو الإشارة إلى النشاط الصليبي في بلاد الشام زمن جلال الملك ومحاولات الصليبيين ضد أملاك إمارة طرابلس في عهد هذا الأمير .

— هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى ، فإننا نجد الأسلوب الذي اتبع مع الصليبيين عندما طرقت أبواب إمارة طرابلس يتمشى مع أسلوب جلال الملك القائم على الملاينة والملاطفة واللباقة والكياسة السياسية، وهو نهج اشتهر به جلال الملك وسياسة اتبعها في معالجة المشاكل التي عرضت له على امتداد حكمه الطويل ، وآت أكلها من قبل مع الفاطميين والسلاجقة والمرداسيين فلم ينل أحدهم من استقلاله أو حرية إمارته برغم المحاولات الدائبة التي بذلت في سبيل ذلك ، فلابد وأنه صاحب هذه الطريقة التي حفظت طرابلس في هذه المرة أيضاً كيانها واستقلالها، ولابد أنه راسم سياسة التعامل مع الجيش الصليبي للغازي .

هذا بخلاف أسلوب فخر الملك الذي نجده أكثر بعداً عن الملاينة وأكثر ميلاً للتشدد ، وسيتضح فيما بعد نهجه في التصدي للحصار الصليبي ، وسنرى مثابرته وصبره في محاربة الصليبيين ، الأمر الذي ينفى مسئوليته عن وضع سياسة الملاطفة والاستسلام للفرنج أثناء عبورهم أراضى الإمارة في طريقهم إلى بيت المقدس .

(١) سبط بن الجوزي : مرآة ج ١٠ ورقة ٢٣٢ - ٢٣٣

لهذا كله نرجح أن جلال الملك لم يمت قبل هذه الأحداث ، وأنه هو الذي تعامل مع الجيش الغازي ، وأن فخر الملك تولى بعد أن كن الصليبيون قد اجتازوا أراضي الإمارة فعلا ووصلوا إلى بيت المقدس ، ولم يكن لديهم شيء جرى من مفاوضات بين إمارة بني همار وبين ريموند الصليبي عندما اتجه الصليبيون لأول مرة ناحية عرقة التابعة لبني همار .

فلم يكف الصليبيون يتجهون ناحية عرقة بعد استيلائهم على حمص — ن الأكراد ، حتى بادر جلال الملك بإرسال مبعوثين إلى ريموند يعرض ولأه للصليبيين ويتمهد بدفع الأموال لهم ويطلب إرسال مبعوثين لريموند إلى طراباس لمناقشة ترتيبات عبور الجيش الصليبي أرض الإمارة ، كما يطلب إرسال الأعلام الصليبية ليرفعها فوق طراباس إشارة إلى ولائه وصداقته لهم (١) .

ولم يمانع الكونت ريموند في إيفاد مبعوثيه إلى طراباس لمناقشة المسائل التي عرضها جلال الملك ، فوصلت رساله إلى المدينة قبل أن يشرع فعلا في حصار عرقة ، إلا أن أولئك الرسل انبهروا أمام عظمة طراباس وثرائها ومدى ماعليه أميرها من غنى ، فلما عادوا إلى المعسكر الصليبي أشاروا على ريموند بمهاجمة إحدى القلاع التابعة لابن همار لإجباره على زيادة مائرض دفعه من أموال والحصول على تنازلات أخرى ثمنا للسلام .

ونظرا لحاجة ريموند إلى المال في ذلك الوقت ، فقد رأى صواب تلك

الفكرة وسارع بإلقاء الحصار على عرقة الواقعة على نحو خمسة عشرة ميلا إلى الشمال الشرقي من طرابلس ، فوصل الجيش الصليبي إلى أسوارها في ١٤ فبراير سنة ١٠٩٩ (١) . وقام ريموند أيضا بإنفاذ قسم آخر من جيشه تحت قيادة ريموند بيليه PILET وريموند أمير تورين TURENME لمهاجمة أنطوطوس على ساحل للبحر ، وكانت تابعة أيضا لني عمار . وعلى الرغم من أنه لم يكن يهدف من مهاجمة أنطوطوس إلى الضغط على أمير طرابلس العربي بقدر ما كان يرغب في فتح الاتصال بالحامية الصليبية في اللاذقية فضلا عن فتح الطريق إلى البحر للحصول على الإمدادات البحرية (٢) ، إلا أن سقوط أنطوطوس في ١٧ فبراير سنة ١٠٩٩ شكل خطرا كبيرا على طرابلس نفسها باعتبارها إحدى المدن التابعة لها ، وفي سقوطها نذير يهدم الإمارة وإنفاصها من أطرافها .

وفي الوقت الذي جرى فيه حصار عرقة ، قام جودفري بوايون وروبرت دي فلاندرز بالهجوم على جبلة ، وكان قاضيها أبو محمد عبد الله بن منصور التنوخي قد طرح طاعة بني عمار واستقل بها ، وامتد حصار جبلة من ٢ إلى ١١ مارس سنة ١٠٩٩م بحيث لم يجد أميرها في النهاية بدا من الاذعان ، فعقد اتفاقا مع الصليبيين تعهد بموجبه بدفع مبلغ من المال وتقديم عدد من الخيل ثمنها للسلام (٣) وعندئذ

(١) Archer : The Crusades. P. 81 - 82

Runciman : op. cit. I. p. 270

(٢) Grousset : op. cit. I. P. 132-3

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٩٩

أنصرف جودفرى وروبرت حيث سارعا بالانضمام إلى ريموند لمعاونته فى حصار عرقة .

وبدل سقوط أنطربوس ومضى ريموند فى حصار عرقة ومهاجمة جبلة على أن مقترحات ابن عمار كانت لا تزال معروضة ريثما يتم الاستيلاء على عرقة بالذات والضغط بشدة على طرابلس لكسب مزيد من تنازلات ابن عمار ، على أن الاستيلاء على عرقة كان يمثل انجاسا ملحيا فى سياسة ريموند بالذات ، فقد لجأ إلى إشغال حماس جنوده بأن وعدهم بنهب المدينة إذا هم نجحوا فى اقتحامها ، وأشعل عاطفتهم الدينية بأن زعم لهم أن سقوط المدينة يعنى تخليص مائة أسير مسيحي مقيدين فى قلعتها (١) ويبدو أن ريموند أخذ يعمل منذ ذلك الوقت للاستيلاء على عرقة ليتخذ منها ومن أنطربوس نواة للإمارة التى بدأ يحلم بها فى طرابلس (٢) .

غير أن حصار عرقة امتد قرابة أربعة أشهر دون طائل ، على الرغم من أن جيوش الصليبيين اجتمعت حولها وشدت الحصار عليها ، خاصة بعد لحاق جودفرى وروبرت بجيش ريموند منذ ١٤ مارس . وليس من شك أن مناعة القلعة وقوة مراس حاميها كفلت لها الصمود طوال هذه الفترة ، على الرغم من الامكانات التى توفرت للجيش الصليبية حينئذ من سهولة التويز بطريق البحر وسهولة الحصول على الأسلاب والخيرات من إقليم طرابلس الغنى الذى

Michaud's History of the Crusades 1. P. 188 (Traus. by (١) Robson)

(٢) سعد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ص ٢٣٣

دأبت السرايا الصليبية على الإغارة عليه من آن لآخر (١) .

ولما طال حصار عرقة دون نتيجة ، رأى جودفرى وأبيه روبرت ضرورة رفع الحصار عنها والتقدم سريعا ناحية بيت المقدس ، وقد عارض ريموند الصنجيلى - بطبيعة الحال - هذا الاتجاه لأنه يحرمه من الاستفادة من هذه الجوع لتأسيس نواة لإمارته المرتقة مثلما فاز بوهموند بأطاكية من قبل إلا أن جودفرى وروبرت استطاعا حمله على الاستسلام لرأى الأغلبية الصليبية، ومن ثم جرى رفع الحصار عن عرقة في ١٣ مايو سنة ١٠٩٩ م (٢).

وليس من شك في أن فشل الصليبيين أمام عرقة قد دعم موقف ابن عمار أمير طرابلس وزاد من أمله في تحقيق شروط أفضل مع الصليبيين ، فسرعان ما أعاد النظر في سياسته وعروضه السابقة ، بل يذهب المؤرخ ميشو Michaud إلى أنه أعلن الحرب على الصليبيين وجرد سيفه فعلا لقتالهم كنتيجة لفشلهم أمام عرقة محارلا انتهاز الفرصة للتخلص منهم ووضع حد لزعهم عبر أراضي إمارته . لكنه - في رأى هذا المؤرخ - تعرص لهزيمة دامية على أيدي الصليبيين أذهن على أثرها وعاد إلى رشده ، وتعهد بدفع جزية كبيرة ، كما تعهد بإمداد الجيش الصليبي بكل ما يلزمه أثناء الزحف ، وقام أيضا بإطلاق سراح نحو ثلاثمائة من الأسرى المسيحيين لديه (٣) . لكن الحقيقة أن جلال الملك عاد للتمسك بأهداب السلام من جديد ليس على أثر هزيمة دامية كما ذهب هذا المؤرخ ، ولكن رغبة منه في تجنب وبيلات الحرب بعد أن اقترب

Runciman : op. cit. I. P. 271

(١)

Grousset : op. cit. I. P. 141

(٢)

Michaud's Hist. I. P, 196

(٣)

للمصلبيون من طرابلس ورأى نعطشهم لسفك الدماء لدرجة أنهم أعملوا السيف في جماعة من الوادعين المقيمين خارجها وأجبروا الباقين على الفرار ، وذلك برواية المصادر اللاتينية المعاصرة (١) ، لم يكن إذن إدعائه نتيجة للهزيمة — كما خالى المؤرخ المشار إليه آنفاً — بل أننا نلمس شيئاً من التمهيب والغلو في كتابات هذا المؤرخ بالذات لا يفسره سوى إعجابه بما حققه المصلبيون في بلاد الشام والأراضى المقدسة ، وما أنجزوه هناك ، فهي إذن انتصارات باهرة وأعمال مجيدة وراء كل محاولة سلام يضطر إليها أمير مسلم في بلاد الشام .

ومها يكن من أسر ، فقد عاد جلال الملك ابن عمار من جديد إلى الإذعان كما تعهد بدفع الجزية وقام بتحرير نحو ثلاثمائة أسير ، وقام بدفع ١٥ ألف دينار للمصلبيين كغرامة حربية ، وقدم عدداً من الخيول للجيش الصليبي (٢) ، وتخفيف المصادر الصليبية أنه تعهد باعتناق النصرانية إذا نجح الصليبيون في الانتصار على الجيوش الفاطمية (٣) . وعلى الرغم أننا نستبعد موافقة أمير مسلم على هذا الشرط مهما كانت نتائج رفضه ، فضلاً عن جلال الملك القاضي والورع والفقير العالم ، إلا أنه يبدو أنه تعهد فقط بتسليم طرابلس لهم إذا هم نجحوا في الاستيلاء على أورشليم (٤) وهي نفس السياسة المرنة والنهج الكيس

(١) Gesta Francorum أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ص ١١١ ترجمة الدكتور حبشي ،

(٢) Runciman : op. cit. I. P. 275

(٣) أعمال الفرنجة ص ١١٣

(٤) عمر كمال توتيق : مملكة بيت المقدس الصليبية ص ٥٦

فإنه من مميزات هذا الأمر في معالجة مثل هذه المعضلات للحفاظ استقلال إمارته، ولأنهم عن أبدا عن تفريط أو تقصير .

وعلى هذا فقد غادر الصليبيون إقليم طرابلس في ١٦ مايو سنة ١٠٩٩ م وقام بإرشادهم إلى بيروت أدلاء من لدن ابن عمار (١) ، وبوصول الصليبيين إلى بيروت في ١٩ مايو يكدونوا قد خرجوا من نطاق إمارة طرابلس مجتازين أراضيها إلى أراض أخرى تابعة للخلافة الفاطمية، ويكون بذلك قد انتهت مرحلة هامة في علاقة بني عمار بالصليبيين . ففي الوقت الذي فرض الصليبيون فيه الحصار على بيت المقدس شهدت طرابلس نهاية عهد أميرها جلال الملك وولاية أمير جديد هو أخوه فخر الملك بن عمار ، الذي يبدأ بولايته فصل جديد في عصر هذه الإمارة وفي قصة العلاقات مع الصليبيين في بلاد الشام .

(ب) عصر فخر الملك بن عمار ، وجهود هذا الأمير ضد الصليبيين

توصلنا في الصفحات السابقة إلى أن فخر الملك لم يكن على رأس السلطة في طرابلس وقت وصول الصليبيين واجتيازهم أراضى الإمارة ، وبالتالي لم يكن هو واضع السياسة التي اتبعتها الإمارة تجاه الجيش الصليبي العابر إلى الجنوب ، لأنه تولى بعد وفاة أخيه جلال الملك في يوليو ١٠٩٩ م ، بعد أن كان الصليبيون قد وصلوا فعلا إلى بيت المقدس وفرضوا الحصار عليها توطئة للاستيلاء عليها .

والواقع أن حظ هذا الأمير كان سيئا للغاية ، لأنه ورث إمارة تتكالب من حولها الأطماع ، وتركته مثقلة بالمتاعب ، وبلدا قد أنقص من أطرافه ، وفقد شيئا كثيرا من أمنة وسلامته ، كما أن الغيوم ما برحت تظلل بلاد الشام بأسرها بعد الهزائم التي تعرض لها المسلمون على أيدي الصليبيين ، وغدا من العسير على إمارة طرابلس أن تثق في مستقبل آمن ومهد هادئ ، خاصة بعد أن قلت قوة السلاجقة في شمال الشام ، ولحققتها قوة الخلافة الفاطمية في الجنوب ، ولم بعد ثمة هدف تجتمع عليه القوى الإسلامية المفككة في بلاد الشام في السنوات التي أعقبت الغزو الصليبي .

هذا فضلا عن أن فلسفة الحركة الصليبية ذاتها وأطماع قادتها وأمرائها قد جعلت من طرابلس هدفا مرموقا للأمير صليبي ألحت عليه فكرة النفوذ بإمارة في بلاد الشام وتأسيس حكم ثابت في أحد مراكزها الكبرى ، أمير

تجسدت أحلامه كلها في طرابلس بعد فشله في تحقيق أمنيته في أماكن أخرى من بلاد الشام ، لهذا كان عم -د فخر الملك بن عمار في طرابلس عهد كساح ونضال ، قضى أغلبه في صد هجمات الصليبيين ومحاولة حفظ استقلال إمارته ، ولم يخل في سبيل ذلك بجهد أو مال . قبل أن تتداعى جهوده في النهاية وتسقط المدينة في أيدي الصليبيين في سنة ١١٠٩ م بعد نحو عشر سنوات من توليه زمام الحكم فيها .

وفخر الملك هو ثاني الإخوة من أبناء مجد بن عمار ، أخى أمين الدولة ، مؤسس الإمارة ، وكان إذ ذاك أهم أمراء الأسرة بعد وفاة جلال الملك ، وعلى الرغم من ضآلة معلوماتنا عن حياة فخر الملك وصفاته الشخصية وخلقه ، إلا أن الدلائل كلها تشير إلى أنه كان أميراً مثابراً صبوراً طموحاً ، وكان فضلاً عن ذلك رجل سياسة وعلم أيضاً ، وجل دولة وحرب معا ، كما أنه كان يتمتع — كإخيه جلال الملك — بالكياسة واللباقة ، ولولا ذلك لما استطاع تأخير سقوط الإمارة قرابة عشر سنوات دأب فيها ريموند الصنجيلي وخايفته من بعده على مهاجمة هذه الإمارة في إصرار وإلحاح ، في الوقت الذي لم تلاق فيه المدينة معونة تذكر من القوى الإسلامية المجاورة أو البعيدة .

ويمكن تقسيم عهد فخر الملك إلى ثلاث مراحل .

— المرحلة الأولى : وتشمل نحو ثلاث سنوات من سنة ٤٩٢ هـ — ٤٩٥ هـ ، (١٠٩٩ — ١١٠٢ م) قضاهما في محاولة استعادة المدن التي فقدتها الإمارة من قبل وإرساء قواعد الحكم وإعادة الهدوء والسلام إلى ربوع إمارته بعد تعرضها لعداء الجيش الصليبي الزاحف إلى بيت المقدس .

— المرحلة الثانية : وتشمل نحو سنتين من سنة ٤٩٥ — ٤٩٧ هـ
 (١١٠٢ — أوائل سنة ١١٠٥ م) قضاها فخر الملك في نضال ضد ريموند
 الصنجي الذي نشط حينئذ في محاولة غزو الإمارة والاستيلاء على
 طرابلس ذاتها .

— المرحلة الثالثة : وتمتد نحو ثلاث سنوات من سنة ٤٩٨ — ٥٠١ هـ
 (١١٠٥ — ١١٠٨ م) قضاها فخر الملك في كفاح ضد وايم جوردان
 خليفة ريموند ، ومن أجل مواصلة الكفاح خرج إلى بغداد يطلب النجدة
 من المشرق ، لكنه حين عاد وجد إمارته قد خرجت من يده ، ثم ما لبثت
 طرابلس أن سقطت في يد الصليبيين سنة ١١٠٩ م .

١ - بداية عهد فخر الملك بن عمار

(١٠٩٩ - ١١٠٢ م)

آلت الإمارة إلى فخر الملك بعد أن فقدت مدينتين من توابعها وهى جبلة وأنطوطوس . فقد كان والى جبلة أبو محمد عبيد الله بن منصور التنوخى، وهو ابن قاضيه الراحل أبو محمد عبد الله بن منصور قد خرج عن طاعة بنى عمار فى أواخر أيام جلال الملك واستقل بجبلة وأقام الخطبة للعباسيين (١) . أما أنطوطوس فقد استولى عليها الصليبيون أثناء زحفهم ناحية الجنوب فى ١٧ فبراير سنة ١٠٩٩ (٢) ، وذلك قبل ولاية فخر الملك بن عمار .

وقد وجه فخر الملك منذ البداية جهوده لاستعادة هاتين المدينتين لتعود الإمارة إلى حدودها القديمة أيام جلال الملك ، وقد بدأ بجبلة وحارل الاستيلاء عليها إلا أنه فشل فى ذلك فاجأ إلى الاستعانة بسلاجقة دمشق تحت قيادة دقاق وطغتكين نظير مبالغ من المال . وقد قام دقاق وبصحبته طغتكين بالهجوم على هذا الوالى الخارج فى جبلة وألقوا الحصار عليه ، « فلم يظفروا منه بشيء وأصيب أتابك طغتكين بنشابة فى ركبته وبقي أثرها » ، وانتهى أمر هذا الهجوم إلى الفشل ، غير أن ابن صايحة آثر فى النهاية التخلي عن جبلة بسبب محاولات ابن عمار الدائبة ضده من ناحية ، ولتعرضه لخطر الهجوم الصليبي من ناحية أخرى،

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٩٩

(٢) أعمال الفرنجة ص ١١٠

«فلجأ إلى أقرب أمير مسلم إليه فراسل طغتكين في دمشق ليسلمه المدينة ،
«وبصل بماله وحاله فأجابه إلي ما اقترح » (١) وسير طغتكين ابنه بوري إلى
جبله فتسلمها من ابن صليحة وبذا غدت جبله تابعة لإمارة دمشق الساجدية .

على أن بوري أساء السيرة في جبله ، وأتى هو وأصحابه أفعالا أنكرها
أهل المدينة ، «فراسلوا القاضي فخر الملك أبا علي بن عمار ، وطالبوا منه أن يرسل
إليهم بعض أصحابه» فسارع فخر الملك بإيفاد جانب من جيشه إلى جبله واستطاع
رجاله دخول المدينة فعلا وقتلوا بوري وجماعته فألقوا بهم المهزومة واستولوا
على جبله وحملوا بوري أسير إلى طرابلس ، فأفرج عنه ابن عمار وأحسن إياه
وسيره معززا مكرما إلى والده بدمشق وكتب إلى طغتكين يعتذر له عما
حدث وببر استيلائه على جبله بخوفه من أن تقع في أيدي الفرنج (٢) ، ويبدو
أن ابن عمار أراد بهذه الخطوة تجنب الصدام مع إمارة دمشق وعدم إثارة
المتاعب معها ، بعد أن نجح في إعادة إحدى المدينتين المفقودتين إلى
حظيرة إمارته .

أما المدينة الأخرى وهي أنطربوس ، فقد انتهز فخر الملك فرصة انشغال
ريموند الصنجيلي بمصاحبة الحملة اللباردية — كما سنفصل بعد قليل — وقام
من جانبه بالهجوم على أنطربوس واستعادتها ، فعادت الإمارة بذلك إلى
حدودها القديمة أيام سلفه جلال الملك ، وغدت من جديد تسيطر على الطريق

(١) ابن القلانسي : ذيل ص ١٣٩

(٢) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، ج ٢ ص ٢١٣ — ٢١٤

الساحلى الممتد من اللاذقية شمالا حتى حدود بيروت جنوبا (١) .

والواقع أن فخر الملك كان أمامه نحو ثلاث سنوات بعد اعتلائه الحكم في طرابلس أى حتى سنة ١١٠٢م لم تصادفه خلالها عقبات كبيرة ولم يتعرض لخطر داهم قبل أن يشرع ريموند في حصار طرابلس ابتداء من سنة ١١٠٢ ، ولهذا أتيج لفخر الملك أن يرسي قواعد حكمه خلال هذه الفترة ويستعيد ما فقدته الإمارة من قبل من توابع في شىء كثير من الارتياح والاطمئنان .

ويبدو أن عدم تعرضه لخطر الصليبيين في تلك الفترة بالذات قد جعله أكثر ميلا لاتباع سياسة معتدلة تجاههم ، ولا بد وأن هذه السياسة هى التى أملت عليه حمايته ببلدوين البولونى أمير الرها ، الذى اجتاز بطرابلس في ٢١ أكتوبر سنة ١١٠٠م في طريقه إلى بيت المقدس ليتولى عرشها بعد وفاة أخيه جودفرى ، إذ استقبله فخر الملك في طرابلس وبالغ في إكرامه ، وكان بلدوين قد تعرض لمخاطر جمّة في طريقه قبل أن يصل إلى المدينة وبلغ رجاله درجة خطيرة من الإعياء فضلا عن محاولة سلاجقة دمشق قطع الطريق عليهم ، وقد أمد فخر الملك بلدوين ورجاله بما كانوا في حاجة إليه من الميرة والغذاء ، كما تعهد بأن يحيطه علما بتحركات دقاق ملك دمشق السلاجقى . (٢)

لكنه سرعان ما اضطر لتغيير هذه السياسة المعتدلة ، حينما تعرض للخطر

(١) Runciman : op. cit. II. P. 57

(١)

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٢٨٤

الصلبي تحت قيادة ريموند الصنجيلي ، بل إنه اضطر لتعديل سياسته تجاه
القوى الإسلامية نفسها التي كان يحاول العزوف عنها والابتعاد عن تياراتها ،
فبادر بالارتقاء في أحضان القوى الإسلامية المجاورة وطلب حمايتها ونجدها ،
كما سنفصل فيما بعد .

◦ ◦ ◦

٢ - فخر الملك بن عمار وريموند الصنجيلي

١١٠٢ - ١١٠٥ م

كان ريموند دي سانت جيل Saint Gilles أكبر الأمراء بجنوب فرنسا بحكم جمعه بين كرواتية تولوز ومار كيزية بروفانس، ومن ثم كان أكثر قادة الصليبيين مالا، إذ تعد إمارة تولوز أغنى بقاع فرنسا، كما أن بروفانس لا تقل غنى وثروة عن تولوز^(١). وزاد من جاه ريموند ارتباطه برباط المصاهرة بالبيت المالك بأسبانيا في أرغونة، ومن ثم شارك في كثير من الحروب الصليبية ضد المسلمين في الشرق، فهو أول أمير ناقشه البابا أوربان الثاني في الحملة الصليبية، وأول أمير قبل الاشتراك فيها وقاد أضخم الجيوش الصليبية وأكثرها عددا، وشرفه البابا بصحبته لمندوبه أدهمار مرافقا للحملة^(٢).

ونظرا لتحمس ريموند للحرب الصليبية، فقد نذر على نفسه أن يقضي بقية حياته بالأراضي المقدسة ولا يعود مرة ثانية إلى الغرب. وكان حينئذ في الخامسة والخمسين من عمره، ومن أجل ذلك باع جزءا من أملاكه للانفاق على حملته، واصطحب زوجته وابنه الأصغر في حين ترك ابنة الآخر من زوجة أخرى ويدعى برتراند ليتولى إدارة بقية أملاكه هناك^(٣).

أسهم ريموند بعد ذلك في فتح أنطاكية سنة ١٠٨٠م وارتقت همته للفوز بها أو حتى اقتسامها مع بوهيموند، لكن هذا حرمه من التطلع إليها وانقرض

Mills : 'The Hist. of the Crusades. I. P. 292

(١)

Michaud's Hist. I., P. 87

(٢)

Ibid. P 88

(٣)

بها وحده ، فانصرف ريموند بعدئذ لمحاولة تأسيس إمارة له حول البارة ومعرفة النعمان في شمال الشام على حساب سلاجقة حلب ، إلا أن بوهموند وقف له بالمرصاد مرة أخرى وانزع منه معرفة النعمان وأرغمه على التخلي عن أطباعه في المنطقة ، وذلك في أوائل عام ١٠٩٩ م ^(١) . فأراد الاستيلاء على صقلان وأرسوف ولكن جودفري تصدى له في هذه المرة أيضا وحرمه من تحقيق هذا الهدف بحجة أن المدينتين تابعتين لبيت المقدس . عندئذ عاد ريموند حائقا إلى شمال الشام في صيف سنة ١٠٩٩ م ، حيث دخل مدينة اللاذقية ، ولكنه لم يمكث بها طويلا إذ غادرها في العام التالي سنة ١١٠٠ م في طريقه إلى القسطنطينية للاجتماع بالإمبراطور ورسم سياسة ناجحة للحد من نفوذ بوهموند في شمال الشام ^(٢) .

وبينما جرى تفكير الإمبراطور البيزنطي وريموند في عمل حاسم ضد النورمان في أنطاكية وصلت إلى القسطنطينية حملة سنة ١١٠١ فاستأثرت بتفكير الإمبراطور الذي سارع بتعيين حليفه ريموند للإشراف عليها وتوجيهها نحو الأراضى المقدسة ، فوجد ريموند في ذلك فرصة لا تعوز للاستفادة من هذه الحملة لتحقيق أطباعه في بلاد الشام ^(٣) .

(١) Grousset : op. cit. I. pp. 123 - 4

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٣٤٤

Michaud's Hist. I. p. 273

Grousset : op. cit. I. P. 374

Archer : op. cit P. 106 (٣)

غير أن هذه الحملة سرعان ما تغير هدفها بتوجيهها للحرب بني دانشمند في كبادوكيا لتخليص بوهيموند من الأسر ، وترتب على ذلك تعرض هذه الحملة لكارثة كبيرة على أيدي الأتراك نظرا لوعورة الطرق وجذب البلاد وشدة الحرارة وقلة المؤن فحلت الهزيمة سريعة بهليبي هذه الحملة في أوائل أغسطس سنة ١١٠١ م وفر ريموند نفسه من ساحة المعركة حيث ركب سفينة عادت به إلى القسطنطينية وانتهى أمر هذه الحملة إلى الفشل الذريع^(١).

وعلى الرغم من هذا الفشل ، فقد استطاع ريموند الصنجيلي أن يجمع فلول الناجين ويبحر بهم إلى للسويدية ميناء أنطاكية تحت ستار التوجه بهم إلى الأراضي المقدسة ، وذلك في يناير سنة ١١٠٢ م ، بينما كان يخطط للاستفادة من هذه الفلول للاستيلاء على إمارة له بسواحل الشام لكنه ما لبث أن وقع في يد غريمه تنكرد الذي اعتقله بقلعة أنطاكية بعد اتهامه بخيانة الصليبيين والتحالف مع البيزنطيين ضد المصالح الصليبية في بلاد الشام، ولم يطلق تنكرد سراح ريموند إلا بعد أن تنازل هذاعن مطالبه وادعائه في أنطاكية واللاذقية.

ترتب على هذه المصالحة بين تنكرد وريموند نتائج بالغة الأهمية ، كما لاحظ أحد مؤرخينا المحدثين^(٢) ، إذ أنها وضعت حدا للتنافس بين النورمان وأبنائ بروفانس كما أنها أتاحت الفرصة لريموند للعمل في بلاد الشام لحسابه الخاص وليس لحساب الإمبراطورية البيزنطية ، لأنه بلا شك أدرك مؤخرا

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٩٥ ،

Grousset : op. cit. I. P. 324-5

(٢) سميد عبد الفتاح حاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٣٥٣-٣٥٤

أن تحالفه مع البيزنطيين لم يجده نفعا بل أضره ، إذ اعتبره الصليبيون خائفاً لأهدافهم وسياساتهم في الشرق ، في حين اكتشف الإمبراطور البيزنطي أيضاً أن ريموند ليس بالحليف القوي الذي يعتمد عليه لخدمة مصالح الإمبراطورية .

وليس من شك في أن هذه المصالحة جاءت على حساب القوى الإسلامية في بلاد الشام من جهة أخرى ، خاصة إمارة طرابلس التي بدأت بعدئذ تعاني من ضغط ريموند الذي نشط في مهاجمتها وألقى الحصار عليها ، والواقع أن الصليبيين أدركوا منذ البداية أن إمارة طرابلس الإسلامية بالذات تقاطع الاتصال بين إمارتي الرها وأنطاكية في الشمال والمملكة الصليبية في الجنوب (١) . ومن هنا نظروا إليها نظرة حذر ورغبوا في تصفيتها ليجري الاتصال سهلاً بين أوصال كياناتهم الصليبي كلاً شمالاً وجوباً .

بدأ ريموند هذه المرحلة الجديدة في جهوده في بلاد الشام في أوائل عام ١١٠٢ م بالعمل ضد أنطارطوس ، فقد استعان بفلول الحملة اللمباردية لإلقاء الحصار على هذه المدينة التي كانت قد عادت إلى بني عمار ، وعاونوه في ذلك أيضاً أسطول جنوا الذي كان مارا بسواحل الشام حينذاك ونجح ريموند في النهاية في الاستيلاء عليها في فبراير سنة ١١٠٢ م ، وقد رفض ريموند مصاحبة فلول الحملة بعدئذ إلى بيت المقدس وأجاب بأنه سيتخذ من أنطارطوس قاعدة لتكوين إمارة له في تلك المنطقة ومن ثم انصرفت جموعهم بدونه إلى

Runciman : op. cit. II. P. 57

(١)

أبو القدا : منتخبات من المختصر في أخبار البشر (Rec. Hist. Or. I. P.7)

بيت المقدس (١) .

غير أن الهجوم على طرابلس ذاتها غدا هدف ريموند إذ ذاك ولم يحاول أن يخفى هذا المخطط أو يجعله سراً ، مما أحدث رد فعل عنيف في طرابلس فسارع أميرها فخر الملك بن عمار بتحذير كل من أمير حمص وأمير دمشق من أطاع ريموند وطلب في نفس الوقت نجدها للوقوف في وجهه ، هذا على الرغم من أن ريموند كان قد أصبح في نحو ثلاثمائة فقط من أتباعه ، بينما فارقه الجميع الأخرى إلى بيت المقدس ، كما سبقت الإشارة (٢) .

وعلى الرغم من قسوة عدد رجال ريموند في ذلك الوقت ، إلا أن همته ارتقت إلى مهاجمة طرابلس في هذا العدد القليل ، فبعث فخر الملك بن عمار إلى أمير حمص العربي جناح الدولة الحسين ، وإلى دقاق أمير دمشق السلاجوقي يستعجل للنجدة ، فبعث إليه أمير حمص جزءاً من قواته ، وبعث أمير دمشق بألفي فارس ، واجتمعت هذه القوات مع قوات طرابلس بالتررب من باب المدينة حيث صافوا صنجيل هناك (٣) ، ودارت المعركة بين الطرفين انتصر فيها ريموند « فانقل عسكر المسلمين من عسكر المشركين وقتل منهم الخلق الكثير ، وقفل من سلم إلى دمشق وحمص » (٤) ، وذلك في جمادى الآخرة سنة ٤٩٥ هـ (١١٠٢ م) ، وقد بالغ المؤرخ ابن الأثير في وصف المعركة

Grousset : Hist. des Croisades. I. P. 336

(١)

L' Empire du Levant. P. 208

Runciman : op. cit. II. P. 58

(٢)

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢١١

(٤) ابن القلاسي : ذيل ص ١٤١

التي دارت عند طرابلس بما يظهر عبقرية ريموند في التصدي للقوات الإسلامية الكبيرة ونجاحه في إلحاق الهزيمة بها ، إذ أخرج مائة من عسكره إلى أهل طرابلس ومائة إلى عسكر دمشق وخمسين إلى عسكر حمص وبقي هو في خمسين ، فأما قوات حمص فقد سارعت بالفرار من غير قتال ، وتبعته قوات الدمشقية ، ولم يثبت في الميدان سوى أهل طرابلس ، وعندئذ حمل ريموند عليهم بكل قواته فأزل بهم هزيمة ساحقة وقتل منهم سبعة آلاف رجل . والمبالغة واضحة في رواية ابن الأثير ، لاسيما وأن كل من ابن القلانسي وسبط بن الجوزي لم يثيرا إلى شيء من ذلك وأشارا فقط إلى هزيمة للقوات الإسلامية على يد ريموند (١) .

شجع هذا الانتصار ريموند على مواصلة نزال طرابلس وحصارها ، فضلا عما أنه من نجدات من قبل نصارى الجبل والسواد من الموارنة الذين كانوا يسكنون جبال طرابلس وماحولها والذين اشتبهوا ، بالرمي على القوس الثقيل بالنشاب الخارق ، (٢) والذين مالوا منذ البداية إلى الصليبيين وعاونوهم وأرشدوهم إلى طرق ومسالك سورية ومعابرها ، وأمدوهم بالميرة والمؤن (٣) .

وعلى الرغم من ذلك ، فقد اقتنع ريموند بصعوبة الاستيلاء على طرابلس بسبب ضآلة قواته من ناحية ، ولحصانة المدينة من ناحية أخرى ، فتحصينات

(١) ابن القلانسي : ذيل ص ١٤١ ، سبط بن الجوزي : مرآة ج ١٠ ورقة ٢٣٩

(٢) ابن الشحنة : الدر المنتخب ، ص ٢٦٤

(٣) حقي : لبنان في التاريخ ، ص ٣٩٢

طرابلس مقامة على شبه جزيرة المينا الداخلة في البحر والتي ليس من السهل فتحها (١) ، لهذا اكتفى ريموند بما عرضه فخر الملك بن عمار من جزيرة من المال وعدد من الخيول ، وانسحب إلى أنطربوس في (مارس — أبريل ١١٠٣ م) وأرجأ مشروع فتح طرابلس إلى وقت آخر تتوافر فيه لديه القوة الكافية والسلاح والمؤن .

لكنه اتخذ من أنطربوس قاعدة للهجوم على الجهات المجاورة ، ولمضايقة طرابلس في نفس الوقت ، إلا أن طرابلس صمدت لتلك المضايقات بفضل الإمدادات التي كانت تأتيها بطريق البحر ولاهتمام فخر الملك باتباع أسلوب الهجوم المضاد ضد الصليبيين في الجهات القريبة ليشغلهم عنه (٢) ، ثم ما لبث ريموند أن استغل وصول أسطول جنوى إلى اللاذقية مكون من أربعين سفينة ، وود ذلك في شتاء سنة ١١٠٣ فأسرع بطلب معونته للهجوم على طرابلس ، غير أن هذا الهجوم لم يؤد إلى نتيجة فانسحب الأسطول الجنوى وأبحر ناحية الجنوب حيث ألقى الحصار على جبيل (بيلوس القديمة) الواقعة على الساحل بين طرابلس وبيروت ، وكانت حينئذ قلعة صغيرة تابعة لبنى همار ؛ فلما تعرضت جبيل للهجوم البحري وكذلك الهجوم البري ، لم تستطع المقاومة طويلاً فاستسلمت في أواخر سنة ١١٠٤ م وتعرض أهلها لضروب من التنكيل والعذاب (٣) ، كما منح ريموند ثلثها للجنوية مكافأة لهم (٤) .

Archer : op. cit. P. 115

(١)

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢١٩

(٣) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، ج ٢ ص ٢١٧

Grousset : Hist. des Croisades. I. p. 340 - 41

(٤)

وبسقوط جبيل في جنوب طرابلس ، ومن قبلها أنطرطوس في شمالها ، أصبح ريموند بطوق بنى عمار من الشمال ومن الجنوب ، كما أنه وضع بذلك ملامح الامارة الصليبية في طرابلس ، ولم يبق سوى الاستيلاء على العاصمة الطبيعية لتلك الإمارة (١) .

وبعد استيلاء ريموند على جبيل ، زاد إصراره على الاستيلاء على طرابلس برغم حصانتها وانفتاحها على البحر وحصولها على الإمدادات اللازمة بحرا . لذا تعرضت للحصار البري ، ولذلك عمد ريموند في هذه المرة إلى تغيير أسلوبه ، فشرع منذ أواخر عام ١٠٣١ ، في إقامة معسكر كبير في الضياع القريبة من طرابلس ، توطئة لبناء قلعة كبيرة على الجبال المقابلة ، ووقع اختياره على تلة على الضفة اليسرى من نهر قادش وهي تلة أبي سمرة الحالية ، وكانت تعرف باسم « تلة الحجاج » Mon Peregrinus (٢) وهي على مسافة نحو ثلاثة أميال إلى الداخل ، وذلك لمراقبة الأوضاع في طرابلس وإحكام الحصار عليها . وقد أطلق المسلمون على هذه القلعة اسم « قلعة صنجيل » نسبة إلى ريموند دي سانت جيل (٣) .

ومن أجل أن يحصل ريموند على معونة الإمبراطور البيزنطي في بناء هذه القلعة الكبيرة ، قام بمحاولة طرد تنكرد من اللاذقية تقربا للإمبراطور ولجلب

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٣٦٠

(٢) Buhl : Encyc. Isl. art. «Tarabulus»

Charles Mills : The Hist. of the Crusades. I. P. 292

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور : نفس المرجع ص ٣٦٠ ج ١

رضاه ، وفى مقابل ذلك أمده الإمبراطور بأدوات البناء والبنائين المهمة والأخشاب اللازمة بطريق البحر من قبرص . وفى ربيع سنة ١١٠٤ م كانت القلعة قد قاربت على الانتهاء وأضحت تمثل خطـرا كبيرا على بنى عمار فى طرابلس (١) .

ويبدو أن اتجاه ريموند إلى بناء مثل هذه القلعة لإحكام الحصار على طرابلس لم يكن أمرا جديدا ، فقد اتبع نفس الطريقة القائد العربى سفيان بن مجيب الأزدي عند محاصرته طرابلس من قبل معاوية بن أبى سفيان والى الشام — وطبقت هذه الفكرة فى أماكن مختلفة أخرى . ومن المحتمل أن تكون آثار برج سفيان لا تزال قائمة حتى ذلك الوقت ، فأوحت إلى ريموند بفكرة إنشاء قلعته . ومن المحتمل أيضا أن يكون ريموند قد أقام حصنه فى المكان الذى بنى عليه برج سفيان من قبل (٢) .

ترتب على إقامة هذه للقلعة نتائج بالغة الخطورة ، وأحدث بناؤها رد فعل عنيف فى طرابلس ، إذ غدت تهدد أمن المدينة وسلامتها ، لهذا خرج فخر المالك بن عمار بنفسه من طرابلس على رأس قواته وفاجأ القلعة بهجوم كبير ، وقتل من به ونهب مافيه وأحرق وأخرب وأخذ من السلاح والمال ، الشيء الكثير ، وعاد إلى طرابلس (٣) وكان ذلك فى التاسع عشر من

(١) Runciman : op. cit. II. P. 60

(٢) السيد عبد العزيز سالم : طرابلس الشام ، ص ٩٥ — ٩٦

(٣) ابن القلانسي : ذيل ص ١٤٦ ،

ابن الأثير : المكامل ج ٢ ص ٢٣٥

أبو القدا : المختصر ج ٢ ص ٢٢٠ — ٢٢١

ذى الحجة سنة ٤٩٧ هـ (١٤ سبتمبر سنة ١١٠٤ م) ويبدو أن فخر الملك لم يوفق كلية في هدم الحصن بل نجح فقط في إصابته بأضرار جسيمة نتيجة اشتعال النيران فيه ، حتى لتذهب الروايات إلى أن ريموند لقي حتفه على أثر هذه الغارة ، إذ وقف ، « على بعض سقوفه المتحرقة ومعه جماعة ... فانخفض بهم فرض صنجيل من ذلك ومات » ، وكانت وفاة ريموند في ٢٨ فبراير سنة ١١٠٥ م ^(١) ، متأثراً بجراحه . ويذكر كل من ابن القلانسي وسبط بن الجوزي أنه كان قد عقد معاهدة مع فخر الملك بن عمار قبل وفاته على أن يكون للفرنج ظاهر طرابلس بحيث لا يقطعون الميرة عنها ولا يمنعون المسافرين منها ^(٢) . وهكذا هلك ريموند دي سانت جيل قبل أن يحقق أمنيته بالاستيلاء على مراكز كبير ببلاد الشام يجعل منه إمارة له ومقرراً ثابتاً لحكمه ، ولكن إذا لم يكن قد نجح في الاستيلاء على طرابلس ذاتها ، فإنه صاحب الفضل دون شك في تأسيس إمارة طرابلس الصليبية ووضعه إطارها العام وممهده الاستيلاء عليها ^(٣) .

وبوفاة ريموند الصنجيلي في جمادى الأولى سنة ٤٩٨ هـ (فبراير سنة ١١٠٥ م) ، انتهت مرحلة أخرى من نضال فخر الملك بن عمار في طرابلس ، وانتهت حلقة أخرى من مراحل عهده هي الحلقة الممتدة من سنة ١١٠٢ — ١١٠٥ م لتبدأ الحلقة الثالثة في عهده وفي سلسلة كفاحه من أجل إمارته .

Mills : op. cit. I.P. 292

(١)

(٢) ابن القلانسي : ذيل ص ١٤٧

سبط بن الجوزي : مرآة ج ١٠ ورقة ٢٥٤

(٣) سعيد تبه الفتاح ناشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٣٦١

٣ - فخر الملك بن عمار ، ووليم جوردان -

١١٠٥ - ١١٠٨ م

لم يكف فخر الملك بن عمار بخاص من عدوه اللدود ريموند الصنجبلي ، حتى واجه خلفه وابن اخته وليم جوردان الذي نصبه أتباع ريموند أميراً على أملاكه في الشرق ، وكان لريموند ولدين : الأكبر وهو برتراند ، تركه ريموند بحكم إمارة تولوز نيابة عنه في الغرب مع أنه لم يكن ابناً شرعياً له ، أما الأصغر وهو الفونسو جوردان فكان هو الابن الشرعي وقد صحب والده إلى الشرق ، ونظراً لصغر الفونسو هذا فقد استقر رأي أنصصال ريموند على إقامة ابن أخت ريموند ، وليم جوردان ، أميراً عليهم ليكمل مشروعات الأمير الراحل ويتابع سياسته في الشرق ^(١) وكان وليم جوردان في الأصل كونغا لسردينيا Gerdagne ^(٢) ، وقد قدم إلى الشرق حاربشاً ^(٣) ، لكنه مالبت أن نفذ سياسة ريموند واتجاهاته كلها ، انخرص على إقامة الصداقة مع

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الطائيفية ج ١ ص ٣٦٧ حاشية (١) ، ص ٢٦٢ وقد ظل برتراند يحكم إمارة تولوز بعد وفاة والده وهو ثلاث سنوات لكن عدم شرعيته دفعت أهل تولوز إلى استعلاء أخاه الأصغر الفونسو ليقيموه أميراً عليهم فتم الاتفاق بين الأخوين سنة ١١٠٨ على أن يرث برتراند أملاك والده في الشرق في حين يرث الفونسو أملاكه في الغرب ونفذت الاتفاقية فعلاً .

Mills : cp. cit. I. P. 293 (٢)

Grousset : cp. cit. I.P. 245-٤ (٣)

البيزنطيين وعمل كذلك دأباً على إحكام الحصار حول طرابلس لإضعافها
توطئة للاستيلاء عليها .

ونظراً لاستئناف وإيم جوردان سياسة الصداقة والتقارب مع الإمبراطورية
البيزنطية فقد حظى بتأييد الإمبراطور ومساعدته . إذ يروى ابن الأثير أن
« ملك الروم أمر أصحاب اللاذقية ليحملوا الميرة إلى هؤلاء الفرنج الذين
على طرابلس فحملوها في البحر » ، غير أن فخر الملك حاول إعاقة وصول
هذه الإمدادات فأنفذ بعض سفنه للاشتباك مع السفن البيزنطية ، « فجري
بينهم وبين الروم قتال شديد فظفر المسلمون بقطعة من الروم وأخذوها
وأسروا من كان بها وعادوا » (١) ، وهكذا كان النصر في هذه المعركة
للبحرية الأسطول الإسلامي .

غير أن وطأة الحصار اشتدت على طرابلس بقية عام ١١٠٥ م (٩٩) -
٥٠٠ هـ) وكان لفتحكم وإيم جوردان في قلعة صنجبل المشرفة على الطرق
الرئيسية المؤدية إلى المدينة أثر كبير في إحكام الحصار على المدينة ومنع تسرب
الإمدادات إليها ، فعانت طرابلس كثيراً وتعرضت لغلاء شديد ، فلم يجد
أبن عامر بدا من محاولة الاستنجاد بالأمير سقمان بن أرتق التركماني أمير
ماردين وحصن كيفا في ديار بكر آملاً في مبادرته وشهامته لدفع الفرنج عن
طرابلس (٢) .

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢٣٥

(٢) ابن القتيبي : ذيل ص ١٤٦

والواقع أن اتجاه فخر الملك إلى سقمان بن أرتق في أقصى شمال العراق إنما يفسره عدة ملازمات : فمن ناحية ، أدرك ابن عمار ضعف القوى الإسلامية المجاورة ، وعدم طلاقة يدها وقدرتها على نجدته ، فضلاً عما كان يميز طابع العلاقات بينه وبينهم من فتور إن لم يصل إلى حد العداء . ففي دمشق ساء طفتكين كرمى الإمارة من حكمه الشرعيين سلاجقة دمشق خلفاء دقاق بن تنش وراح يتأرجح بين الاحتفاظ به أو التنازل عنه تحت ضغط الأحزاب المعارضة في المدينة ، فلما استنجد به فخرانك بن عمار ، وتواصلت مكاتباته من طرابلس بالاستصراخ والاستنجد ، مع ما كان يغلف العلاقات بينهما من عداء ، وتحت ضغط التبعات وحدثها ، تظاهر طفتكين بعدم رغبته في الاحتفاظ بالحكم في دمشق وكتب سقمان ابن أرتق يستدعيه ليسلم إليه دمشق ، لكنه عاد سريعاً فسحب هذا الطلب وندم عليه لولا تغير الأحداث وتلاحقهما في ذلك الوقت (١) . أما بالنسبة لحلب ، فقد أدرك فخر الملك أن رضوان صاحبها أضعف من أن يتخذ مبادرة بنجده به بسبب تعرضه لخطر تنكرد أمير أنطاكية الفرنجي ، ففي الوقت الذي استنصره فخر الملك واستنجد به دارت الحرب بين رضوان وتنكرد عند أرتاح هزم فيها رضوان هزيمة ساحقة في رجب سنة ٤٩٨ هـ (مارس ١١٠٥ م) وعادت فلول جيشه إلى حلب بعد أن فقدت نحو ثلاثة آلاف من الرجال واضطرت حامية أرتاح إلى إخلائها أمام تنكرد (٢)

(١) ابن القلانسي : ذيل ص ١٤٦

Grousset : op. cit. I. P. 420

(٢)

سبط بن الجوزي : مرآة ج ١٠ ورقة ٢٥٥

أما بالنسبة للفاطميين في مصر ، فقد كانت حالاتهم تزداد سوءاً وأخذوا يفقدون أملاكهم تباعاً بعد أن تعرضوا للهزيمة في غضون سنة ١٠٩٩ م ، وفقدوا كل من أرسنوف وقيسارية في سنة ١١٠١ وميت حملاتهم على فلسطين بالمثل الذريع في سنوات ١١٠١ ، ١١٠٢ ، ١١٠٥ م (١) . وفقدوا مدينة عكا الحصينة في مايو سنة ١١٠٤ (٢) ، وغدا نفوذهم يعاني تضيقاً شديداً في بلاد الشام .

وهكذا لم يكن بوسع فخر الملك أن يتطلع إلى نجدهم فضلاً عما كانوا يبدونه من رغبة ملحة في استعادة طرابلس ذاتها . إذن لم يكن سلاجقة دمشق أو حلب أو حكام مصر أملاً حينئذ أمام فخر الملك ، هذا في الوقت الذي كان نجم سقمان بن أرتق التركماني أخذ في الارتفاع وشهرته تزداد ذيوفاً بعد بلائه في حرب الفرنج ، والواقع أن سقمان بن أرتق أظهر شهامة ونجاة في حربه ضد الصليبيين عند أنطاكية ، إبان حملة كروبوغا سنة ١٠٩٨ ، فقد كان أحد الأميرين اللذين ثبتا بجانب كروبوغا بعد انسحاب قوات السلاجقة عند ظهور بوادر الهزيمة (٣) ، ثم أنه أظهر تفهماً كاملاً للجهاد المقدس وأبان

(١) ابن ميسر : أخبار مصر ج ٢ ص ٣٩ - ٤١ ، ابن الأثير : ج ٨ ص ٢١٨

Conder : The Latin Kingdom. P. 84

Lane-Poole : A Hist. of Egypt in the Middle Ages, VI.P.164

(٢) ابن القلانسي : ذيل ص ١٤٣ - ١٤٤

Wiet : L' Egypte Arabe. P. 264

Smail : Crusading Warfare : P. 23

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٨٧

عن وازع دبنى وإيمان عميت حين أغفل ما بينه وبين جكرهش أمير الموصل سنة ١١٠٤م ووجد جهوده معه للمهجوم على الرها في ذلك العام ، وما لبث أن أنزلا الهزيمة بالفوات الصليبية المتحالفة التي هاجت حران في نفس العام حيث نجحوا في أسر بلدوين دى بورج وجوسلين ، بينما فر تنكرد وبوهيموند بعد قتل وأسر كثير من رجالها (١) .

يستنتج من ذلك كله أن اتجاه فيخر الملك بن عمار إلى سقمان ابن أرتق أمانيه ضرورة ماحة وسانده اقتناع كامل بضعف القوى الإسلامية المجاورة من ناحية ، وقرة وشهامة التركمان في أقصى شمال العراق من ناحية أخرى .

ولم يكذب سقمان بن أرتق بتاتى الاستدعاء من طرابلس ودمشق حتى نهض في جيشه وسار ناحية للشام ، إلا أنه مرض في الطريق واشتد عليه المرض عند القريتين قرب حمص ، فأشار عليه رجاله بالعودة إلى حصن كيفا لكنه رفض قائلا ، بل أسير ، فإن عوفيت تمت ما عزم عليه ولا يرانى الله تناقلت عن قتال الكفار خوفا من الموت ، وأن أدركنى أجلى كنت شهيدا سائرا في جهاد ، (٢) . ولم يمض بعد ذلك يومين حتى جاز إلى ربه في صفر سنة ٤٩٨هـ ، وطاد رجاله إلى حصن كيفا يحملون جثمانه ، وبذلك فقد ابن عمار آخر أمل تعلق به لا نقاذ طرابلس (٣) .

(١) ابن العديم : زبدة ج ٢ ص ١٤٨

(٢) ابن الأثير : نفس المرجع ج ٨ ص ٢٢٧

ابن اللاتى : ذيل ص ١٤٦-١٤٧

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٣٦٣

وزاد من سوء حالة ابن عمار حينئذ اشتداد وطأة الحصار حول المدينة ومنع وصول المؤن إليها ، في الوقت الذي باتت نفقة من القوات الإسلامية المجاورة ، ولما استبد الخوف بأهلها واطانت المدينة ضائقة مالية كبيرة ، رأى ابن عمار أن يصادر أموال الأغنياء ويوزعها على الفقراء لتخفيف وطأة الكارثة الاقتصادية ، فأجرى الجرايات على الجند والضعفاء ، فلما نلت الأموال عنده شرع يقسط على الناس ما يخرجهم في باب الجهاد ^(١) ، واحتاج الأمر إلى مصادرة أموال بعض الأغنياء ، فالتجأ اثنان منهم إلى المعسكر الصليبي ، فحاول ابن عمار استعادتها بشق الطرق ولكنه فشل ، فوضع عليها من قتلها غيلة ، وهكذا جد فخر الملك ابن عمار في الحفاظ على مدينته وتحمل في سبيل ذلك كثيرا من المشاق .

والحقيقة أن فخر الملك بن عمار قد اكتسب شهرة كبيرة بما أظهره حينئذ من صبر ومثابرة وجهاد ، نالت إعجاب المؤرخين المعاصرين واللاحقين ^(٢) ، فقد امتد حصار طرابلس نحو من ثلاث سنوات أخرى واشتد خلالها القتال وعم المدينة البؤس وخاصة في سنق ١١٠٦ ، ١١٠٧ ، ولكن أهلها أظهر وامتد ذلك قوة مراس وجلد عظيمين ، وأظهر أميرهم فخر الملك شجاعة نادرة وصبرا عظيما .

وساعد ثراء المدينة وما اشتهرت به من ثروات وفنى ، على الحصول على بعض المؤن بأثمان باهظة ، فباع أهلها من الحلى والأواني الغربية مالا حوله ،

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢٣٥

(٢) أبو الفدا : المختصر ج ٢ ص ٢٢١

حق بيع كل مائة درهم نقرة بدينار»^(١) وساعد هذا الثراء أيضا على تهريب المؤن إليها من جزيرة قبرص البيزنطية ، بل ومن إمارة أنطاكية الصليبية ذاتها وجزائر البنادقة ، كما أن افتقار الصليبيين إلى قوات بحرية تحكم الحصار حول مداخلها قد ساعد أيضا على وصول بعض المؤن إليها من عرقة على ساحل البحر^(٢) . وقد استمر حصار ولیم جو-وردان لطرابلس ممتدا من سنة ١١٠٥ إلى سنة ١١٠٨ دون نتيجة حاسمة نظرا لاستمرار افتقار الصليبيين لقوة بحرية فعالة تحكم الحصار حولها بحرا .^(٣)

(١) الفضة المقرة هي سبيكة من الفضة والنحاس الأحمر بلسة ثلاثين من الفضة وثلاث من النحاس الأحمر تضرب منها الدراهم المقرة .

الققشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٣ ، ٤٦٦

سعيد عاشور : العصر المماليكي ص ٤٣٧

(٢) سعيد عبد الفتاح عانور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٣٦٣

السيد توبد العزيز سالم : طرابلس الشام ص ١٠١

Runciman : op. cit. II. P. 60

(ج) الانقلاب الداخلي في طرابلس ودخولها في حوزة الفاطميين

خروج فخر الملك بن عمار الى بغداد للاستعانة بالسلطان السلجوقي والخليفة العباسي :

لم يعد فخر الملك يأمل كثيرا في نجاحات القوى الإسلامية المجاورة ، بعد أن طال حصار الصليبيين لمدينته حتى ١١٠٨ م ، ولم يعد أمله معقودا على تلك القوى بعد أن ثبت قصورها وفشلها وضعفها . فلا كان رضوان في حلب أهلا لهذه المهمة وقد تردى في هاوية فشله وهزيمته أمام الصليبيين ، ولا أضحى طفنتكين في دمشق معينا وملاذا وقد تخبط في سياسته وسيطرت عليه أطامه الواسعة وحركه جشعه ، ولم يعد بإمكان الخلافة الفاطمية حمل شيء . وقد فقدت هيبتها ، وطردها الصليبيون من معظم أملاكها في فلسطين ، وأنزلوا بجيوشها الهزائم المتوالية . وحتى حين يم فخر الملك وجهه شطر الأرائقة في شمال العراق ، شاء حظ العائر أن يموت سقمان بن أرتق وهو في طريقه إليه سنة ١١٠٥ م ، ففقد ابن عمار بذلك آخر أمل في النجدة وعانت طرابلس بعدئذ فترة من الشدة والقسوة والحصار .

فكر فخر الملك بعد ذلك في الاتجاه وجهة جديدة عليه يحصل على معونة تمكنه من فك الحصار عن المدينة . وكان أن اتجه ناحية المشرق يطلب المعونة من السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي والخليفة المستظهر بالله العباسي ، وهما حماة الإسلام في المشرق .

ولم يكن اتجاه فخر الملك إلى الشرق في ذلك الوقت بالذات (١١٠٨ م)

وليد صدفه بجمته أو نتيجة فكرة عابرة ، بل إنه منى على دراسة كاهـلة للظروف التي عاشها المشرق حينئذ ، وكان دليل حساسية فائقة لما كان يجري هناك في الناحية الأخرى من العالم الإسلامي .

فقبل سنة ١١٠٥ م (٤٩٩ — ٥٠٠ هـ) شغلت السلطنة الساجونية بالخلاف الذي نشأت بين السلطان بركياروق وأخيه محمد بن ملكشاه ، ودارت رحى الحرب بينهما هناك على امتداد خمس سنوات منذ سنة ١٠٩٩ حتى سنة ١١٠٤ م وحدثت بينهما خمس مواعٍ حرية كبيرة خلال تلك السنوات عانت خلالها الدولة السلجوقية كثيراً من الاضطراب والنزوح ولم تهدأ ولم تنته إلا بعقد الصلح بينهما عام ١١٠٤ م ثم بوفاة بركياروق في العام التالي ، وانفراد محمد بالسلطنة منذ ذاك العام (١١٠٥ م)^(١) . وبعد انفراد محمد بالحكم في سنة ١١٠٥ م وحتى سنة ١١٠٨ م شغل خلالها بأحداث جمة صرفته عن التفكير في شؤون الشام وما يجري فيه ، وأولها : محاولة طرد أمير الموصل الناصر جاولي سقاوة الذي شق عصا الطاعة ورفع راية العصيان وتناقل عن الخدمة^(٢) . وثانيها : انشغال السلطنة بحرب الباطنية وكسر شوكتهم بعد أن استفحل خطرهم هناك وزاد بلاؤهم ونأمرهم على اغتيال السلطان محمد

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢٢٠ (سنة ٤٩٧ هـ)

Cambr. Med. Hist. 4. P. 310

الرواندي : راحة الصدور وآية السرور ، ص ٢٢٨ (نشر لأقبال)

(٢) سبط ابن الجوزي : مرآة ، ج ١٠ ص ٢٧٢ ، ابن العسبري : تاريخ مختصر الدول

ص ٢٣٥ .

Gicusset: cp. cit. I. P. 431

نفسه (١) . وثالثها انشغاله باخماد فتنة الأمير العربي سيف الدولة صدقة بن مزبد الذى أثار الفتنة فى الحلة وفى جنوب العراق وآوى للفارين من وجهه السلطان ونشر الفوضى فى جنوب العراق ، فنعرض من أجل ذلك للهزيمة والقتل فى مارس سنة ١١٠٨ م قرب الحلة على يد جيوش السلطان (٢) .

وهكذا كانت الظروف غير ملائمة قبل سنة ١١٠٨ م لطاب النجدة من السلطنة السلاجوقية نظراً لما كانت تمر به من ظروف دقيقة ، لكن بانتهاام السلطان محمد من متاعبه ومعوقات حركته ، بعد أن أخضع المارقين عن سلطته من الولاة وقلم أظفار الباطنية وقضى على طموح الأمير العربى صاحب الحلة لم يعد ثمة ما يعوقه عن التمكن من شئون الشام ولم يعد ثمة ما يعوق نخضر الملك ابن عمار كذلك عن طلب النجدة منه .

ونكاد نجزم بأن فخر الملك بن عمار كان على دراية تامة بهذه الأحداث كثير الاحساس بها . فالثابت أنه وصل إلى بغداد فى مايو سنة ١١٠٨ م أى بعد أن انتهى السلطان من آخر عقبة فى طريقه بقضائه على صدقة بن مزبد فى مارس ١١٠٨ م (رجب سنة ٥٠١ هـ) (٣) . وبؤكد هذا الانجاء المؤرخ ابن الأثير بقوله : فلما بلغ فخر الملك انتظام الأمور للسلطان محمد وزوال كل

(١) الراوندى : راحة الصدور ص ٢٣٥

Browne : Account of a Rare Manuscript. P. 605-8

(٢) ابن الجوزى : المنتظم ج ١ ص ١٥٦ ، ابن القلانسي : ذيل ص ١٥٩

(٣) ابن القلانسي : ذيل ص ١٥٩ — ١٦٠

مخالف ، رأى لنفسه والمسلمين قصده والانتصار به ، (١) . إذن كان اتجاه
فخر الملك بن عمار إلى بغداد في ذلك الوقت بالذات لطلب النجدة اتجاه
مدرّوس وعمل مخطط لا مكان فيه للصعدة أو الارتجال .

وقبل أن يخرج فخر الملك إلى بغداد قام بترتيب أمور طرابلس وأتاب
بها ابن عمه أبا المناقب يعاونه لفيف من أصحابه ، ورتب معه الأجناد برأ
وبحرأ ، وأعطاهم جاميكة ستة أشهر سلفاً ، وجعل كل موضع إلى من يقوم
بمخفظه بحيث أن ابن عمه لا يحتاج فعل شيء من ذلك ، (٢) . وقد قصد ابن عمار
بإطلاق رواتب الجند ستة أشهر مقدماً وتوزيع القوات المدافعة على
تحصينات المدينة أن يسهل مهمة نائبه أثناء غيابه ويمضي في طريقه وهو أكثر
اطمئناناً ، ويرجح أخذ المؤرخين المحدثين أن فخر الملك حصل أيضاً قبل
رحيله على تصريح من ولیم جوردان بعبور أراضي تابعة للاحتلال
الفرنجي (٣) .

وبعد ذلك خرج فخر الملك بن عمار من طرابلس قاصداً بغداد متخذاً
الطريق للبري ، فمر في طريقه بدمشق واجتمع بأميرها طغتكين قبل أن يمضي
إلى بغداد . والحقيقة أن سرور ابن عمار بدمشق والاجتماع بأميرها يعد أمراً
حفاًجئاً يثير الانتباه فعلاً ، ولأنجده يتمشي مع سير الأحداث الصالفة ولا يتسق

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢٥٠

(٢) ابن الأثير : المرجع السابق ج ٨ ص ٢٥٠

Runciman : op. cit. II. P. 63

(٣)

مع طبيعة العلاقات بين ابن همار وطفتكين التي لم تصل حد الصفاء ولم تسم إلى مرتبة الصداقة ، مما يحتم هذا اللقاء ، بل كان بوسع ابن همار أن يتجنب المرور بدمشق ويتخذ طرقاً أقصر إلى بغداد . فما الذي جعله يخرج على دمشق ويجمع بطفتكين ؟

ويغلب على ظني أن طفتكين هو الذي سعى في طلب هذا اللقاء حينما نما إلى عليه نبأ عزم ابن همار على التوجه إلى بغداد لمقابلة السلطان . ويشير المؤرخ ابن القلانسي إلى أن طفتكين كان قد أحس بتغير السلطان السلجوقي عليه بسبب سعيه إلى إخماد الفتن فيه ، وأنه بات قلقاً لهذا التغير (١) ، وليس من شك في أن اغتصاب طفتكين لإمارة دمشق من يد سلاجقتها كان لا يلقى تأييداً في بغداد ، فضلاً عن شعور طفتكين الدائم بعقدة الذنب من هذه الناحية ، مما جعله دائم القلق من جهة السلطنة السلجوقية . فلما علم بنزم ابن همار على المسير إلى بغداد رأى اغتنام الفرصة للمشاركة في هذا الموكب الذاهب إلى بغداد لمحو ما كان قد هاق بنفس السلطان ، ومحاولة استرضائه ، فبادر بإرسال أحد معاونيه ويدعى الأمير أرتق بن عبد الرازق إلى ابن همار يشير عليه بالمرور على دمشق قبل رحيله إلى بغداد وبما يؤكد هذا قول ابن القلانسي ، « وكان فخر الملك قد خرج من طرابلس في البر في تقدير خمسمائة فارس وراجل ومعه هدايا وتحف أعدها للسلطان عند مضيه إليه إلى بغداد . فلما وصل أرتق إليه واجتمع معه تفرقت الحال بينهما على وصوله إلى

(١) ابن القلانسي : ذيل ص ١٦١

دمشق في صحبته ، (١) .

وليس من شك أيضا في أن طغتكين كان يعلم تماما أن أمور اشـام وأحواله ستطرح للمناقشة في مباحثات ابن عمار والسلطان السلجوقي ، فأراد بدعوته لابن عمار أن يكسب جانب هذا الأمير قبل أن يفرغ بكل ماله أمام السلطان بما لا يخدم أهداف طغتكين ومصالحته . ودليل ذلك أيضا الحفاوة البالغة التي لقيها ابن عمار عند دمشق من قبل طغتكين . وبالغ طغتكين في إكرامه وتناهي في احترامه وحمل إليه أسراء العسكرية ومقدموه من الخيل والبغال والجمال وغـير ذلك ما أمكنهم حمله وانحافة به ، ودعاه طغتكين للدخول إلى المدينة وأقام له مأدبة حافلة ، وأدخله حمامه ، (٢) .

وفي دمشق استقر الرأي على أن يبعث طغتكين ولده تاج الملوك بوري في صحبة ابن عمار إلى بغداد ومعه هدية نفيسة تايق بالسلطان . وبدل انقاذ أبا النجم هبة الله بن بديع ، الذي كان مستوفيا للسلطان الشهيد تاج الدولة (نقيش) (٣) ، في صحبة بوري أن طغتكين كان يحاول إشهار السلطان أن الأمور تجري في دمشق على نحو ما يشتهي ، وأن الحزب السلجوقي الذي كان يخدم نقيش وأولاده يغد من دعائم العهد الجديد . وبالاختصار ، كان مرور ابن عمار بدمشق حينئذ بناء على دعوة وجهها إليه طغتكين وتنفيذا لرغبة ماحية لدى هذا الأخير لتحميله أمانة عرض أمور المنطقة أمام السلطان بما يخدم أهدافه

(١) ابن القلانسي : المرجع السابق ص ١٦٠

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢٥٠

(٣) ابن القلانسي : ذيل ص ١٦١

ومصالحه وليس من شك في أنها لمحة ذكاه قدمها هذا الأتابك الدهوب الذي استطاع بهذا الأسلوب أن يضمن في سلب إمارة دمشق من أصحابها الشرعيين وبورثها أبناءه من بعده .

وحينما وصل فخر الملك إلى دمشق ، علم أن ابن عمه أبا المناقب طرح طاعته وأعلن خروجه عليه ، و نادى بشعار الأفضل بن أمير الجيوش بمصر . فكتب فخر الملك إلى أصحابه بطرابلس يأمرهم بالقبض عليه وحمله إلى حصن الخوايى ففعلوا ما أمرهم به (١) . ولم يحل ذلك دون استئناف فخر الملك لرحيله إلى بغداد ، فاستعجب تاج الملوك بوري ومرافقه أبا النجم ابن بديع وغادر دمشق سنة ٥٠١ (٢٣ أبريل سنة ١١٠٨ م) . وليس من شك في أن شهرة فخر الملك بن عمار كانت قد سبقته إلى بغداد ، ومجاهدته في صد الصليبيين وبلائه في حربهم كانت قد ذاعت في المنطقة في ذلك الوقت . فحينما وصل إلى بغداد لقي من الخفاوة ما زاد على تقديره وأمله (٢) ، فقد أنفذ السلطان كافة الأمراء ورجاء الدولة لاستقباله وأكرمه بأن أرسل له مركبته الخاصة وقال له خواص السلطان ، « قد أمرنا أن يكون جلوسك في دست السلطان » . ولما وصل إلى مجلس السلطان محمد ، « أجلسه وأكرمه وأقبل عليه يحدنه » ، كما بادر الخليفة المستظهر بإرسال رجاله وكبار معاونيه ليكونوا في استقبال ابن عمار وتحيته ، « فلقوه وأنزله الخليفة وأجرى عليه الجراية العظيمة » ، وكذلك أيضا فعل

(١) ابن الأثير : التكميل ج ٨ ص ٢٥٠

(٢) سبش بن الجوزي : مرآة ج ١ ص ٢٧٨

السلطان « فعل معه ما لم يفعل مع الملوك الذين معهم أمثاله ، ، وعلق ابن الأثير على ذلك بقوله ، « وهذا جميعه ثمرة الجهاد في الدنيا ولأجر الآخرة أكبر ، (١) والواقع أن فخر الملك لبي من السلطان والخليفة من الخفاوة والإكرام ما يتناسب ودوره في الجهاد ضد الصليبيين ، وما جعله يأمل في نجدة سريعة ومعوثة عاجلة يخلص بها إمارته من الحصار الصليبي .

وحينما بدأت المباحثات بينه وبين السلطان ، بسط ابن عمار الظروف التي تعيشها الإمارة والمحنة التي تجتازها بسبب حصار الفرنج لها ، كما أوضح للسلطان مدى قوة الجيش المحاصر لها مع عجز المدينة عن الاستمرار في القتال ، الأمر الذي يتطلب معونة سريعة . وعرض ابن عمار استمداده لتمويل الحملة التي يأمر السلطان بإنفاذها لمعارنته ودفع نفقاتها وتحمل أميائها ، فوافق السلطان على ذلك ، ووعدته بإنفاذ الجيش لتجديده (٢) . وفي نفس الوقت .. « قرر مع العسكر المجرد معه الإمام بالموصل وانقزاعها من يد جاولي سقاوة ثم المسير بعد ذلك إلى طرابلس ، وكان السلطان قد عهد بقيادة هذه الحملة للأمير شرف الدين مودود .

وعلى الرغم من اقتناع السلطان محمد بقضية ابن عمار وموافقته على إنفاذ حملة للجهاد ضد الصليبيين ، إلا أنه - فيما يبدو - كان يعلق أمر هذه الحملة ومسيرها إلى بلاد الشام على نجاحهم - أولاً في طرد والى الموصل المستبد جاولي.

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢٥٠

(٢) ابن الأثير : ذيل ص ١٦١

سقاوة، لأنه دون شك كان يريد وضع الموصل في أيدي أمينة قبل أن يزج بجيشه ليخوض حرباً ضارية ضد الصليبيين .

لكن ابن عمار فضل البقاء في بغداد ولم يصاحب الحملة إلى الموصل ، حتى يفرغ مودود من مهمته هناك . فامتد بابن عمار الانتظار في بغداد قرابة أربعة أشهر (مايو - أغسطس ١١٠٨ م) رمضان ٥٠١ - منتصف المحرم سنة ٥٠٢ هـ ، استبد به للقلق على إمارته وزاد من خوفه تأخر وصول مودود بينما كان السلطان محمد قد رحل عن بغداد منذ شهر شوال سنة ٥٠١ هـ (يونيو سنة ١١٠٨ م) ، فقرر ابن عمار العودة إلى بلاد الشام دون أن يحصل على بغيته أو يحقق رجاءه ، فوصل إلى دمشق في منتصف المحرم سنة ٥٠١ (أغسطس سنة ١١٠٨ م) بينما تسقط الموصل في يد مودود إلا في صفر سنة ٥٠٢ هـ (سبتمبر سنة ١١٠٨ م) أي بعد رحيل ابن عمار إلى الشام بنحو شهر (١) كانت الظروف قد تغيرت خلال تلك المدة في طرابلس وحدث بها انقلاب أدى إلى دخولها في حوزة الفاطميين .

دخول طرابلس في حوزة الفاطميين :

الواقع أن خروج فخر الملك بن عمار من طرابلس وغيابه عنها تلك الفترة كان له نتائج بالغة الأهمية بالنسبة لأوضاع المدينة ، انتهت بهزيمة - نهائياً من يده ، ودخولها في حوزة الخلافة الفاطمية قبل أن تسقط في أيدي

(١) ابن الأثير الكامل ج ٨ ص ٢٤١ - ٢٥٢ (أحداث سنة ٥٠١ ، ٥٠٢ هـ)

الفرنج . (١)

بدأت سلسلة الأحداث في طرابلس بعد رحيل فخر الملك عنها بقليل ، فلم يكف يصل إلى دمشق وهو في طريقه إلى بغداد ، حتى علم بقيام انقلاب في طرابلس تزعمه ابن عمه ونائبه أبو المناقب بن عمار . كما سبقت الإشارة - الذى أعلن الثورة ونادى بشعار الوزير الفاطمى الأفضل ، لكن هذه الثورة قتلت في مهدها ، إذ بادر فخر الملك بالكتابة إلى أصحابه في المدينة بأمرهم بالقبض على أبي المناقب ونقله إلى حصن الخوارج التابع لطرابلس ففعلوا ما أمرهم به ، وانتهت هذه الثورة في مهدها . وعلى هذا الأساس واصل فخر الملك السير ناحية بغداد . (٢)

لم تكن هذه الثورة هى الوحيدة التى حدثت خلال تلك المدة ، إذ يبدو أن أهل المدينة ضجروا من طول الحصار ومن تأخر فخر الملك في بغداد ، فى الوقت الذى اشتد فيه الحصار الصليبي حول المدينة ، فافشوا الموضوع وقلبوا الأمر فيما بينهم واستعرضوا امكانات القوى المجاورة القادرة على نجاتهم ، فوجدوا أن القوة الوحيدة القادرة نسبياً على ذلك هى الخلافة الفاطمية ، وخاصة أن أسطولها لا يزال يرتاد الموانئ الشامية ، ولديها إمكانات مد المدينة بالمؤن والميرة والذخائر لمجابهة الجيش المحاصر . عندئذ مالوا إلى خلع طاعة ابن عمار والدخول فى طاعة الفاطميين .

(١) Scheinheim : Encyc. Isl. ant. «Ibn Anmar»

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢٥١

ويشير كل من ابن القلانسي وابن الأثير وسبط بن الجوزي إلى أن أهل طرابلس أرسلوا إلى الأفضل في مصر يلتمسون منه إرسال وإلى من قبله ، « يصل إليهم في البحر ومعه الغلة والميرة في المراكب لتسلم إليه البلد ، فوصل إليهم شرف الدولة بن أبي الطيب واليا من قبل الأفضل » ومعه الإمدادات اللازمة ، وكان أول عمل قام به هذا الوالي الفاطمي هو أن قبض على أعوان فخر الملك بن عمار وأهله ومصادر أمواله وأثاثه وذخائره ، « وحمل الجميع إلى مصر في البحر » (١) ولا شك في أن هذا العمل قد جرد المدينة من ثروتها ومن خيرة المدافعين عنها (٢) مما بالغ في إضعافها وزاد في محنتها . ويبدو أن هذه الأحداث جرت في الوقت الذي وصل فيه فخر الملك بن عمار إلى دمشق حائلا من رحلته الفاشلة في بغداد ، لأنه أقام في دمشق أياما بعد سماعه هذه الأخبار ثم استقر رأيه بعد ذلك على التوجه إلى جبلة بمعونة من طفتكين فدخلها بعد أن ضاعت منه طرابلس . (٣)

على أن المؤرخ ابن الفرات شد عن هؤلاء المؤرخين فذكر رواية مؤداها أن أبا المناقب بن عمار لم يعلن طاعته للفاطميين حين أعلن النورية علي ابن عمه ، وأن أهل طرابلس هم الذين قبضوا على أبي المناقب وأنهم هم الذين نادوا

(١) ابن القلانسي : ذيل ص ١٦١

ابن ميسر : أخبار مصر ج ٢ ص ٤٣

سبط بن الجوزي : مرآة ج ١٠ ورقة ٢٧٩

(٢) Schernheim : Encyc. Isl. art. « Ibn Annar »

(٣) ابن الفرات : تاريخه ج ٨ ص ٧٨

بشعار الأفضل وطلبوا منه واليا يتسلم البلد ، فسارع بإثـناـذ وإليه إلى
طرا بلس ، فتسلمها منهم . (١)

ونفهم من هذه الرواية الأخيرة أن الثورة التي حدثت في طرا بلس كانت
ثورة واحدة بدأت بخروج أبي المناقب وعصيانه ، وانتهت بتسليم المدينة لوالى
الأفضل ومعنى ذلك أيضا أن فخر الملك علم بضياح المدينة وهو لا يزال بدهش
قبل رحيله إلى بغداد فزاده ذلك — على حد قول أحد المؤرخين المحدثين —
إصرارا على المضى نحو بغداد لطلب المعونة لاسترجاع إمارته وكذلك لدفع
العيليين عنها ، أى أنها كانت مهمة مزدوجة (٢) .

ولكننا لانميل إلى تأييد هذا الاتجاه ولا تؤيد هذه الرواية ، فضلا عن
لإجماع المؤرخين بالنسبة للرواية الأولى ، فإننا نجد منطق الأحداث يؤكدها ،
وطبيعة الأمور توحى بقربها من الواقع . فأبو المناقب أعلن الثورة فعلا في
البداية ، ولكن ثورته قضى عليها في المهد وظلت المدينة في طاعة فخر الملك طيلة
الشهور الأربعة التي قضهاها في بغداد ، وكانت الأزمة خلالها تتفاقم في المدينة ،
وساعد على زيادة حدتها تأخر فخر الملك في بغداد وعدم استطاعته عمل شيء
لإنقاذ المدينة ، ويبدو أن ذلك أفقد أهل المدينة كل أمل في نجدة تأتي من
الشرق وأعطاهم انطبعا بأفخر الملك لا يلقى استجابة في بغداد ، ولا بد وأن
هذه المسائل قد طرحت للمناقشة فيما بينهم ، بينما التحفز والترحوب المشوب

(١) ابن الفرات : تاريخه ج ٨ ص ٧٨

(٢) السيد عبد العزيز سالم : طرا بلس الشام ، ص ١١٢

بالقلق يشد أعصابهم والحصار يشتد من حولهم ، في الوقت الذي أخذ فيه
حزب ابن عمار يضعف في المدينة يوماً بعد يوم بسبب تأخر وصول النجدة
أو ما يوحى بقرب وصولها . وكان أن استعرض رجال المدينة القوى المجاورة
واناقشوا أكثرها قدرة على نجاتهم ومدتهم بالميرة والذخائر ، فلم يجدوا سوى
الخلافة الفاطمية فبادروا بمكانة الأفضل يطلبون معونته وحمايته . ولا بدأ أيضاً
أن أخبار محنة المدينة وتبرم أهلها كانت تصل إلى ابن عمار تباعاً في بغداد ، مما
جعله يقرر الرحيل عائداً دون انتظار وصول جند السلطان من الموصل ،
ولكنه مع ذلك وصل بعد فوات الأوان بعد أن كانت المدينة قد خرجت فعلاً
من يده ودلقت إلى حوزة الفاطميين .

أما القول بأنه علم بانضواء المدينة إلى الفاطميين وهو لا يزال بدمشق قبل
رحيله إلى بغداد ، مما زاده إصراراً على الرحيل لطلب النجدة ، فأمر مستبعد ،
لأن الروايات كلها — حتى رواية ابن القرات — تؤكد أن أهل المدينة فعلوا
ذلك بسبب ضيغهم وطول الحصار ورغبتهم في النجدة والميرة والذخائر ،
ويستبعد حدوث ذلك بمجرد خروج ابن عمار لأن الآمال كانت حينئذ معلقة
برحيله إلى بغداد والقرى التي يحدها الأمل يطغى على كل المشاعر ، بدليل
القضاء على عصيان أبي المناقب في المهدي ، إذن لابد وأن ذلك الضجر الذي أدى
إلى تلك الأحداث الهامة قد جاء بعد أربعة شهور من رحيل ابن عمار وانقطاع
الأمل في النجدة التي خرج من أجلها .

ولو حدثت هذه الفتنه وهو بدمشق لما استأنف فخر الملك سيره إلى بغداد ،
لأن طلبه النجدة من بغداد في ظروف كذلك معناه توريط للسلطنة السلجوقية في
حرب ضدهم عدوين كبيرين في وقت واحد وهما الخلافة الفاطمية وكذلك الصليبيين ،

وهو مشروع كبير لم يكن من السهل طرحه للمناقشة حينئذ ، في الوقت الذي أشارت فيه النصوص إلى الموضوعات التي دارت في محادثات ابن عمار والسلطان ، وكلها تدور حول جهاد ابن عمار ضد الصليبيين وتصدية لحصارهم وامتداح السلطان لهذا العزم والتصميم وطلب ابن عمار النجدة لطرد محاصري بلده من الفرنج ، ولانجد إشارة إلى أن تلك النجدة سيطلب منها العمل على استرداد المدينة من الفاطميين ومحاربة الصليبيين في وقت واحد .

ومما يكن من أمر — فقد ضاعت طرابلس من ابن عمار إلى الأبد ، ولم يجرؤ على دخولها أو محاولة استردادها ، ولم يجد أمامه إلا أن يولي وجهه ناحية جبلة ، مستعينا في ذلك بقوات طغتكين لدخولها ، وأفلح في ذلك فعلا فأطاع أهلها فقتل بها فخر الملك قبل أن يعصف الصليبيون بكل من جثم وطرابلس ذاتها في العام التالي (١) .

(د) سقوط طرابلس في أيدي الصليبيين

(سنة ١١٠٩ م)

تمخضت الحملة الصليبية الأولى عن تأسيس بعض الإمارات الصليبية في أطراف بلاد العراق وفي بلاد الشام . فكانت إمارة الرها في أقصى شمال العراق ثم إمارة أنطاكية في شمال بلاد الشام ، كما تأسست المملكة الصليبية في بيت المقدس ، وبذلك أصبحت الفرصة مهيأة أمام الصليبيين للتحكم في المدروس المخطط الذي يمكنهم من حفظ إماراتهم وحماية كياناتهم الشاذة وسط الحشود الإسلامية الآخذة في الإفاقة من هول الصدمة . والواقع أن الصليبيين سرعان ما تنبهوا إلى أن إمارة بنى عمار في طرابلس تفصل بين أجزاء ممتلكاتهم في الشمال وفي الجنوب ، وتجزئ كياناتهم وتمنع الاتصال بين أوصال هذا الكيان ، فليس غريبا أن يكون الاستيلاء عليها قد أصبح هدفا حيا من أهدافهم في السنوات الأولى من استقرارهم في الشرق ، ولعل دأب ريموند الصنيجلي على هدم معالم هذه الإمارة منذ البداية كن يحظى بتأييد عقلاء الفرنج ، كما أن الثغمان شمل الجيوش الصليبية العاملة في بلاد الشام وشمال العراق أمام طرابلس ذاتها في سنة ١١٠٩ م يؤكد ما غدت تلذاه هذه المسألة من تأييد الجيوش الصليبية ، وما أضحت تحظى به من اهتمام قادة الفرنج في ذلك الوقت (١) .

وعلى الرغم من ضآلة إمكانات بني عمار وصغر مساحة إمارتهم، إلا أنها صمدت أمام الهجمات العنيفة التي بدأت تجتاحها . فقد فقدت أنطرطوس في أوائل عام ١١٠٢ م ، ثم فقدت جبيل في أواخر عام ١١٠٤ م ، وحوصرت طرابلس من شمالها وجنوبها ، وزاد التضييق عليهم (١) وكانت ثلاثة الأنافي خروج طرابلس ذاتها من يد بني عمار، وانضوا تحت حكم الخلافة الفاطمية سنة ١١٠٨ م ولم يبق من أملاك تلك الإمارة سوى عرقة وكذلك جبلة التي لجأ إليها أخير الملك بن عمار مؤخرأ .

أما هرقة — الحصن العريق الذي رأينا صموده في وجه الصليبيين من قبل — فكان بيد وال أقاله فخر الملك بن عمار ، إلا أن هذا الوالي انتهز فرصة الأحداث التي تعرضت لها طرابلس وقام من جانبه بطرح طاعة ابن عمار وأعلن استقلاله بالحصن غير أنه سرعان ما تبين له صعوبة الحفاظ عليه أمام هجمات الفرنج ، فضاق به القوت وانقطعت عنه الميرة لطول مكث الفرنج في نواحيه ، وعندما اقتنع الوالي بضعفه عن التصدي للفرنج وعجزه عن حفظ القلعة بادر بالكتابة لطغتكين أتابك دمشق قائلا له : « أرسل من يتسلم هذا الحصن مني فقد عجزت عن حفظه ، ولئن يأخذه المسلمون خير لي دنيا وآخره من أن يأخذه الفرنج » عندئذ أرسل له طغتكين رجلا من أعوانه يدعى إسرائيل في نحو ثلاثمائة رجل تسلم منه الحصن ثم قتله غيلة قبل أن يطلع هذا الوالي طغتكين على ما خلفه بالقلعة من الأموال (٢) .

(١) Grcusset : L'Empire du Levant. P. 268

(٢) أبو الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢٦٥ (سنة ٥٠٢ هـ) ،

ابن القلانسي : ذيل ص ١٦٢

ويبدو أن طغتكين رأى بعد أن صارت عرقه بيده ، ضرورة تأمين الطرق بينها وبين دمشق ، فهاجم بعض الحصون والقلاع التابعة للصليبيين واستولى على حصن الأكمة في مارس سنة ١١٠٨ م (رجب سنة ٥٠١ هـ) وكان بنو زبارة عرقه نفسها لتنفذ تحصيناتها والعمل على تقويتها ، إلا أن هذه التحركات أثارت مخاوف وليام جوردان ، فسحب فرقة من جيشه المحاصر لطرابلس من نحو ثلاثمائة فارس ونحو مائتين من المقاتلين المحليين ، وفاجأ طغتكين وجيشه بقرب حصن فلاذ هذا بالفرار وتبعه جيشه الذي تفرق وانسحب إلى حصن في حالة سيئة ، وغنم الصليبيون ، « من الخيل والكراع غنيمة كبيرة ونفرك العسكر في الشجر والجبال ووصلوا إلى حصن على أقيح صفة وأشنع صورة من غير لقاء ولا محاربة ، (١) .

عاد وليام جوردان من متابعة الجيش الإسلامي المنهزم ، فألقى الحصار على عرقه نفسها وهاجمها على امتداد ثلاثة أسابيع ، ويشير المؤرخ ابن القلانسي إلى أنها كانت تعاني حينئذ من مجاعة شديدة ، وفعل للقوت بها وانقطعت الميرة ، في وقت نزات فيه الثلوج وهطلت الأمطار بغزارة فعاقبت كل محاولة لتجديتها فاستسلمت في النهاية لوليم جوردان ، وطلبت حاميتها الأمان . . . فأمنهم على نفوسهم وتسلم الحصن ، (٢) فوضع به حاميته من لدنه وماد للحصار طرابلس . وهكذا سقطت عرقه في يد الفرنج في أبريل سنة ١١٠٨ م

(١) ابن القلانسي : ذيل ص ١٦٢

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢٥٦

(رمضان سنة ٥٠٢ هـ) ولم يبق من حطام إمارة بنى عمار سوى جبله القم
لاذى بها فخر الملك من قبل .

على أن التجمد الذى أمسى فيه الحصار الصليبي لطرابلس على يد وليم
جوردان لم يلبث أن قطع بوصول برتراند ابن ريموند قادمًا من الغرب ليرث
أملاك والده فى الشرق . فقد ظل برتراند يحكم إمارة تولوز نحو عشر
سنوات إلى أن قام أعوان ريموند وبارونات الامارة باستدعاء الطفل ألفونسو
جوردان الابن الشرعى لريموند ونصبوه أميرا عليهم واتفق على أن يرحل
برتراند الى الشرق ليرث أملاك والده هنالا ، بينما يبقى ألفونسو على أملاك
والده فى الغرب ، ومن ثم قدم برتراند على رأس جيش كبير قوامه نحو
أربعة آلاف فارس وراجل محولا على نحو أربعين سفينة (١) .

ولا بد وأن برتراند كان ينوى مهاجمة طرابلس بالذات والاستيلاء عليها
بمجرد وصوله إلى بلاد الشام ليجعلها قاب إمارته المرتقبة فى الشرق (٢) ،
لانه قام بعمالين يؤكدان هذه الرغبة ، فقد حرص وهو فى طريقه إلى بلاد
الشام أن يمر على جنوة للاتفاق مع حكومتها على الاستعانة بأسطولها لمهاجمة
المدينة بحرا ، وهى المعونة التى كان يفتقدها الحصار فعلا ، فحصل على
موافقه جنوه على ذلك نظير منح الجنوية امتيازات واسعة فى طرابلس (٣) ،
وبعد ذلك عرج برتراند على القسطنطينية ليطلب دعوة الامبراطور

(١) Grousset : Hist. des Crois. I. P. 352 - 3

(٢) Michaud : op. cit. I. P. 287

(٣) سعيد عبد الفتاح عاكور : الحركة الصليبية ، ج ١ ص ٣٦٨

الكسيوس كومنين صديق والده الحميم ، ليمكن من تنفيذ خطته في الشرق . وحينما وصل إلى القسطنطينية استقبله الامبراطور استقبالا حافلا وحرص على معاملته كأحد أبنائه ومنحه كثيرا من الهدايا ، ووعده النصرة والمساعدة في مشروعاته ، وفي مقابل ذلك حلف له برتراند بيمين الطاعة والولاء (١) .

ثم كان أن قاد برتراند جيشه ومعه الجنوية وما انضاف إليهم من البيازنة (٢) ، فبلغت عدة السفن التي قادها نحو ستين سفينة نزل بهم في ميناء السويدية ، ميناء أنطاكية ، وذلك في مارس سنة ١١٠٩ م (شعبان سنة ٥٠٢ هـ) (٣) . واجتمع بتنكرد وطلب معونة للحصول على أملاك والده في بلاد الشام . ولابد أن برتراند لوح لتنكرد بحقوق والده (ريموند) القديمة في كل من أنطاكية واللاذقية حتى ينهض تنكرد لمعونته ، غير أنه هذا اشترط أن يساعد برتراند لاسترداد المصبغة في قلبية من أيدي البيزنطيين فرفض برتراند قبول هذا الشرط لما يعنيه ذلك من تقاض عهد الامبراطور البيزنطي فترتب على ذلك أن فقد برتراند كل أمل في التفاهم مع تنكرد من ناحية وأثار غضبه من ناحية أخرى ، وأصبح غير مرغوب في بقاءه في أنطاكية ، ومن ثم أبحر على رأس جيشه وحملاته من الجنوية

(١) Grousset : op. cit. II. P. 353

(٢) Mills : op. cit. I. P. 392

(٣) ابن القلانسي : ذيل ص ١٦٣

سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج ١٠ ورقة ٢٨٣

حوالبيازة إلى أنطرطوس (١) .

وكانت أنطرطوس حينئذ بيد نائب وليم جوردان ، فلم يحل دون نزول برتراند بها باعتبارها إحدى أملاك أسرة ريموند ، وحصل على ما يحتاج إليه من المؤن منها وشرع في مطالبة وليم جوردان برد كل أملاك والده إليه باعتبارها الوريث الشرعي لهذه الأملاك . لكن وليم جوردان رفض ذلك معتبرا نفسه صاحب الحق في هذه الإمارة وخاصة أنه عمل على الحفاظ عليها بعد وفاة ريموند من ناحية ، كما قام بتوسيع رقعتها من ناحية أخرى باستيلائه على بعض المعاقل من أيدي المسلمين . . . عندئذ تأزم الموقف بين الأميرين ، فالتمس وليم جوردان المعونة من تنكرد وتعهده بأن يكون تابعا له ، بينما سار برتراند بقواته إلى طرابلس وفي صحبته الأسطول الجنوي وبعث إلى الملك بلدوين في بيت المقدس يخبره بما حدث ويطلب معونته لاستعادة أملاك والده على أن يصبح تابعا من أتباعه (٢) .

على أن حرص بالدوين الأول على تأكيد زعامته للصليبيين ورغبة في توحيد كلمة الفرنج ، فضلا عن استيائه من تنكرد لما أظهره من روح عدائية تجاه أمير الرها وتابعه أمير نل باشر ، كل هذا دفع الملك إلى الإسراع ناحية الشهاك على رأس قوة مكونة من نحو خمسمائة فارس بعد أن طاب إلى تنكرد ووليم جوردان لقائه عند طرابلس .

Grousset : op. cit. I. P. 353 - 4

(١)

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١ ص ٢٥١ - ٢٥٩ (سنة ٥٠٣ هـ) ،

ابن القلانسي : ذيل ص ١٦٣

وفي قلعة صنجيل قرب طرابلس اجتمع الزعماء الصليبيون : الملك
بادوين الأول وتنكرد ووايم جوردان وبادون دي بورج وبرتранد ،
وكان للبقاقة الملك وحسن سياسته الفضل الأكبر فيما جرى من مصالحة بين
الأطراف المتنازعة لاسيما وايم جوردان وبرتранد ، فاتفق علي أن تقسم أملاك
ريموند بينهما علي أن يأخذ برتراند جبيل وقلعة صنجيل وطرابلس التي انفق
الجميع علي التعاون للاستيلاء عليهما ، في حين يأخذ وايم جوردان كل من
عرفة وأنطربوس ، وفي حالة وفاة أحدهما دون أن يعقب تؤول ممتلكاته
إلى الثاني (١) .

وجاءت هذه المصالحة علي حساب إمارة طرابلس إذ تعاون جميع الزعماء
الصليبيين علي اقتحامها وتحريك الأسطول البروفنسي الجنوي ليجتاحها
بحرا ، بينما أخذت للفرق البرية لكل من بيت المقدس وأنطاكية والرها وتل
باشرفضلاعن قوات وايم جوردان وبرتранد تحكم الحصار عليهما برا . وقد بدأ
هذا الحصار في سنة ١١٠٩ م ، (مطلع شهر رمضان سنة ٥٠٢ هـ) .

بعث الوالي الفاطمي شرف الدولة برسائل عاجلة إلى مصر يستعجل وصول
النجيدات والميرة والذخيرة والمؤن بطريق البحر . والواقع أن الخلافة الفاطمية
كانت قد جهزت أسطولا كبيرا لنجدة المدينة فعلا ، يحمل أعدادا من المقاتلين

Runciman : op. cit. II. P. 68

(١)

Grousset : op. cit. I. P. 356

Mills : op. cit. I. P. 294

كما يحمل كميات كبيرة من الإمدادات والمؤن ، ولكن الخلاف نشب بين قادة ذلك الأسطول وهو لا يزال في موانئ الدلتا ، ومرت الشهور والأمير الأفضل عاجز عن حسم تلك الخلافات وتسيير الأسطول إلى طرابلس ، بينما كانت المدينة صامدة للحصار وللهجرات الصليبية برأ وبحرا لكنها غدت تعاني شدة كبيرة بسبب نقص المؤن وقلة الذخائر وتنافس المقاتلين . وبشير المؤرخ ابن الفرات إلى حادثة غريبة جرت بينما كانت المدينة تتعرض لتلك المحنة ، وتترقب النجدة ، ورغم ما يظلل هذه الحادثة من شكوك ، إلا أنها توحى بمدى الانحلال الذي أصاب السلطات الحاكمة في مصر ، وعدم الاكتراث الذي استرجب لوم المؤرخين لهم ، فبينما أهل المدينة في محنتهم : يقول ابن الفرات ، « إذا بمركب قد أقبل فاشكوا في أن فيه نجدة ، فطلع منه رسول وقال : قد بانغ الخليفة أن بطرابلس جارية حسنة الصورة وأنها تصلح للخدمة ، وقد أمر بإرسالها إليه ، وأرسلوا إليه حطب المشمش ما يصنع منه عيدان للملاهي فعند ذلك أيسوا من نصره وضعفت قواهم وخارت نفوسهم وذلوا » (٢) . وليس من شك في أن هذا النص هو الذي هال له بعض مؤرخي الغرب من المحدثين ، ولما قف مؤرخ الحروب الصليبية المتعصب Michaud وصاغ منه عبارات تنم عن غمز ولمز وسخرية من خلافة القاهرة (٣) ، رغم ما في هذه الحادثة من شكوك ، لكننا مع هذا نستوحى منها مدى مآثرته الخلافة الفاطمية من

(٢) ابن الفرات : تاريخه ج ٨ ص ٧٨ - ٧٩

Michaud : op. cit. I. P. 287

(٣)

ناغمه جلال، وسوء تقدير وعدم اكتراث بالنسبة لما تتعرض له أملاكها على يد الفرنج في بلاد الشام .

وبعد تأخر وتردد خرج الأسطول المهرى قاصدا طرابلس ، وشاء سوء حظه أيضا أن يتعرض للعواصف التي ردت عليه المرة بعد المرة عن الوصول إلى المدينة ، وسير الريح تده ، لما يريد الله تعالى من نفاذ الأمر المقضي ، (١) وعندئذ أيقن أهل المدينة بالهلاك ، وذات نفوسهم في الوقت الذي نشط فيه الفرنج في الهجوم والتف الأسطول الجنوى بحكم الحصار حولها واقتربت أبراج الفرنج من أسوار المدينة وتكاثرت، وغدا سقوطها وشيك الحدوث. (٢)

ويبدو أن الوالي الفاطمي أيقن حينئذ عبث المقاومة فاتصل بالصليبيين يطالب لنفسه وللحامية الفاطمية الأمان ، إذ يشير المؤرخ أبو الفدا إلى أن الصليبيين سمحوا للقائد الفاطمي وحاميته بالخروج من المدينة وذلك قبل أن تسقط المدينة، في أيديهم فعلا، فخرج المستأمنون منها إلى دمشق. (٣)

على أن ذلك استمات الفرنج في الهجوم على المدينة وقربوا أبراجهم منها، وجدوا في الهجوم عليها من كل جهة حتى سقطت في أيديهم في ١٢ يونيو

(١) ابن القلانسي : ذيل ص ١٦٣ ،

ابن الأثير . الكامل ج ٨ ص ٢٥٩ (سنة ٥٠٣ هـ)

(٢) سبط بن الحوزي : مرآة ج ٩ ورقة ٢٨٣

(٣) أبو الفدا : المختصر ج ٢ ص ٢٢٤

سنة ١١٠٩ (ذى الحجة سنة ٥٠٢ هـ) . لكن الآراء مع ذلك اختلفت في كيفية سقوطها ، هل كان عنوة وبمحمد السيف ، أم أنها استسلمت للغزاة طواعية ، واستأن أهلها للفرنج في نهاية الأمر ؟

وقد اعتقد المؤرخون المحدثون في الغرب أن المدينة قد استسلمت للفرنج استسلاما عاما ، بدليل سماح الفرنج للزعماء الصليبيين والحامية بالخروج منها سالمين على أنر طلبهم الأمان ، وأن الزعماء الصليبيين - لاسيما برتراند وبلدوين - قد وفوا بوعودهم وعمودهم لأهلها المستأمنين ، فابتعدوا عن سلك الأمان ولم يحدث الخراب والدمار ، كما فسر أولئك المؤرخون حوادث السلب والنهب والقتل والتخريب في بعض أجزائها بأنه حدث على يد الجنوية الذين لم ينقيدوا بهمد أو يلزموا بوعدهم ، أي أن المدينة دخلت في حوزة الفرنج استسلاما . (١)

لكن الواقع أن هناك لإجماع بين المؤرخين العرب القدامى على أن المدينة لم تستسلم للغزاة ولم تطلب الأمان منهم ، بل أنها قاتلت بشرف وكافحت حتى النهاية حتى سقطت مرغمة في أيدي الصليبيين في أواخر سنة ٥٠٢ هـ . وقد أجمع على ذلك كل من ابن القلانسي وابن الأثير وسبط بن الجوزي وأبوالفدا وابن تفرات ، وأشاروا إلى ما حدث من الخراب والدمار والسلب والنهب والقتل وإشغال العراقي حتى دمرت مكتبة آل عمار فيها و د و كتب دور

Grusset : op. cit. I. P. 357 - 8

(١)

Runciman : op. cit. II. P. 69

Michaud : op. cit. I. P. 287

العلم الموقوفة ، على يد الغزاة كمنتهجه لاقتحام المدينة عنوة ودخلوها بحمد
السيف . (١)

ويبدو لنا فعلا أن دخول الفرنج إلى هذه المدينة للباسلة أم يكن بالسهولة
التي صورها المؤرخون في الغرب ، كما نستبعد أن يؤثر أهلها في النهاية هذه
الخاتمة الهزيلة لكفاحهم المشرف ، وهم مشهورون بقوة المراس وعراة الكناح
طوال تاريخهم حتى قبل هذه الأحداث . ولهذا فنحن نؤيد الرواية التي لقيت
أجماعا من المؤرخين العرب القدامى ونقرر معهم أن المدينة كانت وناضات
وقاوت حتى النهاية ، دون أن تستسلم أو تطلب الأمان ، مع أن طابعها الأمان
في مثل تلك الظروف لم يكن ليفقص من قدر أهلها وحماتها ، الذين خذلهم
القوة الإسلامية وخاصة الخلافة الفاطمية وباتوا دون سند أو حماية أو نجدة .

أما خروج الوالى الفاطمى وحاميته سالمين من المدينة ، وهو ما فسره
المؤرخون الغربيون بأنه دليل استسلام المدينة كلها ، فاننا لانجده دليلا على
ذلك . إنما أشار إليه بعض المؤرخين القدامى خاصة ابن الأثير على أنه حدث
قبل سقوط المدينة فعلا ، وقبل دخول الفرنج إليها ، وأنها كانت دعوة انهمازية
مبكرة من قبل هذا الوالى قادته إلى طلب الأمان لنفسه ولجنده فاقبعت قبولا
لدى زعماء الفرنج فأمنوه مقابل مدهم بما لديه من معلومات عن المدينة ومآمر
به من ظروف دقيقة .

(١) ابن العلاء : ذيل ص ١٦٣ ، ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢٥٩ ،

سبط بن الجوزى : سرآة ج ١٠ ورقة ٢٨٣ أبوا القدا : المختصر ، ج ٢ ص ٢٢٤ ،

ابن القرات : تاريخه : ج ٨ ص ٧٨

وأما التزام بعض القادة الصليبيين بالاعتدال وعدم الميل لإحداث الخراب والدمار ، فلم يكن وفاء لعهدهم سبق منحه ، وإنما يفسره رغبة كاملة لدى كل من بلدوين وثانبعه برتراند في الاستيلاء على المدينة كما هي دون تخريب أو تدمير حفاظا عليها باعتبارها ستصبح مقر إمارة جديدة على سواحل الشام .

أما تفسيرهم لما حدث من تخريب ونهب وقتل بأنه جاء من قبل الجنوية دون غيرهم ، فإننا لانجد الجنوية أكثر تعصبا من غيرهم من جماعات الغزاة خاصة من قدم منهم حديثا من الغرب في جيش برتراند (١) وبالتالي لانميل إلى هذا التخصيص والتحديد .

والخلاصة ، أن السلائل تشير إلى أن طرابلس لم تستأن أو تستسلم للفرق الصليبية المهاجمة وأنها ظلت تقاوم حتى النهاية حتى عجز مقاتلوها عن دفع الأبراج المتكاثرة على أسوارها على الرغم من نجاحهم في البداية في إحراق بعض تلك الأبراج ورد المغيرين فيها . ومن ثم كانت الخاتمة البائسة لكفاح هذا الماعقل الإسلامي الكبير والنهاية المؤلمة لهذه القلعة العريقة .

هذا ويجب أن ننوه بأن حرصنا على تأكيد سقوط طرابلس عنوة وبحد السيف

(١) يذكر أن أحد رجال الدين الصليبيين ممن جاءوا مع برتراند من الغرب دخل غرفة كبيرة في مكتبة آل عمارة فعمد إلى أعداد كبيرة من القرآن الكريم المسكدة فوضع فيها النار وأخذ يرقب ذلك في تنف وانشوة ، ثم مالبث الغزاة أن أشعلوا النار في المكتبة بأسرها . وذلك مثل ما أحدثته الغزاة من الخراب والدمار في شتى من القلعة والحنق والتعصب يستوى في ذلك الجنوية وغيرهم .

ليس نابها من محارلة إظهار قوة الصليبيين أو غير ذلك ، وإنما هي رغبة صادقة في عدم حرمان أهل هذه المدينة من شرف القتال إلى آخر لحظة وبكل بسالة عن مدينتهم حتى سقطت بشرف في أيدي أعداء تكاثروا عليها واستأسدوا ضدها ، ولم يكن سقوطها طواعية ضنا بأرواح مقاتليها أو حرصا على دماء رجالها ، وإنما كان دخول الفرنج إليها على أشلاء مقاتلين شجعان قاتلوا بشرف في ظروف غير متكافئة ، وليس من شك في أن تقاعس الفاطميين عن نجاتها ومدتها بالمؤن والذخيرة والرجال كان العامل الأساسي في ورودها هذا المورد التمس ووصولها لهذه النتيجة المؤلمة مما استوجب لوم المؤرخين المعاصرين واللاحقين لهم وجعلهم مدفا لماؤاخذة أولئك المؤرخين .

وهكذا سقطت طرابلس ، وانهدم معقل إمارة بني عمار التي عمرت نحو أربعين عاما . ويعلق مؤرخ الحركة الصليبية على ذلك بأن الظروف شاعت أن تكون طرابلس آخر مدينة كبرى في الشام تسقط في أيدي الصليبيين و آخر إمارة كبرى . وأسسمها الصليبيون بعد الرها وأطاكية وبيت المقدس ولكنها في الوقت نفسه كانت آخر إمارة صليبية في بلاد الشام يستردها المسلمون عندما دالت دولة الصليبيين في أواخر القرن الثالث عشر (١) .

هــ صير فخر الملك بن عمار :

كان فخر الملك بن عمار قد قنع بجبله التي غدت البقية الباقية من حطام إمارته الزائلة ، منذ دخولها في أغسطس سنة ١١٠٨ م (المحرم سنة ٥٠٢ هـ)

(١) سعيد تبه لفتح حاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٣٦١

وتقع جبلّة جنوبي اللاذقية وإلى الشمال من بانياس وأنطارطوس . والحقيقة أن فخر الملك لم يحارل منذ ذلك الوقت العودة إلى طرابلس أو التدخل في شؤونها ، إذ لا نجد ما يشير إلى أى نشاط طوال العام الذى قضاه في جبلّة ، ويبدو أنه كان قد يئس من القوى الإسلامية بعد عودته صفر اليدين من بغداد ، كما أن بقية آماله قد تلاشت حين علم بانضواء المدينة تحت الخلافة الفاطمية ، واقتنع بأن مدينته قد غدت بين فكي القوى الصليبية والخلافة الفاطمية ولا أمل في استعادتها مع تقاعس السلطنة الساجوقية والخلافة العبّاسية في المشرق ، فأثر الخلود إلى السكينة آملا أن يتركه الصليبيون بقضى بقية عمره في تلك المدينة الصغيرة التى غدت حصاناً لإمارة ضائفة .

لكن هذا الأمل غدا موضع شك كبير حين سقطت طرابلس في أيدي الفرنج في يونيو سنة ١١٠٩ ، ثم كان استيلاء تنكرد على بانياس بعد ذلك بقليل (١) فأصبح فخر الملك بين شقى الرحى ، وأصبح الصليبيون يحيطون به من الشمال والجنوب ، إذ كانت اللاذقية في يد تنكرد كما آلت إليه بانياس مؤخراً وغدا وجود فخر الملك في جبلّة بعد مخاطرة كبيرة ، لأن تنكرد انصرف بعد استيلائه على بانياس للهجوم على جبلّة نفسها ، وكان القوات فيها قليلاً فقائلها إلى أن ملكها في الثامن والعشرين من ذى الحجة سنة ٥٠٢ هـ (يونيو ١١٠٩ م) بأمان » (٢) .

ويبدو أن فخر الملك عرض على تنكرد الاحتفاظ بجبلّة في ظل الحماية

(١) ابن الفلانى : ذيل ص ١٦٣ - ١٦٤

(٢) ابن الأثير الكامل ج ٨ ص ٢٥٩ (سنة ٥٠٣ هـ)

الصليبية على أن يدفع لتتكرد الجزبة المقررة ، لكن تنكرد رفض ، وعندئذ لم يجد فخر الملك بدا من الخروج منها حزينا ، فقصد إمارة شيزر ، فتلقاه أميرها سلطان بن هلي بن منقذ الكنانى ، واحترمه وعرض عليه المقام عنده فأبى « (١) وواصل السير إلى دمشق فوصل إليها في المحرم سنة ٥٠٣ هـ (أغسطس ١١٠٩ م) فأكرمه طغتكين ، وأنزله في دار وأفطاه الزبداني وأعمالها ، (٢) .

قضى فخر الملك فترة في إقطاعه في الزبداني في وادي بردى ، ثم توجه إلى الموصل حيث وزر للأمر مسعود بن محمد الساجوقى حتى عام ٥١٢ هـ (١١١٨ م) ، وذلك قبل أن يصبح الأمير مسعود ساطانا ، ثم ظهر فخر الملك بعد ذلك في خدمة الخليفة العباسي المسترشد بالله (٣) .

لكنه لم يمكث طويلا في خدمة هذا الخليفة ، إذ يذكر ابن الأثير في حوادث سنة ٥١٤ هـ (١١٢٠ م) أن فخر الملك سار في صحبة سديد الدولة بن الأنبارى مبعوث الخليفة المسترشد إلى إيلغازى بن أرتقى التركمانى ليقم عنده ، وكان إيلغازى حينئذ صاحب إمارة ماردين في ديار بكر التى ضم إليها حلب سنة ١١١٨ م وكان ابن الأنبارى موفدا من قبل الخليفة إلى إيلغازى

(١) سبط بن الجوزى : مرآة ج ١٠ ورقة ٢٨٣

(٢) ابن القلانسي ذيل ص ١٦٤ - ١٦٥

(٣) Sobernheim : Enoyc. Isl. art " Ibn An'ar "

بالخلع والهدايا وبرسالة يشكره فيها الخليفة،^(١) على ما يفعله من غزو الفرنج،^(٢) وذلك بعد نجاح لبلغازى فى إنزال الهزيمة الكبيرة بروجر الأنطاكي فى ساحة الدم فى سنة ١١٩ هـ ^{١١٩٠} فلا بد وأن فخر الملك آثر حينئذ العودة إلى بلاد الشام ليقيم فى كنف هذا الحاكم القوي وسعى من أجل ذلك لدى الخليفة فبعثه هذا فى صحبة ابن الأنبارى، وتنقطع عنا أخبار فخر الملك بن عمار بعد ذلك، فلا ندرى بأى بلد أقام بقية حياته، ولا أين توفى.

(١) ابن الأثير . الكامل ج ٨ ص ٢٩٤ (سنة ٥١٤ هـ)

(٢) Smail : Crusading Warfare. P. 57

(٢)

بنو منقذ في شيزر ١٠٨١ — ١١٥٧ م

أ — بنو منقذ قبل امتلاكهم قلعة شيزر .

ب — تأسيس الإمارة في شيزر سنة ١٠٨١ م

(عهد سديد الملك أبو الحسن علي بن منقذ)

ج — خلفاء سديد الملك بن منقذ وسياستهم تجاه السلاجقة
والصليبيين :

١ — عز الدولة أبو علي المرهف نصر بن علي ١٠٨٢ — ١٠٩٨

٢ — عز الدين أبو العساكر سلطان ١٠٩٨ — ١١٥٤

د — بنو منقذ والبيزنطيون

هـ — نهاية بني منقذ سنة ١١٥٧ م .

(أ) بنو منقذ قبل امتلاكهم قلعة شيرز

بعد قيام إمارة بنى عمار فى طرابلس بنحو عشر سنوات ، وبعد انهيار إمارة بنى مرداس فى حلب بنحو سنتين ، برزت إمارة جديدة فى بلاد الشام أقامها سيد الملك أبو الحسن بن منقذ فى شيرز على نهر العاصى سنة ١٨٠١ م لتعمرهى الأخرى فترة من الزمان ، وتصبح الإمارة العربية الثالثة فى بلاد الشام ، والنموذج الثالث لهذا النوع من الدويلات المسعقلة .

والواقع أن تلك الإمارات الثلاث تشابهت فى كل شيء ، حتى فى الظروف التى صاحبت قيام كل منها والنهج الذى سارت عليه والسياسة التى اتبعتها ، فضلاً عن تعرض كل منها لأخطار الطامعين وتكالب القوى المجاورة والبعيدة والدخيلة على هذه المنطقة . لكن إذا كانت إمارة بنى مرداس قد عمرت نحو نصف قرن من الزمان وإمارة بنى عمار قد عمرت هى الأخرى نحو أربعين عاماً حتى هدمتها القوى المملوكية فإن إمارة بنى منقذ كانت أطولها عمراً ، لأنها عمرت نحو ثلاثة أرباع قرن حتى راحت ضحية عوامل طبيعية لا بشرية ، إذ هدمتها الزلازل المدمرة فجعلتها أثراً بعد عين .

لكن الشيء الذى نستطيع أن نقرره مطمئن هو أن هذه الإمارات الثلاث احتضنت كل منها حذو الأخرى ونشأت على مثالها ، ولم تكن أى منها واعدة أحداث خاصة أو معادفات فريدة ، وبكفى لنا كيد هذا الاتجاه أن سيد الملك بن منقذ ، مؤسس هذه الإمارة الجديدة ، أقام فى حلب فترة وشارك فى أحداثها ، ثم ظهر فى طرابلس وأحب دوراً هاماً فى تاريخها ثم خرج

منها ليؤسس إمارة جديدة على نسق ما شاهده في كل من حلب وطرابلس فكان له ما أراد ، وظهرت إمارة بني منقذ في شيرز سنة ١٠٨١م (٤٧٤ هـ) .

وسبقت الإشارة من قبل إلى أن بني منقذ ينتسبون إلى قبيلة كدانة من كلب وهي القبيلة التي عمرت وسط الشام طبقا للتوزيع القبلي الذي أسفرت عنه أحداث القرون الأولى للهجرة وعلى الرغم من أن شهرة بني منقذ ارتبطت كدانة بامتلاكهم قلعة شيرز التي جعلوها مقر هذه الإمارة موضوع الفصل ، إلا أنهم معروفون لدينا قبل هذه الحادثة بوقت يزيد على نصف قرن . فقد كانوا يمثلون أسرة هامة منذ فجر القرن الحادي عشر ، وكانت لهم مكانة خاصة لدى صالح بن مرداس أمير حلب الذي أقطعهم إقطاعا بالقرب من شيرز فاستقروا في تلك المنطقة وأخذوا يشاركون في أحداثها .

على أننا لا نعلم شيئا عن منقذ الكناني الكلبى مؤسس الأسرة وجدها الأول ولا عن ابنه نصر بن منقذ ، لأن كل ما وصلنا من معلومات عن هذه الأسرة

(١) اعتقد ابن الأثير أن شيرز ذاتها منحت كإقطاع لبني منقذ من لدن صالح « وكانت لآل منقذ الكنانيين بتوارثونه من أيام صالح بن مرداس » . وقد لاحظ هذا الخطأ المؤرخ أبو الفدا فقال تعليقا على قول ابن الأثير « وليس الأمر كذلك فإن صالحا كانت وفاته سنة ٤٢٠ هـ وملك بني منقذ لشيرز كان في سنة ٤٧٤ هـ أي بعد وفاة صالح بأربعة وخمسين سنة » والصحيح أن إقطاعهم كان قريبا من شيرز وليس شيرز ذاتها منحهم أيام صالح . (ابن الأثير : ج ١ ص ٥٣ — ٥٤ (سنة ٥٥٢ هـ) — أبو الفدا : المختصر

يبدأ من الشخصية الثالثة فيها وهو أبو المتوج مقلد بن نصر والد سيد الملك أبو الحسن علي مؤسس الإمارة في شيزر .

ذلك أن مقلد بن نصر هذا نجح في الاستحواذ على كفر طاب سنة ٤٣٣هـ (١٠٤١م) فارتبط اسمه بها فقبل ، ابن منقذ الكفر طابى ، وفرض نفسه على أحداث العصر وغدا له وزن بين رجال الشام حينئذ ، مكنه من أن يلعب دورا هاما في مجربات الأمور في بلاد الشام ، فلاذ به أنوشتكين الدزبرى قائم الفاطميين الشهير حين لفظته الخلافة الفاطمية وثارت به دمشق ، فلم يجد بدا من الخروج إلى حماه ، وكان ابن منقذ الكفر طابى فحضر إليه في نحو ألقى رجل من كفر طاب فاحتفى به ، (١) وذلك في سنة ٤٣٣هـ (١٠٤١م) .

ويقول ابن خلكان عن مقلد بن نصر هذا انه كان رجلا نبيل القدر سائر الذكر رزق السعادة في بنية وحفدته ، (٢) واستطاع أن يسطقوه من

(١) أبو الهدى المختصر ج ٢ ص ١١٦ ، ابن الوردي تاريخه ج ١ ص ٣٤٨
اعتقد فيليب حتى أن مقلد الذي استولى على كفر طاب شخص آخر غير أبي المتوج مقلد بن نصر وذكر أن هذا الأخير ولى بعد مقلد وخلفه في حكم كفر طاب ، لكن التأويل انهما شخص واحد وأن أبا المتوج مقلد بن نصر حكم كفر طاب سنة ١٠٤١ وتوفي سنة ١٠٥٩ .

حتى : مقدمة كتاب الاعتبار لاسامه ص (م) ،
ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٤ ص ٣٥٧ (تحويل محمد محبى الدين عبد الحميد) ،
Honingmann. Encyc. Isl. art. «Shaizar»

زامبار : معجم الأنساب والأميرات الحاكمة ج ٢ ص ١٦٥

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٤ ص ٣٥٧

منطقة كفر طاب إلى نهر العاصي بالقرب من قلعة شيرز التي ظلت في حوزة
البيزنطيين حيث دخل في حوزته أيضا الجسر القريب منها والذي سمي بعدئذ
بجسر بنى منقذ نسبة إلى آل منقذ (١) .

ويبدو أن مقلد وأمرأه أسرتهم لم يتخذوا كفر طاب نفسها مقرا دائما لهم
فكانوا ، يترددون إلى حماء وحلب وتلك النواحي ولهم بها الدور النفسية
والأملك الثمينة ، وذلك كله قبل أن يملكوا قلعة شيرز ، ، وليس من شك في
أن ذلك أعطاهم فرصة الاتصال بأمرأه حلب وغيرهم ، وكان ملوك الشام
يكرمونهم ويحلونهم وشعراء عصرهم يقصدونهم ويمدحونهم ، ، وظل المقلد
بن نصر يؤدي دوره في رياسته وجلالته ، إلى أن توفي بحلب في ذي الحجة
سنة ٤٥٠ هـ (١٠٥٩م) وحمل إلى كفر طاب حيث دفن بها (٢) .

ثم آل الأمر من بعده إلى ابنه سديد الملك أبو الحسن علي ، وهو الأمير الذي
يهمنا والذي أسس الإمارة في شيرز — وكان كما وصفته الروايات : شجاعا
مقداما قوى النفس كريما ، كما كان ممدحا مقصودا ، مدحه جماعة من الشعراء
كأبن الخياط والخفاجي وغيرهم ، وكان هو نفسه شاعرا مجيدا (٣) ، وقال عنه

(١) درر التيجان : مخطوط ورقة ٣٢٦

(٢) ابن خلكان : وفيات ج ٤ ص ٣٥٧

(٣) Derenbourg : Ousama I. Mounkikh. Extrait du Livre
de Baton par Ousama. P. 516

دور التيجان : ورقة ٣٢٩ (مخطوط)

أبو المحاسن أنه كان نحويا لغويا شاعرا (١) وعده العماد الأصمهاني من الطبقة الأولى في الشعراء والناظمين (٢) . ولعل حبه للكتب وميوله وثقافته وكذلك شهامته كلها تتجلى فيما رواه عنه حفيده أسامة بن منقذ في كتاب العصا من روايات طريقته (٣) ، كما كان سديد الملك ذكيا « موصوفا بقوة النطنة » وتروى في ذلك روايات كثيرة أيضا ، وفوق ذلك فهو الذي استطاع الاستحواذ على قلعة شيزر ، أي أنه مؤسس إمارة بني منقذ في شيزر (٤) .

وقد تابع سديد الملك أبو الحسن على منذ البداية سياسته والده في بسط هيمنته على منطقة كفر طاب وضواحي شيزر، متطلعا دون شك إلى الاستحواذ على شيزر ذاتها ، ولا يزال أيضا متنقلا بين كفر طاب وحماه وحلب ونال منزلة خاصة لدى الأمير محمود بن نصر بن صالح المرداسي ، وشارك في مجريات الأمور في حلب ، ففي سنة ٥٤٦٠ هـ (١٠٦٨ م) سعى لدى أحد عمال الفاطميين المغاربة في حصن أسفونا قرب معرة النعمان (٥) ليسلم الحصن لمحمود المرداسي ، ووافق العامل المغربي على ذلك وقام بتسليم الحصن لمحمود . وتولى ذلك الأمر سديد الملك أبو الحسن على بن منقذ (٦) ، كما كانت له بصمات أخرى في شئون الحكم في حلب في بحكم منزلة وقربه من أميرها ، إلا أن العلاقات

(١) أبو المحاسن المعجم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٢٤

(٢) العماد الأصمهاني : خريدة القفر وجريدة العنبر ج ١ ص ٥٥٢ — ٥٥٣ ، ٥٥٥

(٣) Derenbourg : op. cit. pp. 503-4

(٤) سبط ابن الجوزي : مرآة ج ١٠ ورقة ٣٨

(٥) ياتوت : معجم ج ١ ص ٢٤٩

(٦) ابن العديم : زينة ج ٢ ص ١٢

حين سديد الملك ومحمود المرداسي سرعان ما ساءت فاستشعر سديد الملك الخطر على نفسه فما لبث أن غادر حلب سرّاً إلى كفرطاب ثم إلى طرابلس في عام ١٠٦٤ هـ (١٠٧٢ م) وهناك شارك في مشكلة الوراثة في بيت آل عمار بعد وفاة مؤسس إمارتهم القاضي أبي طالب بن عمار ، حيث عضد جلال الملك بمماليكه ورجاله حتى نال السلطة في طرابلس كما سبقت الإشارة ، ومن ثم استقر به المقام هناك على الرغم من إلحاح محمود في طلبه دون طائل . فلما يئس محمود من استعادته لجأ إلى مصادرة أملاكه في حلب (١) .

لم يعد سديد الملك إلى حلب إلا بعد وفاة محمود سنة ١٠٧٥ هـ (١٠٧٥ م) وبعد ولاية ابنه نصر بن محمود حيث احتل ابن منقذ من جديد مكانته بين رجالات القصر في حلب ، وكان له دور هام تصرف شؤون الإمارة لابان الأحداث الهامة التي أعقبت اغتيال نصر على يد الأتراك بعد نحو عام من ولايته . وكان لابن منقذ دور هام في عهد الولاية لسابق بن محمود سنة ١٠٧٦ هـ (١٠٧٦ م) وتسيير دفة الحكم في إمارة بني مرداس (٢) .

على أن الأمل عائد سديد الملك في الاستيلاء على قلعة شيزر ، ولا بد وأن تأمنه بإمارة بني عمار قد أوحى إليه بفكرة الاستحواذ على مركز يصلح ليكون إمارة مستقلة كتلك الإماراتين العربيتين ، لأننا نجده في سنة ١٠٧٠ هـ (١٠٧٨ م) يعود من جديد إلى كفرطاب حيث بدأ في إنعاش حصن على تل يقع غربي شيزر ، وعلى مسافة قريبة منها عرف بحصن الجسر ليشر منه

(١) ابن العديم : زبدة ج ٢ ص ٣٤ - ٣٦ ، ابن القلانسي : ذيل ص ١٠٦

(٢) ابن العديم : نفسه ، ص ٥٣

على قلعة شيزر ويتحكم فيها توطئة للاستيلاء عليها (١)

وبذكر المؤرخ ابن العديم أن سديد الملك لم يشرع في عمارة ذلك الحصين إلا بعد أن أذن له سابق بن محمود - أمير حلب - بذلك ، فعمره في ذلك العام « ابعدين به شيزر وبقطع المائدة عنها من بلد الروم » (٢) وتشير الدلائل إلى أنه استقر مقاما بذلك الحصين منذئذ معلولا عليه فيما يبدو للاستيلاء على شيزر ذاتها (٣)

... في نفس العام أخذت جيوش تاج الدولة تتش السليجوقي تقترب من بلاد الشام وكان أحد شاه التركي على رأس جيش يحاصر مدينة أنطاكية فلما أحس بقرب تتش انصرف عنها عائدا إلى حلب بينما هرعت جماعات التركمان المتقدمين بظاهر حلب وضواحيها إلى الهرب من أمام تتش فدخلت منهم فرقة كبيرة على رأسها أحمد - د شاه نفسه إلى حصن الجسر لائذين بابن منقذ ... « هتركوا أموالهم وأهاليهم بهذا الحصن وعادوا إلى خدمتهم بحلب » (٤) ويبدو أن سديد الملك قام بهذا العمل لإرضاء سابق المرداسي لأن هذه الجماعة كانت في خدمته .

على أن هجورم تتش على حلب في نفس العام ١٠٧٨ م (٤٧١ هـ) ثم قيامه

(١) Heningmann : Encyc. Isl. art. «Shaizar»

(٢) ابن العديم : زبدة ج ٢ ص ٥٦

(٣) سبط ابن الجوزي : مرآة ج ١٠ ورقة ٣٨

(٤) ابن العديم : المرجع السابق ج ٢ ص ٥٦

بأعماله العدوانية ضد طرابلس قد أقنع سديد الملك بن منقذ بضرورة التفاهم مع هذا الغازي الساجوقى ، فحين وصل تنش إلى حصن الجسر في جمادى الأولى سنة ٤٧١ هـ (نوفمبر سنة ١٠٧٨ م) ، دأكرمه أبو الحسن بن منقذ فأعلمه تنش بما عول عليه من نهب الشام فسأله في بلدة كفر طاب ألا يعترضها فأجابته ، ، وهكذا حصل ابن منقذ على وعد من تنش بعدم التعرض لمدينته الصغيرة كفر طاب ، بينما انصرف تنش إلى حصار حلب محاولا الاستيلاء عليها والفوز بها للمرة الثانية .

غير أن الأحداث تلاحقت بعد ذلك وظهر شرف للدولة مسلم بن قريش العقيلي أمام حلب في ذى الحجة سنة ٤٧٢ هـ (يونيو سنة ١٠٨٠ م) بناء على استدعاء من سابق المرداس ، غير أن هذا الأمير المرداسي عاد من جديده يضمن بمدينته ، فأغلق أبوابها ومنع منها مسلم الذي لم يجد بدا من إلقاء الحصار عليها ويحدثنا المؤرخ ابن العديم أن سديد الملك بن منقذ وفد حينئذ على شرف الدولة ونزل معه على حلب بل كان له دور كبير في معاونته على فتح حلب . بعد أن كاد مسلم ينصرف عنها ، وكان شرف الدولة قد عزم على الرحيل من حلب لما حل بهم من الضجر ومعاناة أهل حلب ، لكن سديد الملك استطاع أن يقنعه بالمضى في حصارها وأن يطلعه على أحوال المدينة وما تكابده من ضيق . فأعلم شرف الدولة بذلك فقوى نفسه فملكها « (١)

على أنا نجعل الأسباب التي دعت سديد الملك بن منقذ إلى التحول إلى جانب

(١) ابن العديم : زبدة ، ج ٢ ص ٦٩

شرف للدولة مسلم عازفاً عن الأمير المرداسي الذي ربطته به علاقات طيبة من قبل كما رأينا ، كما أن انحياز سديد الملك إلى جانب شرف الدولة مسلم ومساعدته في الاستيلاء على حلب بالذات يعني إعلان عدائه لتاج الدولة تتش الذي ما يرح بعمل على الفوز بهذه المدينة وهو أمر يحتاج إلى تفسير أبضا .

ويغلب على ظني أن سديد الملك أراد بهذه الخطوة الكيد لتاج الدولة تتش فعلا والانضمام إلى صف أعدائه ومناوئيه ، فقد أشار أسامة بن منقذ إلى حادثة غريبة ربما تفسر ما حدث من سوء التفاهم بين سديد الملك وتتش إذ قال أسامة : « فإن جدى سديد الملك رحمه الله سير ولده عز الدولة نصرا رحمه الله إلى خدمة تاج الدولة وهو معسكر بظاهر حلب فقبض عليه وابتغله و وكل به من يحفظه ، وكان لا يدخل إليه سوى مملوكه » (١) إلا أن نصر تمكن مع ذلك من الهرب من المعسكر حيث عاد إلى والده ، وعلى الرغم من أن أسامة لم يعين لنا تاريخ هذه الحادثة فإنه من المعروف أن تتش حاصر حلب حينئذ مرتين: الأولى قبل زيارته لحصن الجسر في نوفمبر سنة ١٠٧٨م (٤٧١هـ) والثانية في العام التالي ١٠٧٩م (٤٧٢هـ) قبل بد أن يستولى عليها شرف الدولة مسلم ، فلا بد وأن هذه الحادثة جرت في المرة الثانية . فلما سمعت العلاقة بينهما بسببها ، بادر سديد الملك بالانحياز إلى صف مسلم الذي ما لبث أن وصل إلى المدينة بدعوة من أميرها سابق . بل أن سديد الملك رحل بنفسه لمعاونة مسلم على فتحها حين أغلق سابق أبوابها ومنع منها مسلم .

لم يكن انحياز سديد الملك بن منقذ لصف مسلم في حقيقة تعبيراً عن تغيره

(١) أسامة كتاب الاعتبار ص ٥٤

على سابق أو عداؤه له بقدر ما كان تعبيرا عن استيائه من تاج الدولة تنش ورغبته في النكاية به ، هذا فضلا عن رغبته في مصادقة القوة الجديدة ممثلة في مسلم العقيلي والسير في ركاب هذا الغازي الجديد ، وهي نفس سياسة الكياسة واللبانة التي دأب على اتباعها أمراء الإمارات العربية الثلاث للحفاظ على استقلال إماراتهم وكيانهم . ولا بد وأن شعور أولئك الأمراء بضالة دويلاتهم وقلة امكاناتهم جعلتهم دوما في حاجة إلى مسايرة للقوى المجاورة والسير في ركابها ، إذا كان عليهم أن يحتفظوا بالأوضاع بالنسبة لهم في بلاد الشام . ومن هنا سارع ابن منقذ في شراء رضا شرف الدولة مسلم الذي بات يدعم سلطانه في شمال الشام وشمال العراق ريتطلع لإقامة دولة عربية كبيرة تحول دون استفحال خطر السلاجقة في تلك البلاد . (١)

والعل أبلغ دليل على أن السياسة التي اتبعها سديد الملك مؤخرا لم تكن موجهة أصلا ضد مصالح سابق المرداسي ، ما حدث من قيام ابن منقذ بدور الوسيط بين شرف الدولة مسلم والأمير سابق المرداسي ، نأقطع سابق وأخواه شبيب ووثاب بعض الانعطافات وانفق على أن يتزوج مسلم منيعه أخت سابق ، وكان السفير بينهم في ذلك سديد الملك على بن منقذ وبتدبيره جرى ذلك ، (٢) وبهذا الدور حاول سديد الملك الظهور من جديد في صورة الحريص على مصالح الأطراف المتنازعة المسارع في عمل الخير الحريص على استتباب الأمن وسيادة

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ١٠٢ - ١٠٣

(٢) ابن العديم : زبوة ، ج ٢ ص ٧١ - ٧٢

مروح الإخاء بين الأمراء بعد أن نفذ رغبته في حرمان نتش من الحصول على حلب ودخولها في حوزة مسلم القوة الجديدة في شمال الشام .

غير أن المؤرخ ابن العديم لم يفته التلميح بأن ابن منقذ لم ياحب هذا الدور بدون ثمن ، فقال ، « ولما سافر بن منقذ في تسليم حلب وتسليمها شرف الدولة وعود ابن منقذ وهو ذا جميلة ومناه أمانى حسنة وأكرمه غاية الإكرام ، ^(١) ، ويبدو أن ابن منقذ فاز من حطام إمارة بنى مرداس بحصن أسفونا الواقع تقرب معرة النعمان غربي كفر طاب والذي كان قد توسط من قبل في أمر تسليمه للأمير حلب محمود المرداسي من يد أحد العاهل المغاربة .

وعلى هذه الصورة ، مضى سديد الملك بن منقذ في المشاركة في أحداث العصر قبل أن يتملك شيزر ويؤسس الإمارة فيها ، فقد انهل بأمير حلب محمود المرداسي وخدم في طرابلس لدى جلال الملك بن عمار ، وعاد ليصرف شئون الحكم في حلب في فترة حرجة قبل أن يلي حكمها سابق ، وظل على ولائه وصداقته لهذا الأمير حتى ظهرت قوى أخرى رأى مسابرتها ومال إلى مصادقتها فسلم في البداية تاج الدولة نتش ثم سار في ركاب شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلي ، وبهذه الطريقة أتيح لسديد الملك أن يلعب دوره في الأحداث وأن يبلور سياسته ويحدد معالمها تجاه القوى الأخرى في الوقت الذي استبدت به الرغبة لإقامة إمارة مستقلة لم يجد أنسب من شيزر لتكون مركزاً لها ومقرراً لحكومته .

... ..

(ب) تأسيس الامارة في شيزر سنة ١٠٨١ م
(عهد سديد الملك أبو الحسن علي بن منقذ)

سبقت الإشاوة من قبل إلى أن شيزر كانت مدينة قديمة شهيرة ، وأشهر
كذلك إلى أهمية موقعها ومميزاتها ، وكلها جوانب أهلتها لتكون معقلا
إسلاميا هاما ومركز إمارة مستقلة . وكان شيزر قد خضعت للحكم الإسلامي
منذ سنة ١٧ هـ (٦٣٨ م) حينما استقبلت القائد الإسلامي ذائع الصيت أبي
عبدة بن الجراح بعد أن فتح حمص وحماه ، فدخلت شيزر بذلك ضمن أملاك
المسلمين ، وغدت تابعة لجند حمص في التقسيمات الإدارية والعسكرية الإسلامية
في بلاد الشام .^(١) وظلت شيزر تابعة للمسلمين طويلا باستثناء فترة قصيرة
حينما غزاها الإمبراطور نقفور فوقاس سنة ٩٦٨ م (٣٥٧ هـ) واستولى عليها
لمدة لم تزد على عام واحد ، عادت بعده للحكم الإسلامي . كما غزاها الإمبراطور
باسيل الثاني مرتين : الأولى في سنة ٩٩٤ - ٩٩٥ م (٣٨٣ هـ) ثم استولى عليها
من جديد سنة ٩٩٩ م (٣٩١ هـ) وظلت بيد البيزنطيين طوال ثمانين عاما^(٢)
على الرغم من أن أحمد بن الحسن الأصغر - قائد قبيلة نغلب - كان قد رامها
سنة ٢٩٥ هـ (١٠٠٤ - ١٠٠٥ م) ، واستطاع هو وحلفاؤه إنزال الهزيمة
بالبيزنطيين وطردها الحامية البيزنطية منها ، إلا أنها مع ذلك عادت من جديد

Demombynes : La Syrie. P. 89

(١)

Honingmann : Encyc. Isl. art. «Shaizar»

(٢)

الحكم بإسبيل بعد أن سقط الأصفر في يد أوأو حاكم حلب حيث اعتقلت قلعة المدينة . (١)

بدأ ابن منقذ العمل بالاستيلاء على قلعة شيزر في سنة ١٠٧٨ م (٤٧٠ هـ) حين عمر الحصن الذي عرف بحصن الجسر غربى شيزر ، على تـل مرتفع يقع على مقربة منها ، وبذلك غدا سديد الملك بن منقذ يشرف على القلعة ويحصرها ويمنع إمدادات الروم عنها . ويبدو أنه أدرك منذ البداية صعوبة الاستيلاء على قلعة شيزر وأن هذه العملية تحتاج منه شيء كبير من الصبر من ناحية والدهاء من ناحية أخرى ، فلم يرغب في أن يحكم السيف لى هذه العملية منذ البداية نظراً لاحصانة الطبيعية للقلعة ومدافعه الروم عنها .

و كانت شيزر في سنة ١٠٨١ م تابعة للإمبراطور ألكسيوس كومنين بمقتضى اتفاقية عقدت بينه وبين أسقف البارة الذي اتخذ شيزر مقر له (٢) . وكانت شيزر بهذه الصورة تمثل بقعة بيزنطية وسط أراضي وممتلكات إسلامية تحفظها حامية بيزنطية تأخذ أوامرها من الأسقف (٣)

ويذكر المؤرخ أبو الفـدا أن الوالى البيزنطى بشيزر حينئذ كان يدعى ديمترى ويشير إلى أنه استقى ذلك من كتاب تاريخ مؤيد الدولة أسامة بن منقذ (٤) وليس من شك فى أن تبعية شيزر للإمبراطورية البيزنطية وافتقار

(١) ابن العديم : زبدة ، ج ١ ص ١٩٦

(٢) Honing mann : Encyc. Isl. art. «Shaizar»

(٣) Grousset : Hist. des Croisades, I. P. 126

(٤) أبو الفـدا : المختصر ، ج ٣ ص ٣١

الأسقف بالدفاع عنها كان له ضلع في جعل ابن منقذ يتربث ويلجأ الى أسلوب غير أسلوب الحرب .

ومن حسن الحظ أن المؤرخ سبط بن الجوزي حفظ لنا نص خطاب بعث به سديد الملك بن منقذ الى بغداد بعد استيلائه على شير ، أماط فيه اللثام عن الأسلوب الذي اتبعه للاستيلاء على هذه القلعة . وقد أشار سبط بن الجوزي إلى أنه نقل نص هذا الخطاب مما كتبه محمد بن الصابي الذي نعلم جيداً أنه عاصر هذا الحدث ، وكان له شأن في حياة بغداد الفكرية والعلمية بحسبكم وظيفته في ديوان الرسائل في بغداد . فهو غرس النعمة محمد بن هلال الصابي ، المتوفى سنة ٤٨٠ هـ (١٠٨٧ م) وهو ابن المؤرخ الذائع الصيت هلال الصابي ، الأمر الذي زاد اطمئناننا إلى هذا الخطاب ، فضلاً عن أن المؤرخ ابن الوردي أورد نص الخطاب أيضاً نقله في أغلب الظن عن سبط بن الجوزي ومصادر أخرى .

وتدل لهجة الخطاب ومقدمته على أن سديد الملك كان فخوراً جداً بنجاحه في الاستيلاء على شير ^(١) إذ يقول : « كتابي من حضرة شير حماها الله تعالى ، وقد رزقني الله عز وجل من الاستيلاء على هذا المعقل العظيم . ألم يأت المخلوق في هذا الزمان » وفي شرح الأسلوب الذي اتبعه سديد الملك تجاه هذا الحصن يقول : « انى نظرت إلى هذا الحصن فرأيت أمراً يذهل

(١) سبط ابن الجوزي : سيرة ج ١٠ ص ٣٨

ابن الوردي : تاريخه ج ٢ ص ٥٧

الألباب وبطيش العقول ، بسع ثلاثة آلاف رجل بالأهل والمال وليس فيه
جيلة لحنال فعمدت إلى تل قريب يعرف بتل الجسر فعمرتة حصنا وجهت
فيه أهلى وعشيرتى ، وكان بين التل وشيزر حصن يعرف بالخراص (أو
الجراص) فوثبت عليه وأخذته بالسيف ، (١) .

على أن دهاء ابن منقذ وحسن حياته بتجليان فيما لجأ اليه من أسـلوب
بعدئذ إذ يقول : « وحين ملكته (حصن الخراص) أحسنت إلى أهله ولم
أكلهم إلى ما يعجزون عنه وخلطت خنازيرهم بغنمى ونواقيسهم بأصوات
المؤذنين عندى ، وصرنا مثل الأهل مختلطين . فحين رأى أهل شـيزر فعلى
مع الروم أنسوا بى وصاروا يحبونى » ، بل إنهم بدأوا يتسللوا من
من شيزر إلى الحصن واحداً واحداً ، « إلى أن حصل عندى نحو نصفهم
فأجريت عليهم الجرايات ومزجتهم بأهلى وحريمهم بحريمى وأولادهم مع
أولادى ، « وغالى ابن منقذ فى التظاهر فى مصادقة أولئك الروم ، فكان
يعاونهم ضد أعدائهم ، « وأى من قصد حصنهم أعنتهم عليه ، وحضر شرف
الدولة مسلم بن قريش فأخذ منهم عشرين رجلاً فقتلهم فدمست اليهم عشرين
عوضهم ، « ولقد أثمرت هذه السياسة فعلاً ، وجعلت أهل شيزر يأمنون بهذا
الأمير العربى ويلتمسون فيه الود والصفاء والإخلاص . فـما أن انصرف
شرف الدولة مسلم حتى نزلوا وعرضوا عليه تسليم الحصن فتظاهر فى البداية
بالرفض قائلاً ، « ما هذا الموضع خيراً منكم » ، لكنهم عادوا ضاربين
عرض الحائط باليهم وسلموا شيزر إلى ابن منقذ ، « ونزلوا منه وحصلت

(١) نفس المرجعين السابقين ونفس الصفحات .

فيه ومعى سبعمائة رجل من بنى عمى ورجالى وحصلوا فى الربض ولم يؤخذ
لواحد منهم درهم ، (١) .

واقعد أحدث هذا العمل دوىا هائلا وأنرا طيبا فى المنطقة بأسرها ، حتى
لقد مالت بعض الجاليات البيزنطية والأرمنية إلى التسايم السديد المالك بن
منقذ ، لما ذاع بينهم من تسامحه وحسن معاملته وكريم فعله ، إذ يقول : دسمع
بذلك أهل برزيه وعيقتاب وحصون الروم فيجاءتنى رسامهم ودغب كلهم فى
التسايم إلى ، (٢) .

وعلى هذه الصورة ، وبذلك الأسلوب ، نجح سديد المالك بن منقذ فى
الاستحواد على شيزر . ويبدو أنه اضطر إلى إرضاء الأسقف البيزنطى
صاحب شيزر بمبلغ من المال إذ يشير المؤرخ ابن القلانسى إلى أن ابن منقذ
استولى على حصن شيزر ، د من الأسقف الذى كان فيه بمال له وأرغبه فيه
إلى أن حصل فى يده وشرع فى عمارته وتحصينه» (٣) . وكان ذلك فى أواخر
ديسمبر سنة ١٠٨٠ (رجب سنة ٧٤ : هـ) وسمح ابن منقذ للحامية البيزنطية
بالرحيل عنها (٤) .

(١) سبط ابن الجوزى : مرآة ج ١٠ ورقة ٣٩

ابن الوردي : تاريخه ج ٢ ص ٥٧

(٢) سبط ابن الجوزى : نفس المرجع ص ٣٩

(٣) ابن القلانسى : ذيل ص ١١٣

Heningmann : Encyc. Isl. art. «Shaizar»

(٤)

ويضيف المؤرخ أبو الفدا إيضاحاً لهذا فينقل عن أسامة ، « فلما طالت المضايقة لدمترى المذكور ، راسل جدى هو ومن عنده من الروم في تساييم حصن شيزر إليه باقتراحات اقترحوها عليه ، ولابد وأن دفع مبالغ من المال للأسقف كان أحد هذه الشروط فضلاً عن ، « بقاء أملاك الأسقف الذى بها عاياه ، فإنه استمر مقبياً تحت يد جدى حتى مات بشيزر ، (١) . ويؤكد ابن العديم هذه الرواية بقوله : « وكان سديد الملك بن منقذ قد عمر قاعة الجسر ، وقصد مضايقة شيزر وبها أسقف البارة وضيق عليه إلى أن راسله واشترأها منه واستحلفه على أشياء اشترطها عليه ، (٢) ويذكر كل من صاحب درر التيجان وابن خلكان أن سديد الملك بن منقذ تسلمها بالأمان ، وذلك في رجب سنة ٤٧٤ هـ (ديسمبر سنة ١٠٨١ م) (٣) »

نستج من ذلك كله أن سديد الملك لجأ إلى أسلوب الدهاء والخيلة حتى يضع يده على شيزر ، فاكسب في البداية ثقة المسيحيين من أهالي وأهل الحصون القريبة وحسن ظنهم ، وتمادى في التظاهر بمصادقتهم والحرص على مصالحهم حتى أنسوا به ، ووثقوا في مقاصده ، ثم كان عاياه أن يدفع مبالغاً من المال للأسقف ويتعهد بأن يحفظ عليه أمواله وأهلاؤه ويسمح له بالإقامة فيها ، كما كان عليه أن يسمح برحيل الحامية البيزنطية منها بسلام ، ولا شك أنها كانت شروط في متناول يده لم يتردد في قبولها حتى يحصل على تلك القلعة

(١) أبو الفدا المختصر ج ٣ ص ٣١ - ٣٢

(٢) ابن العديم : زبدة ، ج ٢ ص ٧٦

(٣) درر التيجان ، ورقة ٣٢٦ (مخطوط) ، ابن خلكان : وفيات ج ٣ ص ٧٦

الحمينية والمعقل المنيع ، ليضع بداية فصل جديد في قصة الإمارة المنقذية في حوض نهر للعاص الأوسط . (١)

علي أن نجاح ابن منقذ في الاستيلاء على شيزر سنة ١٠٨١ م لم يحظ برضاء الأمير العربي شرف الدولة مسلم بن قریش العقيلي الذي كان قد استولى على حلب منذ يونيو سنة ١٠٨١ م ، والذي كان يتطلع لتملك هذه القلعة بالذات . فما أن علم بنجاح ابن منقذ في ذلك حتى استبد به الغضب وأمر بإتخاذ جيش كبير لطرده ابن منقذ منها وإدخالها في حوزة العقيليين (٢) .

وكان أن خرج جيش مسلم بن حلب وعلي رأسه علي بن قریش أخا مسلم ، قاصدا شيزر فاستولى في طريقه على حصن أسفونا قرب معرة النعمان وغربي كفر طاب ، وكان تابعا لاذك لابن منقذ ، ثم شرع في مراسلة ابن منقذ للتنازل عن شيزر وتسليمها طواعية بدلا من تحكيم السيف ، إلا أن هذا رفض الإنذار ومضى يتأهب للحصار . . « فحمل من الجسر الى شيزر ما يكفي لمن فيه مدة طويلة من سائر الأشياء » ثم لم يلبث ابن قریش أن نزل علي شيزر في ذي الحجة سنة ٤٧٤ هـ (ابريل سنة ١٠٨٢ م) وألقى الحصار عليها فعلا . . ولحق به شرف الدولة مسلم نفسه في أوائل عام

Grousset : op. cit. I. P. 126

(١)

(٢) ابن العديم : زبدة ج ٢ ص ٧٧ ،

سبط بن الجوزي : مرآة ج ١٠ ورثة ٣٩ - ٤٠

٤٧٥ هـ وقاما معا بتشديد الحصار على شيزر (١) .

وقد أثار هذا العمل حفيظة ابن منقذ الذي لاشك أحس أنه يجازى جزاءا أسيفا على قيامه باستخلاص تلك القلعة من الروم ، ولهذا استبدت به المعاندة فقال . . « لئن لم ينته عني (مسلم) لأعيدنه إلى الروم (الحصن) ولا أسلمه إليه ولا إلى غيره أبدا » . . . غير أن شرف الدولة أدراك دون شك صعوبة اقتحام شيزر ففضل ترك جانب من جيشه مقبلا على الحصار للمضايقة ، وسار هو بالجانب الآخر إلى حمص وعندئذ . . « تطارح ابن منقذ عليه ، وسير ابنه أبا العساكر وامرأته منصوره بنت المطوع وأخته ربيعة بنت منقذ إلى حمص ، فدخلوا عليه وحملوا إليه مالا ، فأنقذ إلى عسكره ورحله عن شيزر في الثامن والعشرين من صفر سنة ٤٧٥ هـ » (٢) . ويذكر المؤرخ سبط بن الجوزي أن ابن منقذ دفع عشرة آلاف دينار لمسلم حتى يرفع الحصار عن شيزر (٣) .

وهكذا انتهت هذه النوبة من الأخطار التي واجهت الإمارة الناشئة في

(١) نفس المرجعين السابقين ونفس الصفحات ، وأيضاً

Derenbourg : Vie d'Ousama. P. 592 - 3

(٢) ابن العديم : زبدة ، ج ٢ ص ٧٧ . وقال في ذلك أحد شعراء المعرة :

أُسلم لاسلمت من حادث الردى وزرت وزيرا ما شددت به أزرا
ربحت ولم تخسر بحرب بن منقذ من الله والناس المذمة والوزرا
فت كداه فالحير لست بحامر عاين شيزرا فبنا شيزرا

(٣) سبط بن الجوزي : مرآة ج ١٠ ورقة ٤٩ - ٥٠

شيزر برحيل مسلم عنها ، ثم بسحب فرقه بعد عقد الصلح مع أميرها ، ثم مالبت مسلم نفسه أن شغل بالفتن والحروب مع السلاجقة في بلاد الشام ، فأعطى الإمارة شيثا من الارتياح والهدوء كانت في ميسر الحاجة إليهما ، لتقف على أقدامها وتمضي في دعم استقلالها .

غير أن سيد الملك أبا الحسن عاليا بن منقذ لم يعمر طويلا بعد هذه الأحداث ، لأنه توفي بعد عقد الصلح مع مسلم بعدة أشهر ، وذلك قرب منتصف عام ٤٧٥ هـ (أواخر سنة ١٠٨٢ م) وترك الحكم في شيزر لابنه عز الدولة أبي المرفف نصر بن علي (١) .

(١) ابن خلكان : وفيات ج ٣ ص ٨٧

ويذكر المؤرخ أبو الفدا (المختصر ج ٣ ص ٣٢) أنه توفي في الحرم سنة ٤٧٩ هـ وقد أخذ Hcningmann برواية ابن خلكان في مقاله عن شيزر ، وكذلك أخذ به زامباور في (معجم الانساب والامرات الحاكمة ج ١ ص ١٦٥) لكن من الثابت فعلا أن سيد الملك توفي في سنة ٤٧٥ هـ كما حدد ابن خلكان ، لأن أسامة سئل مرة في ذلك فقال له أن جده توفي سنة ٤٧٥ هـ .

ياتوت : معجم الأ.باء ج ٥ ص ٢٢١ - ٢٢٢

(ج) خلداء سديد الملك أبو الحسن علي بن منقذ

وسياستهم تجاه السلاجقة والصليبيين

(١) عن الدولة أبو المرحف نصر بن علي بن منقذ

١٠٨٢ — ١٠٩٨ م

آلت شيزر إذن بعد وفاء سديد الملك إلى ابنه نصر سنة ٤٧٥ هـ
 (١٠٨٢ م) وكان هذا الأمير — كما وصفه المؤرخون وكتاب التراجم —
 رجل سلم وداعية سلام ، على الرغم من تشابك الأحداث في عصره وتداخلها .
 كما كان رجل دولة أيضا ، وراعيا للعلوم ومحبا للفنون (١) وكان
 كعظم أمراء بني منقذ ، شاعرا مجيدا تحدث عن شاعريته أسامة بن منقذ ،
 وعده كل من العماد الأصم — انى وياقوت من الشعراء المجيدين (٢) ، وكان
 فوق ذلك عطوفا رحيمًا قام بتربية إخوته أحسن قيام ، سمحا صواما قواما برا
 بوالديه (٣) .

(١) Honingmann : Encyc. Isl. art. «Shaizar»

(٢) العماد الأصم انى : الخريدة ج ١ ص ٥٦٨ ، ياقوت : معجم ج ٥ ص ٢٣٨ — ٢٣٩

(٣) قال والده سديد الملك فى ذلك :

جزى الله نصرا خير ما جزيت به رجال تضوا فرض العلا ونفلوا

هو الولد البر اعطوف فن رى به حادث فهو الحمام المعجل

وألقاك يوم الحشر أبيض ناصعا وأشكر فند الله ما كنت تفعل

العماد الأصم انى : الخريدة ج ١ ص ٥٧٠ ، وسبط بن الجوزى : مرآة ج ١٠ ورقة ٢٠٨ — ٢٠٩

وصفه أسامه بلزهد والورع والتقوى : الاعتبار ص ٥٤

والواقع أن حظ هذا الأمير الجديد كان أفضل من حظ والده سديد الملك نظرا لانتقال مركز الثقل إلى عواصم أخرى في بلاد الشام ، وقوى جديدة أصبح الصراع بينها يخفف الضغط على الإمارات العربية الصغيرة . فلم تكن إمارتي بني عمار وبنى منقذ في طرابلس وشيزر الشغل الشاغل لتلك القوى حينئذ ، ولم تكن هدفا حيا لها قبل أن تصفى تلك القوى نفسها ووجودها في المنطقة وتبقى على الأصلح منها .

ففي السنوات الأولى لحكم أمير شيزر الجديد ، كانت هناك ثلاث قوى كبيرة في بلاد الشام . أولها قوة العرب تحت حكم شرف الدولة مسلم العقيلي أمير الموصل الذي استطاع أن يفرض وجوده في شمال الشام باستيلائه على حلب سنة ١٠٨٠ م (٤٧٣ هـ) بل ويطمع في مد نفوذه على بلاد الشام بأكملها (١) وثانيها قوة سلاجقة الشام ممثلة في تاج الدولة اتش الذي استطاع الاستيلاء على دمشق سنة ١٠٧٨ م (٤٧١ هـ) وأخذ يجتاح ماحوله مؤملا أن يقوض ما بقي من النفوذ الفاطمي ، ويصفي نفوذ القوى العربية الأخرى في بلاد الشام (٢) . ثم استحدثت قوة ثالثة على شمال الشام ممثلة في سلاجقة الروم تحت زعامة سليمان بن قتلмыш الذي نجح في الاستيلاء على أنطاكية من الأرمن (٣) . بل وراح يتأهب لجلولات أخرى في بلاد الشام .

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٣٢

(٢) ابن العلاء : ذيل ص ١١٢

(٣) Grousset : L' Empire du Levant. P. 179 - 180

وقد تشابك الصراع بين القوى الثلاث ، فحاول شرف الدولة مسلم الاستيلاء على دمشق من يد تتش مؤسلا في معونة فاطمية ، فلما تكاسل الفاطميون عن معونته اضطر مسلم إلى الانسحاب من أمام دمشق بعد أن كادت تلحق به الهزيمة ، وذلك في أوائل عام ٤٧٦ هـ (١٠٨٣ م) . ويبدو أن هذا الصراع قد شجع أمير شير الجديد على محاولة الاستفادة منه بمد نفوذه إلى أبعد مما معه فهاجم بعض أملاك مسلم للتقريب منه . اذ يحدثنا المؤرخ ابن العديم أن ابن منقذ قام بصحبة بعض أمراء الشام من العرب منهم وناب بن محمود ومنصور بن كامل وخالف بن ملاءب ، بالهجوم على مورة النعمان . وقطعوا كثيرا من أشجارها ورعوها زرعها بالظعون وقاتلوا أياما ولم يتمكنهم أهلها من فتحها ، (١) .

واتخذ تشابك الصراع بين القوى في بلاد الشام مظهرا جديدا حين زج سليمان بن قتلمش بنفسه في الأحداث حينئذ بعد استيلائه على أنطاكية ، وغدا تصادمه بشرف الدولة مسلم ، أمرا مسلما به نظرا لطموح كل منها لفرض وجوده في المنطقة والهيمنة على مقدراتها . ومالبت الحرب أن اندلعت بينهما فعلا لأسباب واهية تأكيدا لعملية التصفية الجارية للقوى الإسلامية المستحدثة في هذه المنطقة ، ولقد دارت الدائرة حينئذ على شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلي وقتل في الموقعة التي كان مسرحها المنطقة بين

(١) ابن العديم : زبدة ، ج ٢ ، ص ٨٠

أنطاكية وحلب (١) فانزاحت قوة عربية كبيرة من أمام السلاجقة في شمال الشام .

ولم يكتف سليمان بذلك ، بل انساب ليستولى على أملاك مسلم في شمال الشام فسرعان ما وضع يده على معرة النعمان وكنع طاب ، وهناك بدأ يتجرش بإمارة شيزر العربية ، وبدأ بالهجوم عليها فعلا لولا أن أسرع أميرها نصر بن منقذ بمصالحته « على مال يحمل إليه » . (٢)

غدا المصدام واقعا بعد ذلك لاحالة بين القوتين السلجوقيتين في بلاد الشام وهما سلاجقة الروم بقيادة سليمان وسلاجقة الشام تحت قيادة تنش ، فلم يكن سليمان ينهى جسولته في الضواحي القريبة من حلب حتى طمع في الاستيلاء على حلب ذاتها ، وألحى الحصار عليها فعلا سنة ٤٧٩ هـ (١٠٨٧ م) مما دفع شريفها الختيتي إلى الاستنجاد بتاج الدولة تنش ، فلما قدم هذا في جيوشه والتقى بجيوش سليمان ، استطاع أن ينزل به الهزيمة بل ويقتل سليمان نفسه في المعركة قرب حلب . (٣) وبذا زالت قوة ثانية من شمال الشام هي قوة سلاجقة الروم ، وصفت المنطقة لتتاج الدولة تنش أي سلاجقة الشام ، ومن هنا نستطيع القول أن إمارة شيزر العربية بدأت ترى قوة سلجوقية واحدة

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٣٧ .

Kay : Hist. of the Banu Okayl. P. 498

J.R.A.S. (1886)

(٢) ابن العديم : زبدة ، ج ٢ ص ٩٥

(٣) ابن القلانسي : ذيل ص ١١٩

مقربها كان عليها أن تتعامل معها وتكيف سياستها لتجاهها بما يضمن لها البقاء والاستمرار ويحفظ عليها استقلالها وكيانها .

على أن هذه الأحداث لم تمردون قائدة لأمير شيزر العربي ، إذ انتهاز فرصة اندلاع الحرب وانشغال السلاجقة بها ، فقام باسترداد كفر طاب التي استولى عليها سلاجان من قبل وأعادها إلى حظيرة مملكة .

لكن انهصار تتش في الحرب ودخوله حلب بما جعل له اليد العليا في بلاد الشام أثار مخاوف السلطان ملكشاه وخشى أن يتمكن من إقامة دولة سلجوقية كبيرة في هذه البلاد يهدد بها أملاكه ونفوذه في المنطقة ، فأثر ملكشاه بالقدوم بنفسه إلى بلاد الشام ليضع حدا لنفوذ تتش ويشرف على توزيع المقاطعات للرجال الأرقيا .

ولم يكد ملكشاه يصل إلى بلاد الشام ويقوم بوضع رجاله في أهم قصباته وحواضره حتى أعلن الأمير نصر بن علي بن منقذ طاعته للسلطان السلجوقي وسلم إليه اللاذقية وحمية وكفر طاب ^(١) . فقبل ملكشاه طاعته وأقره على هذه المدن ، وأبقى عليها ^(٢) . وهكذا اختار أمير شيزر الدخول في طاعة هذه السلطنة والإقرار بتبعية لها ، وليس من شك في أن ذلك كفيل له بالسلامة إلى حد بعيد بسيره في ركاب هذه القوة الفتية الجديدة ، بل يذكر

(١) أبو دامة : الروضتين في أخبار الدولتين ، ج ١ ق ١ ص ٦١ ،

أبو الفدا : المختصر ج ٢ ص ١٩٨

(٢) سبط بن الجوزي : مرآة ، ج ١ ص ١٩٨ .

أسامة بن منقذ في كتاب العصا أن نصر قام بإرسال أخاه مجد الدين أبي سلامة مرشد (والد أسامة) إلى بلاط السلطان ملكشاه في أصفهان لخدمته (٣) ، فدلّل بذلك على طاعته وتبعيته للسلطنة السلجوقية .

وقد استمر الوضع على ذلك نحو عامين جرت فيها الأمور هادئة في بلاد الشام بعد التنظيمات التي استحدثها السلطان ملكشاه وحيلولة دون استفحال خطر تنش وكبيج بمساح رغباته في ابتلاع المنطقة بأسرها ، حتى طاعتها المراجع بأخبار اندلاع الحرب بين أمير شيزر وبين قسيم الدولة آقسنقر نائب السلطنة السلجوقية بحلب سنة ٤٨١ هـ (١٠٨٨ م) . فيذكر كل من ابن القلانسي وابن الأثير وسبط بن الجوزي أن آقسنقر قام في هرجب من تلك السنة بإلقاء الحصار على شيزر ، « وضيق عليها ونهب ريفها » ، ولم ينسحب من أمامها إلا بعد أن صالحه نصر بن منقذ وقدم إليه مبلغاً من المال فرحل منه عائداً إلى حلب (٢) ، ولم يصف أي من هؤلاء المؤرخين أي تفسير لهذه الغارة أو أسباب قيام هذه الحرب ، وحتى المؤرخ ابن العديم لم يعطنا هو الآخر تفسيراً شافياً لقيام هذه الحرب ، بل أرجعها لحدوث نزاع بين ابن منقذ وأهل لطمين (٣) — « وجرى حلف بين أهل لطمين وبين نصر بن منقذ في سنة

(١) Derenbourg : Extraits du Livre du Baton par Osama (١)

P. 504

وأسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ٤٩

(٢) ابن القلانسي : ذيل ص ١١٩ - ١٢٠ ، ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٤٨

(٤٨١ هـ)

سبط بن الجوزي : مرة ج ١٠ ص ١١٧

(٣) ياقوت : معجم ج ٤ ص ٣٥٨ ولطمين كورة بمص وبها حصن

إحدى وثمانين فخرج آقسنقر إلى شيزر وقتلها وقتل من أهلها مائة وثلاثين رجلاً وماد إلى حلب بعد أن نهب ريفها واستقرت المواجهة بينه وبين نصر صاحب شيزر ، لكن يبدو أن ثمة فتنة كانت قد حدثت في تلك القرية التابعة لابن منقذ فحاول إخمادها بالقوة مما دفع أهلها للاستنجاد بنائب حلب فحدث الاحتكاك بين الاثنين . على أن مودة ابن منقذ إلى مصالحة آقسنقر بعدئذ وموادعته أنهت هذه الحركة ولم تنسح الهوة بين الاثنين كثيراً ، بدليل قيام آقسنقر بعدئذ بالاستيلاء على أقامية من يد خاف بن ملاعب الكلابي ، حيث سلمها لنصر بن منقذ (١) .

غير أن الأوضاع التي أسفر عنها قدوم ملكشاه إلى بلاد الشام ، وتوزيع مدينتها على رجاله المقيمين ، وحصر تنش في دمشق وبيت المقدس ، هذه الأوضاع لم ترض تنش بطبيعة الحال ، فلم يستسلم كلية لهذه التعديلات ، وذهب به ضيقه وضجره إلى السفر إلى بغداد لمقابلة ملكشاه في سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١ م) حيث طلب السماح له بالتوسع على حساب الفاطميين وبقياس الأسر العربية في بلاد الشام ، بل وفزو مصر ، إن أمكن ، وانتزاعها من يد العلويين (٢) ، فلم ير ملكشاه بأساً من ذلك ، فأذن له بالتوسع وأمر أنباعه فسيم الدولة آقسنقر وبوزان أن يسيرا في خدمته وأن يطيعاه على هذا العرض (٣) .

(١) ابن العديم : زبدة - ٢ ص ١٠٥

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٦٠ (٨٥: ٨٥)

(٣) عماد الدين الاصفهاني : تاريخ دولة آل سلجوق ص ٦٥ - ٦٦

وكانت ثمرة هذا التعاون أن استولى نتش بمساعدة آقسنقر وبوزان على مدينة حمص عام ١٠٩٢ م (٤٨٥ هـ) من يد خلف بن ملاعب الذي أساء السيرة فيها ، فانتزعها منه نتش ثم هاجم بعد ذلك مدينة عرقة التابعة لبني عمار فامتلكها عنوة ، وكان نصيب بني منقذ من هذه الغارة فقد دم لأقامية التي استولى عليها نتش قبل أن يلقى الحصار على طرابلس (١) .

لكن ما لبثت أن قطعت هذه الأحداث حين أنت الأخبار تترى بوقعة ملكشاه ، وعندئذ تجسدت كل مطامع نتش وارتقت همته للفوز بالسلطنة ذاتها ، وهو أكبر أسراء السلاجقة وأقوى رجل في الأسرة ، وحينما زحف إلى المشرق للوصول إلى العرش واصطدم بابن أخيه بركياروق بالرى ، انهدمت كل خططه وضاعت آماله ، بل لأنه دفع حياته ثمنا لهذا الطموح ، وانجالت الأمور هناك في المشرق عن استمرار ابن أخيه بركياروق سلطان أعظم للسلاجقة ، وفي بلاد الشام عن اقتسام أملاك نتش بين ولديه رضوان ودقاق ، ففاز الأول بحلب وتوابعها ، بينما نجح الثاني في الاستحواذ على دمشق (٢) . وهكذا زال كابوس مخيف من مسرح الأحداث في بلاد الشام فتفتت الإمارات العربية في طرابلس وشيزر المعهده .

لم بعد هناك ثمة أخطار عاجلة تهدد إمارة بني منقذ من قبل هذين الأميرين السلاجقيين ، لكن نصر أمير شيزر المنقذ لم يظهر ارتياحا لوجه ود جناح

(١) ابن العديم : زبدة ج ٢ ص ١٢٢

(٢) ابن القلائسي : ذيل ص ١٣٠

الدولة الحسين الأمير العربي في حمص القريبة منه . وكان جناح الدولة أتابكا لرضوان أمير حلب ، لكنه خرج مغاضبا إياه حيث نجح في الاستيلاء على حمص وأقام لنفسه بها إمارة صغيرة مستقلة (١) . وعلى الرغم من أن هذا النفور من جناح الدولة لانجد ما يبرره ، فإن أسامة قد أشار إليه بل تحدث عن استيائه عام تجاه هذا الأمير أبداه كل من عمه أبو المرحف نصر وياغى سيان أمير أنطاكية ورضوان — بطبيعة الحال — الأمر الذي جعل ثلاثتهم يفكرون في تدبير هجوم شامل على حمص ويضعون خطة لذلك ، لولا تلاحق الأحداث وسرعتها ووصول الجيش الصليبي ، فضلا عن تغير الظروف في شيزر ذاتها .

— والواقع أن الغزو الصليبي لبلاد الشام في سنة ١٠٩٧ م قد أنهى فصلا غربيا في قصة العلاقات بين القوى الإسلامية في تلك البلاد ، كما جاء بخاتمة نتيجة حتمية لما ساد بين تلك القوى من علاقات سيئة ونفور مستحكم ، على أن ما يهمني الآن من ذلك كله أن الشهور التي أمضاها الصليبيون في حصار مدينة أنطاكية بين أكتوبر سنة ١٠٩٧ م ويونيو سنة ١٠٩٨ م (٢) كانت بالغة الأهمية بالنسبة لتكليف سياسته شيزر تجاه أولئك الغزاة على الرغم من أنها كانت الشهور الباقية في عمر أميرها أبو المرحف نصر بن علي ، فلقد اهتم نصر خلالها برسم ملامح السياسة التي يتبعها مع الصليبيين ، ووضع المخطوط العريضة لتعامله معهم ، وهي سياسة — كما سيتضح — قامت على

(١) Grousset : Hist. des Croisades. I.P.71 (N.2)

(٢) ابن العربي : تاريخ مختصر الدول ص ٣٤٢ ،

أساس تجنب المخاطر وتحاشي العدماء وابتغاء العافية ، وهي نفس سياسته مع السلاجقة بما يميزها من لباقة وكياسة ومرونة .

كانت أولى ردود الفعل الباهتة لدى القوي الإسلامية في بلاد الشام تجاه حصار الصليبيين لأنطاكية واستنجد ياغى سيان ، أن حدث تجمع إسلامي تحت قيادة دقاق بن تنش ملك دمشق الذي خرج وبصحبه طغتكين وجناح الدولة أمير حمص وأمير حماه ومعهم شمس الدولة بن ياغى سيان في طريقهم لخدمة أنطاكية ، فاجتمعت هذه القوات بأرض شيزر قبل أن تشرع في مهاجمة الصليبيين (١) . ويبدو أن دقاق — زعيم الحلف — كان يطمح حينئذ في أن يشترك نصر بن منقذ معهم في الهجوم على الصليبيين ، لكن نصرا غض الطرف عن هذه الرغبة ، ولم يبد أي استعداد للمشاركة في القتال ، وفي نفس الوقت جاءت الأخبار بخروج سرية كبيرة من الفرنج تبغى الإغارة على أعمال حلب طلبا للمؤن ، وعندئذ سارعت القوات الإسلامية المجتمعة بالزحف للاشتباك مع تلك السرية غير عابئة باشتراك أمير شيزر وانضمامه إلى صفوفهم ، والتقت القوات الإسلامية المتحالفة بالفرنج في أرض البارة قرب حلب في نهاية ديسمبر سنة ١٠٩٧م ، واستطاع المسلمون إلحاق بعض الخسائر بالقوات الفرنجية التي سارعت بالانسحاب إلى الروج ثم إلى أنطاكية (٢) .

لكن الشيء الذي أسفرت عنه هذه الأحداث ، هو تأكيد لبشار بن منقذ العافية

(١) ابن القلانسي : ذيل ص ١٣٤

(٢) ابن العديم : زبدة ج ٢ ص ١٣١ — ١٣٢ ،

وعدم رغبته في الانقياد إلى حرب لا تحمد عاقبتها ولا تعرف نتائجها، ورفضه الخروج من إمارته ليدلي بدلوه في هذه الحرب ويأخذ دوره فيها، تأكيداً لما سبق ذكره من أن تلك السياسة هي أبرز ما استقنه نصر الامارة تجاه الصليبيين، ذلك أن نصراً لم يعمر طويلاً بعد هذه الحادثة، إذ توفي بعد عدة أشهر وبعد دخول الصليبيين إلى أنطاكية بقليل^(٢)، وبعد أن حكم شيزر نحو خمسة عشر عاماً.

وهكذا انتهى عهد أبي المرحف نصر بن منقذ سنة ١٠٩٨ م (٥١٩١ هـ) وهو الذي يعد ثاني أمراء بني منقذ في شيزر، وثالث أمراءهم منذ قيامهم في كفر طاب سنة ١٠٤١ م. والواقع أنه استطاع خلال فترة حكمه أن يحفظ استقلال شيزر، مستفيداً من تصارع القوى الإسلامية في المنطقة، كما استطاع أن يكيف سياسته تجاه تلك القوى بما يدارأ منه خطرهما، ثم كان التزامه بتجنب المصادم مع الصليبيين وعدم إعلان الحرب عليهم حين وصلوا إلى أنطاكية قبل وفاته بعدة أشهر، فاستن بذلك سنة جديدة لخليفته، ورسم أبرز خطوط السياسة الخارجية للامارة، ثم إنه استطاع أيضاً بلباقته وكياسته ودأبه ومثابرته أن يوسع حدود ملكه ويزيد في رقعة الإمارة بالاستيلاء على اللاذقية التي وضع بها أخاه أبا العساكر سلطان نائباً عنه فيها^(١) فغدت إمارة شيزر تضم إلى جانب شيزر كل من كفر طاب واللاذقية وقامية حتى سنة

(١) Honingmann: Encyc. Isl. art. «Shaizmar»

Grousset : Hist. des Croisades. I. P. 126 (N.I.)

(٢) أسامة بن منقذ : الاعتبار ص ١٠٨

١٠٩٢ م حين استولى عليها تنش ، فضلاعن كثير من القرى والقلاع والحصون الداخلة في نطاق هذه المدن ، وامل أهمها حصن الطمين قرب حص وحصن أسفونا بقرب معرة النعمان ، وحصن أبو قيس في قبالة شيزر ثم حصن مصياف حتى سنة ٥٣٢ هـ (١١٣٨ م) قبل أن يؤول إلى الحشيشة (٢) وهذه هي إمارة شيزر في أوج اتساعها . ويبدو أن نصر حرص منذ البداية على الاستيلاء على الحصون القريبة من شيزر ليؤمن سلامتها ويشرف منها على القوى المجاورة ويحمي ظهر شيزر ذاتها ، ولعل أحداث العصر وتصارع القوى الإسلامية قد أملت عليه هذه السياسة :

وبهذه الإنجازات احتل نصر مكانة ممتازة بين أمراء تلك الإمارة العربية فبفضل جهوده نجحت الإمارة في الإفلات من مخططات القوى الإسلامية المتصارعة ، من شرف الدولة مسلم إلى سليمان بن قنلمش إلى تنش إلى ملكشاه وبفضل كياسته أيضا تجنبت مخاطر الصدام مع قسوي الصليبيين الغازية ، وبفضل مثابرته أيضا بلغت الإمارة أوج اتساعها ودعمت استقلالها عازفة عن كالة القوى غير منجازه أو خاضعه لأي منها .

(٢) ياقوت : معجم ج٤ ص ٣٥٨ ، ج١ ص ٢٤٩ ، ١٠٣

أبو الفدا : المختصر ، ج٣ ص ١٥ ،

ابن الوردي : تاريخه ج٢ ص ٤٤

(٢) عز الدين أبو العساكر سلطان بن علي بن منقذ

(١٠٩٨ — ١١٥٤ م)

حرص نصر وهو علي فراش الموت أن يختار ولي عهده ويعين الأمير الجديد في الحكم لأنه لم يعقب ، فاختار أخاه الذي يصغره مباشرة ويدعى مجد الدين أبي سلامة مرشد (١٠٦٨ — ١١٣٧ م) — والد أسامة — الذي كانت له مشاركة فعالة في شئون شيزر في حياة أخيه ، كما ردد ابنه أسامة كثيراً في كتاب الاعتبار ^(١) لكن مرشداً رفض قبول الإمارة بسبب شغفه بالصيد ونسخ القرآن الكريم ، وهما الهوايتان اللتان شغلتا جانبا كبيراً من وقته وجهده ففضلهما على الاشتغال بالسياسة وصعب الحكم ، وتنازل عن الإمارة لأخيه الأصغر عز الدين أبي العساكر سلطان قائلًا ، والله لا وليتها ، ولأخرجني من الدنيا كما دخلتها ^(٢) ، وهكذا دلفت الإمارة إلى سلطان الذي يأتي ترتيبه الثالث بين أمراء بني منقذ في شيزر والرابع منذ إقامة إمارتهم في كفر طاب .

وقد ولد سلطان بطرابلس سنة ٤٦٤ هـ (١٠٧٢ م) وعنى والده شديد الملك وأخوه نصر بتربيته وتعليمه وثقيفه ، فيذكر أنه سمع صحيح البخاري بشيزر من الفقيه إبراهيم الحنفي ، كما درس اللغة والأدب وكان كمعظم بني منقذ شاعراً مرهفاً وناظماً مجيداً ^(٣) .

(١) أسامة : الاعتبار ص ٥٣ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١ ص ٥٣ — ٥٤ .

(٣) ابن عساكر : تاريخ دمشق ج ٦ ١٨٧ .

وبعد عهد سلطان أطول عمود أمراء بني منقذ في شيزر ، فقد امتد نحو
 منتصف قرن من الزمان شهدت خلاله الإمارة أحداثا خطيرة من قبل الصليبيين
 والبيزنطيين والحشاشين ، فقد تعرضت لهجوم الفرنج مرارا كما قصدها
 الإمبراطور البيزنطي حنا كومنين سنة ١١٣٨ م وحاصرها حصارا
 مبريرا ، كما تعرضت لفتن فرقة الاسمايلية الحشيشية (١) . لكن سلطان نجح
 في حفظ إمارته وحمايتها من الضياع في زحمة أحداث العصر ، وأعطاهما شيئا
 كثيرا من الاستقرار بفضل كياسته ولبافته وجهوده الدائبة وحسن سياسته
 ونشير كثير من الدلائل إلى أنه نجح في منح الإمارة عهدا من الاستقرار
 الاقتصادي والرخاء المادي الذي كان يسترعى انتباه القادمين إليها حينئذ . فقد
 روى أسامة أن عمه سلطان استقبل فارسا صليبيا كان في طريقه إلى بيت المقدس
 حوفدا في مهمة مربية من لدن أمير أنطاكية ، فقال ذلك الفارس للامير سلطان ،
 « قد نفذني صاحبي في شغل وسر له ، لكنني رأيتك رجلا عاقلا فأنا أحدثك
 به » فقال له عمي : « من أين عرفت أني عاقل وما أتيتني قبيل الساعة ؟ »
 فقال : « لأنني رأيت البلاد التي مشيت فيها خربة وبلدك عامر ، فعرفت أنك ما
 عمرته إلا بعقلك وسياستك وحدته بما جاء فيه » . (٢) والواقع أن عهد سلطان
 كان عهد رخاء وازدهار في حياة شيزر برغم تصارع القوى المختلفة على بلاد
 الشام وتكاثر الطامعين في شيزر ذاتها .

فلم يكد سلطان بلى شئون الحكم حتى أخذ الصليبيون يدقون أبواب

(١) أسامة : كتاب الاعتبار ص ٧٧ ، ١١٦ - ١١٧ ، ١٦٢

(٢) المرجع السابق ص ٨٧

الإمارة بعد نجاحهم في الاستيلاء على أنطاكية وهزيمة القوات الإسلامية عندها . فتقدموا صوب الجنوب واستولوا على البارة ومعرة النعمان في أواخر سنة ١٠٩٨م . أى بعد ولاية سلطان في شيزر بعدة أشهر ، ثم وصلوا إلى كفرطاب في أوائل عام ١٠٩٩م وتجمعت عندها فرق ريموند دى سانت جيل وروبرت النورماندى وتكرد ، وعلى الرغم من انهدام معظم الوحدات السياسية الصغيرة على يد الفرنج ومسارة بقايا الأمر العربية بالحرب ، خاصة من معرة النعمان للاحتواء بشيزر بعد المذابح البشرية الرهيبة التى تعرض لها سكان تلك المدينة ، على الرغم من كل ذلك ، صمد أبو العساكر سلطان في شيزر ورفض قبول نصائح تلك الأمر العربية بالاستسلام للفرنج لعدم جدوى المقاومة ، (١) وقام بإتخاذ رسولين إلى القائد الصليبي ريموند بمفاوضته لتوقيع الصالح مبدئيا استعدادا لتقديم المعونة للصليبيين وإرسال أدلاء معهم لإرشادهم لعبور نهر العاصو عبر المخاضة ، وتقديم كافة الإرشادات لهم في اجتيازهم الإقليم نظير عدم تعرضهم للإمارته بسوء . (٢) .

وقد حفظت لنا المصنفات المعاصرة مضمون رسالة أمير شيزر أبو العساكر سلطان إلى الكونت ريموند ، ومنها يتضح أن سلطان آثر العافية فعلا مع هذا القائد وحاول تجنب الهدام مع الجيش الغازي ، على الرغم من أن المصادر الصليبية قد بالغت كثيرا فيما أبداه سلطان من تعاون مع الصليبيين ، إذ وعدم إرشادهم

Grousset : Hist. des Crois. I. 126

(١)

Gesta Erancorum. P. 78

(٢)

إلى أقرب وأخصب الأودية وأوفر المراعى لقطعانهم وأنسب الأماكن وأكثرها لغراء السلب والنهب ، ومن ناحية أخرى عرض مشاركتهم في مننجات إقليمه ومهم بكل ما يحتاجون اليه من مؤن وزاد ، وأبدي احترامه الكامل للحجاج وحسن على موادعتهم ، وقدم كثيرا من الهدايا والأموال لمحمد بن (١)

وليس من شك في أن ثمة تفسيرات جامعة تلمسها في تلك المصادر للأسلوب المرن الذي آثر سلطان اتباعه مع الجيش الغازي الذي لاشك لم يكن لسلطان قبل به ، وليس له مقدرة على التصدي له ، بعد أن فلت قوة المسلمين في الشام ، ولم يعد ثمة آمال في وقف زحف الصليبيين نحو الجنوب ، ولقد استطاع سلطان بهذا الأسلوب أن يتجنب هجوم الصليبيين فعلا إذا نسابوا عبر أراضي إمارته إلى إقليم طرابلس ولم يتعرضوا لشيء بسوء ولم يهتموا ببحرها للحرب بعد أن دفعت ثمن السلام .

نحت إمارة شيزر إذن من أخطار الزحف الصليبي ، واستطاعت أن تمنح اندفاع الصليبيين وأن تخرج من هذه الأحداث دون خسائر تذكر ، ماضية في تكريس وجودها ودعم استقلالها تحت حكم أبي العباس سلطان بن منقذ . لكن الاستقرار الصليبي في بلاد الشام جاء نكبة على إمارة شيزر . لأنها فقدت بسببه معظم نوابها وتقلصت أملاكها كثيرا وغدت أشبه بدائرة صغيرة لا تضم سوى شيزر وضواحيها القريبة . فقد فقدت في بداية الغزو الصليبي مدينة

الاذقية التي دلفت إلى يد ريموند ثم إلى البيزنطيين في النهاية ، ثم فقدت حصن أسفونا وحصن لطمين اللذين استولى عليها الفرنج ، كما فقدت كفر طساب ومن قبلها أفاعية التي استولى عليها ابن ملاءب ثم خضعت مؤخرا لتنكرد صاحب أنطاكية . وهكذا جرى التضييق على شيزر كثيرا بل أنها تعرضت لهجوم جيش أنطاكية وجيش طرابلس بعد ذلك مرارا — كما سيلى — ولم تنج من الخطر إلا بشق الأنفس ، وبفضل تعهداتها بالاستمرار في دفع رسوم التبعية (١) .

وعلى هذا فيمكن القول أن أبا العساكر سلطان قد بدأ عهده في شيزر بالتعامل مع الجيش الصليبي الزاحف جنوبا ، ولم يهدأ له روع أو يطمئن له خاطر إلا بعد أن اجتاز الصليبيون أراضي إمارته وابتعدوا عن ممتلكاته ، وعندئذ أخذ يمتضي في مشروعه وفي تسيير دفعة الحكم في إمارته .

(١) أسامة : كتاب الانتصار ص ١٢٠ - ١٢١

سلطان وعلاقته بالأمراء المجاورين

كانت بلاد الشام منذ نهاية القرن الحادى عشر الميلادى قد تجزأت ووتفرق أهلها شيما وأحزابا ، وعانت نزعة انفصالية شديدة ، وفوضى ضاربة فى أرجائها ولعل خريطة المنطقة إذ ذاك تؤكد هذه الحقيقة . فلفقد آت حاب إلى رضوان بن نقش (١٠٩٥ — ١١١٣ م) ومن بعده أبنائه حتى دلفت إلى الأرانقة فى سنة ١١١٨ م ثم إلى زنكى فى سنة ١١٢٨ م . كما دخلت دمشق فى حوزة دقاق بن نقش (١٠٩٥ — ١١٠٤ م) ثم إلى ظفتكين والبوريين حتى سنة ١١٥٤ م ، حين استولى عليها نور الدين محمود بن زنكى ، وقام فى أقامية خلف بن ملاعب الكلابى بعد طرده من حمص على يد السلاجقة (١٠٩١ — ١١٠٦ م) قبل أن يستولى الفرنج على أقامية (١) ، وفاز جناح الدولة الحسين أتابك الملك رضوان وزوج أمه والذي ينتسب إلى بنى كلاب أيضا بمدينة حمص ليكون بها إمارة صغيرة مستقلة (١٠٩٧ — ١١٠٣ م) حتى قتله الباطنية سنة ١١٠٣ م ومن بعده برز فى حمص أحد الأمراء ممن خدموا السلاجقة وبدعى خيرخان بن قراجا ، أما حماء فكانت فى يد أميرها على الكردي الذى شارك فى الأحداث فى مطلع القرن الثانى عشر (٢) ثم

(١) ابن القلانسي : ذيل ص ١٤٩ — ١٥٠

(٢) ابن العديم زبدة ، ج ٢ ص ١٧٤

آلت إلى طغتكين أنابك دمشق قبل أن تستولى عليها جيوش السلطان محمد السلجوقي بقيادة برسق سنة ١١١٥ م ونسلمها لخير خان بن قراجا ثمنا لإخلاءه للسلطنة ومشاركته في حركة الجهاد المقدس ضد الصليبيين (١) فقام خير خان بضمها إلى إمارته في حمص ووضع عليها أخاه شهاب الدين محمود بن قراجا (٢) كما ظلت طرابلس في يد فخر الملك بن عمار حتى سنة ١١٠٩ م حين استولى عليها الصليبيون . وهكذا كانت إمارة شيزر في عهد أبي العساكر سلطان محاطة بمجموعة من الأمراء العرب والتركمان والسلاجقة تفاوتت مداوهم وحسن جوارهم تجاه هذه الإمارة العربية .

وتشير كثير من الدلائل إلى أن العلاقات الطيبة قد ربطت إمارة بني منقذ في شيزر بكل من رضوان ملك حلب السلجوقي وفخر الملك بن عمار ، أمير طرابلس ، ودقاق بن تنش أمير دمشق . إذ تحدث أسامة بن منقذ عن قيام الاتصال بين عمه سلطان وبين رضوان في حلب وكانت المراسلات بينهما متبادلة ، وروح الود والصفاء تميز العلاقات بين الأميرين (٣) ، كما أن العلاقات بين بني منقذ وبني عمار معروفة منذ عهد سديد الملك بن منقذ وجلال الملك بن عمار ، وظلت روح الود تميز العلاقات على عهد سلطان بن منقذ وفخر الملك بن عمار . ويذكر المؤرخ ابن الفلاس أن فخر الملك وصل إلى شيزر سنة ١١٠٩

(١) : ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢٧٤

(٢) نفس المرجع ج ١ ص ٢٦٩ (سنة ٥٠٨) ويقول أسامة ان ابن قراجا ينسب إلى الأكراد . كتاب الاعتبار ص ٤٧

(٣) أسامة : الاعتبار ص ٥٣

بعد ضياع إماراته وطـردده من جبلة فاستقبله سلطان بن منقذ ، « واحترمه وجماعته وعرض عليه المقام عنده » (١) وكذلك تشير الدلائل إلى عدم وجود أية مصاعب في العلاقات بين شيزر ودمشق أو قيام فتن بينها أرحدوث نزاعات بين أميريهما ، إذ حرص دقاق في دمشق على عدم إثارة المتاعب مع الإمارات الأخرى ، فسادت روح الود والصفاء بين الإماراتين ، ولما آلت دمشق إلى طغتكين بعد وفاة دقاق (١١٠٤ — ١١٢٨ م) سارت العلاقات بين دمشق وشيزر على عهد في نفس الاتجاه السابق ، وكذلك على عهد ابنه بوري (١١٢٨ — ١١٣٢ م) . لكن العلاقة ساءت على عهد اسماعيل بن بوري (١١٣٢ — ١١٣٤ م) الذي انتابته نوبة حماسة طاغية فافتتح عهده بالاستيلاء على بانياس التابعة للفرنج في نوفمبر سنة ١١٣٢ م (صفر سنة ٥٢٧ هـ) واسترد حماه من أتباع عماد الدين زنكي في للعام التالي ، كما استولى على بعض الحصون التابعة لأخيه محمد أمير بعلبك فوصل بذلك إلى حوض نهر المعاصي ، فتحرش بإثارة شيزر وحاول الاستيلاء على شيزر ذاتها ، لولا أن سارع أبو العساكر سلطان بتقديم مبلغ من المال له للانصراف عن المدينة ، فرحل عنها بصعوبة بالغة (٢) ، وفيما عدا ذلك لم يحدث احتكاك بين دمشق وشيزر على عهد بقية البوريين .

هذا فيما يختص بعلاقة شيزر بكل من حاب وطرابلس ودمشق وهي علاقات كان طابعها العام الصفاء وحسن الجوار . أما فيما يتعلق بالعلاقات بين شيزر

(١) ابن القلانسي : ذيل ص ١٦٤ — ١٦٥

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٣٤٠ — ٣٤١ (سنة ٥٢٧ هـ)

في مهد سلطان وكل من أمير أفامية خلف بن ملاعب ووالى حماء محمود بن قراجا ، فلقد اختلفت عن ذلك وشابهها شيء من التناقل بل ميزتها الحروب السافرة أحيانا ، إذ يتحدث أسامة أحاديث متفرقة تشير إلى قيام النزاع المتصل بين شيرز وهاتين الإماراتين واندلاع الحروب معها .

ففي شوال سنة ٤٩٧ هـ (١١٠٤ م) جرت حرب بين بنى منقذ وخلف بن ملاعب بأرض كفر طاب أبلى فيها مرشد بن منقذ — والد أسامة — بلاء حسنا كما اشترك فيها سلطان نفسه ، وكاد يقتل في تلك الحرب الضروس لولا أن سارع أحد غلمان أخيه الراحل (نصر) بتأني الضربة الموجهة إليه ، وانتداه بنفسه فنجوا سلطان من القتل في اللحظات الأخيرة ^(١) ، ولعل هذه الحادثة تؤكّد عنف الصراع وشدة القتال بين الجانبين وتحكم روح العداوة بينهما .

على أنه يبدو أن ما اشتهر به خلف بن ملاعب من حب المغامرة والفساد وقطع الطرق على التجار والحجاج والآمنين فضلا عن تشييعه وتعصبه للخلافة الناطمية وسوء سيرته ^(٢) هي الأسباب الحقيقية لما ساد بينه وبين بنى منقذ من عداوة وسوء مداخلة وهم أقرب الأمراء المسلمين إليه وأكثرهم تعرضا — دون شك — إلى فسادهم وأذيتهم .

غير أن التعرض لخطر التوسع الصليبي في المنطقة والذي بات يأخذ طابعا ثابتا — أرغم — في أغلب الظن — هذه الوحدات الإسلامية المصغرة على الحد من

(١) أسامة : الأعيان ص ٥٢ ، ٥٣ .

(٢) ابن ميسر : أخبار مصر ج ٢ ص ٣٧ ، ابن الأثير : الكامل ج ٢ ص ٢٣٣ — ٢٣٤ .

غلوائها ومحاولة كبح جماح عدائها فيما بينها ومحاولة الالتفات إلى الخطر الذي يوشك أن يتلعب الجميع، لذا حاولت هذه الإمارات التظاهر بالصفاء وعودة روح الود بينها وتغليب المصالح العامة فيما بينها، لكن ذلك كله لم يحجب ما بينها من صراع، ولعل أكبر دليل على ذلك ما رويته أسامة من أن ابن ملاحب تظاهر برغبته في توحيد جهوده مع بني منقذ لطرد الفرنج من حصن أسفونا القريب من معرة النعمان، فبعث إلى سلطان يطالب المؤازرة للاستيلاء على ذلك الحصن قائلا: «نمضي إلى أسفونا وفيها الفرنج نأخذها، فلقيت هذه الرغبة استجابة لدى سلطان الذي سارع بمشد جيشه وخرج من شيزر هو وأخوه مرشد ووصلوا إلى أسفونا» وترجلوا وزحفوا إلى الحصن فنقبوه «بينما كان ابن ملاحب قد بيت النية للغدر بهم، إذ وصل فجأة كما يذكر أسامة: «فأخذ خيل من كان ترجل من أصحابنا» وعندئذ جرت الحرب بين بني منقذ وابن ملاحب بدلا من قتال للفرنج (١). وعلى هذه الصورة جرت العلاقات بين إمارة شيزر وابن ملاحب في أقمية.

وفي نفس الاتجاه العدائي سارت العلاقات مع والي حماء شهاب الدين محمود بن قراجا، فلقد أمدنا أسامة بأحداث متفرقة تنبئ عن قيام مشاحنات مع ذلك

(١) أسامة: الاعتبار ص ٩٥ - وقد اعتقد قبلي حتى أن تاريخ هذه الحادثة سنة ١١٠٩ لكن الثابت أن خلف بن ملاحب اغتيل بيد الباطنية في أقمية سنة ١١٠٦ بينما سقطت أقمية ذاتها في يد تتكرد سنة ١١٠٦ فلا بد وأن تاريخ هذه الحادثة بين سنتي ١١٠٤ - ١١٠٦ م.

ابن ميسر: أخبار مصر ج ٢ ص ٤٠، ابن الأثير: الكامل ج ٨ ص ٢٣٣

أولاً إلى واندلاع الحرب أكثر من مرة بين شيزر وبينه ؛ فمن ذلك ما قام به ابن قراجا بالهجوم على ضياع شيزر فأحدث بها الخراب والدمار ، وعندئذ جرد سلطان جانباً من قوات المدينة لحربه ، وضع على رأسها ابن أخيه أسامة بن مرشد الذي نجح في رد المغيرين والتنكيل بهم ، فكمسرتهم وطعننا فيهم ،^(١) . وتقدم سلطان نفسه وأخوه مرشد حيث تحققوا من هزيمة قوات ابن قراجا ثم لما لبثا أن مادا إلى شيزر .

لكن محمود استعان بعدئذ بقوات أخيه خير خان بن قراجا صاحب حمص . وجرت حرب أخرى بين الطرفين أبلى فيها أسامة بلاء حسناً أمام همه سلطان الذي امتدحه كثيراً وحيا فيه روح الفروسية والشجاعة .^(٢)

غير أن محمود لم يرجع عن عزمه في مهاجمة شيزر وضياعها وضواحيها إذ يذكر أسامة أيضاً أن ابن قراجا أغار سنة ١١٢٠ م (٥١٤هـ) على شيزر وكرر هجومه سنة ١١٢٣ م (٥١٧هـ) ، وكانت الحرب بينهما ما تغب والمواكب واقفة والطراد بين المتسعة ، واضطر مرشد ابن منقذ — والد أسامة — إلى إلتفاد رضول إلى محمود بن قراجا ليشتيه من مواصلة الحرب ، إلا أنه لم يذعن ، وجاء إلى أرضتنا وكن لنا كيننا ، ودارت الحرب وأسفرت عن عودة جند محمود دون أن يحققوا أغراضهم أو ينالوا من جند شيزر ، ورجع جميعهم

(١) أسامة بن منقذ : الاعتبار ص ١٠٠

(٢) المرجع نفسه ص ١٠١ — ١٠٢

وكنينهم ما نالوا منه ما أرادوا، وهكذا اتصفت الحرب بين الإماراتين لئلا كدما
ساد العلاقات من عداة وقطيعة (١) .

وعلى الرغم من استعانة محمود بقوات أخيه خير خان وحشده جوع
التركمان إلا أنه فشل في النيل من شيزر أو تحقيق أهدافه فيها واقتنع في
في النهاية أن مصالحة بني منقذ والاتفاق معهم لقتال الفرنج في القلاع القريبة
أهم وأصلح له ، هذا فضلا عما أحدثته غارات فرنج أنطاكية في المنطقة من
تقريب وجهات النظر بين شيزر وحماه فعقد الصلح بين سلطان ومحمود بن قراجا
وساد الصلح بينهما من جديد (٢)

وكانت نمرة التعاون بين الطرفين أن قاما معا بمهاجمة أقالمية التابعة للفرنج
لخطرهما المشترك عليهما ، وذلك في سنة ١١٢٤ (٥١٨ هـ) فقد أرسل محمود بن
قراجا إلى سلطان يقول له تأمر أسامة يلقاني ... لنمضي نبصر موضعا نكن فيه
لأقالمية ونقاتلها ، فأمرني عمي بذلك فركبت ولقيته ، وحينما اجتمع ابن قراجا
وجيش شيزر ودار القتال ضاربا عند أقالمية ضد الفرنج ، أصاب محمود سهم
طائش « فضر به في جانب عظم زنده » فسلم القيادة لأسامة بن منقذ واضطر
للعودة إلى شيزر لكنه لم يمكث بشيزر طويلا ، إذ عاد نوا إلى حماء « فأقام الغد
وبعد الغد ثم اسودت يده وغاب عنه رشده ومات » وهكذا توفي محمود بن قراجا .

(١) المرجع نفسه ، ص ٥٦ ، ٣٦ ، ٣٨ — ٣٩

(٢) المرجع السابق ص ٤٦

متأثرا بجراحه لكن وفاته وضعت في الحقيقة نهاية لحظ بارز في علاقات شيزر بحماه على عهد هذا الوالي (١)

وهكذا جسرت العلاقات بين بنى منفذ أيام سلطان وجيرانهم من الأمراء المسلمين ميز بعضها الصفاء والود وروح الإخاء ، وشاب البعض الآخر العداوة والفتور وقيام التفتن واندلاع الحروب والإغارات ، لكن الأمر الذي يمكن ملاحظته أن سلطان استطاع التعامل بكياسة مع جميع الأمراء المجاورين ولم يلجأ إلى تحكيم السلاح إلا مضطرا وحين تعرضت إمارته للخطر وغدا من العسير تجنب الصدام المسلح .

سلطان والإمارات الصليبية في انطاكية وطرابلس :

وعلى الرغم من أن العلاقات بين شيزر والقوى المجاورة قد تشابكت وتشعبت واختلقت وتراوحت بين العداوة والصفاء ، على الرغم من ذلك فإن الملاحظ أن الحروب التي نشبت بين هذه الإمارة وغيرها من الإمارات الإسلامية الأخرى كانت حروبا صغيرة تتمشي مع مقاييس قوة تلك الوحدات الصغيرة ، حتى لنجد صعوبة كبيرة في وصفها بالحروب إلا في ظل فهم حقيقي لقدرات تلك الإمارات الصغيرة ، لأنها في غالبها لم تزد عن إغارات متبادلة واشتباك بضعة مئات من الفرسان في أغلب الأحيان وبعضها من الرجالة وهو أقصى ما يمكن أن تحشده تلك الإمارات من قوة .

وليس من شك في أن ذلك هو السبب فيما نلمسه من محاولة إمارة شيزر

تجنب الصدام مع القوى الأكبر بصفة خاصة مثلما حدث مع الصليبيين ، بل نشهد شيئاً من الاعتراف بالقصور تجاه الإمارات اللاتينية القريبة بل ودفع رسوم مختلفة للفرنج حفاظاً للأمن وحماية للاستقلال .

ففي أنطاكية كان تنكرد قد بدأ يعمل على استعادة هيبة الصليبيين بعد تعرض جيوشهم للهزيمة على ضفاف نهر البليخ سنة ١١٠٤ م على يد القوات الإسلامية بقيادة جكرمش وسكان بن أرتق ، فراح تنكرد يستأسد ضد سلاجقة حلب واستطاع فعلاً أن ينزل الهزيمة بقوات الحلبيين عند نيزين شرقي أرتاح سنة ١١٠٥ م حيث أعمل السيف في جيش رضوان فقتل منه ثلاثة آلاف رجل بينما اضطرت حامية أرتاح لاختلائها ^(١) .

وبعد أن انتهى تنكرد من تأديب الحلبيين واسترد سرمين تحول ناحية الجنوب فاستولى على أقامية سنة ١١٠٦ م (٥٩٩ هـ) بعد مقتل واليها خلف بن ملاعب على يد الباطنية — كما سبقت الإشارة — وقام تنكرد باسترداد كفر طاب إلى الشرق من أقامية بين معركة للنعمان وشيزر فغدا يهدد المـدن والقلاع والضياع الإسلامية للقريبة وبخاصة مدينة شيزر سنة ١١٠٨ م ^(٢) .

ومنذ ذلك الحين بدأ تنكرد في الهجوم على شيزر ذاتها ؛ من ذلك مارواه أسامة عن أغارته على شيزر في ربيع الآخر سنة ٥٠٢ هـ (١١٠٨ م) فاستاق

(١) Grousset : Hist. des Crois. I. P. 420

سبط بن الجوزي : مرآة ج ١٠ ورتة ٢٥٥

(٢) سعيد عبد المتاح عانور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٤١٢ — ٤١٣

حواب كثيرة وقتل وسي ، بل أنه هاجم القرى القابعة لشيزر ونكل بأهلها وأسربعض أهلها نساء ورجالا ، واضطر أمير شيزر إلى عقد صلح معه تفاديا لتلك الهجمات ، وكان أمد الصلح سنة واحدة ، ولابد وأن سلطان أقر بشيء من الخضوع لهذا الأمير الصليبي الذي لم يكن يرد له طلب في شيزر حينئذ (١) .

لكن لم يكد ينتهي أمد الصلح المبرم بين الجانبين حتى عاود تنكرد الإغارة على شيزر سنة ١١١٠ م وجاء دنكبرى وعسكر أنطاكية فقاتلنا عند سور المدينة ، ولقد شهد أسامة بنفسه هذا القتال فوصف ضراوة الحرب وشدة القتال حيث اضطر أمير شيزر إلى حشد راجل المدينة في الخارج لصد هجمات الفرنج فأبوا بلاء حسنا « فحمل عليهم الفرنج فإزعزعهم من مكانهم » (٢) . ويذكر المؤرخ ابن القلانسي أن تنكرد لجأ حينئذ إلى بناء تل ابن معشر قبالة شيزر محاولا إسقاطها مما دفع سلطان إلى الاستنجاد بالسلجقة (٣) ... لكن يبدو أن أمير شيزر اضطر حين لم تسعفه النجدة إلى الازدعان وأبرم صلحا ثانيا مع تنكرد تهاد بموجبه بدفع قطعة من المال تمنا للسلام (٤) .

ولم تقطع هجمات الصليبيين على شيزر بعد وفاة تنكرد في سنة ١١١٢ م إذ يتحدث أسامة عن هجوم صليبي على المدينة سنة ١١١٥ م (٥٠٩ هـ)

(١) أسامة ابن منقذ ، الاعتبار ص ٧٠ — ٧١ ، ص ٦٦ ،

Schlumbereger : op. cit. P. 112

(٢) أسامة : نفس المرجع ص ٦٦ — ٦٧

(٣) ابن القلانسي : ذيل ص ١٧٤

(٤) أسامة : نفس المرجع ص ١٢٠ — ١٢١

« ونزلوا علينا بالنارس والراجل وبيننا وبينهم العاصى وهو زائد زيادة عظيمة لا يمكنهم أن يجوزوا إلينا ولا نقدر نحن نجوز إليهم ونزلوا على الجبل بنحيامهم ، وقد ترك بعض أولئك الفرنج خيلهم ونزلوا فى البساتين واستسلموا للنوم وعندئذ ، تجرد شباب من رجالة شيزر وخاضوا نياهم وأخذوا سيوفهم وسبحوا إلى أولئك النيام فقتلوا بعضهم ، ويبدو أن عدد فرنج تلك الحملة كان كثيرا إذ يقول أسامة « وتكاثروا على أصحابنا فرموا نفوسهم إلى الماء وجازوا وعسكر الفرنج قد ركب من الجبل مثل السيل ، (١) ومما يكن من أمر فقد انتهت هذه النوبة من الهجوم الفرنجى دون نتائج حاسمة ، وعادت شيزر إلى حياتها العادية بعد انسحاب الفرنج .

ويبدو أن ثمة هدنة جديدة واصلح قد عقد بين أمير شيزر سلطان وروجر الأنطاكي لأن هذا الأمير بعث إلى سلطان يقول له : « قد نفذت فارسا من فرسانى فى شغل إلى القدس أسأل أن تنفذ خيلك تأخذه من أقاليمه ويوصلونه إلى رمنية ... فركب وأرسل إليه من أحضره ، ويدل ذلك على قيام نوع من المهادنة بين الجانبين .

لكن أمد هذه الهدنة كان قصيرا إذ ساءت العلاقات من جديد بين شيزر وأنطاكية سنة ١١٢٢ م وكانت أنطاكية حينئذ تحت وصاية الملك بلدوين الثانى بعد مقتل روجر الأنطاكي فى ساحة الدم على يد إيلغازى لاتركمانى سنة ١١١٩ م (٥١٣ هـ) (٢) لكن جيش أنطاكية ظل مكن خطر على الأملاك

(١) أسامة : الاعتبار ص ٩٢

(٢) ابن العديم . زبدة ، ج ٢ ص ١٨٨ ، ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢٨٤

Grousset : op. cit. I. P. 553

Snail : Crusading warfare : P. 57

الإسلامية المجاورة وخاصة وأن لبغاوى لم يتابع جهوده — ضد أنطاكية بعد مقتل روجر بل ألهته أحداث شمال العراق وحلب عن ذلك (١) فتعرضت شيزر من جديد لمضايقات جيش أنطاكية وجذرت بعض المناوشات بين الإمارتين اتع الفرنج خلالها أسلوبا آخر يتم عن خداع ومكيدة — كما يقول أسامة — فحشدوا جيشهم تحت جناح الظلام عند تل مجاور لشيزر يسمى تل ملح ، كان مكنيا للفرنج ، بينما أرسلوا نحو عشرة من فرسانهم إلى باب شيزر مع الخيوط الأولى لضوء النهار وكان باب المدينة لم يفتح بعد ، فقال هؤلاء الفرسان للحارس وهو بالداخل « أى شيء هذا البلد ؟ » فقال لهم : شيزر « فرموا بنشاب من خلل الباب ورجعوا وخیلمهم تحب بهم » عندئذ أسرع سلطان وأسامة إلى باب المدينة وأبصروا الفرنج « رانحون غير منزعجين » فقال أسامة لعمه سلطان « على أمرك آخذ أصحابنا وأنبعمهم أقالعهم وهم غير بعيدين » لكن عمه أدرك أنها مكيدة فرفض فكرة مطاردتهم قائلا : « لا ، أفى الشام افرنجى لا يعرف شيزر ؟ هذه مكيدة » وبادر باختيار فارسين من الجند وأمرهما بالتوجه إلى تل ملح واستطلاع الأمر فتحقق صدق حدسه وظنه فحينما « شارفاه خرج عليها عسكر أنطاكية جميعه » (٢) . فتنبهت شيزر وشلت خطة الفرنج ومحاولة أخذها على غرة ومن ثم انجلت هذه النوبة من الهجوم بعد مناوشات قليلة وعاد عسكر أنطاكية دون أن يحقق هدفه .

على أن الهدوء ساد بمدئذ فترة بسبب تعرض الإمارات الصليبية في الشمال

(١) ابن القلانسي : ذيل ص ٢٥٤ — ٢٥٥

(٢) أسامة : الاعتبار ص ٥٦ — ٥٧

لحمه أخرى بعد ساحة الدم وذلك بوقوع جوسلين أمير الرها في يد بلك بن بهرام الأرمني في خريف سنة ١١٢٢ م (٥١٦ هـ) حيث حمله أسيرا إلى قلعة خربت (١) . ولما حاول الملك بلدوين الثاني فك أسره تعرض في أبريل سنة ١١٢٣ م لهزيمة قاسية على يد بلك أيضا عند نهر سنجة أحد روافد نهر الفرات ووقع الملك نفسه أسيرا في يد بلك الذي حمله إلى خربت ليسجن مع جوسلين (٢) ، وبذلك أضحت الرها وأنطاكية والمملكة الصليبية في يدي المقدس بدون قادتها وحكامها . وليس من شك في أن هذه الأوضاع انعكست على علاقة أنطاكية بشيزر فلم يحدث احتكاك بينهما في تلك الفترة المضطربة بالنسبة للصليبيين بين سنتي ١١٢٢ - ١١٢٦ م بل تشير الدلائل إلى قيام نوع من المهادنة بين أمير شيزر سلطان والفرنج عامة في بلاد الشام مكنت هذا الأمير من أن يذهب دورا هاما في الوساطة بين الأراقة وبين الفرنج في هذه الفترة ، وكانت حلب قد آلت بعد مقتل بلك سنة ١١٢٤ م (٥١٨ هـ) إلى أحد أبناء إبلغازي وبدعى تمرناش الذي حاول تخفيف حدة التوتر من حوله فـال إلى إطلاق مصراع الملك بلدوين الثاني الذي سبق أمره على يد بلك بعد أن كان جوسلين قد تمكن من الهرب من سجنه قبل وفاة بلك .

Cahen : Encyc. Isl. art. «Artukids»

(١)

Le Strange : The Lands of the Eastern Csliphate. P. 117

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٣١٣ ، ابن القلانسي : ذيل ص ٢٠٩ .

Grousset : op. cit. I. p. 587

وتحدثنا المراجع أن أمير شيزر أبو العساكر سلطان قام بدور هام حينئذ في تقريب وجهات النظر بين الطرفين فكان لوساطته فضل كبير في إطلاق سراح بلدوين بعد أن تعهد هذا برد بعض القلاع الهامة إلى تمرتاش ومن بينها الأتارب وزردنا وكفر طاب وعزاز ، والتعهد بدفع فدية قدرها ثمانون ألف دينار (١) ، وذهب أمير شيزر في تحمسه لإتمام هذا المشروع حد تقديمه بعض الرهائن من لدنه لتمرتاش أمير حاب واصطحب بلدوين إلى شيزر حيث بقي بها إلى أن أحضر بعض الرهائن ضمانا لوفائه بمعهوده فقدم ابنته وابن جوسلين أمير الرها وبعض أبناء القادة للفرنج وعندئذ أطلق سلطان سراحه في صيف سنة ١١٢٤ م (٢) .

على أن تحمس سلطان لذلك كله لم يكن له ما يفسره سوى رغبته في تحسين علاقته بالإمارات اللاتينية المجاورة ، ومحاولة كسب ود المملكة الصليبية في بيت المقدس استمرارا لسياسة الكياسة واللباقة التي دأب أمراء هذه الأسره على اتباعها ، غير أن خبرة الفرنج بهذا الأسلوب ومعرفتهم الحقة بنهج هذه الإمارات وسياساتها مكنت بلدوين من أن ينكت بوعده لتمرتاش ويضرب عرض الحائط بكل مانع به من قبل فيرفض تسليم القلاع المفقو عليها ويتلصقا في تسديد الفدية المقررة عليه ، لأنه كان يعلم تماما أن رهائنه في مأمن مادامت في شيزر ، وفي حوزة سلطان ، وتأكد بلدوين فعلا

(١) ابن العديم : زبدة ، ج ٢ ص ٢٢٢

(٢) نفسه ج ٢ ص ٢٢٢

أن سلطان لن يجرؤ على اتخاذ خطوة قد تعرض أمنه وسلامه للخطر ، ولهذا لم يترتب على نقضه العهد أية مضاعفات ، وخاصة أن تمرناش أمير حلب انصرف عنها عائداً إلى ماردين برقب الأوضاع هناك ، ويُنظر وفاة أخيه سايجان ليرته في أملاكه في أقصى شمال العراق (١) .

وهكذا أثبت سلطان من خلال هذه الأحداث رغبته في إحلال السلام مع الفرنج وإقامة علاقة صداقة مع الإمارات اللاتينية ، تجنباً لعوامل الصراع وحفظاً لأمنه واستقلال إمارته .

غير أن ذلك كله تبدل بوصول بوهيموند الثاني إلى أنطاكية سنة ١١٢٦م (٥٢٠ هـ) يرث ملك والده بوهيموند الأول ، وكان هذا الأمير الذي أسماه أسامه د ابن ميمون ، متحمساً للحرب ضد المسلمين كثير الرغبة في تفكير جو العلاقات معهم لهذا قال عنه أسامه د خرج على الناس من ذلك الشيطان ابن ميمون بلية عظيمة ، إذ استأنف الإغارة على شيزر من جديد ونزل بجيشه عليها كما يصف أسامه د فضرِب خيامه ونحن قد ركبنا مقاباهم ، ودارت الحرب بين الجيشين «وركب ابن ميمون وعسكره وجاءوا كالسيل» ولولا حداثة عهد بوهيموند بهذه البلاد وقلة تجاربه في حربه مع المسلمين لاسفرت هذه الحرب عن مأزق كبير لإمارة شيزر وجيشها «ولو ترك أصحابه هـ — زمونا إلى أن يدخلونا المدينة» (٢) ، لكنه عجل بإتمام الحرب وعاد إلى أنطاكية دون أن يحقق غرضه .

لكنه عاد في العام التالي لإغارة على شيزر فتصدى أسامة لمقدمات جيشه ، وكادت تحدث مأساة لهذا الفارس العربي الشهم ، لولا أن أسعفته قطيته واستطاع الإفلات من كارثة محققة ، قبل أن ينصرف الفرنج من شيزر إلى

(١) ابن لائبر السكامل ج ٨ ص ١٣٦ (سنة ٥١٨ هـ)

(٢) أسامة : الاعتبار ص ١٢١ — ١٢٢

إلى أنطاكية ^(١) وعلى هذه العبارة جرت مناقشات أخرى وحروب ومصادمات بين شيزر وأنطاكية تحت حكم أميرها الجديد يوهيموند الثاني، لكنها لم تؤد في نهاية الأمر إلى نتائج حاسمة بالنسبة لأوضاع الإماراتيين وأن كلمت شيزر بعض أمنها وهدوئها .

وعلى نسق العلاقات مع أنطاكية جرت العلاقات مع طرابلس اللاتينية . والمعروف أن أملاك ريموند الصنجيلي آلت بعد وفاته إلى وليم جوردان قبل أن يفت برتراند من الغرب ، فقام وليم جوردان بمحاولة لإتمام مشروعات ريموند خاصة إسقاط طرابلس والاستيلاء على توابعها ، وفي سبيل ذلك بذل الفرنج كثيرا من الجهود وفرضوا الحصار على طرابلس سنوات وعانوا في ضراحيها ، ولم تسلم إمارة شيزر وتوابعها هي الأخرى من هجمات الفرنج فالأحثين من المؤن والزاد لمواصلة الحصار . ففي سنة ١١٠٨ (٥٠١ هـ) أغار وليم جوردان على شيزر بغية الحصول على المؤن في الوقت الذي اشتد فيه الحصار على طرابلس واتصل النزال عندها يقول أسامة : لما مضى إلا الأيام القلائل حتى أغار علينا المرداني صاحب طرابلس ففزع الناس إليهم ^(٢) ، ودارت حرب بين الطرفين أبلى فيها بعض رجالات شيزر بلاء حسنا وتمكنوا من صد وليم جوردان ولإرغامه على العودة .

وليس من شك في أن الحصول على المؤن والإمدادات هو الذي كان يدفع

(١) أسامة : الإمداد ص ٦١ — ٦٢

(٢) أسامة : الاعتبار ص ٥٠

ولم جوردان كثيرا لاجتماع الأراضى القريبة من شيزر والعبث في ضواحيها، فقد ركب بعدئذ في نحو ثلاثمائة من أصحابه واقترب من شيزر فرآهم أحد الفلاحين فجاء يركض إلى أبي وعمى وقال شاهدت سرية من الفرنج تأهين جاءوا من البرية لوخرجتم إليهم أخذتموهم ، ولما خرج رجال شيزر على رأسهم سلطان نفسه وأخوه مرشد ، إذا به السرداني صاحب طرابلس في ثلاثمائة فارس (١) فحمل الفرنج على رجال شيزر فهزموهم وطاردوهم حتى شيزر ثم عادوا .

ولما آلت طرابلس إلى برتراند بعد سقوطها في أيدي الفرنج قام في سنة ١١١٠ م (٥٠٣ هـ) بالهجوم على شيزر رجاء آملا في أن يبدأ عهده بفرض هيئته على الإمارات الاسلامية القريبة ، فقد انسم هجومه حينئذ بالجرأة والحساسة ، ولولا ثبات سلطان وأخوه مرشد لاحتدت تلك الغارة أضرارا جسيمة لامارة شيزر (٢) .

لكن الواقع أن هجمات عسكر طرابلس لم تكن في ضراوة هجمات أنطاكية كما أن مهمة أمراء طرابلس من الفرنج لم تكن لتقاس بهمة نظرائهم في أنطاكية ، ولهذا كانت معاناة شيزر من جهة أنطاكية أشد وأقسى ، فقد تحدث أسامة مرارا عن غارات جيش أنطاكية على شيزر في حين قل حديثه عن إغارات جيش طرابلس مما يؤكد أن خطر الفرنج في الشام كان أعظم من خطرهم

(١) نفسه ص ٥٠ — ٥١

(٢) نفس المرجع ص ٥٥

ناحية الجنوب بالنسبة لإمارة بني منقذ التي تقع على بعد متساوٍ بينهما تقريباً
متمركزة في حوض نهر العاصي الأوسط .

وهكذا تعرضت شيزر في عهد أبي العساكر سلطان لاغارات الإماراتين
اللاتينيتين للقربتين، والفضل يرجع لهما في منقذ من ناحية ولحسن سياستهم
واباقتهم من ناحية أخرى في حفظ استقلال شيزر وحماية أمنها وسلامتها
وتجنّبها مواقف الحرج والضياع في زحمة أحداث العصر .

أبو العساكر سلطان وحركة الجهاد المقدس :

تعرضت إمارة شيزر — كما رأينا — لخطر الإمارات الصليبية المجاورة
وعانت كثيراً من هجمات أنطاكية وطرابلس في الوقت الذي بدأت فيه حركة
إفافة إسلامية كبيرة أنى ريجها من المشرق في هذه المرة . حين تزعم السلاجقة
حركة الجهاد المقدس ضد الصليبيين، وآل السلطان محمد بن ملكشاه (١١٠٥ —
١١١٨ م) على نفسه أن يحارب الصليبيين ويسترد ما اغتصبوه من الأملاك
الإسلامية في بلاد الشام وأطراف العراق ، وتداول على زعامة الحرب المقدسة
ضد الصليبيين في عهد هذا السلطان ثلاثة من قادة السلاجقة الأعظام هم شرف
المدين مودود و آفسنقر البرسقي وبرسق بن برسق في الفترة بين سنتي ١١١٠ —
١١١٥ م تحت رعاية السلطان محمد الذي تخمس كثيراً لهذا المشروع
الكبير (١) .

(١) Browne : Accounts of a rare manuscript. p. ٢٢٤

أبو الفدا منتحبات من المختصر في أخبار البشر (Rec. Hist. Or.I.p.13)

الراوندي : راحة الصدور ص ٢٣٥ . ابن القلانسي : ذيل ص ١٧٤

وليس من شك في أن استنجد الأمراء المسلمين في بلاد الشام بالسلطنة السلاجوقية ، كما أن خروج الجماعات الإسلامية إلى بغداد للاستنفار للجهاد وطلب النجدة ضد الصليبيين قد لعب دوره في جذب جيوش السلطنة السلاجوقية إلى بلاد الشام ، وكان صوت الإمارات الصغيرة واستنجداتها بقوى الإسلامية الكبرى له ضلع كبير في تحريك الحافز لدى السلطنة للاسراع في إنقاذ الجيوش إلى هناك . ولقد ارتفع صوت فخر الملك بن عمار في عام ١١٠٨ م (٥٠١ هـ) بطلب النجدة من السلطنة والخلافة بل ذهبت به حاجته للمساعدة حشد السفر بنفسه إلى بغداد لمقابلة السلطان ، لكن صوته ذهب وسط ضجيج الأحداث ولم يفز بما أمل فيه من معونة عاجلة فانهدمت إمارته قبل أن تصل جيوش السلطان إلى بلاد الشام وضاعت طرابلس قبل أن تنجدها القوات الإسلامية (١) ثم مالبت أن تعالي صوت الإمارة الصغيرة الثانية في بلاد الشام بطلب النجدة من السلاجقة حيث ضج أبو العساكر سلطان بطلب العـون من السلطنة السلاجوقية حين غدت هجمات تنكرد تأخذ طابع الضراوة التي تم عن رغبة جامحة في الاستيلاء على ذلك المعقل الإسلامي الهام .

وما أن شعر سلطان بأن جيوش السلاجقة تحت قيادة شرف الدين مودود أخذت تهاجم مدينة الرها الصليبية في شمال العراق سنة ١١٠١ م (٥٠٥ هـ) وأن ثمة مشروع للجهاد قد أخذ سمته إلى تلك المنطقة حتى بعث إلى مودود يستنجد به ، وخاصة وأن تنكرد قد شرع في بناء تل ابن معشر قبالة شيزر

(١) ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ٢٥٩ ، ابن الفرات : تاريخه ج ٨ ص ٧٨

سبط بن الجوزي : مرآة ج ١٠ ورقة ٢٨٣

للمضايقة ومحاولة الاستيلاء عليها (١) .

وجاءت استغاثة سلطان مودود في الوقت الذي تعثرت القوات الإسلامية أمام الرها للمرة الثانية في سنة ١١١١ م (٥٠٥ هـ) نظرا لحصانة المدينة وحسن الدفاع عنها ، لذلك قرر مودود رفع الحصار عنها والانصراف إلى تل باشر على الناحية الأخرى من الفرات (٢) وما أن عبرت القوات الإسلامية نهر الفرات حتى سارع تنكرد بإيقاف مشروعه ضد شيزر والانسحاب من أمامها إلى أنطاكية (٣) .

كل هذه الحادثة أثر كبير في سياسة إمارة شيزر إذ أفاد أميرها سلطان كاهر واضح - من حركة الجهاد الديني وتأكد أن الارتباط بهذه الحركة ومسايرة قادتها وحسن التعامل معهم كفيل بكبح جماح تنكرد والصليبيين ، لهذا لاحظ أن سلطان حرص كثيرا على كسب ود قادة الجهاد منذ ذلك الوقت وأظهر روحا طيبة تجاه الجيوش السلجوقية وحاول باستمرار أن يقدم كل ما يستطيع لتلك الجيوش ويشار كما جهادها . بعكس ما أظهرته بعض القوى الإسلامية الأخرى في بلاد الشام أمثال : رضوان وطغتكين ولؤلؤ الخادم ، وعلى ذلك يمكن القول أن موقف إمارة شيزر من الجهاد كان موقفا مشرفا حاول فيه أميرها الإدلاء بدأوه في تلك الحركة على الرغم مما قد تجلبه عليه من عداة الفرنج .

(١) ابن القلائسي : ذيل ص ١٧٤ .

Grousset : op. cit. I. p. 463

(٢) .

(٣) ابن العديم : زبدة ج ٢ ص ١٥٨ - ١٥٩ .

انصرف مودود من أمام تل باشر أيضا حين أنه صرخات رضوان أمير حلب الذي تعرض لهجمات تتكرر ففسارع مودود لنجدته لكنه لم يكسب يقترب من حلب حتى أغلق رضوان أبواب المدينة في وجهه ولم يجتمع به واعتقد أن هذا القائد ومن معه من قادة السلاجقة أخطروا على إمارته من الصليبيين أنفسهم (١) . لذا لم يجد مودود بدا من التحرك ناحية الجنوب والتحق به عندئذ طغتكين أنابك دمشق ، وانفقت الآراء على التوجه إلى حوض نهر العاصي بعد أن آثر بعض القادة الانفصال والعودة إلى أوطانهم ولم يبق مع مودود سوى إبار ابن لبغاوى وطغتكين فرحلوا ناحية شيزر .

وفي ذلك الوقت كانت القوات الصليبية قد اجتمعت كلها على الضفة الشرقية لنهر العاصي قرب أفامية حيث بلغت عدتها ١٦ ألف مقاتل من الفرسان والرجالة (٢) ، وعندما أحس أبو العساكر سلطان بقرب مودود ومن معه من القادة خرج إلى لقاءهم وحثمهم على منازلة القرنيج فرحلوا جميعا وعبروا النهر ونزلوا في قبلى شيزر ، وبالغ ابن متاذ وجماعته في الخدمة والمواصلات بالميرة ، ويقول أسامة عن هذه الحادثة أن مودود نزل بظاهر شيزر في تاسع ربيع الأول سنة ٥٠٥ هـ - (١١١١ م) فخرج إليه سلطان وأخوه مرشد وقالوا له : « الصواب أن ترحل ، إذ كان نازلا شرق البلد على النهر ، وتنزل

(١) ابن القلانسي : ذيل ص ١٧٥ ، ابن العديم : زبدة ج ٢ ص ١٥٩ - ١٦٠

Runciman : op. cit. II p. 122

(٢)

في البلد ويضرب العسكر خيامهم على السطوحات في المدينة (١) وتلقى الفرنج بعد أن نحرز خيامنا وأثقالنا ، فرحل ونزل كما قال له ، وأصبحا خرجا إليه من شيزر خمسة آلاف راجل معدين قفرح بهم اسباسلار وقويت نفوسهم (٢) .

وطيلة أسبوعين حدثت خلالها بعض المناوشات ، أنهت قوات شيزر العربية بالذات نشاطاً عاماً في حرب الصليبيين ربما لطول ممارستهم قتالهم وخبرتها بحربهم ، إذ كانوا يطوفون حول معسكرهم ويمنعونهم ورد مياه نهر العاصي معرضينهم للعطش والهلاك كما دأبوا على عبور نهر العاصي وقطعوا الإمدادات والمؤن عن المعسكر الصليبي ، واشترك الأتراك في الهجوم على المعسكر ذاته ، حيث ظفروا ببعض الغنائم والأسلاب كل ذلك والفرنج معتمدين بأحد التلال ، يرفضون الدخول في معركة فاصلة مع المسلمين « فضيق عليهم عسكر المسلمين الميرة ولزومهم بالقتال والفرنج يحفظون نفوسهم ولا يعطون مصافاً ، (٣) ولما اشتد ضجر الفرنج واستبد بهم الخوف انهمزوا فرصة خروج المسلمين لصلاة الجمعة في جامع شيزر فرحلوا قاصدين أقامية ولكنهم تجاوزوها ، ولما تنبه المسلمون لذلك تبعوهم ، وتخطفوا أطرافهم ومن

(١) « البلد » هو القسم من شيزر الواقع ضمن القلعة و « المدينة » هو القسم الواقع على النهر قرب الجسر .

(٢) أسامة : كتاب الاعتبار ص ٦٨ — ٦٩

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢٦٣ (سنة ٥٠٥ هـ)

ابن العديم : زبدة ، ج ٢ ص ١٦٠ — ١٦١

ابن القلانسي : ذيل ص ١٧٧ ، أسامة : الاعتبار ص ٦٩

ظفروا به ، وعلى هذه الصورة انتهت هذه الحائقة من الجهاد التي ظهر من خلالها أحدانها حرص أمير شيزر على المشاركة فيها بنفسه وقواته ، وكسب ود قائدها والقائمين عليها وليس من شك في أنها لحظة طيبة لهذه الإمارة العربية في حركة الجهاد الديني .

تزعّم حركة الجهاد بعد مودود القائد آقسنقر البرسقي أمير الموصل . لكن جهود هذا القائد اقتصرّت في هذا الدور على مهاجمة الرها اللاتينية سنة ١١١٤ م (٥٠٩ هـ) دون العبور إلى بلاد الشام ، ولهذا لم تتح له فرصة الانصال بالقوى الإسلامية في بلاد الشام ولم يجر بينه وبين أمير شيزر حينئذ تخطيط ومشاركة بل أن فشل هذا القائد أمام الرها وتعرضه للهزيمة على أبدى الأرائقه أدى إلى إعفائه من زعامة الحرب المقدسة ومن إمارة المراحل حيث عهد السلطان محمد بقيادة جيوشه المنفذة إلى بلاد الشام إلى ثالث شخصية من قادة الحرب المقدسة على عهده وهو الأمير برسق بن برسق (١) .

وعلى الرغم من أن ارتباط إمارة شيزر للعربية بحركة الجهاد قد يفسر بأنه رد فعل طبيعي لتعرضها للخطر الصليبي في أنطاكية ولهجمات جيش أنطاكية الذي دأب على الإغارة عليها وعلى توابعها (٢) ، وقد يفسر أيضاً بأنه نفس النهج الذي دأب على اتباعه أمراء بني منقذ تجاه القوى الكبرى في محاولة اكسب صداقتها وودها ومجاراتها والتكيف السريع معها بما يضمن أمنها .

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢٦٩ ، سبط بن الجوزي : مرآة ، ج ١٠ ورقة ٣٢٤

(٢) Grousset : cp. cit. I. p. 498

واستقلالها على الرغم من ذلك إلا أنه يبدو أن أمير شيزر كان يأمل كثيراً في جهود السلاجقة وجهادهم ومشروعهم الكبير لتحرير الأرض العربية وتغريب الأوضاع التي أمست فيها البلاد، وإنزال ضربة قاضية بالكيان اللاتيني فيها. حقيقة كان الخطر الصليبي ماثلاً أمام تلك الإمارة الصغيرة بما يغريها بالارتقاء في أحضان القرى الكبرى إلا أن مشروع الجهاد في حد ذاته كان ولا بد سيجذب مثل هذه الإمارات الصغيرة للمشاركة فيه، خاصة وأن قادة تلك الحرب المقدسة كانت لهم شهرة دائمة حينئذ بحكم قيادتهم جيوش أكبر قوة إسلامية في المشرق، الأمر الذي يوحى بنجاح أكيد لحركتهم المقدسة.

وما يعنيننا من ذلك كله أن إمارة شيزر لم تزل على عهدتها بالنسبة لفكرة الجهاد ولم تزل متشبثة بأهدافها في الوقت الذي انصرفت معظم القوى الإسلامية عنها بل وأضمرت العداء لجيوش السلطان، وشارك أمير شيزر في هذا الاتجاه أمير حمص خيرخان بن قراجا مع اختلاف الهدف إذ كان الأمير يأمل في الاستيلاء على حمص التابعة لطغتكين والتي بفضلها كان طغتكين بطوق إمارته (١) وخاصة وقد ساءت علاقة طغتكين بالسلطنة بسبب إغتيال مودود في دمشق سنة ١١١٣ م (٥٠٧ هـ) وبسبب ميله إلى صف إيلغازي الأرتقي الذي شق عصا الطاعة على السلطان وحارب جيوشه سنة ١١١٤ م.

وكان أن وصل برسق بن برسق إلى حلب سنة ١١١٥ م (٥٠٩ هـ) آملاً

أن يتخذ منها قاعدة يشن منها هجومه على الصليبيين ويؤدب أيضا الإمارات الإسلامية المخالفة المذشقة على طاعة السلاجقة . لكن المتصرف في شئون حاسب حينئذ وهو لؤلؤ الخادم ومقدم عسكره شمس الخواص أظهر عداؤه له بل وأمرعا بالكنابة إلى طغتكين وإيلغازي ، فلم يتردد هذان الأميران في التحالف مع الفرنج للتصدي لجيش برسق وجرى تخطيط بين الخانيين فعلا لذلك (١) .

لهذا رحل برسق إلى حلفائه أمراء شيرز ، فخرج بنومنقذ للقائه وأظهروا الحفاوة به في الوقت الذي تجمعت القوات الصليبية من أنطاكية وبيت المقدس وطرابلس والتحقّت بالقوات الإسلامية الخليفة تحت زعامة طغتكين وإيلغازي بن أرتق هند أقامية (٢) . ولما رآه برسق من اتحاد كلمة المسلمين والصليبيين لمواجهة أثر التظاهر بالانسحاب بجنوده تجاه الجزيرة ومعه جيش شيرز وعندئذ تفرقت القوات الصليبية الإسلامية المتحالفة ، لكن برسق عاد فانقض مسرعا على كفر طاب التابعة لأنطاكية الصليبية واشترك معه في هذا الهجوم بنو منقذ على رأس قواتهم كما يصف أسامه الذي شهد هذه الحرب ، فقَاتلوا حاميتها للصليبية وأخذوا ينقبون أسوارها والإفرنج قد أيقنوا بالهلاك (٣) وكان المسلمون قد أعدوا العدة لذلك إذ يقول أسامة : « وقد لبسنا وزحفنا

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢٦٩ (سنة ٥٠٨ هـ)

ابن العديم : زبدة ج ٢ ص ١٧٤ ، أسامة : الاعتبار ص ٩٠ — ٩١

(٢) Grousset : op. cit. I. p. 278, 503

(٣) أسامة : كتاب الاعتبار ص ٧٣

إلى الخندق لنهجم على الحصن إذا وقع البرج » وانتهى الأمر بالاستيلاء على هذا الحصن وسلمه برسق لحلفائه بنى منقذ في سبتمبر سنة ١١١٥ م (جمادى الأولى سنة ٥٠٩ هـ) (١) .

اتجه برسق بعد ذلك إلى أفامية لكنه تحول عنها إلى المعرة ثم سار شمالا إلى دانيث حيث عسكر عندها ، وقد صاحبه جزء من جيش شيزر تحت قيادة الأمير مرشد بن منقذ — والد أسامة — غير أن برسق تعرض لمؤامرة رخيصة لعب فيها لؤلؤ الحادم وشمس الخواص دورا حقيقيا إذ كانا على صلة بروجر الأنطاكي يكشفان له أخبار الجيش الإسلامي أولا بأول بعد أن احتمالا في في تفريق قوات برسق وعند تل دانيث تسلل الصليبيون بقيادة روجر تحت جنح الظلام وفاجأوا قوات برسق في صباح يوم ١٤ سبتمبر سنة ١١١٥ م وهي في غير نظام أو احتراس فأثروا بها مذبحة رهينة وفر برسق نفسه وقليل من أهله في حين وقع القتل والأسر في أغاب قواته (٢) . وعاد من سلم من قوات شيزر مع الأمير مرشد بن منقذ إلى كفر طاب ، في حين كان أسامة ابن منقذ وبعض رجال شيزر ماضين في تعمير كفر طاب معتقدين أنها غدت حصينة مشاركتهم في تلك الحرب وأنها أصبحت في ظل نفوذ القوات الإسلامية في مأمن من الفرنج ، فلما انهمزم برسق وتشعث جيشه وانتقلت قواته لم يجد بنو منقذ بدا من إخلاء كفر طاب وفكر كتمانها وعدنا إلى شيزر

(١) نفسه ص ٧٤ — ٧٦

(٢) ابن العديم : زبدة ج ٢ ص ١٧٥ — ١٧٦

ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ٢٦٩ (سنة ٥٠٩ هـ)

مع الوالد ، وقد أخذ كل ما كان معه من الخيام والجمال والبغال والبرك والتحمل ... وعاد الفرنج لعنهم الله إلى كفر طاب عمروها وسكنوها ، (١) . وعلى هذه الصورة انتهت تلك النوبة من الجهاد ضد الصليبيين وضح من أحداثها استمرار تعلق شيزر بهذه الحركة واستمرار مشاركتها فيها بكل ما تستطيع بل إنها كانت إحدى إمارتين إسلاميتين وحيدتين بقيتا على ولائها للسلاجقة وجيوش السلطان المنفذة للجهاد في بلاد الشام .

كانت حملة برسق سنة ١١١٥م (٥٠٩هـ) آخر رحلة أنفذها السلطان محمد بن ملكشاه لحرب الفرنج ، وآخر محاولة قام بها هذا السلطان للجهاد ضد الصليبيين اقتنع بعدها بعث تلك المحاولات طالما أفقر أمراء الشام أنفسهم نفوسهم صادق وحقيقي لحركة الجهاد المقدس ضد الصليبيين وجدية السلطنة في محاولة طرد أوائك الغزاة وطالما ناصبوا جيوش السلطنة العداوة وحالوا الفرنج . وبوفاة السلطان محمد سنة ١١١٨م (٥١٢هـ) انتهت مرحلة هامة في حركة الجهاد المقدس بينما ظلت إمارة شيزر متحفزة للمساهمة في تلك الحركة مع من يرفع اللواء من جديد ضد الصليبيين .

تزعم حركة الجهاد بعد وفاة السلطان محمد — الأرائقة التركمان بقيادة إيلغازي بن أرتق الذي استطاع ضم ميافارقين إلى إمارته في ماردين وقوى من سلطته في شمال العراق ثم ما لبث أن ضم إليه حلب سنة ١١١٨م ، فربط بذلك شمال العراق بشمال الشام ووضع أسس الجبهة المتحدة التي نمت على عهد زنكي بعدئذ وابنه نور الدين محمود .

(١) أسامة : الانتصار ص ٧٦

شن إيلغازي حرباً ضارية ضد صليبي أنطاكية واستطاع أن ينزل بجيش روجر الأنطاكي هزيمة ساحقة — كما سبقت الإشارة — في إبادة شبه تامة في موقعة البلاط سنة ١١١٩ م (٥١٣ هـ) حتى اشتهرت تلك الموقعة عند الصليبيين بساحة الدم لكثرة من صرع فيها منهم حتى لقي روجر الأنطاكي نفسه حتمه مع كثير من رجالات أنطاكية الميرزبن فضلاً عن حمل منهم أسرى إلى حلب^(١).

ويحدثنا أسامة بن منقذ أن إمارة شيزر ساهمت في هذه النوبة من الجهاد أيضاً على الرغم من أن أميرها سلطان كان قد توصل إلى نوع من المهادنة مع روجر الأنطاكي بعد هزيمة برسق، وعلى أثر تلك المهادنة تحسنت العلاقات بين شيزر وأنطاكية^(٢)، لكن حينما أحس سلطان باحتشاد جيش إيلغازي لحرب أنطاكية لم يردأ من الاشتراك مع ذلك الموكب المقدس، ولم يستطع أن يفض الطرف عما يجري في الشمال فضرب عرض الحائط بالهدنة مع أنطاكية وسار بجيشه للالتحاق بالقوات الإسلامية بينما خاف بشيزر أخاه مرشد.

ويفهم من كلام أسامة أن عمه قد وصل إلى إيلغازي بعد انتهاء موقعة البلاط

Guillaume de Try, p. 523

(١)

Grousset : op. cit. I. p. 551

Runciman : op. cit. II. p. 149

Smail : Crusading warfare p. 57

Lane-poole : Saladin. pp. 47-8

ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ٢٨٤ (سنة ٥١٢ هـ)

ابن القلانسي : ذيل ص ٢٠٠ — ٢٠١ ، ابن العديم : زبدة ج ٢ ص ١٨٨ — ١٨٩

(٢) أسامة كتاب الاعتبار ص ٨٧

مع الصليبيين ، لكنه — مع ذلك — لم يبادر بالعودة إلى شيزر بل شارك
إيلغازى وطغتكين بعدئذ جهودهما في الشمال ، وكان سلطان قد حرص قبل
مسيره من شيزر أن يوصي أخاه مرشد بتسيير أسامه الاغارة على أقالمة التابعة
للفرنج للاستفادة من الارتباك الذى أصاب الصليبيين في الشمال من ناحية ولتوقع
خلو أقالمة من حاميتها حينئذ- بسبب احتشاد الجيش للصليبي كله في البلاط من
ناحية أخرى ، وقد قام أسامة فعلا بالمهمة وسرت في نفر قليل ما يلحق عشرين
فارسا ونحن على يقين أن أقالمة ما فيها خيالة ، ومعى خلق عظيم من النهاية
والبادية ، ولكن ما كاد أسامة يغير على أقالمة حتى خرج لايهم جمع كبير من
الفرسان ، وكان قد وصلها تلك الليلة ستون فارسا وستون راجلا ، ودارت
الحرب ضارية أبلى فيها أسامة بلاء حسنا واستطاع أن يهزم الفرنج والعودة
بجموعه إلى شيزر (١) فيما كان إيلغازى وحلفاؤه يقومون باسترداد بعض
توابع أنطاكية من قلاع وحصون قريبة .

وعلى الرغم من أننا نجهل الدور الذى قام به جيش شيزر بقيادة الأمير
سلطان إلى جانب إيلغازى وطغتكين إلا أنه من المرجح أنه اشترك معهما في
الاغارة على أرتاح والأنارب وزردنا من توابع أنطاكية ، كما أفاد من هذه الأحداث
بالاستيلاء على حصن زور غربى البارة ثمنا لهذه المشاركة (٢) ، بل أن سلطان
تشجيع بعد موقعة البلاط فقطع الجزية التى كان يقدمها لأنطاكية . فلما هدأت

(١) أسامة بن منقذ : الاعتبار ص ٤٠ — ٤١

(٢) ابن العديم : زبدة ج ٢ ص ١٩٢ — ١٩٣

الأحوال في الشمال في سنة ١١٢٠ م (٥١٤ هـ) ورجع لبغاوى إلى شمال العراق ،
 حاد فرنج أنطاكية لمهاجمة أملاك شيزر مطالبين باستئناف حمل ما كان مقررا
 عاينها من المال ، فلم يجد سلطان بدا من العودة لمصالحتهم « فيجعل لهم مالا
 حملة وصالحهم إلى آخر السنة » (١) .

تزعّم بلك بن بهرام الأرمني حركة الجهاد الديني ضد الصليبيين بعد وفاة
 لبغاوى واستطاع هذا المجاهد أن يأمر جوسلين أمير الرها سنة ١١٢٢ م —
 (١١٦ هـ) — كما سبقت الإشارة — ويأسر الملك بلدوين أيضا سنة ١١٢٣ م ،
 وقد ظلت إمارة شيزر العربية تتابع جهود بلك متحفزة دون استطاعتها
 المشاركة فيها بسبب انصراف ملك الحرب الصليبيين في أطراف العراق وعدم
 تكريس جهوده ضدهم في بلاد الشام (٢) لكن ضعف بلك على القوى الصليبية
 في الشمال أفاد — دون شك — شيزر كثيرا لأنه كبح جماح الفرنج في أنطاكية
 بصفة خاصة ، وأعطى فترة هدوء نسبي في وسط بلاد الشام ، لزوغ مرحلة
 جديدة في العلاقات بين شيزر وصليبي أنطاكية ، حتى قام أبو العساكر سلطان
 بالوساطة لدى الأراقة في حلب لفك أمر الملك بلدوين كما سبقت الإشارة .

لكن ترتب على مقتل بلك بن بهرام سنة ١١٢٤ م (٥١٨ هـ) وتنازع الأراقة
 بعده وضعف سلطانهم أن تعرضت حلب لهجوم الفرنج بالاشتراك مع الأمير

(١) نفس المرجع ج ٢ ص ١٩٧

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٣١٣ ، ابن القلانسي : ذيل ص ٢٠٩

Cahen: Encyc. Isl. art «Artukid's»

Grousset : op. cit. I. P. 587

العربي ديبس صدقة بن مزيد^(١) الذي طمع فيها وأغرى الفرنج بالاشتراك معه في الهجوم عليها ، مما أدى إلى قدوم البرسقي أمير الموصل سنة ١١٢٥ م (٥٤١٩ هـ) لانقاذها من ناحية واستئناف حركة الجهاد من ناحية أخرى ، وقد وفق البرسقي فعلا في طرد الغزاة عنها. بل راح ينظم شؤون الجبهة الإسلامية في بلاد الشام استعداداً للقتال ضد الصليبيين

أخذ البرسقي حينئذ يهيء قوات الإمارات الإسلامية في الشام فنزل تل السلطان حيث استقبل خير خان بن قراجا أمير حمص ثم عرج على شيزر فخرج إليه أميرها سلطان بن منقذ للقاءه والختاوة به ، بل لأنه سارع بتسليمه رهائن الفرنج المحتجزين بشيزر منذ إطلاق سراح بلدوين^(٢) ، ثم سار للبرسقي بعدئذ إلى حماه حيث استقبل بها الأتابك طغتكين على رأس قواته .

وليس من شك في أن قوات شيزر قد شاركت البرسقي الحرب التي دارت بعدئذ بينه وبين قوات الفرنج بقيادة الملك بلدوين الثاني سنة ١١٢٥ م عند معزاز وتعرضت هي الأخرى للهزيمة التي نجرت عنها القوات الإسلامية في تلك الموقعة وهي التي جمدت الأوضاع في أواسط بلاد الشام وحوض نهر العاصي من جديد ، وجعلت شيزر تلزم سياسة الدفاع من جديد ، وخاصة وقد آلت

(١) ابن العديم : زبدة ص ٢٢٣ ،

ابن المؤزى : المنتظم ج ٩ ص ٢٣٣ ، ص ٢٤٣

Snail : op cit. p. 30

(٢) ابن العديم : زبدة ج ٢ ص ٢٢٢

أنطاكية سنة ١١٢٦ م إلى بوهيموند الثاني الوافد من الغرب الأوربي بحماسة الباغية واندفاعه الأدهوج ، والذي وصفه أسامه من أجل ذلك بأنه كان باية عظيمة على المسلمين . كل ذلك قبل أن يبرغ عهد جديد في تاريخ بلاد الشام حين يستولى الأتابك عماد الدين زنكى على حلب ويضمها إلى الموصل ويرسي دعائم الجبهة الإسلامية في الشمال ابتداء من سنة ١١٢٧ م (٥٢١ هـ) ويفتح فصلا جديدا في قصة الجهاد المقدس ويتحمل عبء الحرب ضد الصليبيين نيابة عن الإمارات الصغيرة في بلاد الشام ، إلى أن ينجح في إسقاط الرها الصليبية سنة ١١٤٤ م (٥٢٩ هـ) كما هو معروف .

سلطان ومؤامرة الباطنية ضد شيزر :

أضحت بلاد الشام في القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) مسرحا خصبا لاتباع المذاهب الشيعية المتطرفة ، وغلاة التشيع أمثال الدروز والرافضة والنصيرية والباطنية وغيرهم من الفرق الإسلامية المتطرفة . وليس من شك في أن هذه الجماعات كانت تطمح في فرض وجودها في بقاع الشام متخذة من أسلوب القهر والاغتيال والمغامرة سبيلا إلى ذلك .

وقد شهد حوض نهر العاصى والجهات الساحلية الوسطى من بلاد الشام نشاطا كثير من هذه الفئات أشرنا فيما سبق إلى بعض أخبارهم (١) ، فها أن ما بهمنا الآن ما حدث من تدبير جماعة الباطنية لمؤامرة كبيرة للاستيلاء على شيزر في عهد سلطان ، إذ يبدو أن موقع شيزر وحصانتها وملائمتها لإيواء أتباع

(١) الأضارى الدمشقي : نذبة الدهر ص ٢٠٠ ، ص ٢٠٣ ، ص ٢١١ ، ص ٢٣٣

مثل هذا المذهب المتطرف قد أغرى الباطنية بالاستيلاء عليها وتحولها إلى مركز للدعاية الاسماعيلية في المنطقة . والمعروف أنهم لجأوا للقلاع وحصون قوية منيعة اتخذوها مأوى وملاذا وجعلوها ركائز لدعايتهم مثل حصن مصياف وبانياس والمرقب والقدموس والخوابي وغيرها من الحصون الشهيرة بموقعها وملائمتها لأغراض هذه الفئة .

وعلى الرغم من أن مؤامرة الباطنية ضد شيزر قد اقيمت انهماكاً بالقاء من قدامى المؤرخين أمثال ابن القلانسي وابن الأثير وسبط بن الجوزي وابن الوردي فضلاً عن أسامة بن منقذ إلا أن روايات أولئك المؤرخين اختلفت فيما يختص بهذه الحادثة .

أما أسامة فقد أشار إليها في كتاب الاعتبار ثلاث مرات إشارات مقتضية لاسيما إلى الاعتماد عليها في تناول هذه الحادثة أو التاريخ لها ، فضلاً عن أنه لم يعين لنا تاريخها ولم يحدد وقت وقوعها على عادته في كتاب الاعتبار (١) .

وتشير روايات المؤرخين القدامى - غير أسامة - إلى أن الباطنية لما كانوا في ذلك طريق الخداع والدهاء ، واعتمدوا في الاستيلاء على شيزر على حزب لهم في المدينة ورجال من أتباعهم من أهل شيزر ذاتها ماونوهم في تلك المهمة وساعدوهم في تنفيذها فانتهزوا فرصة نزول بني منقذ من شيزر لمشاهدة عيد الفصح عند النصاري ، فوثب نحو مائة رجل من أهل أفامية

(١) أسامة بن منقذ : الاعتبار ص ٧٧ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ص ١٦٢

ومعرة النعمان ومعرة مصرين والتأموأ إلى أتباعهم في الحصن فملكوه « على حين غفلة من أهله » وسارعوا بإغلاق الأبواب والتحكم في مداخل شيزر ومنع أحد من الدخول إليها ، فغدت المدينة تحت رحمتهم ، وكادت خطتهم تكمل بالنجاح .

وحينما تنبه بنو منقذ إلى ما حدث وعادوا إلى شيزر وجدوا أبوابها قد أغلقت والباطنية قد تحكروا في مداخلها ، لكنهم مع ذلك لم ييأسوا وقامت نساؤهم بدور كبير حينئذ وعاونوهم في تسلق الأسوار بأن « أدلوا لهم الحبال من الطاقات » فنجح بنو منقذ ورجالهم في دخول المدينة وسرمان ما اشتبكوا في قتال مرير مع الباطنية في شوارع شيزر وبيوتها وحاراتها وحاصروهم في كل مكان « وكبروا عليهم وقتلوهم فأنخذل الباطنية وأخذهم السيف من كل جانب فلم يفلت منهم أحد » برغم ما أبدوه من شجاعة وفداية وما اتصفوا به من جرأة وحماسة ، وانتهت هذه المؤامرة الباطنية في مهدا وعانت شيزر إلى أصحابها بنو منقذ .

وبعد تطهير شيزر من الباطنية التفت بنو منقذ إلى أعوانهم من أهل المدينة وإلى الحزب الذي عاضدهم وساعدهم في تلك المؤامرة ومن يميل إلى آرائهم فقتلوهم أيضا واستصفوهم « وقتلوا كل من كان على رأيهم في البلد من الباطنية » وبذلك قضوا على الفتنة واستعادوا المدينة . ومنذئذ احترس بنو منقذ كثيرا ولم يغامروا بعدئذ بالخروج جميعا لأي سبب « فما كان يغيب واحد إلا ويحضر آخر » خوفا من أن يشب الباطنية من جديد

على شيزر (١) .

تلك هي رواية أغاب المؤرخين عن هذه الحادثة ، أما تاريخها فقد اختلفوا فيه ، فابن الأثير يذكر أنها حدثت سنة ٥٠٢ هـ (١١٠٩ م) وجاراه في ذلك المؤرخ ابن الوردي ، لكن ابن القلانسي وسبط بن الجوزي جعلها في سنة ٥٠٧ هـ (١١١٣ — ١١١٤ م) وعلى الرغم من صعوبة ترجيح أحد الاتجاهين على الآخر ، إلا أن التاريخ الذي حددته كل من ابن القانسي وسبط بن الجوزي يكاد يقرب من الحقيقة . ففضلا عن أننا نجد في حديثها عن هذه المؤامرة بالذات إفاضات لانجدها عند ابن الأثير وغيره مما يؤكد أنها استتيا مادتها من مصادر أكثر وأوفر وأخصب وربما أوثق ، فإن أحداث بلاد الشام تؤكد أن سنة ٥٠٧ هـ والسنوات القليلة السابقة شهدت نشاطا جماعيا للجماعات الباطنية بعد أن استفحل خطرهم في حلب على عهد رضوان بن نتش الذي كان يشجعهم ويميل إلى مذهبهم (٢) فنجحوا في اغتيال جناح الدولة الحسين في حمص سنة ١١٠٣ م (٤٩٧ هـ) وخلف بن ملاعب في أقالية سنة ١١٠٩ م (٥٠٠ هـ) وكذلك استفحل خطرهم في الجنوب حيث نجحوا في اغتيال شرف الدين مودود سنة ١١١٣ م (٥٠٧ هـ) ، ولابد وأنهم أحسوا أنهم غدوا مكروهين في حلب بعد وفاة رضوان سنة

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢٥٧ ، ابن القلانسي : ذيل ص ١٩٠ — ١٩١

سبط بن الجوزي : مرآة ج ١٠ ورقة ٣١٥ ، ابن الوردي : تاريخه ج ٢ ص ١٩

Runciman : op. cit. II. P. 121

(٢)

ابن المديم : زبدة ج ٢ ص ١٥١ ، ابن القلانسي : ذيل ص ١٨٩

١١١٣ م وأن موقفهم صار حرجا فدفعهم ذلك لمحاولة الاستيلاء على شيزر (١) مغللا بد وأن حادثة شيزر كانت سنة ٥٠٧ هـ لأنها تنطوي على مغامرة أكبر من اغتيال حاكم أو أمير أو قائد لترقى إلى الاستيلاء على إمارة برمتها وحصن منيع ومعقل إسلامي كبير . وهذا لا ينفى أن تكون شيزر قد تعرضت لمؤامرة أخرى من قبل الباطنية أيضا سنة ٥٠٢ هـ ، قضى عليها هي الأخرى وانتهت في مهدها . ما يهمني من ذلك كله نجاح سلطان في التغلب على تلك العقبة والقضاء على تلك الفتنة .

على أن أسامة قد أسهب في وصف بطولات قومه ورجالهم إبان تلك الحادثة ، حتى لقد اقتصر حديثه عنها على بطولات الرجال ونماذج من شجاعتهم (٢) وساعده على ذلك أنه اشترك بنفسه في القتال الذي دار من بيت إلى بيت على حد قوله ... وقضى على نفر من الباطنية بعد قتال مرير أثبت فيه أولئك الباطنية قوة مراس وشدة تعصب وتفان في بذل النفس في الحرب (٣) .

ولم تصف الجيوب الباطنية في شيزر نهائيا إلا بعد أن قدم بنو منقذ ورجالهم صورا حية من الشجاعة والفروسية قابلوا بها استماتة أولئك المنتظرين للعود شيزر مرة أخرى إلى أصحابها ويطرد بها حكم سلطان وتزيد هيبتها .

(١) سعيد عبد الفتاح حانور : الحركة الصليبية ، ج ١ ص ٥٥٥

(٢) أسامة : الاعتبار ص ١١٦ ، ص ١٦٢

Browne : op. cit. p. (٥٥-٥٨)

(٣) الراوندي : راحة الصدور ص ٢٣٥ ،

Camb. Med. Hist. Vol. 4. p. 311

بنو منقذ والبيزنطيون

سبقت الإشارة من قبل إلى أن شيزر كانت تابعة للإمبراطور البيزنطي
الإكسيوس كوهين سنة ١٠٨١ م. بمقتضى اتفاقية عقدت بينهما وبين أسقف البارة
الذى اتخذ شيزر مقرا له (١) فلما وفق شديد الملك بن منقذ فى الاستيلاء على
شيزر بما بذله من أموال للأسقف سمح للحامية البيزنطية بالرحيل عنها بسلام،
ولم تبد الإمبراطورية حينئذ اهتماما بأمر شيزر ، ولم تحاول العمل على
استردادها ، مما أتاح لبني منقذ فرصة الاستمرار فى الاستقلال بهادون
مضايقة من قبل الإمبراطورية ، وساعد على ذلك ما حدث من غزو الصليبيين
للمنطقة بعد ذلك بسنوات قليلة من ناحية ، وما أُمست فيه الإمبراطورية
ذاتها من مشاغل من ناحية أخرى ، فضلا عن أن قيام إمارة أنطاكية
الصليبية إلى الشمال من شيزر كان بمثابة حاجز بين شيزر فى حوض نهر العاصي
الأوسط ومجال النفوذ البيزنطي .

اكن الأمور تطورت فى بلاد الشام فى سنة ١١٣٧ — ١١٣٨ تطورا
وضع القوى الإسلامية — ومن بينها شيزر — أمام عداء بيزنطي قدر له أن
ينضاف إلى العداء الصليبي اللاتيني التقليدى ، رغم ما كان بينهما من قبل من
التباين والخلاف ، الذى اختفى وحل محله تحالف ووثام وجه ضد القوى
الإسلامية فى بلاد الشام وشيزر بصفة خاصة .

ذلك أن إمبراطور الدولة البيزنطية حنا كومنين (١١١٨ — ١١٤٣ م) كان أكثر طموحا من والده ألكسيوس كومنين (١٠٨١ — ١١١٨) ، إذ كان حنا قائدا حربيا ماهرا ، لم يقنع كوالده بما اختلسته الامبراطورية من نفوذ في آسيا الصغرى على أثر تقدم الصليبيين ، ولكن همته ارتقت إلى استعادة مجد الامبراطورية ونفوذها فيما كان خاضعا لها من قبل من البلاد في المنطقة، وقد نجح حنا كومنين فعلا في استرداد كثير من إمالك الامبراطورية في آسيا الصغرى على حساب سلاجقة الروم وبيت الدانشمند ، وكذلك على حساب الأرمن في قيليقيا (١) ، ولكنه مع ذلك كان دائم التطلع إلى أنطاكية باعتبارها كانت درة في عقد أملاك الإمبراطورية البيزنطية في الشرق (٢) .

وإذا فشل حنا كومنين في ربط إمارة أنطاكية بالتبعية للامبراطورية عن طريق عقد مصاهرة سياسية بين أحد أمراء أسرته وابنة روجر الأنطاكي في عام ١١١٩م (٥١٣ هـ) على أمل أن يؤدي هذا الحل ولو مع مضي الزمن إلى عودة أنطاكية إلى حظيرة الإمبراطورية (٣) ، ثم كان زواج كونستانس الوريثة الشرعية لإمارة أنطاكية من ريموند دي بواتيه سنة ١١٣٦م فيه ضياع

(١) أسد رستم : الروم والعرب ج ٢ ص ١٤١

Chalandon : Les Commenes, II p. 107-8

Diehl : op. cit. p. 112

(٢)

Camb. Med. Hist. 4. P. 358

Ostrogorsky : op. cit. p. 336

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٨٢

لآخر أمل للإمبراطورية في استعادة هذه الإمارة سلميا ، لذا قرر حنا كومنين قيادة جيشه في يوليو سنة ١١٣٧ (٥٥٣٢) والزحف إلى أنطاكية لمتحقيق هدفه بالقوة (١) .

فرض حنا كومنين الحصار على أنطاكية في أواخر أغسطس سنة ١١٣٧ م ، وأصبح موقف أميرها ريموند دي بواتيه حرجا ، ومع هذا أحس الإمبراطور بقوة تحصينات المدينة وحسن الدفاع عنها ، فضلا عن أنه خشى أن يؤدي تقويض دعائم الحكم الصليبي بها إلى استفادة المسلمين من ذلك لاسيما زنكي الذي كان يعمل حينئذ على توحيد الجبهة الإسلامية في بلاد الشام وشمال العراق ، فمال الإمبراطور إلى عدم انتحامها بالقوة . هذا في الوقت الذي لم يكن ريموند يأمل في نجدة صليبية من المملكة في الجنوب بسبب الظروف التي تعرض لها الملك فولك الأنجوى أثناء حربه مع زنكي عند بعري (٢) ، ولأن الملك كان يؤمن بأن أنطاكية كانت فعلا من أملاك البيزنطيين ، فإنه

(١) Grousset : cp. cit. II. pp. 90-19

(٢) استطاع زنكي أن يهزم القوات الصليبية بقيادة الملك فوكوريموند الثاني أمير طرابلس عند حصن بعريين قرب حماه في نهاية يونيو سنة ١١٣٧ حيث وقع أمير طرابلس في الأسر بينما فر الملك فولك إلى بعريين لتحصن بها فتحصره زنكي حتى أجبره على التخلي عن الحصن وحصل منه على فدية كبيرة تقدر بخمسين ألف دينار نظير إطلاق سراحه

Guillaume de Try. pp. 643-5

Grousset : cp. cit. II. P. 57

Smail : cp. cit. p. 33

لم يتحمس للدخول في صراع معهم^(١) ، وليس من شك في أن الإمبراطور قد ائتمن أنه بفرض استيلائه على أنطاكية وإخراج الصليبيين منها لا يضمن استمرار الدفاع عنها لبعدها عن مراكز قوته مع تحفز الخطر الإسلامي في المنطقة، كل هذه الأسباب عجلت باللقاء وجهات النظر بين الإمبراطور وأمير أنطاكية الصليبي وأصبحا أكثر رغبة في عقد الصلح وإقرار السلام بينهما.

استمر رأى الإمبراطور في النهاية على إقامة تحالف مع الصليبيين ، وعلى تذيق اليهود معهم في بلاد الشام ، والقيام بحملة صليبية مشتركة لانتزاع بعض المراكز الإسلامية الكبرى ، وتكوين إمارة جديدة ، يعهد بها لريموند دي بواتيه ، لتكون من ناحية حماية لظهر أنطاكية من جهة المسلمين ، ومن ناحية أخرى تعويضاً لريموند عن أنطاكية التي ستدخل في حظيرة الإمبراطورية البيزنطية .

أما المراكز التي رأى انتزاعها من يد المسلمين فهي : حلب وكانت تابعة حينئذ لعماد الدين زنكي ، وشيزر إمارة بني منقذ المستقلة ، وحمص التابعة للأمير دمشق ، وتم الاتفاق بين الطرفين على أن يدخل أمير أنطاكية في نطاق التبعية للإمبراطورية ، ويعترف بسيادة الإمبراطور ويقسم له يمين الطاعة والولاء ، ويسلم المدينة نهائياً للإمبراطور بعد نجاح الطرفين معا في انتزاع المدن المشار إليها وتكوين إمارة واحدة منها تمنح لريموند، وتم الصلح فعلاً وعقدت اتفاقية بهذا المضمون ورفع علم الإمبراطورية على قلعة المدينة على أثر ذلك^(٢) .

Runciman : op cit. I. P. 2(5

(١)

Michaud : op. cit. I. p. 312-3

= Camb. Med. Hist. Vol. 4 p. 359

(٢)

حرص الإمبراطور بعدئذ على تكتم أخبار الحملة المزمع للقيام بها ضد المسلمين للاستيلاء على حلب وشيزر وحمص ، وأصدر أوامره إلى سلطات أنطاكية أن تقبض على كافة التجار والزعماء المسلمين الوافدين من حلب والمدن المجاورة حتى لا ينقلوا إلى زنكي وبنى منقذ أخبار الاستعدادات الحربية التي تجرى على قدم وساق ، فقبضوا على التجار بأنطاكية والسفارة من أهل حلب^(١) ، وذلك في فبراير سنة ١١٢٨ (جمادى الأولى سنة ٥٣٢ هـ) . ووصل الإمبراطور البيزنطي إلى أنطاكية في الشهر التالي واجتمعت لديه قوات الرها تحت قيادة جوسلين وقوات أنطاكية تحت قيادة ريموند دي بواتيه وتقرر الزحف تجاه حلب^(٢) .

وفي طريقه استولى الإمبراطور وحلفاؤه على بزاعا في منتصف أبريل سنة ١١٣٨ (أواخر رجب سنة ٥٣٢ هـ) ومنحت لجوسلين أمير الرها ، ثم فرضوا الحصار على حلب ولكنها صمدت للحصار ، فأقاموا عليها ثلاثة أيام فلم يظفروا بباطل ، فقرروا الانصراف عنها^(٣) ، واتجهوا نحو الأتاب التي فارقه أهلها

Michaud's hist. of the Crusades. I: p. 312

Brehier : vie et mort de Byzance. p. 324

Vasiliev : op. cit II. p. 55

Grousset : L'Empire du Levant. p. 222-3

(١) ابن العديم : زبدة ، ج ٢ ص ٢٦٤ ، ابن القلانسي : ذيل ص ٢٦٤

(٢) Smail : op. cit. p. 33

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٣٥٩ - ٣٦٠ (سنة ٥٣٢ هـ)

ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٧٨ - ٧٩

ابو شامة : الروضتين ج ١ ق ١ ص ٨١ (تحقيق محمد حاملي أحمد)

فاستولوا عليها بسهولة ثم على معرة النعمان في ٢٥ أبريل سنة ١١٣٨ (١٣ شعبان سنة ٥٣٢ هـ) ثم على كفر طاب بعد ذلك بيومين ثم تابعوا سيرهم ناحية شيزر (١) .

والقد نظر الإمبراطور عندئذ إلى مسألة إسقاط شيزر بالذات نظراً لجادة لما أصاب جموده عند حلب من فشل ، فشيزر هي المدينة الثالثة التي خطط لضمها إلى الإمارة اللاتينية المزمع إقامتها ، بل إنها تتوسط المدينتين الأخريتين — حلب وحمص — وتمثل أهم المدن في حوض نهر العاصى الأوسط كما أنها كانت إمارة مستقلة تحت حكم أبى العساكر — ليست من أملاك زنكى وليست من أملاك دمشق ، فلأنها لم تكن لزنكى فلن يكون له في حفظها اهتمام ، وإذا كانت حلب قد صمدت لهجوم الإمبراطور واضطرته للرحيل عنها ، فإنه لا شك نأكد أن حمص التي تلقى عناية خاصة من زنكى ودأباً متواصلاً للفوز بها لن تستطيع هي الأخرى أن تسهم في إقامة الإمارة اللاتينية المرتقبة ، إذن لم تبق سوى شيزر المتمتعة بموقع فريد يمكن أن يكون نواة لأى إمارة يرجى تكوينها في هذه المنطقة ، كما أنه لم يرد — كما يبدو — أن تتميخض حملته للكبيرة بما لقيته من مؤازرة صليبية عن مجزء الاستيلاء على بعض القلاع والحصون الصغيرة دون المدن والإمارات الكبيرة .

لهذه الأسباب كلها نشط الإمبراطور للاستيلاء على شيزر وألقى الحصار عليها في ٢٩ أبريل سنة ١١٣٨ م (٢) بقوات كبيرة وآلات حرب هائلة

(١) ابن العديم : زبدة ج ٢ ص ٢٦٦ - ٢٦٧

(٢) Can.b. Med. Hist. 4. q. 359

(٢)

ومجانيق ثقيلة حتى ليذهب المؤرخ ابن العديم أن الإمبراطور هاجمها . في مائة ألف راكب ومائة ألف راجل ومعهم من الكراع والسلاح ما لا يحصى إلا الله ، (١) ، ويقول المؤرخ ابن القلانسي — المعاصر لهذه الأحداث — أن الإمبراطور هاجمها في عنف بالغ ، ونصب عليها عدة من المنجانيق ، (٢) ويصف أسامة — شاهد العيان لهذه الحرب — ضخامة تلك المنجانيق وقوتها وفداحة ما أحدثته من خسائر بقوله : « ترمى للثقل وتبلغ حجرها ما لا تبلغه النشابة ، ترمى الحجر عشرين وخمسة وعشرين رطلا حتى لقد رموا مرة دار صاحبلي ... فهدمت علوها وسفاهها بحجر واحد ، (٣) » .

اشتد الإمبراطور في الهجوم على شيزرو قتال أهلها في عنف بالغ ، فاضطر أميرها أبو العساكر سلطان للاستنجاد بعماد الدين زنكي ، ولم يكدهذا يتلقى الطلب حتى سارع بإيقاف كل مشروعاته في بلاد الشام وجهوده في توحيد الجبهة الإسلامية ، وبادر بالرحيل إلى شيزرو نصب مخيمه على ضفة نهر العاصي بينها وبين حماة (٤) .

وفي نفس الوقت جرى الدفاع عن شيزرو ، وأظهر أهلها صبرا وجلدا وقوة مراس ، وكانوا يخرجون للاشتباك مع الروم عند أسوار المدينة معرضين

(١) ابن العديم : زبدة ج ٢ ص ٢٦٧

(٢) ابن القلانسي : ذيل ص ٢٦٤

(٣) أسامة : الاعتبار ص ١١٣

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٣٦٠ (سنة ٥٣٥ هـ)

ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٧٨ - ٧٩

أنفسهم للقتل والأسر » وخرج من شيزر جماعة من الرجال للقتال ، فاقتلهم الروم فقتلوا بعضا وأسروا بعضا « (١) . واستمات أهل شيزر في الدفاع عنها ، وبذلوا كل ما في وسعهم لمنع سقوطها في أيدي الغزاة ، على الرغم مما أحدثته المجانيق في استحكاماتها وأبنيتها من خراب ودمار وما أسفرت عنه من خسائر في الأنفس . إذ يحكى أسامه عن مملوك لوالده أن رجلا جاءهم حينئذ مستعرجا مستغيثا قائلا : الروم قد دخلوا إلى شيزر ، فأخذ ناسيوفنا وخرجنا وجدناهم (الروم) قد طلعوا من ثغرة في السور ثغرتها المجانيق ، فضر بناهم بالسيوف حتى أخرجناهم وخرجنا خلفهم حتى أوصلناهم إلى أصحابهم وعدنا » وبينما هذا المتحدث يقف مع الشيخ الذي استصرخهم وفالتفت وإذا الشيخ قد ضربت رأسه حجر المنجنيق كسرتة وأصمقته بالحائط ومخه قد سال على الحائط فحملته واصلينا عليه ودفناه ، ، كل ذلك وأبو المساكر سلطان يشرف بنفسه على القتال وينظم أمر الدفاع عن شيزر ، وضربت حجر المنجنيق رجلا من أصحابنا بنا كسرت رجله فحملوه بين يدي عمي ، فقال : هاتوا الحجر ، فحضر وجلس يجبر رجله ، فضربت الرجل المكسور حجر في رأسه طيرته فدخل الحجر إلى الدهليز فقال عمي ما أسرع ما جبرته قال : يا مرلاى جاءته حجر ثانية أغنته عن التجبير « (٢)

وعلى هذه الصورة جرى الدفاع عن شيزر أربعة وعشرين يوما تحمل بنو منقذ خلالها كثيرا من المتاعب وتعرضوا لخسائر فادحة في الأنفس والعتاد ، ولم

(١) أسامة : الاعتبار ص ٩٢

(٢) أسامة بن منقذ : الاعتبار ص ١١٣ - ١١٤

تكف المجانيق عن ضربهم ليلاً أو نهاراً طوال تلك المدة ، إذ دام القتال بعنف بالغ نحو عشرة أيام ثم اقتصر الأمر بعد ذلك على ضرب المجانيق ، لكن أهل شيزر وفقوا في الدفاع عنها وحمايتها من السقوط. وما ساعدهم على ذلك ورنح من روحهم المعنوية ما قام به عماد الدين زنكى حينئذ من حشد جيشه ونزوله بقربهم وتأهبه للقتال (١)

وعلى الرغم من أن عماد الدين زنكى لم تكن له بالبيزنطيين وحلفائهم قوة ، ولم يستطع الدخول معهم في حرب فاصلة حينئذ إلا أنه أسهم كثير في إجلاء الإمبراطور عن شيزر وكان له ضلع في النهاية الفاشلة التي انتهت إليها الحملة الرومية الصليبية المشتركة ، فلقد سلك زنكى طرقاً مختلفة لارهاب الإمبراطور وبث الرعب في نفوس جنده بينما أرسل يستنجد بالسلطان السلاجوقي مسعود ، كما أخذ يوقع بين البيزنطيين وحلفائهم من الصليبيين ، فبث إلى الإمبراطور يوهنم بخوف الفرنج منه وعزمهم على التخلي عنه ، وفي نفس الوقت أرسل إلى الفرنج يخوفهم — أطماع الإمبراطور وأنه إذا ملك حصناً بالشام فلن يكون لهم مقام معه في تلك البلاد ونجح زنكى فعلاً في بث الفرقة وبذر الشقاق بين الجانبين (٢) .

وفي نفس الوقت كانت الرغبة كامنة لدى ريموند أمير أنطاكية في التخلي

(١) سمط بن لجوزى : مرآة ج ١٠ ص ٤٦٧-٤٦٨

أبو شامة : الرضتين ج ١ ق ص ٨١

Brehier : vie et mort de Byzance. p. 324

Chalandon : op. cit. II, p. 151

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٣٦٠ (٥٣٢ هـ)

ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٨١ - ٨٢

عن هذه الحملة وكان يأمل ألا تسقط شيزر في يد الإمبراطور خشية أن يتمسك هذا بشروط الاتفاقية وبقيمه أميراً عليها ويحرمه من أنطاكية مع الفارق بين الامارتين في كل شيء حتى في الموقع ومدى التعرض للاخطار الإسلامي . هذا فضلاً عن أن جوسلين الثاني أمير الرها مع سوء العلاقة بينه وبين ريموند لم ينظر بعين الرضا إلى أى تغيير قد يؤدي إلى تنصيب غريمه في شيزر وحلب قريباً منه (١) . لهذا كله أصبح اشتراك هذين الأميرين مع الإمبراطور عديم الفائدة وغدا عبثاً عليه أكثر مما كان عوناً له ، وإذا أضفنا إلى ذلك شجاعة حامية شيزر واستمالة رجالها في الدفاع عنها ، تأكدنا أن فشل الحملة الرومية الفرنجية أصبح وشيك الحدوث .

وفي الوقت نفسه تواترت الأنباء بما حدث من رد فعل لدى المسلمين على أثر التقدم البيزنطى الفرنجى في بلاد الشام ، فاستعد السلطان مسعود لإرسال نجدة كبيرة لزنى وتأهب داود بن أرتق للزحف في طوائف التركان ، وكذلك تنامي إلى الإمبراطور أن زنى بعث إلى بنى دانيشمنند بآسيا الصغرى ليهاجروا أملاك الإمبراطورية هناك حتى يضطر الإمبراطور إلى الارتداد للدفاع عما بيده بتلك المنطقة ، وكذلك ذاع أن عسكر دمشق يوشك أن يصل لمساعدة زنى عند شيزر ومقاومة البيزنطيين والفرنج (٢) .

لهذه الأسباب كلها أصبح الإمبراطور البيزنطى أكثر ميلاً لعقد الصلح

Grousset : Hist. des Crois. II. P. 109

(١)

(٢) ابن العديم : زبدة ج ٢ ص ٢٦٨

ابن القلانسى : ذيل ص ٢٦٦

مع أمير شيزر أبي العساكر سلطان ليخرج من هذا المأزق ، فلم يكدر سلطان
يتقدم بطلب الصلح عارضاً دفع مبالغ من المال وجزية سنوية للامبراطور مع
بعض الهدايا الثمينة حتى بادر الامبراطور بالموافقة على الصلح ، وأخذ في
[سحب جيوشه من أمام شيزر عائداً إلى أنطاكية وذلك في مايو سنة ١١٣٨ م .
وعلى هذه الصورة انتهت حملته بالفشل الذريع ولم تحقق أياً من أهدافها ^(١) .
في الوقت الذي نجح فيه سلطان من أكبر خطر مهدد أمنه واستقلاله ونجحت
شيزر من أكبر خطر واجهها على امتداد عهد بني منقذ . وما أن أخذ زنكي
يمحو آثار المدوان البيزنطي الفرنجي باسترداد كفر طاب وبزاعا والأثارب
حتى أخذت الحياة تسود رنية هادئة في شيزر وضواحيها وبطارد حكم أبي
العساكر سلطان بها وتصفوا له مشاربها نحو ستة عشر عاماً أخرى حتى سنة
١١٥٤ م حين تؤول إلى آخر أمير من بني منقذ قبل أن يلاحقها الخراب
والدمار في سنة ١١٥٧ كما سيلى .

(هـ) نهاية بنى منفذ

سنة ١١٥٧ م (٥٥٧ هـ)

ظل أبو العساكر سلطان أميراً على شيزر مدة طويلة أكثر من نصف قرن من الزمان حتى توفي سنة ١١٥٤ م (٥٤٩ هـ) بعد عمر مديد وعهد حافل وعلى الرغم من ضآلة المعلومات التي وصلتنا عن الفترة الأخيرة من حكم سلطان إلا أن ثمة دلائل تشير إلى أنه لم يلق أية مصاعب في شيزر من قبل جيرانه من الصليبيين خاصة بعد أن ولى حلب نور الدين محمود بن زنكى ابتداء من سنة ١١٤٦ م (٥٤١ هـ) بعد مقتل عماد الدين زنكى ، فقد تكفل نور الدين بتقليم أظفار الفرنج الذين بدا أنهم أخذوا في الترنج بعد وفاة فواك الأنجوى سنة ١١٤٣ (٥٣٨ هـ) وهدم إمارة الرها اللاتينية سنة ١١٤٤ م (٥٣٩ هـ) وبرز الجبل الثانى من الفرنج في بلاد الشام على حد ماذهب اليه المؤرخون المحدثون في الغرب ، إذ تتحدث المراجع عن نشاط جم لنور الدين ضد الصليبيين وتحفزه الدائم لاسترداد كل مايسطيع من قلاع وحصون ، ولعل مايمدنا من ذلك اهتمامه بتأمين حوض نهر العاصى وحرمان الفرنج من بعض القلاع الخطرة بالنسبة للمراكز الإسلامية في تلك البقاع خاصة حصن ألامية الذى فشلت قوات شيزر أكثر من مرة في الاستيلاء عليه ، فقد قام نور الدين سنة ١١٥٠ م (٥٤٥ هـ) بحصاره والاستيلاء عليه بسرعة قبل أن يتلقى نجدة من الفرنج ، فأمنت شيزر بذلك من جهة ألامية ، وخاصة وأن هذا الحصن كان قد أقيم على تل عال من أحصن للقلاع وأمنعها ، (١) ، فلما وقع في

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٣٠

يد نور الدين اطمأنت شيزر من هذه الناحية وسارت الأمور في أخريات أيام سلطان في شيء كثير من الهدوء .

وكان أبو العساكر سلطان في أول عهده حنيفاً بأخيه مرشد وبنيه وكان يخص أسامة بالذات بحبه وعطفه ورعايته ، وذلك كله قبل أن ينجب ذكوراً ، فلما أنجب تبدلت معاملته لبني أخيه وتغير عليهم حتى أن أسامة اضطر لترك شيزر مؤقتاً سنة ١١٢٩ م (٥٢٤ هـ) ونهائياً بعد وفاة والده سنة ١١٤٧ م (٥٢٢ هـ) في الوقت الذي أخذ سلطان يمسد السبيل لابنه ليخلفه في حكم شيزر ، وجاء خروج أسامة وإخوته وتفرقهم في بلاد الشام عاملاً مشجعاً لسلطان ليزال الحكم لابنه من بعده فلما توفي سلطان سنة ١١٥٤ م خلفه ابنه تاج الدولة ناصر الدين محمد آخر أمراء بني منقذ وأسوأهم طامعاً .

والواقع أن حظ هذا الأمير الجديد كان نعساً للغاية لأنه لم يهنأ بالحكم طويلاً ولم يسعد بالإمارة كثيراً ، فقد أودت به وناسرته وإمارته أفظع مأساه شهدتها بلاد الشام وأشد كارثة حلت بتلك المنظمة منذ زمن طويل ، جعلت من شيزر وكثير من توابعها وضواحيها أثراً بعد عين ، ووضعت نهاية نهضة لأسرة بني منقذ وخاتمة مروعة لإمارتهم في حوض نهر العاصي الأوسط .

فبعد أقل من ثلاث سنوات من عهد هذا الأمير الجديد حدث زلزال كبير في بلاد الشام سنة ١١٥٧ (رجب سنة ٥٥٢ هـ) أودى بكثير من المدن والقلاع والحصون وكشف كثيراً من المراكز الهامة سواء في الجانب الإسلامي أو الجانب الصليبي . فقد لحقت أضرار بالغة بكل من : حمص

وشيزر وكفر طاب وأفامية ومعرة النعمان وحصن وحصن الشمس عند
سلسية (١) وأنطاكية وطرابلس ودمشق وجميع العواصم (٢) ، وذلك فيها
ملا يحصى كثرة . وكانت نكبة بعض المدن والقلاع أكثر من غيرها . فقد :
« خربت بالمرة حماه وشيزر وكفر طاب والمعرة وأفامية وحصن وحصن
الأكراد وعرقه واللاذقية وطرابلس وأنطاكية وتم دمت أسوار البلاد
والقلاع » (٣) .

أما بالنسبة لبني منقذ فمن سوء حظهم أن هذا الحدث المروع صادف وليمة
أقامها أميرم تاج الدولة محمد بمناسبة اختتان ولد له جمع من أجناس كل بني
منقذ وحشدتهم بقصره ليشاركون الاحتفال بتلك المناسبة ، وكأن القدر كان
يرسم نهاية هذه الأسرة ويخطط نهاية حكمها لشيزر ؛ إذ حدث الزلزال وهم
جميعاً في دار الأمير لاهين سعداء بشاركون أميرهم أفراحه ، وتبلغ المأساة
خبروتها وعنفها بما يؤكد أنها رسمت فعلاً نهاية تلك الأسرة الحاكمة إذ يقال أنه
كان لأميرهم حصان نجيب بدله ويقربه ، ولا يكاد يفارقه وإذا كان يجلس
أقيم ذلك الفرس على بابه ، ، وفي ذلك اليوم وضع الحصان كالعادة على الباب ،
فلما حدثت الهزة الأولى انزعج الحاضرون وتدفقوا إلى الباب طلباً للنجاة
فخرج راجحاً منهم فعلاً : « فرمحه ذلك الفرس فقتله ، فأحجم الناس عن
الخروج وحوصروا في الداخل ، لكن القصر أخذ يهتز بعد ذلك بعنف ، ثم

(١) ابن العديم : زبدة ج ٢ ص ٣٠٦

(٢) سبط بن الجوزي : مرآة ج ١٠ ورقة ٥٤٢

(٣) ابن الجوزي : المنتظم ج ١٠ ص ١٧٦ ، ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٥٣

مالبت أن تهاوى عليهم فأهلكهم جميعا ودفنوا تحت الأنقاض ^(١) . وهلك الأمير تاج الدولة نفسه وكل أولاده وبقية أسرته « ولم يسلم منهم إلا الخانئون . أخت شمس الملوك زوجة تاج الدولة بن منقذ » التي « نبشت من تحت الردم سالمة » .

وعلى هذه الصورة هلكت أسرة بني منقذ كلها تقريبا وتهدمت قلعتهم . وتشعنت إمارتهم ، ولم تسلم نوابعها من الخراب والدمار فقد تقابعت الهزات الأرضية بعدئذ لتعصف بكثير من ضواحي شيزر وتؤكد مضيها في تقويض بقية معالم الإمارة المندثرة ، فقد وصف المؤرخ ابن القلانسي — المعاصر لهذه الأحداث — تلك الكارثة المروعة وذبولها وصفا ينم عن أسى وحزن ويجسم أبعاد النكبة وحدود المأساة التي ألت بالمنطقة والتي راح آل منقذ ضحيتها ^(٢) . وأشار أيضا إلى ما ترتب عليها من نشاط الفرنج للاستفادة من الأوضاع الجديدة .

غير أن نور الدين محمود أسرع بالتصدي لمحاولات الصليبيين ، ووصل إلى شيزر بعد ذلك بقليل فتسلم القلعة وأسرع بتعميرها وإصلاح ما تخرب منها « وعمر أسوارها ودورها » ويبدو أن ذلك قد كلفه أموالا طائلة لأنه جدد في البحث عن أموال وكنوز بني منقذ فسأل امرأة تاج الدولة التي نجت من الكارثة عن أموال قومها وهددها ولكنها أجابت بأن « الدار سقت عليها »

(١) ابن العديم : زبدة ج ٢ ص ٣٠٦ - ٣٠٧ ، ابن الأثير : نفسه ٩ ص ٥٤ - ٥٥ .

(٢) ابن القلانسي : ذيل ص ٣٤٤ .

سوعليهم ونبشت هي دونهم ولا نعلم بشيء. وإن كان لهم شيء فهو تحت الردم،^(١). فلم يمنع ذلك نور الدين من المضي في تعمير شيزر وتحصين القلاع في المنطقة وترتيب الدفاع عنها ضد الفرنج .

ويبدو أن الحياة عادت سرية إلى شيزر بعد أن عمرها نور الدين وآوى إليها الناجين من المأساة ، فقد تحدث ابن القلانسي عن قيام نور الدين في أواخر عام الكارثة (٥٤٢ هـ) بالتصدي لجيش أنطاكية الصليبي الذي خرج يبغي للإغارة على الجهات المجاورة ، فجمع نور الدين جيشه وضم إليه د من سلم من أهل حمص وشيزر وكفر طاب وحماه وغيرها ، واستطاع أن يجبر الفرنج على العودة إلى أنطاكية دون أن يحققوا أهدافهم بل ويجبرهم على التحصن بها خوفا من لقائه .

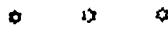
وهكذا غدت شيزر تابعة لنور الدين محمود ومثلت جزءا من ممتلكاته ، وانتهى عهد بني منفذ الزاهر فيها ، وطويت تلك الصفحة المشرقة في تاريخها ، فلم تعد مقر إماره مستقلة ولم تعد مركز الثقل في حوض نهر العاصي الأوسط كما كانت من قبل — بعد فترة هز ورفاهية ومجد وإشراق عاشتها على مدى ثلاثة أرباع قرن من الزمان^(٢) . وعلى هذه الصورة انتهت شيزر كإمارة مستقلة

(١) ابن العديم : زبدة ، ج ٢ ص ٣٠٧

(٢) Derenbourg : vie du Ousama. p. 571

ولا شك أن كل هذه المعاني قد تدافعت إلى ذهن أمير من أمرائها الناجين يدعى اسمعيل — وهو أخ لأميرها المنكوب ، وكان خارجها وقت الكارثة — فلما نادى وأبصر تطلعات شيزر وشاهد أنقاضها قال :

بعد أن أعطاها بنو منقذ شهرة ذائعة لم تصبها طوال العهد الإسلامي كله من قبل أو من بعد ، وانتهت الامارة العربية الثالثة في بلاد الشام قرب منتصف القرن الثاني عشر الميلادي (السادس الهجري) ، لنفتقد بعدئذ هذا النوع من الدويلات المستقلة المضاربة بنسبها إلى الأصول العربية الخالصة ، والأرومة العربية الأصيلة ، ليعم النفوذ التركي والتركماني المنطقة وتندثر ملامح الساطة العربية وتضيع وسط ضجيج الأحداث ، وتعود بعض فلولها إلى مضارب القبائل الباقية في بادية الشام والسمارة وعلى تخوم العراق وفلسطين قبل أن تذوب تلك الفلول في المجتمع الجديد الذي بدأ يأخذ سمته إلى فصل جديد في تاريخه في العصور الوسطى .



وعلى الرغم من انهيار الامارات العربية الثلاث في حلب وطرابلس وبيزنطة وقصر عمودها في تلك البلاد ، إلا أنها - مع ذلك - كانت نموذجاً رائعاً لمشاركة القبائل العربية النازحة في صنع تاريخ بلاد الشام ، وكانت مثلاً :

ليس الصباح من المساء بأمثل	فأقول لليل الطويل ألا انجل
يا « تاج دوله هاشم » بل يا أبا	التيجان بل يا قعد كن مؤمـل
لو عاينت عيناك « قلعة شيزر »	والستر دون نسائها لم يسـل
لأيت حصنا هائل المرأى غدا	متهايلاً مثل النقا المتـهـل
لا يمتدى فيه السعاة لمسالك	فكأنما تسرى بفتح مهول

. . .

نزلت على رغم الزمان ولو حوت	بمناك قائم سيفها لم ينزل
فتبدلت عن كبرها بتواضع	وتقوضت عن عزها بتدليل

حميا لنجاح القبائل في الاضطلاع بدورها الجديد في وطنها الجديد ، كما جاءت دليلا على ما أصاب تلك القبائل من تغير ، وما شهدته من تحول ، فقد نجحت القبائل العربية في الأخذ بأسباب التحول الجديد فعلا ، والاستجابة لعناصر التغيير المستحدثة ، فأثبتت قدرتها على إدارة شئون الحكم والقيام بأعباء السلطة وفرض الاستقلال وحمايته وأسبغ الطابع العربي على مظاهر الحياة في الإمارات المستقلة . لهذا حملت إماراتهم الثلاث عبر الأيام المنصرمة وريح الماضي البعيد وظل أيام الخلافتين العريدين بعهديهما الزاهرين وأيامها المجيدة في دمشق وبغداد .

ولئن لم ينجح الأمراء العرب في احتواء أراض شاسعة أو ضم أقاليم كثيرة أو التطلع إلى ميراث الخلافتين ، فإن إماراتهم كانت بمثابة قطاعات مصغرة من الدولتين الزائمتين ، وكانت نماذج حيية لعهودهما الزاهرة ، على الرغم من أن تلك الإمارات كانت أشبه ببقع صغيرة وسط خضم كبير من النفوذ الأعجمي ، وأشبه بجزر طافية وسط بحار من النفوذ غير العربي ، ولهذا جاء نجاحهم في الاحتفاظ بتلك الإمارات مسددا متفاوتة ، أمرا غربيا فعلا وشيئا فريدا حقا ، أكد مقدرة فائقة على المرونة والكياسة واللباقة التي يتمتع بها أولئك الأمراء العرب ونم عن مقدرتهم العظيمة في صنع الاستقلال وتأكيد نهيل الحرية وتقديسها والعمل على حمايتها في ظروف بالغة الصعوبة . ولا شك أن ذلك يعد أبرز سمات الخلق العربي الأصيل وأبرز ملامح المجتمع العربي على امتداد تاريخه الطويل .

فلم تكن الإمارات العربية الثلاث في حلب وطرابلس وشيزر سوى محاولة

للتشبث بأهداف الماضي ورغم تكاثر الصعاب وتضايف المخاطر، ولم تزد عن كونها محاولة لرفض الاستسلام للقيادات الغربية والمخيلة في تلك البلاد، بل إنها لم تكن أكثر من حشريات الموت لجسد آخذ في الاحتضار، احتضار النفوذ العربي الأصيل على أثر تقدم موجات الترك وأشباه الترك، بل وتقدم جحافل الصليبيين في أطراف العراق وفي بلاد الشام، فضلا عن إفاقات بزنطة، المتقطعة أحيانا المتصلة أحيانا أخرى.

* * *

المظاهر الحضارية للإمارات العربية

(أ) اتجاهات الحكم في الإمارات العربية :

- مدى الحفاظ على المقومات القبلية .
- الاتجاه نحو الاستقلال الذاتي والتكيف أحيانا طبقا لاتجاهات القوى.
- مدى العناية بالسكان في النواحي الاقتصادية والسياسية والاجتماعية.

(ب) النواحي الحضارية والعمرانية :

- بعض مظاهر الترف في حياة الأمراء العرب .
- العناية بالفنون والآداب .
- أهم المنشآت في تلك الإمارات .

(ج) الأحوال الداخلية في الإمارات العربية :

- طوائف السكان والفرق المختلفة من أتراك وتركمان وأكراد وغيرهم .
- والأقليات الأخرى من أتباع المذاهب المتطرفة في بلاد الشام .

(أ) اتجاهات الحكم في الامارات العربية

ليس من شك في أن نجاح القبائل العربية في بلاد الشام في تكوين أمارات حاكمة مستقلة جاء نقلة كبيرة في حياة تلك القبائل وتجرية فريدة في تاريخها . فلقد حارلت القبائل العربية طوال القرون المنصرمة من قبل الحفاظ على كياناتها وطابعها ومقوماتها وراحت تفرح في المنطقة في حرية كبيرة متخذة من عـلاقتها ببعضها ونظمها القديمة وعصبيتها أساسا لعناصر حياتها الجديدة وعلاقاتها فيما بينها من ناحية ، وفيما بينها وبين سلطات الحكم من ناحية أخرى ، سواء كان مركز تلك السلطات دمشق أو بغداد أو الموصل أو حلب .

وقد سببت تلك القبائل النازحة إلى أطراف العراق وبلاد الشام كثيرا من القلق للسلطات الحاكمة - كما رأينا - ولم يكن من السهل كبح جماحها خاصة إذا حنت لنوبات جاهليتها ونشاطها القبلي القديم . على أن طول الجوار في مسرح الأحداث الجديدة والاحتكاك الدائم بالسكان وفرص التحول من حياة الانطلاق والبداءة إلى حياة الاستقرار جذب كثيرا من بطون تلك القبائل وعشائرها وأغراها بالميل إلى حياة الاستقرار في الوقت الذي حافظت فيه بطون أخرى على مقوماتها وخصائصها وطابعها .

والتحول الذي نتحدث عنه والذي أخذ طابع التدرج والبطء ، ولم يأخذ شكل الطفرة جرى على امتداد الفترة التي عاشتها تلك القبائل في وطنها الجديد ، وزادت سرعته نسبيا في الفترة التي عاشتها الإمارات العربية ، موضوع هذا للبحث ، والتي نجحت القبائل في إقامتها في بلاد الشام .

أما طبيعة التحول الذي نتحدث عنه فيمكن في نبذ حياة البداءة إلى حياة الحضرة

والاستقرار والعمل بالزراعة وغيرها من أعمال المدن ، والسكن في القرى والمدن وإقامة للعلاقات الاجتماعية في الحياة الجديدة .

ويبلغ هذا التحول مداه ويصل إلى ذروته ، بالوثوب إلى مراكز السلطة ، وإقامة الحكم والظهور بمظاهر الأبهة والعظمة ، واتخاذ الحاشية وتعيين الوزراء والحجباب والكتّاب والإقامة في القصور وتنظيم الجيوش والمدراوين وحضور الاحتفالات الرسمية وتقريب الشعراء وعقد المجالس والفصل في القضايا إلى غير ذلك .

فالي أي حد حدث التحول في حياة القبائل التي تعيننا وإلى أي مدى — في نفس الوقت — حافظت على مقوماتها مع مجازاة التحول الجديد ، وكيف نظر كل من بني كلاب وبني عامر وبني منقذ إلى عناصر هذا التحول وجاروا الانجاء الجديد في موطنهم ومقر إماراتهم ومضارب قبائلهم ؟

أما بالنسبة لبني كلاب ، فإنهم لاشك استجابوا لعناصر التحول الجديد مع الحفاظ أيضا على أهم مقوماتهم كقبيلة كبيرة من أشهر قبائل العرب ، ومن أبرز الفروع القيسية في شمال الشام وأطراف العراق .

وقد بدأ نشاطهم بطرد في المنطقة منذ هجرتهم شبه الجماعية في أوائل القرن الرابع الهجري كقبيلة واحدة بكل ماتحملة من مظاهر العالم القبلي ، على الرغم من انفصال بعض عشائرها وجنوحها إلى أماكن أخرى غير أماكن التجمع السكلي للقبيلة ^(١) لكن اشتراك بني كلاب في الأحداث على عهد

الدولة الحمدانية كان كقبيلة واحدة وإن أظهرت بعض بطونها نشاطا
جما أكثر من غيرها .

غير أن فرسان بني كلاب ظلوا يحملون طابع المقاتلين العرب القداماء ،
ويجيدون الكر والفر ويجوسون خلال الديار ، ويعودون إلى مضارب
قبيلتهم أو بتغيبون عنها إذا عرضوا خدماتهم دلى هذا أو ذاك أو اضطروا
 للمشاركة في الحروب الطويلة أو انخرطوا في سلك الجندية لدى أمراء
 المنطقة .

وأخذ التحول يأخذ مجراه في جوف هذه القبيلة الكبيرة بعدئذ ، فمالت
بعض عشائرها إلى الاستقرار ، وسكن القرى والمدن والاشتغال بالزراعة
ولدينا أمثلة متوفرة ومعددة على ذلك (١) . ثم أخذ التحول ابتداء من أول
القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) يأخذ صفة الإسراع شيئا ما
ويميل جهة التعمق أكثر من ذى قبل ، فأصبح بنو كلاب معنيون بأمر
حلب وأمراء حلب أكثر من عنايتهم بمضارب القبيلة ، فمالوا إلى تتبع أخبار
حلب والتدخل في شئونها وحرصوا على الفوز بأعطياتها وإقطاعاتها ، بل
طمحت همهم لمشاركة أمرائها أملاكهم وضياعهم والأمثلة على ذلك متوفرة
أيضا في تاريخ تلك الحقبة من نشاط بني كلاب (٢) .

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ٢٦٠

(٢) ابن العديم : زبدة ج ١ ص ١٩١

سبط ابن الجوزى : مرآة ج ٨ ص ٧٨

Lane-pcole : op, cit. p. 114

(طبعة بيروت)

يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢١١

وعلى الرغم من أن هذه المظاهر الجديدة قد بدأت تتغلغل في كيان القبيلة الكلاية إلا أنها — مع ذلك — دخلت الحلف القبلي الكبير ، الذي ضم إلى جانبها كل من بني كلب وبني طيء كقبيلة واحدة ، وكنعنة وحلف بمقوماتها واتجاهاتها وأطعمائها في اقتسام المنطقة مع القبائل الأخرى ، وهو الحلف الذي قام في سنة ٤١٥ هـ (١٠٢٥ م) والذي أسفر عن تغيير وجه الشام بأسره لمدة طويلة وتمخض عن ظهور الإمارة الكلاية في حلب وإمارة بني الجراح الطائيين في فلسطين (١) . وحينما جلس صالح بن مرداس زعيم بني كلاب إلى جانب حسان بن المفرج بن الجراح زعيم بني طيء ، وسنان بن عليان زعيم بني كلب ، إنما كان يمثل حينئذ شيخ العرب الكبير ورأس القبيلة الطموح ويحمل على كاهله آمال قبيلة في الاستقرار وأطعمائها في البقاء والاستقرار بعد طول الترحال . أي أنه كانه بحجم مظاهر القديم والحديث في وقت واحد ، وتمثل فيه الرغبة في الحفاظ على كيان القبيلة ككل ، والطمع في التحول إلى حياة جديدة ومظاهر عهد حديث في تاريخها .

وحدث التحول في حياة شيخ القبيلة نفسه وحياة قبيلته في أغابها بنجاحه في إقامة إمارة مستقلة في حلب ، فغدا صالح بن مرداس أميراً على حلب

(١) ابن الأثير : السكامل ج ٧ ص ٢٦١ ، ابن المديم : زبدة ج ١ ص ٢٢٣

ابن خلدون : المعبر ج ٤ ص ٢٧٢ ،

Lamrens : La Syrie. I. P. 153

Wiet : L' Egypte Arabe P. 216

واتخذ مظاهر الأبهة والعظمة وسكن القصور وعمر الأبنية ، وقد الجيوش
وعين الوزراء والقضاة وبأمر الحكم على امتداد إمارته وأخذ يتنقل بين حلب
في الداخل وصيدا على ساحل البحر المتوسط ^(٢) .

ولكن هل يعني ذلك انتهاء دور القبيلة الكلاية كإحدى القبائل العربية
في بلاد الشام وعزوفها عن دورها التقليدي ، وممارستها حياتها السالفة ؟

الواقع أن الدلائل كلها تشير إلى أنه يمكن تمييز شقين واضحين لهذه
القبيلة الكلاية إبان الفترة التي عاشتها الإماره المرداسية في حلب . فبينما ظلت
بطون منها وعشائر مرابطة في أماكنها في شمال الشام وحول حلب وفي مرج
دايق وفي حلهم على مشارف البادية ، نجد أن جانباً آخر انخرط في جيش
صالح بن مرداس النظامي وفاز كثير منهم — خاصة من أقارب صالح —
ببعض الإقطاعات والأعطيات في جهات متفرقة في حمص ومعرة النعمان
وكفر طاب وغير ذلك من توابع حلب ، فهذا مقلد بن كامل بن مرداس
يظهر في سنة ٤٤٠ هـ (١٠٤٨ م) وقد أمر على كفر طاب ومعرة النعمان
وضواحيها ، ونجده في ذلك العام يأمر واليه على المعرة ويدعى أبو الجيهان
بأن يخرج سور المعرة ويهدمه كله إلا برج وحيدة وبرج بني الحجال
ومواضع قليلة لغاية وقعت بها ، . وبطيعة الحال لم يكن ينزل مثل هذا
الوالي الكلابي دون عشيرته ورجاله من بني كلاب ، وكذلك نجد عطية بن
صالح يستولي على الرحبة ويسكنها وماحولها لرجاله ومعاوليه من بني

كلاب ، وهذه ليست سوى أمثلة لما كان يحدث من جذب لبعض العشائر والرجال والفرسان للحياة الجديدة على حساب التدرج القبلي القديم حتى نجد الاتجاه الجديد وقد طغى على النظام القديمة بمرور الوقت ، والجماعات الكلاية وقد هزعت إلى مواكبة الأكثرية المنجذبة إلى مظاهر التحول الجديد في حياة القبيلة .

ولكن بجانب هذه الأمثلة لازالت تطالعنا الأخبار على امتداد الحقبة المرداسية بتحركات الجموع الكلاية الأخرى المناسبة من مضاربها وحملها والوق كانت تلقى بثقلها في المعارك إلى جانب أمير كلابي ضد أمير آخر ، تحركها أحيانا النزاع البشرية والأطماع الاقتصادية والأعطيات والهبات ، وأحيانا أخرى العلاقات الإنسانية والقراية المباشرة والانتساب إلى غير ذلك مما يحمل في طبيعته صفة للقدم ، فهذه جموع بني كلاب تزحف بالأمير محمود بن نصر ابن صالح لينازع عمه عطية على حلب أكثر من مرة لعدالة قضيته ، ولم يهدأ لتلك الجموع روع ولم يسكن لها خاطر حتى أقامته أميرا على حلب سنة ٤٥٧ هـ (١٠٦٥ م) (١) . وهذه جموع بني كلاب أيضا تزحف بوثاب بن محمود سنة ٤٦٨ هـ (١٠٧٦ م) لتقيمه أميرا على حلب وتخلع أخاه سابقاً — آخر أمراء بني مرداس — مع تدعيم هذه الثورة بالافساد في أعمال حلب

(١) ابن العديم : زينة ج ١ ص ٢٩٣ ، ص ٢٩٤ ، ص ٢٩٧

ابن القلائسي : ذيل ص ٩٠ ، ص ٩٢ ، ص ٩٣

ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ٢٦٢

وشق عصا الطاعة على أميرها ومن والاه من الترك^(١) وكلمها أمثلة أيضا ونماذج لما كان يحدث من مظاهر التجمع القديم وسط معترك الحياة الحديثة ومظاهر التحول .

على أن الحفاظ على مقومات الحياة القبلية لدى شق لا يستهان به من القبيلة الكلاية قد حفظ على تلك القبيلة كيائها وجعل وجودها في البلاد أطول عمراً كقبيلة لها اسمها ، وذلك بسبب ضياع إمارتهم في زحمة أحداث العصر ، وذوبان العناصر المتحولة وسط محيط السكان في المنطقة مما أعطى التجمعات الكلاية الباقية حق الحفاظ على التراث الكلابي والمقومات القبلية برغم ما شابها من تأثر لطول المقام وكثرة الاحتكاك والانفتاح على التيارات الجديدة والتأثر بالاتجاهات الحديثة إلى حد بعيد .

إذن فنحن أمام شقين من بنى كلاب شق نأمر وترأس واتخذ مظاهر العهد الجديد وجذب إليه الكثير من البطون والعشائر الكلاية ، وانخرط في سلك الجيش وقاز بالاقطاعات والضبياع والهبات ومنح هذه الحياة كل جمده ونشاطه وشق ظل يحافظ على مقومات الحياة القديمة ويتجمع في مضارب وحلل ويسكن أطراف البادية ويلقى بثقله في المعارك كلما دعت الظروف إلى ذلك في ظل الفهم القديم للعلاقات بين الناس والفهم القديم للعائلة والجور والاستجابة لغير ذلك من التزامات القبلية والأطماع البشرية .

(١) ابن العديم : زبدة ج ٢ ص ٥٤ .

على أن الشق الذي خلغ مظاهر القدم وانجذب إلى التيار الجديد لم ينفض يده كلية من مظاهر الحياة المنصرمة ، بل ظل يحفظ كثيرا من طابعها ومظهرها ويحاول التشبث بأبرز مقوماتها . فلزال أمراء بني مرداس فرسانا لا يشق لهم غبار محاربين يجيدون الكر والفر ، تتحكم في معاركهم الشجاعة والاندفاع والحماسة البدوية (١) ويميز سلمهم الاستمساك بالكرم والحلم والشهامة (٢) يميلون إلى مجالس الشمر ويستمتعون بمدح الشعراء وبزهون تيمها وفخرا بمنح الهبات والأعطيات (٣) . بل أنهم ظلوا يتخذون من جموعهم في المضارب والحلل ركيزة لأطماعهم في حلب وللحكم فيها أو الفوز بها ، فهذا محمود ابن نصر يستنجد بحسام الدرة منيع بن مقلد ليعاضده ضد عمه ثمال بن صالح الذي نجح في طرده من حلب ، فاستمعه منيع ورحل من عنده إلى ثمال وأمر أحد رجاله يقول لمحمود : « عمك هو الشيخ الكبير ، والعرب تأنف من معاضدة الولد على الوالد » (٤) . وهذا سابق ابن محمود يبعث إلى جـوع بني كلاب وهو يناضل ضد تاج الدولة تنش السلاجوقي يقول : « إني لأنا أذب وأحامي عن

« (١) ابن خلكان : وفيات ج ٢ وفيات ١٨٠ ، ابن العديم : زبدة ج ١ ص ٢٥٠ —

٢٥١ ، دور التيجان ورتة ٣٠٧ (مخطوط) ، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٢٧٤

« (٢) ابن الجوزي : المنتظم ج ٨ ص ٢٢٧

ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ٢٦٢

« (٣) ابن العديم : زبدة ج ١ ص ٢٥٥ ، ص ٢٥٨ ، ص ٢٧٠ ، ج ٢ ص ١٤ — ١٥

أبو العدا : المختصر ج ٢ ص ١٤١ — ١٤٢ ، ابن خلكان : وفيات ج ٤ ص ٦٤

« (٤) ابن العديم : زبدة ج ٢ ص ٢٨٣ — ٢٨٤

ببلادكم وعزكم ، ولو صار هذا البلد إلى تنش لزال ملك العرب وذلوا ، (١) .
على هذا الاساس وطبقا لمثل هذه المبادئ جرى إشراك بنى كلاب في المذازعات
بين أمراء الجدد من بنى مرداس ؛ فكأنما كانت الجموع الأخرى هي الملجأ والملاذ أمام
الأمراء الجدد من بنى مرداس ولم تنقطع الصلة بين الشقين بل لأنها لم تتأثر
وظل الشقان يمارسان نشاطهما في ظل تسمية عريضة تندرج تحتها كل الشعاب
ألا وهي قبيلة بنى كلاب .

والشيء الذي يمكن ملاحظته بسهولة في تاريخ تلك القبيلة المتأخر ، أن الشق
الذي ظل يحافظ على بعض مقوماتها ويحفظ عليها طابعها وسماتها ، استمر
يمارس نشاطه بعد اندثار الإمارة المرداسية بزمان ليس قصير ، فنسمع عن
هشائر بنى كلاب في صف الجيوش المتنازعة في الفترة المضطربة التي صاحبت
الغزو السلجوقي ، بل إن زعماء البقية الباقية من بنى كلاب لم يجدوا غضاضة
في الاشتراك في القتال إلى جانب السلاجقة ، فاشترك شبل بن مبارك الكلابي ،
وحامد بن زغيب ، ومنهم وئاب بن محمود في صف تاج الدولة تنش (٢) ، وبعد
انتهاء حكم سابق واندثار الإمارة تفرقت الجموع الكلابية في بلاد الشام ، ولم
يعد لهم هدف واحد يجتمعون عليه خاصة بعد أن قسى شرف الدولة مسلم
العقيلي في معاملتهم وضيق عليهم ، ولهذا عرضوا خدماتهم على سليمان بن
قنطلمش بعد أن نجح في فتح أنطاكية وساءت علاقته بشرف الدولة مسلم وذلك

(١) هس المرجع : ص ٥٨

(٢) ابن القلانسي : ذيل ص ١١٢

في سنة ٤٧٧ هـ (١٠٨٥ م) (١). وفي سنة ٤٩٣ هـ (١١٠٠ م) جمع مبارك بن شبل الكلابي الجوع للباقية من بني كلاب ونزلوا بقرب حلب وحالفوا الملك رضوان « ورعوا زرع المرة وكفرطاب وحماه وشيزر والحسر وغير ذلك » .

وهكذا أصبح بنو كلاب دون هدف يجتمعون عليه ، وعرضوا خدماتهم على أمراء الشام وراحت جموع كثيرة منهم تذوب وسط السكان وتخفى في زحمة أحداث العصر حتى وقع الغلاء في ضواحي حلب بعد ذلك بقليل وانتشر الوباء في المنطقة فأودى بكثير من جموعهم وساهم في إلحاق ضربة شبه قاضية بهم ، ولقد سجل هذا الحدث المؤرخ ابن العديم الذي قال « ووقع الغلاء في بلد حلب ولم يزرع شيء من بلدها وسلط الله الوباء على العرب فمات شبل ومبارك وولده واضمحلت دولة العرب » (٢) .

وربما كانت هذه آخر الضربات الكبيرة التي نزلت بالجموع الكلاية على الرغم من بقاء بعض العشائر متشبثة بأهداب الماضي والنشاط القديم رغم تغير الظروف وتبدل المسرح والأحداث ، وبرغم ما كانت تعانيه من القلة والنقص ، ويبدو أن تلك العشائر الكلاية للباقية كانت قد لجأت إلى الأنزواء في مضارب قريبة من مضاربهم القديمة وحاولت أحيانا ممارسة نشاطها القديم ، إذ نتحدث المراجع أيضا في سنة ٥٦٣ هـ (١١٦٨ م) أي بعد ضياع إمارتهم بنحو قرن .

(١) ابن العديم : زبدة ج ٢ ص ٨٨ - ٨٩

(٢) نفس المرجع : ج ٢ ص ٤٤٣

من الزمان ، عن قيام بنى كلاب بنعيب كين لشهاب الدين مالك بن علي بن مالك صاحب قلعة جعير الذي نزل من قلعته يتصيد فقبض عليه بنو كلاب وحملوه إلى غريمه نور الدين محمود بن زنكي الذي أودعه السجن . (١)

وهكذا ظل اسم الكلابيين يخبو شيئاً فشيئاً حتى يندثر تماماً ويذوب وسط الأحداث لينتهي دور تلك القبيلة الكبيرة في بلاد الشام وتمثل بقاياها جزءاً من السكان الحضريين للبلاد ، فلم نعد نسمع عن لغارات بنى كلاب أو انسياب جماعاتهم في طوفان يرعى ويعيث ويدمر أو يشارك في حرب كعنصر فعال بفرسان شجعان ومقاتلين متحمسين ، أو نسمع عن ثمة مآلات جافية وعصبيات قبلية ، إذ غدت كل هذه المظاهر من مخلفات الماضي ومن بقايا الذكريات .

أما بالنسبة لبنى هار فالأمر قد اختلف عن ذلك كثيراً ولا نستطيع تمييز تلك المراحل وتدرجها أو وضع أيدينا على عناصر التحول في حياة أولئك للعرب الذين حكموا طرابلس نحو أربعين عاماً ويبدو أن ذلك يرجع في غالبه إلى الظروف التي احاطت بظهورهم في بلاد الشام والتي اختلفت الآراء بصدددها والقطع فيها برأى ، فبينما ثارت الشكوك في كونهم من العرب المغاربة ، نجد بعض الدلائل تشير إلى انتسابهم إلى بعض البطون النازحة من الجنوب من نجد أو من من بلاد اليمن الجنوبية والتي استقرت في سورية منذ وقت غير معروف .

فإذا سلمنا بالاتجاه الأول من أنهم عرب مغاربة مآدوا من جديد إلى الشرق ، فإنهم يكونون بذلك قد تعدوا المراحل المشار إليها وظهروا كأُسرة متحضرة

متعدية استفادت من قربها من للفاطميين ، واستجابت لعوامل التغير في الحياة العربية قبل زواجها إلى الشرق بزمان، واختصرت من عمرها فترة هامة، أظهرتها في مصر ثم في بلاد الشام كإحدى الأسر العربية العريقة التي تبوأ أفرادها مناصب هامة في الدولة وفي القضاء وأبانونا عن همة ونشاط وشاركوا في الأحداث

ولذا سلمنا بالاتجاه الآخر من أنهم بطون عربية نازحة من الجنوب إلى سورية ، فلابد وأن ذلك حدث منذ زمن بعيد ومضي على زواجهم إلى تلك الجهات وقت طويل، كان له ضلع في إزابتهم كبطون بدوية وعشائر عربية جافية، وحولتهم إلى أسرة حضرية أخذت بأسباب الرقي والعدين ونهلت وثقفت وزادت بعدا عن ماضيها ومقوماتها السابقة .

وعلى الرغم من أن المصادر تردد كثيرا اسم بني عمار كأُسرة وكقوة بشرية قامت على أكتافها إمارتهم في طرابلس ماديا وفكريا مما يفيد بقايا فهم قديم للعصبية والأنساب والتجمع والاجتماع ، على الرغم من ذلك فليس بين أيدينا نصا واحداً يوحى بأنهم اتخذوا من للعصبية والتشبث بالأنساب ركيزة لنشاطهم في المنطقة سواء قبل إقامة إمارتهم أو بعده . وهذا كله يؤكده حقيقة واحدة هي أن بني عمار كانوا قد تعدوا ذلك الطور في حياة العرب ونخطوا تلك المرحلة المتقدمة في تاريخ الأسرات العربية القديمة والفروع المختلفة والشعاب القبلية المنصرمة .

لكن سمات خاصة ظلت تميز طابع أسرة بني عمار وتدمع كل شك في انتسابهم إلى الأرومة العربية الأصيلة — ذلك أنهم ظلوا فرسانا ومقاتلين

لأنهم لهم قناة وعربا تواقين لمجالس الشعر والأدب ، يتقرب منهم الشعراء
 مدحونهم أحيانا ويهجونهم أحيانا أخرى ^(١) ، يردون العلوم والفنون
 والآداب ويقيمون مكتبة كبيرة من أجل ذلك ^(٢) ، يحترمون الكلمة
 ويحافظون على العهد ويتمسكون بأبرز سمات الخلق العربي هؤلاء هم بنو
 عمار أصحاب الإمارة الثانية في بلاد الشام، مع حفظهم لكل مميزات المجتمعات
 العربية فإنهم قد قطعوا شوطاً لا يستهان به في التمدين والتحضّر وحصلوا
 على قسط وافر من الرقى المادى والفكرى حتى تبدوا مضارب القبائل وحملها
 وعصية النسب والأنساب وطوائف الفرسان والرجالة ونوبات الخين
 للجاهلية والإغارات المفاجئة أشباه أبعد ما تكون عن تفكير تلك الأسرة
 وأكثر ما تكون تعارضاً مع ما بلغته من رقى وتحضر .

أما فيما يختص ببنى مسند فإننا نستطيع القول بأنهم كانوا فى درجة وسط
 بين ما كان فيه بنو كلاب وما بلغه بنو عمار ، فلا كانوا عربا قبايلين بما يحمله
 ذلك من معنى دقيق ولم يبلغوا فى نفس الوقت الدرجة التى بلغها بنو عمار
 وإن قاربوا منها بحكم احتكاكهم الطويل والمستمر بالعناصر الحضرية فى
 بلاد الشام .

ويبدو أن ذلك يرجع فى أغلبه إلى أنهم كانوا يفتسبون إلى بنى كنانة
 الكلبين الذين نعلم جيداً أنهم نزحوا إلى بلاد الشام قبل الإسلام بوقت غير

(١) سبط بن الجوزى : مرآة ج ١٠ ورقة ٢٥٠

(٢) محمد كرد دلي : خدّط الشام ج ٦ ص ١٩٠ - ١٩١

قصير^(١) ولعبوا دوراً هاماً في تاريخ المنطقة على مدى قرون طويلة قبل قيام إمارتهم في شيزر واتجهوا إلى السيطرة على طرق القوافل والتجارة عبر هذه البلاد^(٢) .

مضى على بني كلب إذن وقت طويل في بلاد الشام قبل أن يتمكن بنو منفذ من إقامة إمارتهم في شيزر : ولا شك أن تلك المدة الطويلة قد ساهمت في تطوير البطون الكلبية إلى حد كبير ، وغدت كثيراً من نظمها ومقوماتها بعكس بني كلاب الذين ثبت أن هجرتهم إلى بلاد الشام حدثت في الثالث الأول من القرن الرابع الهجري ، ولم يمض على نزوحهم أكثر من مائة عام حين استطاعوا إقامة إمارتهم في حلب وهي مدة لا تقارن فعلاً بالمدة التي قضوها بنو كلب هناك .

ولقد حصل بنو منفذ أحد فروع بني كلب على إقطاع بالقرب من شيزر من لدى صالح بن مرداس ، فعدا استقرارهم في حوض نهر العاصي أمراً واقعاً^(٣) ، وعد بداية مرحله هامة في تاريخهم وخطوة إلى الامام بالنسبة لتحضرم وتمدينهم ، فقد ترددوا على حماة وحلب وكفر طاب وأحاطوا أنفسهم بمظاهر التمدين والتحضّر^(٤) .

(١) البلاذري : فتوح البلدان ص ١٧٢ (تحقيق المنجد ١٩٥٣)

(٢) Lammens : Ency. ISL art "Kalb"

Kay : notes on the Hits. of the Banu Okyal P. 503 J. R.A. S.

(٣) أبو الفدا : المختصر ج ٢ ص ٣١

(٤) ابن خلكان : وفيات ج ٤ ص ٣٥٧

وليس هنالك شك في أن بعض سمات المجتمع القبلي كانت لا تزال تمزأولئك الكنانيين من كلب قبل أن يحصلوا على إقطاعهم من لدن بني مسرداس ؛ إذ لازلت بطون كلبية أخرى ، فضلاء بنى طيء من كهلان ، تفرح فى وسط الشام وفى جنوبه متخذة الأساليب القديمة ركيزة لنشاطها فى المنطقة . فإذا كان هذا الفرع الكلبى من كنانة قد حصل على إقطاع دائم وفرصة مواتية للاستقرار فى حوض نهر العاصى ن ذفالك لاشك قد ساعده على تخطى مرحلة القبلية والداف إلى أعتاب مرحلة الاستقرار والتحضّر وبذ الألوب القديم .

وهذه المرحلة الجديدة لم تبرز فى حياة القبيلة فجأة - بطبيعة الحال - بل سبقها تحول تدريجى ربما استغرق سنوات طويلة بحكم الاحتكاك المستمر بالعناصر الأخرى ، بل إن الحصول على ذلك الأقطاع والفوز بتلك الفرصة السانحة - قد احتاج لجهود دائبة ونشاط جم قبل أن تصبح الأمور مهيأة لهذا الكسب الهام .

ولقد استقر بنو منقذ بقرب شيزر أكثر من أربعين عاما قبل أن يؤسسوا إمارتهم فى شيزر ظهورا خـلالها كآسرة كبيرة بدأت تأخذ بأسباب الرقى المادى والفكرى وتستجيب للنقلة الكبيرة فى حياتها ، وفى الخططاب الذى بعث به سديد الملك ابن منقذ إلى بغداد بهدد استيلائه على شيزر أشار إلى أنه نقل إلى شيزر نحو سبعمائة رجل من أسرته وبنو عمومته (١) ، فضلاء عن بقية رجاله وأقاربه وأفراد عشيرته ، وعلى هذا فيمكن القول أن ثمة تغيير هام

(١) سبط بن الجوزى : مرآة ج ١٠ ورقة ٣٩ ، ابن الوردى : تاريخه ج ٢ ص ٧٥

قد حدث في حياة بنى منقذ الكلبين حين استقروا في حوض نهر العاصي وحصلوا على إقطاع فيه، سبقه دون شك تحول تدريجي وميل نحو الحياة الجديدة وتباعد عن مظاهر العالم القبلي القديم .

على أن سمات الخلق العربي الأصيل ومميزات المجتمع العربي كلها تتجلى في تلك الأسرة التي كان معظم أمرائها ورجالها فرسانا كبارا ومحاربين من الدرجة الأولى ملأت أخبارهم ومظاهر شجاعتهم صفحات المصنفات المعاصرة واللاحقة ^(١) ، كما كان معظمهم من فحول الشعراء والنساطمين والنحويين والمغربين ^(٢) . ولعل في أخبار الفارس والشاعر والأديب وصاحب النوادر والطرائف الذائع الصيت أسامة بن منقذ أكبر دليل على ما كان يتمتع به بنو منقذ من صفات عربية أصيلة .

هذا ورغم ما أصابه بنو منقذ من مظاهر التحول والتقدم في شيزر إلا أنهم ظلوا يمارسون حياة في الحقيقة مزيج من الحياة القديمة ومظاهر الحياة

(١) العماد الأصفياني : خريدة القصر ج ١ ص ٥٤٨

ابن خلكان : وفيات ج ١ ص ١٧٥ ، ج ٣ ص ٨٦ ،

Schlumberger: Recits de Byzance et des Crois. P. 100 - 1

Cl. Huart ; Ousama ibn Mounkidh, P 504 .J.R.A.S.

أسامة بن منقذ : الاعتبار ص ٥٢ - ٥٣ ، ص ١٠١ - ١٠٢ ، ص ١١٦

(٢) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٢٤ ، العماد : الخريدة ج ١ ص ٥٥٢ -

٥٥٣ - درر التيجان ورتة ٢٣٩ ، باتوت : معجم الأدباء ج ٥ ص ٢١٥ - ٢٢٠

Derentbourg : Vie du Ousanma p. 516

الجديدة فلقد سكن بعضهم المدينة وهو القسم الواقع على النهر قرب الجسر
وسكن آخرون البلد وهو القسم من شيزر الواقع ضمن القلعة ، وانتشر
الآخرون قرب المنطقة يزرعون ويرعون ويتصيدون بل ظل بعضهم يقتنى
قطعا نائما ترح في المنطقة المهجورة ، وتهرع إلى الاحتماء بالأسوار عندما
تعرض للخطر تلك كانت حياة بنى منقذ مارسوها بين الحرب والسلام فزرعوا
ورعوا وتصيدوا وسكن أمراؤهم القصور والدور النفسية وعقدوا مجالس
الأدب والشعر وتنقف الكثير منهم وقرض الشعر ونسخ القرآن ، وأظهروا
حفاوة بالغة برجال العلم والشعراء وهرع إليهم المادحون وطايبى الأعطيات
وانخرط فرسانهم في جيوش أمراء المنطقة وخدموا لدى رجالات الشام
والعراق فظهر بعضهم في صف زنكى والآخرين إلى جوار ابنه نور الدين
محمود (١) ، وقدم الآخرون إلى مصر وخدموا الدولة الأيوبية (٢) ، بل
ظهر بعض أمرائهم في اليمن وذلك بعد ضياع إمارتهم بوقت طويل (٣).

وبعينا من ذلك كله أن بنى منقذ وإن كانوا قد أصابوا تحولا هائلا
وتغيرا كبيرا في حياتهم حين أسسوا إمارتهم في شيزر فإن نمة سمات ظلت
تميز حياتهم وتربطهم إلى ماضيهم وتشدهم إلى أصولهم وإن لم تكن ذات أهمية
كبيرة بجانب تغفل مظاهر العهد الجديد وطغيان الاتجاهات الحديثة في
حياتهم في شيزر وضواحيها .

Derenbourg : Vie du Ousama. P. 571

(١)

(٢) ياقوت : معجم الأدباء ج ٥ ص ٢٤٣ .

(٣) زامبار : معجم الأنساب والأمراء المملوكية ج ١ ص ١٦٥ .

الاتجاه فجاء الاستقلال الذاتي في الحكم والتكليف احيانا طبقا لاتجاهات
القوى الكبرى في المنطقة :

من الأمور المشتركة في تاريخ الإمارات العربية الثلاث ما أبدته تلك
الإمارات من حرص على حفظ استقلالها وتجنب لأى تدخل في شئونها أو
فرض نوع من الوصاية عليها . وكان الأمراء العرب كانوا يضمنون باستقلالهم
الذى بذلوا في سبيله جهودا دائبة وتحملوا من أجله مصاعب جمة ، فقدر لك
الإمارات أن تمثل نموذجا فريدا من أنواع الحكم في بلاد الشام في وقت
تكاثرت فيه القوى الكبرى على المنطقة وتشاحنت في سبيل ذلك وحاولت فرض
سيطرتها عليها والوصاية على شئونها .

و تتمثل القوى الكبرى في المنطقة زمن تلك الإمارات في أربعة قوى :

١ — الخلافة الفاطمية التي فرضت وجودها في معظم أرجاء الشام وحاولت
التشبث بمواقعها ٢ — دولة السلاجقة زمن ألب أرسلان وابنه ملكشاه ،
وعلى أيام اتش وولديه رضوان ودقاق ٣ — الإمبراطورية البيزنطية التي
خلت تشبث بأنطاكية مدة طويلة قبل أن تفقدها وتفقد بالتالي نفوذها في
الشرق حتى قيام آل كومنين بمحاولة باهتة لاستعادته شيء من هيبة الإمبراطورية
هناك ٤ — ثم أخيرا القوى الصليبية التي غزت المنطقة منذ أواخر القرن الحادى
عشر الميلادى (الخامس الهجرى) وأسفر غزوهم عن ظهور الإمارات اللاتينية
الأربع في بلاد الشام وأطراف العراق .

ولقد قدر للإمارات العربية الثلاث أن تصمد لمحاولات تلك القوى وتنجو
من مخططاتها مددا متفاوتة قبل أن تضعف وتنو وتنهك وتقلها .
وتفقد بالتالي استقلالها .

فقد حرص بنو مرداس طوال عهدهم على تجنب الدخول ضمن مناطق نفوذ الخلافة الفاطمية التي نشطت كثيرا لاستعادة حلب وإعادتها إلى حظيرتها. فبخاض بنو مرداس حروبا ضارية ضد الخلافة وتساقط بعض أمرائهم صرعى. في تلك الحروب ، فقتل صالح بن مرداس نفسه وأحد أبنائه في الحرب ضد الفاطميين (١) ثم دفع ابنه وخليفته نصر بن صالح حياته ثمن استقلال إمارته في الحرب ضد الفاطميين أيضا (٢) ، ركبد آخرون من خلفاء صالح جيوش هذه الخلافة كثيرا من الخسائر وردوها على أعقابها أكثر من مرة ماضين في حكمهم مدعين استقلالهم مازفين عن الرغبات الفاطمية المألحة لطردهم من حلب (٣) .

ولكن بنو مرداس اضطروا أحيانا لشراء رضا الخلافة الفاطمية ومحاولة كسب ودها وتجنب هداها كلما دعت الظروف إلى ذلك ، ولاشك أن ذلك يدخل ضمن محاولة التكيف السياسي مع اتجاهات القوى الأكبر ، تجنباً للصراع وحسب للخلاف فحاول بنو مرداس أحيانا استمالة الخلفاء الفاطميين والتقرب إليهم فبعثوا بالهدايا والأموال إلى مصر وانتمسوا بالخلق والتشريف.

(١) ابن القلانسي : ذيل ص ٧٣ — ٧٤ ، ابن خلدون : المعبر ج ٤ ص ٢٧٢

درر التيجان ورثة ٣٠٧ (مخطوط)

Lane-poole : Moh, p. 114

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ٢٧١

Wiet ; L'Egypte Arabe. P. 223

(٣) ابن العديم : زبدة ج ١ ص ٢٦٤ ، ابن بزر : أخبار مصر ج ٢ ص ٣ ، ص .

والتوقيعات بملك حلب وسائر أعمالها^(١) وكانت الخلافة الفاطمية تنعم أحيانا بملك المظاهر الودية وترضي برسوم السلطنة الشككية والنفوذ الإسلامي في حلب بينما مضى المرداسيون في تدعيم سلطانهم والحفاظ على استقلالهم .

وفي نفس هذا الاتجاه سار بنو مرداس تجاه السلاجقة فوالوا إلى مسابقة الركب الجديد وتظاهروا بمهالة القوة الجديدة ، فالتمس محمود المرداسي الحماية من ألب أرسلان سنة ١٠٧٠ م (٦٢ هـ) وأقام الخطبة للخليفة العباسي^(٢) ورغم ذلك لم يسمح محمود لألب أرسلان بدخول حلب حين وصل هذا فجأة في العام التالي ، بل إنه لم يثن أمام فرض الحصار على حلب ، ولم يرضخ أو يفرط في استسلامه ، وكل ما قام به هو خروجه إلى ألب أرسلان بمعهسكره بظاهر المدينة حيث قدم له طاعة زائفة وولاء ظاهر وأحصل منه على توفيع بملك حلب وأعمالها فرضي ألب أرسلان وانصرف من توه لمحاربة البيزنطيين^(٣) .

وعلى نفس الخط سار بنو مرداس تجاه البيزنطيين فبينما خاضوا الحروب للأضاربة مطامع الإمبراطورية في الشرق ، حفظوا لاستقلالهم وضنا بإمارتهم^(٤)

(١) ابن العديم : زبدة ج ١ ص ٢٤٧ - ٢٤٨ ، ص ٢٦٦ - ٢٦٧ : ابن ميسر نفسه

ج ٢ ص ٥ ، المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي : السيرة ص ١٠١ ، ص ١٠٧ - ١٠٨

(٢) ابن القلانسي : ذيل ص ٩٨ ، ابن العديم : زبدة ج ٢ ص ١٧ - ١٨

Can b. Med. Hist. 5. p.261

Grousset ; Hist. des Crois. I.p. xxxII (٣)

(٤) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٥٤ ، ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ٣٤٩ ، ج ٨

ص ١٠٧

Can.b · Med · Hist · 5 · p · 256

Schlumberger ; L' Epopee · III b 79

تجدهم يحاولون دوماً تجنب عداة الأباطرة البيزنطيين وكسب ودهم ، والتكيف مع سياستهم ، بل ودفع نوع من الجزية لهم كلما دعت الحاجة إلى ذلك (١) .

وهكذا نجد أن بنى مرداس مسح حرصهم على ضمان استقلالهم وحفظ إمارتهم بعيداً عن مناطق نفوذ القوى الكبرى ، فإنهم اضطروا أحياناً للتظاهر بالانصياع الاسمية والتسليم بشيء من السلطة الشكلية لبعض تلك القوى ، ولقد نجح المرادسيون في ذلك إلى حد بعيد ، لكن التوتر الذى صاحب كل ذلك ، والقلق الذى عاشته الإمارة من جراء تحفز القوى الكبيرة ضدها ، انعكس بعد فترة على قدرتها وصمودها فتمالك تحت أعباء العصر ، وانهدمت دفعة واحدة والتمتها قرّة أخرى كانت مترقبة لثرى أملاك أول إمارة عربية فى حاب فى القرن الخامس الهجرى .

أما بنو عمار فلمقد انتهجوا نفس هذا النهج ، وساروا فى نفس الخطة فحرصوا على ضمان استقلالهم أولاً ، وسارعوا بملائمة سياستهم ومواءمتها مع القوى الأخرى كلما احتاج الأمر إلى ذلك . فعلى الرغم من أنهم استقروا بطرابلس راقطعوا هذه المدينة من أملاك الخلافة الفاطمية إلا أنهم حرصوا على عدم إثارة تلك الخلافة وإعلان العداء لها أو معارضة سياستها (٢) ، وأردفوا ذلك بالإنزام خط حيادى بينها وبين السلاجقة بل إنهم أعرضوا عن مجرّد

(١) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٥٧ ، ابن العديم : زبدة ج ١ ص ٢٤٦ - ٢٤٧ ،

ص ٢٦٨ . ٢٧٠ .

(٢) ابن القلانسي : ذيل ص ١١٢

المرداوى الذى بدأ دائرا في فلك السلاجقة منذ سنة ١٠٧٠ م (٥٤٩٢ هـ) كما ظهر لهم حينئذ (١)، وهكذا أثبت بنو عمار أن هدفهم الأساسى هو حفظ استقلال إمارتهم والانجاء وجهة حيادية بين المعسكرات المتنازعة بل وتجنب كل من تنور الشكوك في انجيازه وعدم حيادته .

على أن الأسلوب الذى أتبعه بنو عمار تجاه الصليبيين منذ أواخر القرن الحادى عشر الميلادى قد أكد حرص هذه الأسرة على التكيف السريع مع الانجاهات المستحدثة في المنطقة والاستجابة السريعة لمتطلبات الأمن ، فقد حرصوا بآدى ذى بدء على تجنب الصدام مع الجيش الصليبي العابر ناحية الجنوب في طريقه إلى بيت المقدس سنة ١٠٩٩ م (٥٤٩٢ هـ) وأبدوا استعدادهم لدفع نوع من الجزية وتسهيل عبور الصليبيين بل ووافقوا على رفع الأعلام الصليبية فوق طرابلس إشارة إلى الولاء والصدقة (٢) . وكلمها ترجمة صداقة لرغبات صداقة ملحة في حفظ كيان إماراتهم بأية وسيلة وعلى أية صورة وملائمة أنفسهم مع ما يستجد من ظروف طارئة قد تعرض أمنهم للخطر .

ولقد ظل بنو عمار في حيادهم يرفضون الارتساء في أحضان القوى الإسلامية الكبرى على الرغم من تعرضهم للخطر الصليبي المتزايد ، إلى أن غدا دفع الفرنج من طرابلس أمرا خارجا عن قدرتهم فمالوا حينئذ للاستنجد

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ٢٦٢

Gesta Francorum , p , 80 , 83

(٢)

Grousset ; Hist . des Crois . I ' 132 .

بالقوى الإسلامية الكبرى بل والتسليم لها بشيء من النفوذ الاسمي والاعتراف لها بنوع من التبعية الشكلية ، وفي هذا ظل هذا الفهم طامس فيخر الملك بن عمار العون من السلطنة السلاجوقية سنة ١١٠٨ (٥٠١ هـ) وفي ظل هذا الفهم أيضا هرع هذا الأخير إلى بغداد يستجدي النجدة ، ولكن مع ذلك لم يفقه أن ينوه باستعداده بأن يقوم بتمويل الحملة المزمع إتهاذها لنجدته وعلى نفقته ، ومن أموال إمارته إشارة خفية إلى استقلاله الذاتي في الإمارة (١) . وهكذا حافظ بنو عمار على استقلالهم وبهذا الأسلوب المرن استطاعوا حماية كياناتهم وقيادة سفينتهم وسط أنواء القشام وعواصفه ، وبين رغبات القوى المتحفزة لالتهم إمارتهم المستقلة .

أما فيما يخص بني منقذ فلعل تاريخ تلك الأسرة العربية يؤكد بحق حرصها الدائم على اتباع ذلك الأسلوب المرن وانتهاج تلك السياسة اللبقة والظهور بمظهر السائر في ركاب كل القوى الكبرى ما دام ذلك يحفظ عليها استقلالها ويصون أمنها (٢) .

فبينما حرص بنو منقذ على تجنب تدخل بني مرداس وبني عمار في شئونهم وذلك قبل أن تنهم —دم الإماراتين ، نجد أن مؤسس الإمارة المنقذية اشترى

(١) ابن القلانسي : ذيل ص ١٦١ ، ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢٥٠

سبط بن الجوزي : رآه ج ١٠ ورقة ٢٧٨ .

(٢) عبر عن ذلك المؤرخ المحدث رنشان (p . 173 , cit , 11) بقوله أنهم :

«...always anxious to be the friend of every one of importance..»

ود تاج الدولة تنش السلجوقي حينما بدأ هذا نشاطه في غزو الجهات الوسطى والساحلية في بلاد الشام (١) . فلما ظهر بعدئذ شرف الدولة مسلم العقيلي كقوة كبيرة في بلاد الشام سارع ابن المنقذ إلى السير في ركابه بل وعادته على فتح حلب (٢) . وحينما راح كل من مسلم وسامان ابن قتلش ضحية نشابك الصراع والمصالح في بلاد الشام بين السلجقة والعرب وبين السلجقة أنفسهم، وقدم ملكشاه إلى المنطقة ليضع حدا لأطماع تنش سارع نصر بن منقذ إلى إعلان طاعته للسلطان (٣)، وسلك بنو منقذ نفس هذه السياسة على عهد سلجقة الشام من أبناء تنش حتى انتقلت دمشق إلى طغتكين والبورين .

وحاول إسماعيل بن بوري سنة ١١٣٢ م (٥٢٧ هـ) الاستيلاء على شيزر لولا أن سارع أبو العساكر سلطان بكسب وده وتقديم مبالغ من المال له ، فاشترى بذلك إمارته وحمى استقلالها (٤) .

وحينما طرق الصليبيون أبواب الإمارة متجهين ناحية الجنوب ، حرص

(١) ابن العديم : زبدة ج ٢ ص ٥٦ ، ص ٦٦

(٢) ابن العديم : نفسه ج ٢ ص ٦٩ ، Derenburg : vie du ouzan a p. 592

(٣) أبو شامة : الروضتين ج ١ ق ١ ص ٦١ ، سبط بن الجوزي : مرآة ج ١٠ ورقة ١٠٠ أبو الفدا : المختصر ج ٢ ص ١٩٨ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٣٤٠ - ٣٤١ (سنة ٥٢٧ هـ)

مختارات من بنية الطالب لابن العديم في المجموعة

أبو العساكر سلطان بن منقذ على تجنب الصدام معهم وأبدى استعداداً لتقديم المعونة لهم وإرسال أدلاء لإرشادهم لعبور النهر عبر المخاضة ، وتقديم كافة الإرشادات لهم نظير عدم تعرضهم لإمارته بسوء^(١) .

وبعد استقرار الصليبيين في المنطقة ورسوخ أقدامهم في بلاد الشام لاسيما في أنطاكية وطرابلس وإلى الشمال وإلى الجنوب من شيزر ، اضطرب بنو منقذ إلى ملائمة أنفسهم ورسم سياستهم بما يتمشى مع الأوضاع الجديدة ، فتلافوا الصدام مع الصليبيين بقدر الإمكان ، ودافعوا عن إمارتهم ماوسعهم الجهد ، وفي نفس الوقت لم يرفضوا دفع نوع من الجزية للصليبيين ، وأظهر شيء من الولاء لهم حفاظاً لأمنهم واستقلالهم^(٢) ، بل ذهب بهم حماسهم لكسب ود كافة القوى المجاورة ومن بينها القوى الصليبية حد التوسط لدى الإراقة في حلب لفك أسر الملك بلدوين الثاني^(٣) .

ولم يمنعهم ذلك من القيام بدورهم كإمارة عربية يرجى مشاركتها في حركة الجهاد المقدس ضد القوى الصليبية ، وإن أعطاهم فرصة مواتية لتكييف سياستها حسب متطلبات الظروف . ولقد أثبت بنو منقذ حساسيتهم الفائقة تجاه الأحداث الجارية في بلاد الشام خلال نوبات الجهاد المقدس التي أعلنها للإسلاجنة ، فهرعوا إلى مراكبة الركب كلما وصل قائد كبير على رأس قوات

➤ (٢) أسامة بن منقذ : الاعتبار ص ٧٠ - ٧١ ، ص ٦٦ - ٦٧ ، ص ١٢٠ - ١٢١ ، ص ٥٠ .

➤ (٣) ابن العديم : زبدة ج ٢ ص ٢٢٢ .

السلطنة السلجوقية للقتال ضد الفرنج . (١) ثم على أيام الأراقة الترك كان أصحاب حلب وميافارقين من ديار بكر ، وهم الذين حملوا راية الجهاد ضد الصليبيين ابتداء من سنة ١١٢٤ م على عهد إيلغازي وابن أخيه بك بن بهرام الأرتقي (٢) ، ثم على عهد آخر قائد سلجوقي من قبل السلطان محمد وهو آقسنقر البرسقي سنة ١١٢٦ حتى تكفل عماد الدين زنكي بأمر الصليبيين ابتداء من سنة ١١٢٧ م .

وحين غزا البيزنطيون شيزر سنة ١١٣٨ م (٥٣٢ هـ) دافع بنو منقذ عن استقلالهم بكل ما استطاعوا ولم يمنهم ذلك من التسليم بشيء من التبعية الاسمية للإمبراطور يوحنا كومنين ، ودفع مبلغ من المال وتقديم شيء من الهدايا له ما دام ذلك يصرفه عنهم ويحفظ عليهم استقلالهم (٣) .

وطبقا لهذا فيمكن القول أن بني منقذ أثبتوا دوماً أنهم كانوا جريصين على ضمان استقلال إمارتهم مع الاستعداد لعمل كل ما يضمن عليهم ذلك

(١) أسامة : الاعتبار ص ٦٨ - ٦٩ ، ص ٧٣ - ٧٤ ،

Grousset ; Op . Cit . 1 . p . 278 , 503

ابن القلانسي : ذيل ص ١٧٧ ، ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ٢٦٣ (٥٠٠ هـ)

(٢) Cahen : Encyc . Isl art . " Artukids " (٢)

(٣) أسامة بن منقذ : الاعتبار ص ٩٢ ، ص ١٣ - ١٤

Camb.Med. Hist.4.p. 359

Brehier ; vie et mort de Byzance p. 324

Grousset ; L' Empire du Levant . p. 222 - 3

vasiliev : op . cit. II. p. 55

الاستقلال ، ولو أدى الأمر إلى مسابرة كل ركب والتسليم بشيء من الولاء
الاسمى لكل قوة يخشى بأسها . ولقد عبر عن ذلك أحد المؤرخين المحدثين
بقوله عنهم « أنهم كانوا مثلاً للمسالمة والأخوة وأمثال هذه الصفات ، فلم
يكونوا رغم كثرتهم في شيء من الشر وإن هان فتراهم يحزون عن ظلم الصليبيين
مغفرة وعن إساءتهم إحساناً ، (١)

ومنه السياسة ويأثرون العافية مع القوى المختلفة نجح بنو منقذ في حفظ
استقلال إمارتهم أكثر من ثلاث أرباع القرن ما كان يتأني لامارة في صغرها
وقلة مواردها البشرية والمادية بالنسبة لغيرها ، أن تعيش في ظل جو سيطرت
عليه المطامع البشرية ونكالت فيه الأطماع ، أو تمضي في استقلالها عازفة عن كل
القوى الأخرى غير منحازة لأى منها انحيازاً يؤثر في حريتها أو استقلالها .

مدى العناية بالسكان في النواحي الاقتصادية والسياسية والاجتماعية :
على الرغم من أن الاهتمام بمصالح الأغلبية السكانية في النواحي المختلفة
السياسية الناحية السياسية والاجتماعية ، لم تكن شيئاً عادياً في سياسة الدول
والإمارات في تلك العصور أو خطاً بارزاً يلتزم به حكام تلك الإمارات ،
فإننا نلمس ثمة اهتمام بملك المصالح في سياسة أغلب الأمراء العرب الذين تعاقبوا
على الحكم في الإمارات العربية الثلاث خاصة النواحي الاقتصادية ، حتى لنجد
المصادر المعاصرة واللاحقة لا تخلو من الإشارة إلى تفاوت العناية بالسكان في
هذه الناحية ، وإلى مدى ما بلغت الإمارة من رخاء وازدهار ومن خلال ذلك

(١) حسن حبشي : نور الدين والصليبيون ص ١١

يجرى تقييم عهد الأمير العربي وما أصاب الإمارة في عهده من رخاء وتقدم .
وعلى الرغم من أنه ليس بين أيدينا ما ينشئ عن الأحوال الدقيقة لحياة
الفلاحين والمزارعين والسواد الأعظم من سكان القرى المجاورة والضيايع
والبساتين والحدائق والرسانيق أو ما يعطى فكرة واضحة عن النظم الاقتصادية
والاستغلالية للأراضي في الإمارة ، فإن نمة دلائل تشير إلى شيوع نوع من
الافطاع الزراعى زمن المرادسيين جرى بمقتضاه منح كثير من الضيايع
والأراضي لبعض زعماء العشائر والبطون الكلابية وبعض أمراء الدولة وذوي
الخطوة فيها ^(١) .

ورغم شيوع هذا النظام إلى حد ما فإن وضع الفلاح في ظله لم يكن سيئاً
وربما قاسى الفلاحون وأصحاب الأراضي الصغيرة من الإغارات ، ونهب
بالأمن أكثر مما قاسوا من جور المقطعين أو أصحاب الضيايع الكبيرة الذين
لا شك انصرفوا إلى القتال والمشاركة والمساهمة في الحروب أكثر مما توفروا
على ملاحقة الفلاحين أو إيقاع الضرر بهم أو التعسف معهم ^(٢) .

وتشير كثير من الدلائل إلى تمتع أهالى الإمارات من فلاحين وأصحاب
الأراضي الصغيرة وغيرهم بكثير من حقوقهم خاصة فيما يتعلق باختيار الولاية
وأمراء النواحي والمشرفين على الأمن إلى غير ذلك نظير قيامهم بدفع ما عليهم

(١) ابن العديم : زبدة ج ٢ ص ٩ - ١٠ ، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٢٧٤

ابن الوردي : تاريخه ج ١ ص ٣٥١ .

(٢) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢١١ ، ابن العديم : زبدة ج ١ ص ٢٠١

من ضرائب صغيرة لا تكبر إلا وقت الأزمات وعند تعرض الوطن للخطر ،
ولهذا لقد عم الرخاء أنحاء الإمارة وكثرت الأرزاق ، واتسعت الثروات
وتردد كثيرا في المراجع أخبارها كانت تفرح فيه حباب من مظاهر الغنى والثروة
وما كان يتجلى في أعيادها من أمارات الغنى ومظاهر النعمة (١) .

على أننا نسمع كثيرا أن أمراء حلب عمدوا في كثير من الأحيان إلى
إعفاء السكان مما عليهم من ضرائب أو تخفيضها تقربا إليهم وتوددا ، وخاصة
في بداية عهدهم وكلما احتاج الأمر إلى مداراتهم وكسب ودهم ، ولهذا
فقد أعطيت الإمارة فترات حرة من الضرائب كان لها أثرها فعلا في التيسير
على السكان وإطلاق أيديهم والتخفيف من أعبائهم .

ولعل العناية بالسكان في النواحي الاقتصادية كانت تشغل حيزا معقولا
من تفكير القائمين على الحكم في الإمارات العربية ، موضوع الحديث ، بل إنها
كانت خطأ بارزا في سياسة أغلبهم ، إذ أخذوا من الوزراء ذوى الحكمة
وذوى الخبرة بالشؤون الاقتصادية والإدارية فضبطوا لهم حسابات الدولة
وضاعفوا من مواردها . فأتخذ نصر بن صالح أبا المفرج ابن المؤمل النصراني
لأنه كان « حسن التدبير محبا لفعل الخير ، وأستوزر ثمال بن صالح وزراء
ممتازين منهم ابن جهمر حيث : « فوض أموره جميعها إليه فاستقامت وتضاعف
ارتفاعه وضبط أمواله » . وكانت نتيجة سياسة ثمال أن — « استغنى أهل
حلب في أيامه ، وكذلك ددرت الأرزاق في أيامه على الناس وأحسن السيرة

(١) ابن العديم : زبدة ج ١ ص ٢٥٧ — ٢٥٨

فيهم وجاء بالمطاء ، واهتم محمود بن نصر باختيار معاونيه وولاته في القلاع والحصون التابعة لحلب فازدهرت الإمارة في عهده وأحصي ما وجد بخزائنه فكانت قيمته من العين والمتاع والآلات والثياب والمراكب ألف ألف وخمسمائة ألف دينار (١٦ مليون) ، (١) .

وهكذا تمتعت حلب وما حولها بعهد زاهر زمن المرداسيين وبلغت شأوا بعيدا في الازدهار الاقتصادي ، نتيجة حرص أمراءها على القيام بشيء من واجبههم والاضطلاع بمسئولياتهم وإذا أضفنا إلى ذلك النشاط التجاري الذي مارسه حلب حينئذ والذي تحدث عنه المراجع بحكم موقع حلب في شمال الشام وكما نرى لكثير من الطرق بين بلاد العراق وسوريه (٢) ، استطعنا أن نقيم حالتها الاقتصادية ، إذ يصف ابن بطلان المتطبيب المعاصر لبني مرداس رخاء حلب حينئذ وازدهار وحركة التجارة فيها فيقول أن د في قيسارية البر عشرين دكانا يبيعون فيها كل يوم متاعا قدره عشرون ألف دينار مستمر ذلك منذ عشرين سنة (٣) هذا فضلا عما كان يمر بها من تجارة وما يجنيه أمراؤها من ضرائب ومكوس ، وما تحدثه تلك الحركة التجارية من رخاء بين سكان المدينة وضواحيها وهي امتداد طرقها .

(١) نفس المرجع السابق ج ١ ص ٢٣٨ ، ج ٢ ص ٣٦

ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ٥

Ame'roz ; The Hist. of the city of Mayyafariqin P. 326 - 7
(J. R. A. S. 1292)

Canard : op cit. P. 234-5 (٢)

(٣) الحلبي : اعلام النبلاء ، تاريخ حلب الشهباء ج ١ ص ٣٣٤

واهتم بنوعار أيضا بالسكان في إماراتهم من الناحية الاقتصادية اهتماما بالغاً حتى بلغت طرابلس الذروة في الازدهار الاقتصادي في عهدهم^(١)، ولعل أبلغ دليل على ثراء طرابلس وترف أهلها وغنى سكانها ما شاهدته المبعوثون الصليبيون حين وطئت أقدامهم أرضها عندما وفدوا لمفاوضة أميرها ابن عمار في أمر الصلح، فانبهروا أمام عظمتها ومبلغ ثرائها ونقلوا إلى الكونت ريموند مشاعرهم فاستبد به فطمع وأعاد النظر في أمر الصلح قبل أن يحصل على تنازلات أخرى ومزيد من المال من آل عمار^(٢).

على أن ملائمة الظروف الطبيعية من جريان النهر الكبير وخصب التربة في طرابلس وضواحيها فضلاً عن حرص آل عمار على توفير الحماية والأمن ورعاية السكان وتخفيف العبء عنهم كل ذلك ساعم في الازدهار الاقتصادي الذي عاشته الإمارة، إذ كثرت بساتينها ومزارعها وحدائقها، وازدادت ثروتها الزراعية والتجارية وتنوعت، وذلك برواية الرحالة المعاصرين ومن جاءوا بعدهم بقليل^(٣). وأعطى هذا التنوع الزراعي وكثرته فرصة قيام كثير من الصناعات القائمة على الحاصلات

(١) ابن الفرات : تاريخه ج ٨ ص ٧٧ ،

Grousset : Hist. des Crois. I. P. 132

حتى : لبنان في التاريخ ص ٣٥٣

Archer: The Crusades. p. 81-82

(٢)

Runciman: op. cit. 1. p. 270

(٣) ناصر خسرو : سفر ناهه ص ١٣ ، ياقوت : معجم ج ٣ ص ٢١ ،

الادريسي : وصف الشام من نزعة المشتاق ص ١٣

الزراعية والحيوانية ، لاسيما الحرير والصوف والورق وقصب السكرو والزيتون والكروم وغير ذلك . وبقـال أن طرابلس كانت تحوى وقت الهجوم الصليبي عليها فى مطلع القرن الثانى عشر نحو أربعة آلاف من مصانع الحرير والصوف (١) ، فضلا عن مصانع الورق التى عدت إحدى الصناعات الهامة فى ذلك الوقت .

ولقد مكن موقع طرابلس كرفأ هام و كركز لتجمع كثير من المصادر من قيام نشاط تجارى فى المدينة ، فأقيمت الأسواق المحلية وفرضت المكوس على السفن الآتية من بلاد الروم والفرنـج والأندلس والمغرب ، ووجدت حركة تجارية ساهمت فى زيادة الرخاء بالمدينة واستفاد السكان دون شك من كل ذلك وأثروا . ويذكر الاستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور أن ثراء طرابلس وغنى سكانها قد مكنتها وقت تعرضها للحصار الصليبي من شراء المؤن بأنمان باهظة من جهات متعددة من جزيرة قبرص وجزائر البنادقة بل ومن أنطاكية الصليبية ذاتها (٣) .

أما بنو منقذ فى شيزر فلقد اهتموا كثيراً بالشئون الاقتصادية فى إمارتهم ونشير كثير من الدلائل إلى نجاح بعض أمرائهم فى منح الإمارة عهداً من الاستقرار الاقتصادي والرخاء المادى الذى كان يستترعى انتباه المارين بها أو

(١) محمد بهجت ورفيق التميمي : ولاية بيروت ٢ ص ٢١٤

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٣٦٣

القادمين إليها ، لاسيما من الصليبيين وقد روى أسامة بن مفضل جانباً من الروايات في ذلك كلها تؤكد عظم ثراء الإمارة ومبلغ ازدهارها (١) .

وعلى الرغم من أن بني منقذ كانوا يمثلون الأغلبية المملوكة لأراضي الإمارة نظراً لصغر مساحتها نسبياً وقلة توابعها ولكبر أسرة بني منقذ ذاتها ، فإننا نعلم أن كثيراً من رعاياهم تمتعوا بامتلاك الأراضي وممارسة الحياة العادية في ظل حماية بني منقذ (٢) ، بل إننا لا نلمس في كتابات أسامة عن فلاحى الإمارة نفحة تدل على ممارسة آل منقذ أى نوع من التمسك بالقطاع ضد الفلاحين أو نحو ذلك ، بل على عكس ذلك نجد أن فلاحى الإمارة خارج شيزر وفى ضواحيها كانوا يهرعون إلى شيزر لإحاطة آل منقذ بأية بوادر للهجوم أو الغزو ، فيجدون لديهم كل الاستجابة ، والأمثلة على ذلك متوفرة فى كتابات أسامة (٣) ، وأيضاً اهتم بنو منقذ بتوفير الحماية لأرباب القطاعات الصغيرة من بني منقذ أنفسهم إذ يحكى أسامة أن فرنج أنطاكية نزلوا بقرب شيزر مرة استعداداً لمهاجمتها ، وكان لابن عمى ليث الدولة يحى غله قد نجزت وهى بالقرب من الإفرنج ، فجمع دواب يريد يمضي إلى الغلة بحملها ، فسرنا معه فى عشرين فارساً معدين ووقفنا بينه وبين الفرنج إلى أن حمل الغلة ومضى (٤) .

أى أن بنى منقذ حرصوا على توفير الحماية والأمن للرعايا فى خارج

(١) أسامة بن منقذ : الاعتبار ص ٨٧

(٢) نفس المرجع ص ٢٠٠

(٣) نفس ص ٥٠ - ٥١

(٤) نفس ص ٤٣

عوا داخل شيزر سواء أكانوا من الفلاحين البسطاء أو أصحاب الاقطاعات من
بنى منقذ أنفسهم ولعل ذلك يفسر الازدهار والرخاء الذى تمتعت به الإمارة
والاستقرار الاقتصادى الذى ميز عهد آل منقذ ، فضلا عن أن بنى منقذ اتخذوا
الوزراء والكتاب والموظفين من ذوى الخبرة والميل إلى فعل الخير والاهتمام
بالرعايا فى كافة النواحي البشرية .

على أن الهدايا والأموال التى درج بنو منقذ على تقديمها لرحلات العصرنجيا
لعملائهم وضررهم تشير إلى رخاء مادى وثراء اقتصادى تمتعت به عهدهم^(١)
وحين تهدمت شيزر وهلك بنو منقذ ونجت زوجة آخر أمراءها اهتم نور الدين
محمود بن زنكى بسؤالها عن أموال وكنوز قومها ، لكنها لم تهبط إجابة شافية
فاشتد فى معاملتها حتى تعترف ثقة منه فى مبلغ ثراء الأسرة الراحلة^(٢) . وعلى
هذا فيمكن القول أن بنى منقذ اهتموا كثيرا بالنواحي الاقتصادية فى
إماراتهم ونشطوا فى منحها عهدا مزدهرا وفترة مستقرة لاسيما وأنهم كانت
مطمعا للقوى الصليبية ومخط أنظار الأمراء المجاورين من العرب والتركمان
والسلاجقة حتى من قبل جماعات الباطنية فى الجهات المجاورة .

ورغم هذه العناية بالسكان فى النواحي الاقتصادية ، فقد احتاج الأمر
أحيانا إلى مصادرة أموال بعض الأثرياء لتغطية نفقات الجيوش ومتطلبات
الأمن خاصة فى أوقات الحصار وأثناء تعرض الإماراتهم للخطر ، فالتجأ بعض

أولئك المصادرين إلى المعسكرات المناهضة (١) . ولكن هذه الأمثلة كانت قليلة ونادرة فضلاً عن أنها لا تمثل طبقة كبيرة بعينها أو غالبية من السكان في الإمارات بل اقتصر على بعض الأثرياء المومنين خاصة إذا أظهروا شيئاً من الجشع أو نوعاً من البخل أو لم يتعاونوا مع السلطات الحاكمة أثناء الأزمات السياسية والاقتصادية .

لكن دون ذلك لم يقع جور أو أجحاف بالغايا ، بل على عكس ذلك حرص الأمراء العرب على رعاية شعوبهم وتوفير الأمن والحماية لهم ضد الجيوش الغازية والفرق الطامعة وبذلوا في سبيل ذلك كل جهد .

غير أن العناية بالسكان في النواحي السياسية والاجتماعية لم تكن في درجة غيرها من النواحي المختلفة ، فليس ثمة ما يشير إلى وجود نوع من التنظيمات السياسية والاجتماعية يمكن أن نستشف منها مدى اهتمام الأمراء العرب بشعوبهم في هذه النواحي ، ويبدو أن ذلك يرجع في أغلبه إلى صغر رقعة الإمارات وضآلة عدد سكانها بالنسبة لغيرها بما يتيح للقائمين على أمرها التجاوب السريع مع الانجهاات الختلفة البادية في مجتمعاتهم والاحساس السريع بتغيرات الرأي العام دون الحاجة إلى تنظيمات تكفل هذه المسائل ، وعلى هذا فيمكن اتخاذ المواقف التي تتمشى مع رغبات السكان دون حاجة إلى وساطة في ذلك .

وإن كنا قد أفقدنا أشكالاً جزئية وسياسية في الإمارات المعنية ، إلا أن

(١) ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ٢٣٥

غوعا من الأحزاب المناوئة والمعارضة وجد أحيانا وإن لم يعرف بهذا الاسم وإن لم يتخذ شكل التنظيم بل برز خلال الأحداث مؤكدا وجوده ودوره في الحياة السياسية ، فهذا سالم بن مسنفاد زعيم الجماعة التي عرفت بالحمدانية نسبة إلى بني حمدان ، بلى ظله على مجربات الأمور في حلب بعد عهد صالح بن مرداس أحياء لدوره ونشاطه أيام الإمارة الحمدانية، لكن الخلاف سرعان ما استفحل بينه وبين نصر المرادسي فاندلعت الحرب بينهما ولقي ابن مسنفاد حتفه فيها فنفرت جماعته أو بمعنى أدق نشعت حزبه (١) ، وهذا الأمير أبو الفتح وأبنة ذو المناقب من بني عمار يتزعم —ان حزبا خفيا منظما في طرابلس ويحاولان الولوج إلى الحكم أكثر من مرة ، يؤيدهم بعض اللاجئين السياسيين (٢) ولكن حركتهم تفشل هي الأخرى ويتفرق جمعهم ويتشتت حزبهم . وهكذا نجد ثمة تنظيمات سياسية مناوئة وإن لم تتخذ أشكالا علنية ثابتة أو تعرف بتنظيمات حزبية عاملة إلا أنها كانت موجودة فعلا متحفزة تحاول أن تلعب دورها كأحزاب معارضة أو كأداة تعبير مناوئة معبرة عن رأى شق من السكان أو جماعة بعينها من الأهالي .

لكن الرعاية المصحية للسكان كانت سمة بارزة في تاريخ الإمارات الثلاث لذا يتكرر كثيرا قيام الأمراء الجدد أحيانا بإطلاق سراح بعض المسجونين السياسيين تقربا إلى الأهالي واستجابة لرغباتهم ، وانفتاحا على عهد جديد قوامه

(١) ابن العديم : زبدة ج ١ ص ٢٩٤

(٢) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج ٩ ورقة ٤٠٣ - ٤٠٤

ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ٢٥٠

التعاون والتآزر (١) ، وكذلك قيام بعض الأمراء العرب بافتداء من وقع في أسر الروم من رعاياهم وعشائهم تمشياً مع رغبات وآمال شعوبهم (٢) . هذا فضلاً عن أن اهتمام الأمراء العرب بإقامة العدل في ربوع أملاكهم كان أمراً ملحوظاً ، ولقد نوه أحد الشعراء بعدل ثمال بن مرداس أكثر من مرة (٣) مما يدل دلالة قاطعة على فهم طيب من قبل أولئك الأمراء تجاه بعض النواحي الاجتماعية في حياة شعوبهم . . بل اهتم بعض الأمراء العرب بالشئون الصحية لرعاياهم وحرصوا على إقامة المستشفيات والبيمارستانات إلى غير ذلك من الخدمات العامة للجماهير .

وتشير بعض المصادر إلى قيام ابن بطلان المتطبيب المعاصر المرادسيين والمتوفى سنة ٤٥٨ هـ (١٠٦٦ م) بوضع أسس العمل في بيمارستان أقيم لخدمة أهل حلب واطلع أحدهم على صك وقف إحدى المستشفيات فيها فقال : « إن كل مجنون ينحصر به خادمين يخدمانه فينزعان عنه ثيابه كل صباح ويحميانه بالماء البارد ، ثم يلبسانه ثياباً نظيفة ويحملانه على أداء الصلاة ويسمعانه قراءة القرآن يقرأه تارياً . حسن الصوت تم بنفسحانه في الهواء الطلق ويسمع في الآخر الأصوات الجميلة والنفحات الموسيقية الطيبة » (٤) ، وليس هناك شك في أن ثمة

(١) ابن العديم : زبدة ، ج ٢ ص ٥٤ .

(٢) ابن القلانسي : ذيل ص ٩٣ .

(٣) ابن الخوزي : المنتظم ج ٨ ص ٢٢٧ وتال الشاعر في ذلك :

وسن العدل في حلب فأضحت يحسن العدل بقعته البقاعا

(٤) محمد كرد علي : خذ ط الشام ج ٦ ص ١٦٦-١٦٧ .

خدمات اجتماعية ممثلة أقيمت في حلب وطرابلس وشيزر لخدمة السكان والعناية بهم .

على أن رعاية السكان في النواحي الثقافية والعلمية والى سنغرد لها صبغات خاصة تؤكد حرص الأمراء العرب في حلب وطرابلس وشيزر على أداء واجبهم تجاه رعاياهم وتقديم كافة الخدمات لأكبر قطاع من السكان وكلها تأكيدات جديدة لما ميز عهد الإمارات من رخاء مادي وفكري وما كان يضطلع به الأمراء العرب تجاه شعوبهم من مسؤوليات .

ب - النواحي الحضارية والعمرانية

بعض مظاهر القرب في حياة الأمراء العرب

ليس هناك شك في أن فترات حكم الإمارات العربية المشـارة إليها ، كانت بمثابة ومضة ضوء في تاريخ المنطقة ولمحة ازدهار في واقعها لم تقأ لها في ظل بعض الأوضاع السابقة واللاحقة ، ولم تشهد مثلها إبان فترات مختلفة ، ولهذا فقد جاءت همود الإمارات الثلاث حاملة لعبير الماضي وظل الأيام المنصرمة فعلا ، إذا جاز لنا القول أن عصرى الخلافتين العربيتين كان مثلاً تحذيره مثل تلك الإمارات العربية .

ولقد أدرك الأمراء العرب سواء جفت طبائهم لقرب عهدهم بالبداوة أو لانت بسبب رسوخ أقدامهم في الحضارة أن نمة أمور تحتم عليهم مجارة الواقع الجديد وتضطرم لمسايرة الركب ، وتكسبهم وضعا خاصا بين جيرانهم ، فلم يعد في مقدورهم تصور إمارة بغير مظاهر الأبهة والعظمة واتخاذ الحاشية وعقد مجالس الشعر والأدب بل وقرض الشعر أحيانا ومنح الهبات والأعطيات والخروج للصيد وشغل الوقت وأنخاذ الموالى والممالك والفلدان إلى غير ذلك من أوجه الرئاسة ومظاهر ممارسة السلطة وجلال الحكم .

ولقد غالى بعض الأمراء العرب في ذلك فأعادوا إلى الأذهان قطعاً حية من تاريخ الإمارة الحمدانية ، بل ربما من معصور الخلافتين في دمشق وبغداد بكل ما شابها من مظاهر العظمة وما ماج فيها من تيارات وما حفت به من أمور طيبة أحيانا وغيرة طيبة أحيانا أخرى والواقع أن قصور أمراء حلب

وطرا بلس وشيزر لم تخل أحيانا من تلك المظاهر والتيارات بل إنها كانت مسرحا لكثير من الأمور التي لم تجر إلا قليلا ونادرا في قصور وحياة بعض الخلفاء والأمراء على امتداد الحقب الإسلامية الطويلة وفي العواصم الكبيرة .

فهذا محمود بن نصر المرداسي وقد جلس في قصره وأمر بإحضار الشراب و فشرّب أفداحا ثم قال : أرفعوا الخمر فإن ابن حيوس يحضرني ممتدحا وفي نفسى أن أمه جائزة سخية فإن كان الشراب في مجلسي قيل وهبه وهو سكران ، ولما حضر ابن حيوس وأنشده مدائحه وهبه محمود ألف دينار ذهبيا في صينية فضة وجعلها له رسما عليه في كل سنة ، (١)

ولما توفي محمود وخلفه ابنه نصر دخل عليه ابن حيوس وامتدحه بإحدى قصائده عبر فيها عن أمله في أن يصل نصر ما كان أبوه يجـريه عليه من هبة الألف دينار حيث قال :

فجاء ابن نصر لي بألف تصرمت وإني لأرجو أن سيخلفها نصر

فأطلق له نصر ألف دينار وقال : د وحياتي لو قال سيضعفها نصر لضعفتها ، (٢) وامتدح الشاعر ابن أبي حمصينة معز الدولة ثمال بن صالح بقصيدة شكا فيها من كثرة أولاده وضيق يده فأمر معز الدولة ثمال بإحضار شهود أشهدهم بتخليكه ضيعتين من أعمال حلب ومنبع منضافتين إلى ما كان له

(١) ابن العديم : زبدة ج ٢ ص ٤٠ - ٤١ ، الحلبي : أعلام النبلاء ج ١ ص ٣٤٠ - ٣٤١

(٢) ابن العديم : زبدة ج ٢ ص ٤٥ - ٤٦ ، ابن خلكان : وفيات ج ٤ ص ٦٤ - ٦٥

عن الإقطاع فأثرى وحسنت حاله ، (١) ، وقرب ثمال أيضا إليه لثيفا من
 من الشعراء منهم عبد الواحد بن المفرج الذي مدحه بقصيدة فأعطاه ثمال من
 أجلمها جائزة سنية (٢) .

وتماذى نهر بن محمود في الجلوس إلى الخمر ومجالس الخمر حتى د حمله
 الخمر على الخروج إلى الأتراك ، ليحاربهم د فرماه تركي بسهم في حلقه
 فقتله ، (٣) ، وهكذا شغف أمراء حلب بالشعر وندوات الشعر ، وعاقر بعضهم
 الخمر وعقدوا مجالسها وأسرفوا في ذلك أحيانا بل دفع أحدهم حياته ثمنا
 لإسرافه في ذلك .

وفي طرابلس مدح ابن الخياط التعلبي الدمشقي آل عمار بقصائد نال من
 أجلمها الهبات والجوائز (٤) وعقدت ندوات الشعر ومجالسه كثيرا في قصور
 الأمراء في المدينة وفي غيرها من البيوت والدور بل وفي الحدائق وعلى
 ضفاف الأنهار ، لكن يبدو أن يد بني عمار لم تكن في سخاء يد بني مرداس ،
 فقلقد تعرض بنو ع-مار أحيانا للهجاه من قبل بعض الشعراء (٥) لكن الشيء
 المشترك الذي يمكن ملاحظته بسهولة هو عنايتهم بالشعر ومجالس الشعر بل

(١) ابن العديم : زبدة ج ١ ص ٢٧١ — ٢٧٢

(٢) سبط بن الجوزي : مرآة ج ١ ص ١٠٨ — ١٠٩

(٣) ابن العديم : زبدة ج ٢ ص ٤٩

(٤) سبط بن الجوزي : مرآة ج ١٠ ورقة ٤١١

(٥) نفسه ج ١٠ ورقة ٢٥

وقرض الشعر أحيانا وكلها سمات حياة نرف وبذخ وإحساس بالانحطاط.
وهود إلى صفحات من الماضي في حياة الخلافة والسلطان .

وفي شيزر كان بنو منقذ مدحيين أيضا انقطع إليهم شعراء كبار أمثال
ابن الخطيب الخفاجي (١) والحصكفي وهو من شعراء ديار بكر له قصائد
طويلة في مدح بني منقذ (٢) ، ولعل بني منقذ كانوا أقرب الأسر العربية
قربا وتعلقا بتلك المظاهر وأكثرهم شفافية واستجابة لمثل هذه الأمور بل إن
أمرائهم كانوا جميعا وبغير استثناء من محبي الشعر ومن قارضييه .

ويتردد كثيرا في المراجع المعاصرة واللاحقة أخبار القصائد المرتجلة وغير
المرتجلة لبني منقذ وعنايتهم بفريق من فحول الشعراء في بلاد الشام حتى يبدو
ثمة تخصص في مدح تلك الأسرة العربية نبغ فيه نخبة من شعراء الشام حينئذ،
فبدا وكأنه عادة أو سنة متبعة مثلما كان أبي الطيب المتنبي منقطعا إلى الدولة
الحمداية من قبل (٣) .

ولقد عدد المهاد الأصفهانى في خريدة القصر كثيرا من أمراء بني منقذ
كشعراء فحول وناظمين مجيدين بل وكثيرا من أفراد الأسرة المنقذية
أيضا، فهذا سديد الملك بن منقذ مؤسس الإمارة نفسه وابنه وخليفته نصر بن علي

(١) ابن خلكان : وفيات ج ٣ ص ٨٦

(٢) المهاد الاصفهانى : الخريدة ج ١ ص ٥٦١ — ٥٦٢

(٣) محمد أسعد أطلس : ديوان أبي حمزة - المقدمة ص ٤

«وأخوه مرشد ابن علي وأبناء أخيه سلطان بن علي وغيرهم من أمراء الأسرة
المنقذية لهم قصائد طويلة وهامة حفلت بها المصادر العربية الأدبية» (١) .

وليس لدينا شك في أن ذلك كله كان نتاج حياة ناعمة هنيئة حافلة بألوان
من الترف والبذخ والغنى غاصة بثق ألوان المسرات في قصور متلاثة وإيالي
مشرقة وأيام حافلة .

وكان قضاء الوقت في التصيد خارج أسوار المدن وفي الأرباض والمرتفعات
«والمغارات القريبة والبحيرات وفي الغابات الصغيرة المبعثرة هنا وهناك قريبا من
مراكز الإمارات كان يعد إحدى وسائل شغل الوقت من ناحية ومظهرا من
مظاهر التمتع من ناحية أخرى ، فضلا عن أنه ترجمة واضحة لحياة الفروسية
والشجاعة وسمة من سمات الخلق العربي الأصيل خاصة إذا اقتصر على صيد
الأسود والفهود والحيوانات المفترسة ، لكن بجانب ذلك كان هناك صيد
الأرانب في الجبال المجاورة وصيد طيور الماء وصيد الغزلان بقرب الأنهار
والبحيرات» (٢) .

وبغض كتاب أسامة بن منقذ بكثير من النوادر والطرائف من صيد

(١) العهد الأصفهاني : الخريدة ج ١ ص ٥٥٢ — ٥٦٠ ، ص ٥٦٨ — ٥٦٩ .

Derenbourg : Extraits du Livre de baton. P.516

ياقوت : معجم الأدباء ج ٥ ص ٢٢٠ — ٢٤٢

(٢) أسامة بن منقذ : الاعتبار ص ١١٩

Schlumberger : Recitide Byzance et des Ctois. p. 101

الأسود بصفة خاصة ومقدرة آل منقذ لاسيما أسامة في التصدي لهذه الحيوانات الشرسة وإظهار البراعة في التعامل معها وفهم طبائعها (١) ولقد بلغ عن عناية آل منقذ بالصييد أن نظموا في شيزر وضواحيها فرقاً متكاملة متخصصة في أنواع الصيد المختلفة وحرص الأمير مرشد بن علي بن منقذ أن يحضر قوماً من أهل الجبل القريب وطلب إليهم أن يقيموا في مواضعهم مصائد البزاة ووهبهم وكساهم وبعد وقت جاءوا إليه وقالوا يا مولانا نحن قد بطلنا معايشنا وزراعتنا في خدمتك ، ونشتمى أن تأخذ منا كل ما نصيده ونقدّر لنا ثمننا نعرفه لانتجاذب فيه « فكان لهم ما أرادوا حرصاً منه على تنمية هذا الصيد خدمة لأزراع أخرى من الصيد .

وكانوا يخرجون من شيزر في أيام معينة لصييد معين « فكيف طارت الجبل كان في ذلك الجانب باز يرسل عليه ومعه مماليكه وأصحابه أربعون فارساً أخبر الناس بالصيد فلا يكاد يطير طير ولا يشور أرنب ولا غزال إلا اصطدناه، فإذا خرجوا في يوم آخر لصيد آخر اختلفت الصورة فإذا ركبنا إلى طير الماء والدراج كان ذلك يوم فرحتنا، وحق الخنازير كانوا يهاجمونها وفي الأزوار خنازير كثيرة تخرج فتركض عابها ونقتلها فيكون فرحنا بقتلها أكثر من فرحة الصيد . . وهكذا كان للصيد فرحة وللخروج إليه شغف حتى ليقول أسامة « وكان له ترتيب ، كأنه ترتيب الحرب والأمر المهم ، لا يشغل بحديث مع صاحبه ولا لهم هم إلا التبحر في الأرض لنظر الأرناب أو الطير

في أوكارها» (١) .

واقـد جذب اهتمام بنى منقذ بالصيـد وبراعتهم فيه أنظار فريق من الكتاب والمؤرخين فى الغرب فـعالجوا هذه الناحية بتركيز دون غيرها من نواحي الحياة فى الإمارة المنقذية فى شيزرحقى لقد أورد كل من Huart , Schlumberger صفحات خاصة لدراسة هذه الناحية عند بنى منقذ والإشادة بها فى حياة الإمارة العربية (٢) حتى ليذهب أولها أن بنى منقذ لم يشغلهم فى حياتهم سوى شيئين هما محاربة الفرنج والجروج للصيـد ، ويقول الثانى أن أسامة بن منقذ بما كان يمثله من نموذج الفارس الشجاع هو فى الواقع تفاعل بين عادات جنسه العربى واخلاقيات عصره أى بين عروبه بسماتها الأصيلة وما ساد عصره من اتجاهات على أن الاثنين اتفقا على أن الاهتمام بالصيـد اتخذ كإلهام للأمراء العرب بنى شيزر ووسيلة من وسائل الترويح عن النفس فيها (٣) .

ولمى جانب الصيـد ومظاهر الترف البادية فى حياة الأمراء العرب نجد أن كثيرآ من الأمراء لم يخلدوا للعيش فى حواضر إماراتهم وحدها بل راحوا يتنقلون بين قصباتها وحواضرها وأهم مـراكرها ، ترويحاً عن النفس وشغلاً للوقت ، سواء قضوا فى تلك المراكز أياماً معينة أو فصولاً معينة ، فهذا صالح بن مرداس

(١) أسامة : الاعتبار ص ٢٠١ — ٢٠٢

(٢) Schlumberger : op. cit. pp. 99-101

Huart : Ousama b. Mounkid. J.R.A.S. 1890. p 304.

Ibid : p. 100.-p. 304 (٣)

يتنقل بين حلب في الداخل وصيدا على ساحل البحر ، ودرج بعض خلفائه على الانتقال بين حلب وحمص ومنبج ، وهؤلاء بنو منقذ تنقلوا بين شيزر وكفر طاب وحماء وحلب وكان لهم في كل، الدور النفيسة والقصور الشامخة والمجالس المؤنسة ، وكان بنو عمار يترددون أيضا بين طرابلس وجبله وعرة وغيرها من مراكز . وهكذا نعم الأمراء للعرب بالرحلة والارتحال ولم يخلدوا للسكنية في مقر واحد دائم بل حرصوا على التمتع بوقتهم والترويح عن أنفسهم (١) .

ونعمة نواحي أخرى في حياة بعض الأمراء العرب وهوايات مختلفة لم يترددوا في ممارستها بجانب اللعب والفروسية والصيد ، فهذا الأمير مرشد بن علي بن منقذ — والد أسامة — يحرص على القيام بنسخ القرآن الكريم نسخا يزهوها ويقيه فخرا بكتابتها ، وكان بعضها مذهبا قضي في نسخها وقتنا طويلا ولم يخل عليها بوقت أو مال (٢) ، فان ذلك عن نزعة دينية محمودة فإنه لا شك يعد مظهرا من مظاهر شغل الوقت بعمل نافع ومجالا لإظهار الأتقاف وفرصة للترويح عن النفس بعمل يرضى من ورائه المثوبة ويبتغى به حسن الثواب .

على أن اتخاذ الموالى والمماليك والغلمان من الأقليات التركمانية والكردية والأرمنية أحيانا يعد أيضا مظهرا من مظاهر الغنى والترف وإظهارا للقوة

(١) ابن العديم : زبدة ، ج ١ ص ٢٣٣ ، ابن خلكان : وفيات ج ٤ ص ٣٥٧

(٢) أسامة : الاعتبار ص ٥٣ ، أبو المعاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٢٦٠

والثروة ويتردد كثيرا في تاريخ الإمارات الثلاث اتخذ أولئك الموالي الذين يراءوا إلى جانب الأمراء في الحرب وفي السلم على جد سواء ومثلوا ركنا أساسيا في حياة الإمارات العربية كخدم للدولة ومنفذين لسياساتها ومعاونين لأصحاب الشأن فيها (١) .

وعلى هذا فيمكن القول أن ثمة مظاهر تنم عن ترف وثروة ودعة تميزت بها فترات حكم الإمارات الثلاث ، حتى يمكننا القول أن مغالاة بعض الأمراء للعرب في ذلك كان له ضلع دون شك في الاضمحلال الذي سري في كيان تلك الإمارات والانحلال الذي سجل بانهدامها وانصوائها إلى قوى أخرى بدت في ثورة حماسية أبعدها ما تكون من تلك المظاهر . لكن الشيء الذي يفرض نفسه في هذا المجال أن كثيرا من الأمراء العرب كانوا قد استسلموا لحياة الدعة والرفاهية ، وآثروا العافية حين كان يجب تحكيم السيف ، وكان لهذا أثره في الضعف الذي سري في كيان تلك الإمارات وساهم في هدمها كلية لتصبح جزءا من أملاك للقوى الأخرى في بلاد الشام بعد عهود من الاستقلال تمتعت به عشرات من السنين .

العناية بالاداب والفنون :

على الرغم من تشابك الاحداث وتداخلها إبان عهود الإمارات العربية

(١) أسامة : الاختيار ص ٤٩ ، ص ٥٤ ، ص ٩٦ من ١٢٢

Schlumbereget : op. cit. 109.

سبط بن لجوزي : مرآة ج ١٠ ورقة ٥٦

Derenbourg : ... Livre du batcn par Ousarra : p. 516.

المذكورة وبرغم الأعباء التي ألقيت على كاهل الأمراء في حفظ أمن قلال إماراتهم ومحاربة القوى الطامعة في احتواء تلك الإمارات ، فقد كان هناك متسع من الوقت للعناية بجوانب حضارية هامة وألوان شتى من مظاهر التمدن والتحضّر لاسيما العناية بالآداب والفنون .

ولا نشك أبداً أن انصراف الأمراء العرب إلى تشجيع هذه النواحي قد فاق أى نشاط آخر في ميدان الحضارة وجذب جانباً لا يستهان به من اهتمامهم حتى غدت حباب وطرابلس وشيزر بل والمهرة مراكز إشعاع حضارى وفكرى وأصبحت تلك المدن محط رحال العلماء ومقصد محبي العلوم والفنون على اختلاف أهراسهم ومشاربهم .

وإذا كان الاهتمام بالكتب بل وإنشاء المكتبات العامة التي اشتهرت في الخفافين وكذلك الاهتمام بتقريب العلماء والأدباء والمبرزين في فروع العلم المختلفة وتشجيعهم كلها أوجه تؤكّد العناية بهذه النواحي الحضارية إلا أنها تعد من ناحية أخرى تأكيداً للدور الذي لعبته هذه الإمارات في تاريخ المنطقة والرقى بها مراتب محدودة حضارياً وفكرياً ويكفي لتأكيد هذه القضية أن بلاد الشام كلها لم تعهد دار حكمة طوال العهد الإسلامى قبل القرن الخامس سوى تلك التي أقامها بنو عمار في طرابلس كأشهر مؤسسة علمية في بلاد الشام بأسرها (١) .

وليس يخاف علينا أن تلك النهضة العلمية والفكرية جاءت في وقت انفضت

(١) محمد كرد علي : خطط الشام ج ٦ ص ١٩٠-١٩١

فيه عرى الوحدة السياسية في بلاد الشام وسيطرت على أهله نزعات انفصالية واتجاهات انغزالية داخل حواضره ومدنه ومراكزه ، كما جارات في وقت علت فيه آراء المتشككين والمتشائمين ومؤيدي الطائفية والاثـارجين على المذاهب الدينية والمنادين بانقـساخ اجتماعي وحرية دينية بما يتعارض مع القيم والمثل العليا ، كل ذلك كان له دون شك ضلـع في تعميق مفاهيم تلك النهضة ولإعطائها كثيرا من أبعادها فضلا عن أنه أعطاهـا عموما وشمولا نلمسه في تدارس تفاصيل تلك الحركة العلمية والفكرية في كثير من بقاع الشام .

وكان اهتمام الأمراء العرب بالحركة العلمية أمرا مشتركا في الإمارات الثلاث من توفير الكتب وفتح المكتبات العامة وتشجيع رواد العلم والطلاب على ارتيادها إلى غير ذلك من مظاهر التشجيع ، ففي حلب كانت بالشرقية خزانة كتب عامة في جامع حلب زمن المرديسين سميت بخزانة الصوفية وكان يلتقي فيها الأدباء والشعراء والدارسين لكنها تعرضت أحيانا للنهب خاصة إبان الفتن التي كانت تنور بين الشيعة والسنة من أهل حلب يوم عاشوراء ، ومع ذلك فقد كانت إحدى المعالم الهامة في حياة حلب العلمية وظلت قائمة بحلب عدة قرون أخرى .

وليس هناك شك في أنها كانت مكتبة عامة لمختلف الفئات والدارسين . بعكس ما يثور حول خزانة الكتب التي أقامها سيف الدولة الحمداني في حلب من أنها كانت مكتبة خاصة بسيف الدولة ، لأنه كان مولعا بالكتب معنية يجمعها فضلا عن أن هذه الخزانة الحمدانية تعرضت للتخريب إبان هجمات الروم

على حلب وتغريبهم لقصر سيف الدولة الحمداني^(١) ومن الثابت أيضاً أنه وجدت بكل من كفر طاب والمعرّة خزانة كتب زمن المرداسيين فقد تردد عليهم أبو العلاء المعري ونهل من معينها وأخذ منها ما فاته من خزانة الكتب في طرابلس^(٢).

وكان الاهتمام بالأدباء والشعراء والخطباء والبارزين في شتى العلوم أحد سمات عهد بني مرداس في حلب فلم يحد بنو مرداس غضاضه أحياناً في تقريب وتشجيع بعض النصارى والأقليات الأخرى ومنحهم مكانة ممتازة في الدولة ما داموا من العلماء والأدباء والكتاب والمبرزين في فروع معينة من العلوم فهذا مبارك بن شرارة أبو الخير الطبيب الكاتب الحلبي النصراني وكانت له جرائد مشهورة في حلب يحفظونها دلائل الخراج المستقر على الضياع إذا اختلفت النواب في شيء منه رجعوا إليها كما كان له تاريخ عن حلب وتوفي سنة ٤٩٠ هـ (١٠٩٧) ، ، ومن نال حظوه عند المرداسيين أيضاً من الكتاب

(١) محمد كرد علي : خطط الشام ج ٦ ص ١٩١

وجاء ذكر خزانة الصوفية في تصيدة لامين سنان الحفاجي المتوفى سنة ٤٦٦ هـ (١٠٧٤ م) بمثل بها من القسطنطينية إلى أحد أصدقائه مداعباً وفيها يقول :

أبغ أبا الحسن السلام وقل له	هذا الجفاء عداوة الشيعة
فلا طرفن بما صنعت مكابرا	وأنت ما لآيت منك شكية
ولا جاسنك لقضية بيننا	في يوم عاشوراء بالشرقية
حتى أثير عليك فيها فتنة	تنسيك يوم «خزانة الصوفية»

(٢) نفس المرحم ونفس الصفحة

والخطباء : صاعد بن شمامة المسيحي الحلبي وأبو اليعمن المسلم بن الحسن بن غياث الكاتب، وكان صاحب الديوان بحلب ، وتادرس بن الحسن النصراني وكان وزيرا لصالح بن مرداس وصاحب السيف والقلم ومن الشعراء الذين قرّبهم آل مرداس وأحسنوا إليهم الشاعر أبو الفتيان ابن حيوس الحلبي ^(١) « وعبد بن سنان الخفاجي » ^(٢) وأبو مشكور الشاعر الحلبي وعلي بن منصور الحلبي الملقب دوخلة ويعرف بابن القارح وكان من شيوخ الأدب وراويا للاخبار وهو الذي كتب رسالته لأبي العلاء المعري فأجابه هذا عنها برسالة الغفران الذائقة للصيت . هذا فضلا عن كثير من المبرزين في شتى العلوم والفنون ممن لقوا حظوه وتشجيعا لدى بني مرداس والذين لم يقلوا أبدا حماسة لتشجيع العلم وحداً على أهله عن أسلافهم من بني حمدان ^(٣).

ولقد كانت المعرفة إبان العهد المرداسي إحدى المراكز العلمية الهامة ، ولا نقالي . إذا قلنا أنها جذبت الأنظار وقتها ما أكثر مما فعلت حاضرتها . حارب لاسيما على عهد فيلسوفها وشاعرها وأديبها الذائع الصيت . أبي العلاء المعري ٣٦٣ - ٤٤٩ هـ (٩٧٣ - ١٠٥٧ م) ، إذ كانت

(١) ابن خلكان : وفيات ج ٤ ص ٦٤ - ٦٥

(٢) ابن المديم : زبدة ، ج ٢ ص ٣٦

(٣) ديوان ابن أبي حصينة نشرة محمد أسعد أطلس : المقدمة ص ٨ - ٩

في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) نهج بأهل العلم والأدب ويهوى إليهم الطلاب من البقاع المختلفة ، فضلا عن أنها كانت موطن أئمة ذاع صيتهم وأسر اشتهرت في بلاد الشام وخارج حدود الشام ومنهم بنو سليمان وبنو كوثر وبنو سبيكة وبنو المذهب وبنو أبي الحصينة وبنو رزيق وبنو جم — ير وأشهرهم دون شك بنو سليمان أسرة شيخنا أبي العلاء (١) .

ومن دراسة الحياة وإنتاج أبي العلاء المعري يمكن إلقاء الضوء على الحياة العلمية والفكرية في معرة النعمان وحلب زمن المرداسيين . فأبو العلاء المعري هو أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي أشهر من أنجبته المعرة على الإطلاق ، وأبرز حكماء الشام وأدبائها وشعرائها وفلاسفتها وكان أبو عبد الله بن سليمان لغويا شاعرا وأخوه الأكبر محمد بن عبد الله وأخوه الثاني عبد الواحد بن عبد الله شاعرين مجيدين ، وقد ولد أبو العلاء في سنة ٣٦٣ هـ (٩٧٣ م) في معرة النعمان ولم يكن يبلغ الرابعة من عمره حتى أصابه الجدري فأودى ببصره لكن حافظته القوية مكنته مع ذلك من دراسة فروع مختلفة من العلوم فدرس في حلب وطرابلس وأنطاكية وتلقى النحو على علماء عصره ومنهم أبو بكر بن مسعود ومحمد بن عبد الله بن سعد ودرس اللغة والأدب ونطق بالشعر وعمره إحدى عشرة سنة وتردد على خزانات الكتب في كفرطاب والمعرية وطرابلس وزار بغداد مرتين ومكث بها نحو سنة وسبعة أشهر واضطر لقطع إقامته فيها والعودة

إلى مسقط رأسه سنة ١٠١٠ م بسبب مرض ألم بوالدته لكنه مع ذلك وصل إلى المعرة بعد وفاتها ومنذئذ لزم منزله وحبس نفسه به وسمى نفسه من أجل ذلك رهن المحبس (المنزل والعمرى) (١)

ولقد اتصل أبو العلاء وهو في بغداد بجماعة من المفكرين ومن شيوخ المعتزلة وبعض الفلاسفة المتأثرين بالمذاهب اليونانية والراجح أنه اتصل أيضا بمفكرين من الهنود تمكنوا من حمله على مذهبهم في الاقتصار على الأطعمة النباتية إذ أنه بقي نحو خمس وأربعين سنة لا يأكل إلا ما تنبتة الأرض ويلبس خشن الثياب ويظهر دوام الصوم ويحرم إبلام الحيوان ويعيش على دخل ضئيل يكسبه من تعليمه وكان قوته نصف من خبز الشعير لا يأكل غيره (٢) ولا نستطيع أن نشك أيضا أنه استوعب في بغداد كثيرا من الآراء والتأملات الخارجة على مذهب أهل السنة (٣)

فقد اتهم أبو العلاء بالزندقة والإلحاد وغير ذلك وجسرى تحليل أشعاره وكتاباتاته لإثبات ذلك وقيل أنه أظهر الكفر وأبطن الإسلام ، وقال ابن هقيل وهذا عكس قضايا المنافقين حيث تظاهروا بالإسلام وأبطنوا الكفر (٤).

(١) ابن الجوزي : المنتظم ج ٨ ص ١٨٤ ، سبط بن الجوزي : مرة ج ٩ ورقة ٨٦ - ٨٧ محمد كرد علي : خطاط الشام ج ٤ ص ٣٧ - ٣٨

(٢) ناصر خسرو : سفرنامه ص ١١ - ١٢ ، حتى : تاريخ سورية ج ٢ ص ٢١٤ - ٢١٥

(٣) Nicholson : Encyc. Isl. art « Abu Alea »

(٤) ابن الجوزي : المنتظم ج ٨ ص ١٨٥

والواقع أن شعر أبي العلاء المتأخر ينم عن فلسفة التشاؤم والشك في الحياة وعن موقفه العقلي من مشاكلها وقد حشد في رسالة الغفران مشاهير المرافقة وأحرار المفكرين بجوار الجنة يرفهون عن أنفسهم ويخوضون في مناقشات نقدية وأدبية تتناول الشعر ، وهذه الرسالة في ظن البعض هي التي حفزت دانتي على وضع رائعته المعروفة بالكوميديا الإلهية . (١)

غير أن أبا العلاء جلب على نفسه أكبر قدر من اللوم والالتهام حين وضع كتابه : الفصول والغايات الذي يقال أنه تناول فيه أفكاره وفلسفته وآراءه على هيئة كلمات مرموزة وأمثال غريبة بحيث لا يقف للناس إلا على قدر قليل منه « ولا يفهمه إلا من يقرؤه هو عليه » فاتهم من أجل ذلك بأنه « وضع هذا الكتاب معارضة للقرآن » (٢) وقيل أنه قصد به نقايد القرآن ، ومهما يكن من أمر فإن أبا العلاء كانت قد تجسست فيه فعلا روح العصر بكل ما مرأه من فوضى سياسية وتفسخ اجتماعي وتشاؤم فكري وتشكك ديني ، فانعكست كل هذه الزوايا على أفكاره وآرائه وألقت ظلها على كتاباته كما يبدو أن نكبة إصابته بالجذري وفقده البصر قد زادت في نفقته على الحياة وعكست كثيرا من آلامه وأحزانه فيما كتبه وفيما أبداه من آراء .

ولكن برغم ذلك فقد سما أبو العلاء في شعره وأدبه إلى مرتبة لم يكن

Miguel Asín : Islam and the Divine Comedy. (١)
tr. H. Sanderland. London 1926.

حق تاريخ سورية ج ٢ ص ٢١٥-٢١٦

(٢) ناصر خسرو : سفرنامه ص ١١-١٢

يدانيه فيها إلا القليل من أهل عصره، واشتملت لزومياته على قصائد من أشهر شعراء
جاء فيها بمكان كثيرة أحرزها السبق على فحول الشعراء اللاحقين ومنهم عمر
الخيام الشهير ويروي ناصر خسرو الذي زار المعرة في حياة أبي العلاء أن مجلس
هذا العالم الكبير كان يضم غالباً أكثر من مائتي رجل يحضرون من شتى البقاع
يقرأون عليه الشعر والأدب ويتعلمون منه ويأخذون عنه ويتلمذون على
يديه، وهكذا أعطى أبو العلاء للمعرة مكانتها ودورها وأعطى للعلم المرداسي
كله أبهج أوجهم وأسمى حسناته .

ولقد عرف أمراء بني مرداس لأبي العلاء مكانته ومنزلته ، فأكرموه من
أجل ذلك وبالغوا في إكرامه ، فهذا صالح بن مرداس نفسه ينزل على رغبة
أبي العلاء ويطلق سراح جماعة من أهل المعرة شفع فيهم أبو العلاء قائلاً لصالح:
«خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین . فقال صالح قد وهبتهم لك
أيها الشيخ»^(١) ولما وشى وزير محمود بن نصر بأبي العلاء وزين لمحمود القبض
عليه بسبب اتهامه بالزندقة والاحاد لم يعر محمود وزيره كثيراً من الاهتمام ،
وما أن بعث الوزير في طلب أبي العلاء حتى طجأت المنية ، فأرسل محمود سريها
إلى المعرة يأمر رسل الوزير بالعود قائلاً : « لا تزعجوا الشيخ فقد وقع الحمام
على الوزير »^(٢) وهكذا تمتع أبو العلاء بمنزلة سامية في عصره ولم يجرى
صاحب سلطة أو ذو قوة وشأن أن ينال منه برغم خطورة القضايا التي أثارها
وجرأة الأفكار التي أذاعها على العالم المتزمت في ذلك الوقت ، وبلغ من شدة

(١) ابن الوردي : تاريخه ج ١ ص ٣٣٨-٣٣٩

(٢) سبط بن الجوزي : مرآة ج ٩ ص ٩٣-٩٤

إعجاب الأوساط الأدبية والشعراء بأبي العلاء أن رثاه على قبره سبعون من
فحول الشعراء (١) قال أحدهم فى رثائه :

إن كنت لم ترق الدماء زهادة فلقد أرقّت اليوم من جفنى دما

وظل أبو العلاء يحتل منزلة سامية فى عقول وأفئدة الناس أجيالا طويلة كما أحد
المعالم العلمية البارزة فى تاريخ المعرفة وفى عهد بنى مرداس .

وإذا انتقلنا إلى طرابلس لننتحس مدى العناية بهذه الجوانب الحضارية
نجد أن بنى عمار لم يقلوا عناية بالآداب والفنون والعلوم عن بنى مرداس أن لم
يزوم فى ذلك ، ومرة أخرى نقول أن التيارات السياسية المختلفة والنزعات
الدينية والتشيع إلى غنى ذلك من النزعات ألقت ظمها على النواحي العلمية
والفكرية ودفعتها قدما إلى الامام وأعطتها رحابة وعمقا ، فلقد كان أمين
الدولة أبى طالب ابن عمار مؤسس الإمارة فى طرابلس قاضيا شيعيا ومتفهما
على المذهب الشيعى وكان أيضا كاتبًا بارعا وهو الذى صنف كتاب ترويح
الأرواح ومصباح المرور والأفراح ، ولدا قد اتخذ دارعلم فى طرابلس
وقف عليها ما يزيد عن مائة ألف كتاب (٢) وذهب البعض إلى أنها حوت نحو
مليون مجلد إذ كان يرسل المراسلات إلى الأفطار المختلفة يبذل الأتمان الباهظة
ويجلب الكتب النادرة لهذه المكتبة (٣)

(١) ابن الجوزى : المنتظم ج ٨ ص ١٨٧-١٨٨

(٢) ابن القرات : تاريخه ج ٨ ص ٧٧

(٣) محمد بهجت ورفيق التميمي : ولاية بيروت ص ٢١٥

وقد اهتم جلالة الملك بن عمار كثيرا بهذه المكتبة كسلفه فجددها سنة ١٤٧٣ هـ (١٠٧٩ م) ومن بعده قام فخري الملك بتوفير كثير من الكتب لها فحفظت طرابلس في عهده على حد قول ابن الفرات دار علم كلها وكان في تلك المكتبة نحو مائة وثمانون ناسخا ينسخون لها الكتب بالجرانية والجامكية خفلا عما يهتذى لها من الكتب المنتخبة من البلاد .

ومها يكن في هذه المقالات من مبالغات لما لا شك فيه أن بني عمار قد أعطوا هذه الناحية اهتماما بالغا ومنحوها جهدا وافرا ، حقيقة تارت بعض الأحاديث عن وجود هذه الدار بطرابلس قبل عهد بني عمار بدليل تردد أبي العلاء المعري عليها قبل ذلك العهد إلا أنه من الثابت أن بني عمار أوقفوا عليها أوقافا كبيرة واشتروا لها الكتب من شتى البقاع وعينوا لها النساخ الموظفين وحولوها إلى جامعة دينية لدراسة المذهب الشيعي بصفة خاصة واهتموا بتشجيع طلاب العلم على ارتيادها حتى عدت طرابلس في عهدهم محط رحال العلماء والدارسين ومصدر إشباع فكري وثقافي لا ينكر فضله ومركز أول جامعة دينية إسلامية في بلاد الشام قبل استيلاء العمليين عليها (١) .

ولقد حنى العملييون أكر جناية حين أحرقوا هذه المكتبة وتركوا الآف الكتب ضحية للنيران ، ونفائس المجلدات نهبا للحريق ، فأكدوا بربريتهم وأضافوا إلى قتلهم الأبرياء من النساء والأطفال والشيوخ صفحات سود تعدت قتلهم الأنفس إلى قتل نهضة العلم ونمرة للفكر على امتداد أجيال طويلة ،

(١) محمد كرد علي : خطط الشام ج ٤ ص ٣٨

فقد أجمعت المصادر المعاصرة على أن هذه المكتبة كانت تضم إلى جانب المؤلفات العربية كثيراً من كتب العجم واليونان فضلاً عن النسخ الأخرى التي تابر على استنساخها مئات الرجال ، و يروى المؤرخ المعاصر ابن أبي طي أن عدد هذه الكتب بلغ نحو ثلاثة ملايين ضاعت كلها بطبيعة الحال في هذا الحريق ، ولقد أشار المؤرخ Michaud أن الصليبيين عمدوا بعد دخولهم طرابلس إلى جمع أعداد كبيرة من نسخ القرآن الكريم ثم أشعلوا فيها النار ثم ما لبثوا أن وضعوا للنار في المكتبة بأسرها وظلوا يرقبون الحريق في شيء كبير من التشفق والنشوة (١) . ، ولقد أبدى بعض عقلاء المؤرخين والكتاب المحدثين في الغرب شيئاً من الأسف لإحراق هذه الكنوز الغالية من الكتب والمؤلفات في مكتبة آل عمار بطرابلس (٢) . وليس هناك شك في أن ضياع تلك الثروة العلمية جاء خطأ فاحشاً وجرمًا كبيراً من قبل أولئك الغزاة ولعل ذلك يفسر أحجام كثير من المؤرخين المحدثين في الغرب عن تناول هذا الموضوع وتلافي الإشارة إليه وتجنب الخوض فيه لأنه يحمل دون شك أكبر دليل على بربرية الصليبيين وتعصبهم وتأخرهم الفكري والعلمي وليس بوسعنا نحن إلا أن نبدي بالغ الأسف على ضياع تلك الثروة العلمية الكبيرة ولا نجد في صفحات التاريخ ما يفوقها بشاعة سوى ما حدث في بغداد سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) على يد المغول المتبربرين الذين أشعلوا النار في أئمن ما خلفته الحضارة الإسلامية وما أنجبتـهـ

(١) Michaud's hist, of the Crusades, I.p.288

(٢) Daussuc: Grande Enciclobedie.

الحركة العلمية على امتداد قسرون طويلة ، وفي ظل المقارنة بين الفارزين
المعبرين يمكن وضع الصليبيين في مكانهم الصحيح من التاريخ .

هذا وبالإضافة إلى عناية بنى عمار بالمكتبة ودار العلم فإنهم فتحوا صدورهم
الكثير من العلماء والفقهاء والشعراء ومنهم الكاتب والشاعر الشهير ابن الخطيب
مطالعبي وشيخ المعتزلة عبد السلام بن يوسف وغيرهم من العلماء لاسيما من الشيعة
باعتبار طرابلس كانت مركزا شيعيا في عهدهم^(١) ، فضلا عن غيرهم من
المبرزين في شتى العلوم في اللغة والفقه والشعر والأدب ، وهو أمر يتمشى فعلا
مع مركز طرابلس العلمي في العصر وكونها مقر أكبر دار حكمة عرفتها
ببلاد الشام حتى ذلك الوقت .

أما في شيزر فالأمر لم يختلف كثيرا عن ذلك من رعاية للعلم وحدا على
أهله إذ ما جت شيزر هي الأخرى بتيارات فكرية وأدبية وشهدت نهضة علمية
كبيرة تدانى في بعض جوانبها تلك التي شهدتها كل من طرابلس وحلب ،
ويكفي للتدليل على ذلك ، الانتاج الأدبي والشعري لفارسها وأميرها أسامة
ابن منقذ .

ولقد أورد أسامه عن جده سديد الملك أبو الحسن على بن منقذ في كتاب
أعلامها أخبارا تؤكد اهتمام هذا الأمير الكبير برجال العلم وحرصا على نقائس
ها يملكون من كتب لأنها في الواقع ثروة علمية لشيزر ذاتها وطاملا هاما في

(١) ابن عساكر : تاريخ دمشق ج ٢ ص ٦٨

الرقى بها علميا وفكريا، من ذلك أن القاضي أبا يوسف القزويني تعرض أثناء
هودته من مصر — بطريق البحر — لعاصفة هوجاء ألفت بمركبته في اللاذقية.
وهي تابعة حينئذ لبيزنطة ، فكتب هذا للقاضي إلى الأمير سديد الملك بن منقذ
يقول : « حصلت بمدينة اللاذقية بين الروم ومعى كتب الإسلام وقد وقعت
لك رخيصة فهل أجذك حريصا » ولما وقف سديد الملك على هذا الكتاب بادر
بإنقاذ ابنه نصر على رأس عدد كبير من غلمانه وجنده وخيله ، « فأناه وحملهم
وما معه وأقام عند جدى رحمه الله مدة طويلة » (١) .

هذا فعلا أن شيزر غدت مقر طائفة من العلماء والفقهاء زمن بنى منقذ.
وكانت كفر طاب التابعة لها والتي حوت خزانة كتب سبق الإشارة إليها
من قبل ، ولقد سكن شيزر وكفر طاب بعض أولئك العلماء والفقهاء ومنهم
ابراهيم بن عبد الرحمن أبو —و السمع التنوخى الفقيه الحنفى والشاعر
والأديب (٢) وأبو صالح بن المذهب وزرعة ابن موسى الطبرانى النصرانى ،
وقد اتخذ بنو منقذ كتابا لهم وأفادوا عليه من نعمهم وكذلك الشيخ أبو محمد
عبد الرحمن بن أحمد بن سلامة ، وكان شيخا ظريفا ، أديبا فاضلا حسن
المحاضرة ، وكان أكثر زمانه مقيما بشيزر بين آل منقذ مكرما محترما (٣) .
وسكن كفر طاب جماعة من العلماء والشعراء أيضا حضر أسامة على بعضهم

(١) Derenbourg : Livre du baton par Ousama p 516

(٢) ابن عساكر : تاريخ دمشق ج ٢ ص ٢٢٤

(٣) ابن القلانسي : ذيل ص ٣٤٦

وأخذ عنهم ومنهم الأصمعي المعلم الكفر طابى ويوسف بن المنيرة وغيرهم من المبرزين في شتى فروع المعرفة ^(١) .

على أن ولع أسامة بن منقذ باقتناء الكتب ونفائس المجلدات كان أحد السمات البارزة في حياة أمراء بني منقذ ، وجاء دليلا على ما لقيته هذه النواحي من اهتمام بالغ ، على الرغم من أن أسامة تعرض لمصيبة في خزائن كتبه هو الآخر وذلك حين أرسلها من دمياط إلى عكا بعد أن حصل على عهد من الصليبيين بسلامتها ولكنها — مع ذلك — تعرضت للنهب والضياع وكان عددها نحو أربعة آلاف مجلد من الكتب الفاخرة ، كما نهب معها من أموال أسامة ثلاثون ألف دينار ، ولقد عبر أسامة عن هلمه وألمه وحزنه اضياع هذه الخزانة فقال إن ضياعها حزاة في قلبه ما عاش .

وليس من شك في أن الاهتمام باقتناء الكتب وحفظها والعناية بفروع العلم المختلفة وتقريب الشعراء والأدباء والفقهاء وغيرهم من المبرزين في شتى الميادين كان خطأ بارزا في سياسة إمراء بني منقذ ، وكان في نفس الوقت دفعة قوية للحركة العلمية في إمارتهم حتى فدت شيزر تداني إلى حد كبير المنزلة التي بلغت كل من حلب وطرابلس زمني بني مرداس وبني عمار ، بل أصبحت شيزر تنافسها في احتلال تلك المنزلة وتحاول أن تعيب ما حققتاه من شهرة في هذه الميادين ، وساعد على ذلك أن أمراء بني منقذ كانوا جميعا على درجة عالية من

Derenbourg : vie du Ousama. P. 581-2

(١)

محمد كرد علي : خفايا الشام ج ٤ ص ٤٢

الثقافة وكان معظمهم من فحول الشعراء والكتاب وهذه الميول والثقافات
أوجدت لديهم اهتماما متزايدا بالعلوم والآداب في عاصمتهم حفزتهم على العناية
بهذه الجوانب الحضارية مما لقيت جوانب أخرى في حياة الإمارة كثيرا
من اهتمامهم ورعايتهم .

أهم المنشآت في الإمارات العربية :

مع أن عهود الإمارات العربية المذكورة لم تشتهر بأنها عهود تشييد وبناء
واهتمام بإقامة المنشآت العمرانية كالتصوير والمساجد والمدارس والأضرحة
والمشاهد والأسوار والأبراج إلى غير ذلك كما حدث لبان عهود الخلفاء الكبار
من بني أمية وبني العباس وحتى من بني حمدان وأيضا عهود الترك والأيوبيين
والمماليك بعدئذ ، إلا أننا مع كل ذلك لا نعدم العثور على أمثلة توحى بنوع
من الاهتمام أبداه الأمراء العرب بهذه النواحي في كل من حاب وطرابلس
وشيزر بقدر ما سمحت لهم الإمكانيات وبقدر ما اتسع لهم من وقت .

فلم يمحض العهد المرداسي في حلب دون أن يخلف بعض المباني والمنشآت
الهامة ويترك بصماته على غيرها من المنشآت القائمة بالتعمير والتجديد والإضافة
حتى لنجد صعوبة في وصف آل مرداس بالتقصير في هذه النواحي في ظل
مقارنة واعية لعهدهم بالعهود السابقة واللاحقة من حيث الطول والإمكانات
والأعباء المختلفة وفي ظل الفهم الدقيق لأحداث العصر وموقع بني مرداس منه ،
وليس من شك في أن نتاج ذلك الاهتمام العمراني الذي أبداه بنو مرداس
يتماشى فعلا مع حجم اهتمامهم بالنواحي الأخرى ويتناسب أيضا مع جهودهم
في بقية الميادين ولا يبدو أبداً أقل حجماً أو أكثر قصوراً .

وتحدثنا المراجع المعاصرة والمتخصصة أن بني مرداس أقاموا مسجداً جامعاً على أنقاض كنيسة كبيرة كانت أحد كنيسيتين في قلعة حلب قيل أنها كانت تضم مذبح سيدنا إبراهيم الخليل وصخرته التي كان يجلس عليها ، وبذكر ابن بطران المعطوب المعاصر لبني مرداس أن تلك الكنيسة العتيقة كانت تحوى فعلاً المذبح الذي قرب عليه سيدنا إبراهيم عليه السلام ، وأن بني مرداس أقاموا مكانها مسجدهم الجامع (١) .

على أن أحداً من المؤرخين لم يحدد لنا الأمير المرداسي الذي بنى ذلك المسجد الجامع أو يعين لنا تاريخ بنائه ، لكن المؤرخ ابن العظيمة المعاصر لبني مرداس أشار في تاريخه إشارة عابرة إلى أن هذا المسجد كان موجوداً سنة ٤٣٥ هـ (٢) (١٠٤٤ م) ؛ وهذا يعنى أن واحداً من ثلاثة من أمراء بني مرداس كان له فضل إقامته . فإما صالح بن مرداس نفسه (٤١٥ - ٤٢٠ هـ) أو ابنه نهر بن صالح (٤٢٠ - ٤٢٩ هـ) أو نمال بن صالح الذي بدأ حكمه بطرد في حلب ابتداء من سنة ٤٣٣ هـ (١٠٤٢ م) ، غير أن انشغال كل من صالح بن مرداس وابنه نهر بالنواحي الحربية وتأكيده سلطة بني كلاب والحفاظ على استقلال الإمارة ، ربما يعزز الميل إلى أن نمال هو مقسم هذا الجامع نظراً لما أبداه هذا الأمير المرداسي في حياته من اهتمام زائد بشتى النواحي الحضارية والعمرانية في حلب وخاصة وأنه هو الذي اهتم بأسوار حلب وقلعتها وصرف جانباً من نشاطه في ترميمها وصيانتها كما أقام فيها أبراجاً

(١) ابن الشحنة : الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ص ٧٥-٧٦

٢) نفس المرجع ص ٧٥-٧٦

كثيرة (١) أضاف بها إلى التحصينات التي سبق أن أقامها بنو حمدان في المدينة خاصة بعد تعرضها للهجوم البيزنطي . على أية حال فسواء تم بناء المسجد الجامع بالقلعة على يد ثمال هذا أو يد سلفيه كل ذلك لا يؤثر في الموضوع كثيرا فهو أثر بارز من العهد المرداسي دون جدال وأحد المعالم العمرانية التي خلفها المرداسيون في حلب برواية المصادر المعاصرة .

ويبدو أن أحداث العصر وطمع القوى الأخرى في إمارة حلب قد دفع بنى مرداس إلى الاهتمام بالقلعة اهتماما بالغا حتى تكون صمام الأمن في المدينة وملجأ لهم أمام أي خطر قد يتعرضون له ، وخاصة أن تجربة بنى حمدان وتعرضهم لخطر الغزو البيزنطي أوضحت أنه يمكن الاعتماد على القلعة إذ لاذ بها جماعة من مقاتلي المدينة ورجالها حين سقطت حلب في يد نقفور فوقاس سنة ٣٥٩ هـ (٩٧٠ م) فحمتهم القلعة ، واستعصت على البيزنطيين برغم عدم حصانة أسوارها إذ ذاك ولهذا عمد بنو مرداس إلى تجديد أسوارها وأقاموا بها التحصينات اللازمة وبنو فيها الدور الكثيرة وسكنوها وباشروا منها القتال ووجهوا الحرب (١) وبذكر المؤرخ ابن العديم أن معز الدولة ثمال بن صالح رسم خطة إصلاح عسكري بمجرد استقراره في حكم حلب سنة ٤٣٣ هـ (١٠٤٢ م) رصد بموجبها نحو خمسة وسبعين ألف دينار برسم عمارة القلعة ومساكنها ومصانعها ، ونحو ثلاثين ألف لإقامة العوض عما استنفذ من العدة وهلك من أصحاب الأسلحة باستعمالها.

(١) الغزى : نهر الذهب ج ٢ ص ٤

(٢) ابن العديم : زبدة ، ج ١ ص ٢٤٥ ، الغزى : نهر الذهب ج ٢ ص ٢٥

والابتذال لها في الحرب^(١) وهكذا دلل ثمال على اهتمام بالغ بالقلعة
وتحصيناتها وأسلحتها ودورها وعمارتها .

ولم يقتصر اهتمام بنى سرداس على العمار الحربية في القلعة والأسوار فقد
خلفوا بعض المساجد والمشاهد والدور النفسية وأضافوا كثيرا من التجديدات
على عمار العهد الحمداني وبذكر المؤرخ بن أبي طي أن سيف الدولة الحمداني
كان قد أقام في سنة ٢٥١ هـ (٩٦٢ م) مشهدا بقرى حلب سمي بمشهد
الدكة^(٢) فقام بنو مرداس بتجديده وأضافوا إليه بعض الإضافات في الجهة
الشمالية منه^(٣) ويرجع للعهد المرداسي أيضا المسجد المسمى مسجد السيدة
بنت وثاب النميري وكانت إحدى النساء الشهيرات في العهد المرداسي وهي
زوجة نصر بن صالح بن مرداس وأم ولده محمود بن نصر وقد دفنت بذلك
المسجد^(٤) ومن الدور النفسية التي خلفها العهد المرداسي أيضا دار الوزير علي
بن أبي الثريا وزير محمود بن نصر المرداسي وهي التي جعلها نور الدين ابن
زنكي مدرسة عرفت بالمدرسة العصفورية^(٥) وفي قلب حلب ينتسب المسجد

(١) ابن العديم : زبدة ج ١ ص ٢٦٣

(٢) يذكر ابن الشحنة (الدر المنتخب ص ٨٥) أنه سمي بهذا الاسم « لأن سيف الدولة
كان له دكة على الجبل المطل على المشهد يجلس عليها لينظر إلى حابه السباق فانها كانت تجرى
بين يده في ذلك الوطأ » ولما وجد في هذا المكان حجر مكتوب عليه « هذا الحين بن
الحسين بن علي بن أبي طالب » أمر سيف الدولة ببناء المشهد على المكان .

(٣) ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ٨٦

(٤) ابن الشحنة ، الدر المنتخب ص ١٠٤

(٥) نفس المرجع ص ١١٠

الجامع فيها للعهد المرداسي أيضا فقد بناء القاضي ابن الخشاب زمن أسبق بن محمود آخر للمرداسيين ، فقد وجدت أسفل المنارة المربعة ذات الخمس طبقات التي أقامها هذا القاضي كتابة ذكر فيها اسم هذا القاضي ثم أضيف إليه اسم ملكشاه لأن هذه المنارة بنيت على الأرجح سنة ٤٨٢ هـ (١٠٨٩ م) أي بعد دخول حلب في حوزة السلاجقة (١) على أية حال لم يمض العهد المرداسي في حلب إلا وقد خلف مجموعة من الآثار وترك بصماته أيضا على كثير من آثارها ومعالمها السابقة بالإضافة والتجديد والتعمير والترميم وهو جانب حضاري يمكن إضافته إلى بقية الجوانب التي لقيت عناية من آل مرداس قبل اندثار دولتهم في حلب .

أما في طرابلس فقد اهتم بنو عمار أيضا بالنواحي العمرانية بالمدينة وبتجميلها ولقد تحدث الرحالة ناصر خسرو ومن جاءوا بعده عن جمال أبنيتها وارتفاع عمارتها وذكر ناصر خسرو أن البيوت فيها كانت ذات أربع طبقات وأحيانا ست طبقات مع أن كثرة الطبقات في الدور لم تعهد حينئذ في الشرق وذلك يدل قطعاً على نهضة عمرانية تمتعت بها طرابلس في عهد بني عمار (٢) ويؤكد العمري هذه الرواية بقوله أن مياه النهر تصل إلى دور المدينة المرتفعة التي لا يرقى إليها إلا بالدرج العالية (٣) وتشير الدلائل إلى أن بني عمار

(١) محمد كرد علي : خطط الشام ج٦ ص ٤٨ - ٤٩

(٢) ناصر خسرو : سفرنامه ص ١٣ - ١٤

(٣) العمري : معاليك الأبصار ج٢ مجلد ٣ ورقة ٤٤٩ (مصور)

أقاموا مجموعة من القصور الفخمة أشاد بعظمتها ومبلغ ثرائها كل من زار
طرابلس حتى من الفرنج .^(١)

على أن تعرض طرابلس لخطر الهجوم من قبل السلاجقة والفاطميين
والفرنج في عهد بني همار قد دفع هؤلاء إلى العناية بتحصينات المدينة وأسوارها
وأبراجها وإقامة المنشآت الحربية فيها، وتوزيع المدافع على تلك التحصينات^(٢).
ولعل قلة المعلومات التي وصلتنا عن همار طرابلس ومنشآتها ونشاط بني همار
في ذلك راجع دون شك إلى أن الاحتلال الصليبي لها منذ ١١٠٩م (٥٥٠٢)
قد طمس كثيرا من معالمها وأخفى عنا كثيرا من حقائق تلك النهضة العمرانية
التي لاشك تعرض جانب كبير منها للتخريب لبأن الهجوم على المدينة واقتحام
الفرق الصليبية المتعصبة لها ، وإشعال النار في كثير من أوجه حسمها وجمالها
وأبهج منشآتها ومراكز عمرانها .. هذا فضلا عن أن استرجاع طرابلس
على أيدي المسلمين قرب نهاية القرن الثالث عشر الميلادي (السابع الهجري) على
يد السلطان قلاوون كان له ضلع أيضا في ضياع كثير من منشآت المدينة وآثارها
وهدم قلعتها بصفة خاصة وقد أشار إلى ذلك المؤرخ المعاصر أبي الفدا — شاهد
العيان لهذا الحدث — إذا قال : « وحصار طرابلس هو أيضا مما شاهدته
وكنت حاضرا فيه مع والدي الملك الأفضل وابن عمي الملك المنظر صاحب
جماه — ولما فرغ المسلمون من قتل أهل طرابلس ونهبهم أمر السلطان فهدمت ..

• Grousset ; Hist. des Crois. I.P 132-3

(١)

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢٥٠

(القلعة) ودكت إلى الأرض،^(١) وهكذا قلت معلوماتنا عن نهضة طرابلس العمرانية في عهد بني عمار مع أننا لا نشك أبداً فيما أبداه هؤلاء من اهتمام بهذه الجوانب الحضارية مثلما لقيت الجوانب الأخرى اهتمامهم ورعايتهم .

أما في شيزر فالظروف تشابهت كثيراً مع طرابلس من الوجهة العمرانية فخلد اهتمام بنو منقذ أيضاً بإقامة العمار والقصور الشائخة والدور النفيسة لافي شيزر وحدها بل وفي كفر طاب التابعة لها أيضاً^(٢) ونستطيع تلمس مسرح الأحداث التي رواها أسامة بن منقذ والطرائف والقصص داخل شيزر وفي القصور والدور والعمار والأسوار والأبراج^(٣) فضلاً عن كثير من الإشارات إلى مساجد شيزر التي لاشك أقامها بنو منقذ، ولقد جاء ذكر لمساجد جامعة في شيزر في بعض السكتب المعاصرة^(٤) وأكد تعرض شيزر لخطر الهجوم لاسباً من قبل البيزنطيين اهتمام بنو منقذ بالمنشآت الحربية والتحصينات العسكرية خاصة في أسوار شيزر وأبراجها وبدل صمود المدينة أمام الهجوم للبيزنطى على يد حنا كومنين سنة ١١٣٨ م (٥٢٢ هـ) نحو أربعة وعشرين يوماً مع شدة ضربها بالمنجنيق وعنف القتال حولها ، أن بنو منقذ كانوا قد اهتموا بدفاعات المدينة وأحسنوا تحصيناتها مما يوحى بكثرة العمار الحربية وقوة

(١) أبو العدا : المختصر في أخبار البشر ج ٢ ص ٢٤

Buhl : Encyc. ISL. art « Tarabulus »

(٢) ابن خلكان : وفيات ج ٤ ص ٣٥٧ — ٣٥٨

(٣) أسامة : الاعتبار ص ١١٦ ، ص ٥٦ — ٥٧

(٤) ابن القلانسي : ذيل ص ١٧٧ — ١٧٨

الأسوار والأبراج. وكما حدث في طرابلس أدت النكبة التي ختمت بها حياة بنى منقذ وتهدم شيزر إلى ضياع مظاهر العمران فيها وطعمت عنا معالم تلك النهضة العمرانية ، وأخفت أبعادها الحقيقية ، لاكتنا لانكشك أيضا أن بنى منقذ لم يهتموا أبدا الناحية العمرانية في ماصحة إمارتهم لأنها كانت مقصد المبرزين والأسماء والناهبين في تاريخ العصر ، كما نلنس الإشادة بها وبثرائها وعظمتها في كتابات المؤرخين المعاصرين .

ج — الأحوال الداخلية في الإمارات العربية :

على الرغم من أن الإمارات العربية الثلاث قامت استجابة لرغبة جامعة لدى فريق من الأسر العربية الأصيلة الظائمة إلى بعث جديد للتوافة إلى إحياء عربى شامل بعد تعاقب موجات مشوبة بالأعجمية مائية بتيارات مذهبية مستحدثة وربما منافية لما أسست عليه المدنية الإسلامية والدولة العربية الأولى على الرغم من ذلك فإن تلك الإمارات لم تستطع أن تتخلص من كل تلك الشوائب أو تصفى تلك التناقضات لأن تلك التناقضات كانت نتاج قرون عدة وحصاد أحداث كثيرة تتعدى إمكانيات تلك الإمارات وقدرتها .

وبعبارة أخرى فإن ماخرجت به الخلافة الأموية العربية على الأمة من خالص الاعتماد على العنصر العربى فى كل شىء فى المناصب الإدارية والعسكرية وشق مظاهر الحياة فى أرجاء الخلافة الواسعة ، وما أعلنته الخلافة للعباسية العربية فى بغداد من حرص على رعاية المذهب السنى ومناهضة شق المذاهب والنحل الأخرى ، هذه المبادئ والأسس لم تستطع أن تلتزم بها الإمارات العربية فى بلاد الشام أو تضعها نصب أعينها لاسيما وأن روح العصر كانت أقوى منها وأكثر أنرا من حدود إمكانياتها وقدرتها .

لإذن فرعايا الإمارات العربية المعنية تناقضوا عنصريا ومذهبيا في الوقت الذي انصرف فيه هذه الإمارات إلى مشاغلها الأخرى ولم تبذل جهدا كبيرا في حل تلك التناقضات أو محاولة وضع حد لاستفحالها .

وربما كان التناقض المذهبي أشد قسوة وظهوراً من التناقض العنصري الذي لانبج أمثلة كثيرة تؤكد وتنبئ من احتدامه ، وباستثناء بعض المدن التي أثارها طوائف الترك في حلب إبان العهد المرداسي لانبج تناقضا عرقيا يفرض نفسه على الأحداث أو يغير مجرى الأمور في تلك الإمارات بعكس ما حدث من احتدام الخلاف المذهبي وشدة الصراع الطائفي بين رعايا الإمارات العربية حينئذ .

وكلا التناقضين رغم تفاوت شدتهما — لم يؤديا إلى نتائج حاسمة في أوضاع الإمارات العربية لأن الأراء العرب كانوا يمثلون الغالبية العظمى من رعاياهم سواء من الناحية العرقية أو المذهبية — فكانوا عربا وسط محيط شاسع من رعاياهم العرب . وكانوا في حلب وطرابلس من الشيعة وسط محيط من السكان الشيعة وكانوا في شيزر سنيين وسط أغلبية سنية ، ولهذا لم تؤد هذه التناقضات إلى تغيير في أوضاع تلك الإمارات برغم تفاوت شدتهما وإن أضافت بعض الأعباء على ساطة الأراء .

فمن الناحية العنصرية تعددت الطوائف المختلفة وسط الرعايا العرب وتنوعت فكان هناك الترك والكرد والتركمان والديلم والفرس وغير ذلك من الطوائف التي طفت أحيانا فوق السطح وأكبت في كثير من المناسبات حقيقة التناقض العرقى بين الرعايا .

على أن تعدد تلك الطوائف مع تبوء بعضهم المناصب المهمة في الجيش .

والدولة والإدارة يؤكد دون شك تحمل الأبراء العرب مما استتته الخلافة الأموية من نظم من قبل وينبىء أن مبدأ التعصب لكل ما هو عربى لم يعد محل مناقشة فى تلك الدويلات العربية أو أمر إلزام لساستها .

فما يختص بالترك والتركان فعلى الرغم من أننا نعتقد أن ثمة تسرب بطيء لجماعات قليلة منهم إلى بلاد الشام قد حدث قبل عهود الإمارات العربية ، خاصة وأن الخلافة العباسية كانت قد فتحت صدرها على عهد المعتصم بالله ٢١٨-٢٢٧ هـ لتلك العناصر التى استفحل سلطانها فى الدولة بعدئذ ، فضلاً عن وجود شخصيات تركية وجماعات تركية فى دواقى بنى طولون والاشيدين ممن كان لهم شأن فى بلاد الشام حتى النصف الأول من القرن الرابع — على الرغم من ذلك فإن المراجع العربية تتحدث عن التحركات الكبيرة لتلك الجماعات وهى التى حدثت فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى ، باعتبارها أول عهد هذه البلاد بالترك وأشباه الترك .

ويبدو أن أغلب الجماعات التركية التى انسابت إلى شمال الشام بصفة خاصة جاءت من الصحراء التى عرفت بصحراء التركان الواقعة بين بحيرة آرال وبحر الخزر وكان أكثرهم من سكان الخيام^(١) فضلاً عن جاء من تركستان وبلاد ماوراء النهر ومن دفعت به دولة السلاجقة من أفواج .

ويتحدث المؤرخون عن انسياب جماعات الترك إلى شمال الشام إبان الفترة

(١) محمد بهجت ورفيق التميمي : ولاية بيروت ٢ ص ٢٥

الأخيرة من حكم آل مرداس واستقرار بعضهم في خدمه تلك الإمارة وقيامهم بدورهم في الأحداث كما حدى طوائف الرعايا في الإمارة . وأول من نزل من الأتراك في بلاد الشام هو هارون بن خـان سنة ١٠٦٢ م وكان معه جماعات من الترك والأكراد والديلمة والكرج نحو ألف رجل ، فأقطعهم محمود بن نصر المرداسي معرة النعمان سنة ١٠٦٦ م ^(١) ويبدو أن هذه الجماعات أتت إلى المنطقة وفي خطتها الاستقرار والقيام بدورها في خدمة الأمراء كفرقة محاربة بعكس جماعات التركان التي جاءت إلى شمال الشام بفرض العبث والافساد والإغارة ثم الانسحاب كما حدث من إغارة لهم على حلب سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) ^(٢) لكن انسياب الجماعات المهاجرة إلى الاستقرار نتاج بعدئذ في موجات متلاحقة لم تسلم البلاد أحيانا من عبثهم خاصة أملاك البيزنطيين في أنطاكية ونواحيها ، فوصل بعض القادة الترك على رأس أعداد كبيرة من أتباعهم مثل القائد إفشين وصندق وأحمد شاه ومجد بن دملاج وغيرهم ، فقدت طائفة الترك ومن أصحابهم من طوائف أخرى تمثل عنصرها ما في الأحداث في شمال الشام ، ونجسدم كفرق محاربة استعان بها الأمراء المرداسيون ، وغدت هذه الفرق بمرور الوقت جزءا من الرمايا ، بل إن ازدياد نفوذهم في الإمارة كان نذيرا بتقلص سيطرة الأمراء العرب ثم بانهدام لممارتهم في نهاية الأمر .

(١) بن العديم : زبدة ج ٢ ص ٩ - ١٠

ابن الوردي : تاريخه ج ١ ص ٣٧١

(٢) ابن ميسر أخبار مصر ص ٧

وتمحدث المراجع عن فتن حارمة أثارتهـا تلك الطوائف أحيانا في
سحاب لما مثل سابقة هامة وخطيرة في التناقض العرقى في تلك الإمارة زمن
المرداسيين وأعطى انطبعا بأن الأغلبية العربية هناك عانت أحيانا من نقل
هذا التناقض . (١)

ولم تكن طائفة الترك والتركمان ومن صاحبهم من الديالة والكرج وغيرهم
هي الطوائف الوحيدة التي عرفها العصر المرداسي ، فلقد كان الأكراد يمثلون
عنصر هاماً من رعايا الإمارة ويتردد في الكتب المعاصرة أسماء رجال من
الأكراد خدموا لدى أمراء من بني مرداس ، وفي شيزر ، وفي طرابلس أيضاً
مما يوحي بأن انتشار هذه الفئة لم يكن قاصراً على إمارة بعينها أو بلدان بزانه
كما رحن بأن انسياب هذه الفئة كان عملاً دائماً ومستمرّاً بسبب قرب موطنهم
ومناطق تجمعهم في كردستان وغربي إيران وأقصى شمال العراق والأطراف
الشرقية لهضبة الأناضول من الجهات التي انسابوا إليها في بلاد الشام .

وبذكر المؤرخ ابن شداد أن شبل الدولة نصر المرداسي أرسل في سنة
٤٢٤ هـ (١٠٣٣ م) فرقة من الأكراد للدفاع عن قلعة تقسيع إلى الشرق من
أنططوس على جبل الخليل كانت تسمى قلعة الصفيح (٢) ولذلك أضيف
إسمها لأرلئك المافعين فعرفت بعدئذ بحصن الأكراد، ويبدو أن استقرار تلك

(١) ابن العديم : زبدة ج ٧ ص ٢٩٥ ، ج ٢ ص ١٦ ، ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ٢٦٢

ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٢٧٥ ،

الهيئة من الأكراد في تلك القلعة هو الذي أعطى لها اسمهم ، ويذكر المؤرخ سبط بن الجوزي أن جموع الأكراد من رعايا المرداسيين قاموا بالانضمام إلى شرف الدولة مسلم العقيلي بعد انهزام إمارة آل مرداس وشاركوه جهوده في الحروب في شمال الشام^(١). ما يعيننا من ذلك كله أن ثمة فئة أو طائفة من الأكراد خدمت في الإمارة المرداسية منذ بداية عهدها ومثلت إحدى طوائف رعايا تلك الإمارة .

وفي شيزر نجد كثيرا من الشخصيات الكردية لعبت دورا كبيرا في الأحداث وخدمت إلى جانب أمراء بني منقذ ، ويتردد كثيرا في حديث أسامة في كتاب الاعتبار أسماء شخصيات كردية ورجال أكراد كانوا ملحقين بالسمع والبصر في الدولة وشاركوا في الحروب وخدموا في البلاط وأسهموا في الحضارة والعمران^(٢).

ولم يقتصر حديث أسامة عن أفراد أكراد أو أشخاص منفردين منهم بل تعدى الأمر ذلك إلى الحديث عن أسر كردية بذاتها مما يوحى باستقرار طوائف منهم في شيزر وفي المناطق المحيطة بها ، وظهورهم كعنصر هام من عناصر رعايا الإمارة يضاف إلى بقية العناصر^(٣).

(٣) سبط بن الجوزي : مرآة ج ١٠ ورقة ٥٦

(٤) أسامة : الاعتبار ص ٤٨ — ٤٩ ، ص ٦٦ — ٦٧ ، ص ٩٥ — ٩٦ ، ص

١١٦ ، ص ١٢٢

(١) أسامة : كتاب الاعتبار ص ١٤٩

وإلى جانب الترك والتركمان والكرج والديلمة والأكراد نجد الأرمن
كطائفة أخرى لعبت دورها في العهد المرداسي ، ولقد ذاب كثير من الأرمن
في الأوساط الإسلامية في بلاد الشام ، واعتنق كثير منهم الإسلام وخدموا
للهي السلاطين والأمراء ولعب بعضهم دورا كبيرا في التاريخ الإسلامي .
ويذكر سيد الملك بن منقذ - مؤسس الإمارة في شيزر - في خطابه الذي
يبحث به إلى بغداد أنه عندما استولى على شيزر وذاعت أخبار تسامحه وحسن
معاملته لجيرانه رغبت كثير من القرى والحصون في التسليم إليه ، وسمع بذلك
أهل برزية وعينتاب وحصون الروم فجاءتني رسالهم ورغب كلهم في التسليم
إلي ، (١) ويشير أسامة ابن منقذ إلى أن العلاقات مع الأرمن من أصحاب
المسيحية وأنطرسوس وأذنه والدروب كانت علاقات ود وصداقة سادها
الصفاء والإخلاص وجرت بين آل منقذ وبينهم مكاتبات وتبادلوا خلالها
الهبات وغير ذلك (٢) وليس من شك في أن كثيرا من الأرمن دخلوا في
طاعة هذا الأمير المنقذي ومثلوا طائفة من طوائف رعاياه ، فقد ذكر أسامة
أخبار كثير من جماعاتهم التي اشتهرت بالمهارة في الرماية والتي استعان بها آل
منقذ في الصيد (٣) وفي الحروب على حد سواء . ويتردد في حديث أسامة
كثيرا من أخبار الأرمن في شيزر وضواحيها مما يؤكد أيضا أنهم كانوا إحدى
طوائف الرعايا في الإمارة المنقذية .

(١) سبط بن الجوزي : مرآة ج ١٠ ورقة ٣٩

(٢) أسامة : الاختيار ص ٢٠٢

(٣) نفس المرجع : ص ١٠٦

وفي طرابلس نجد أن توطن الموارنة في الشمال كان له أثر في اندماجهم مع السكان الأصليين من العرق الأرامي لكن نزوح العرب إلى هذه الجهات وتوطنهم فيها قد أبى تلك الفئة أقلية في المنطقة ، ثم كان تسرب مئات شيعية عربية أحياناً وفارسية أحياناً أخرى واتجاهها نحو المرتفعات والدروب طلباً للأمن والحماية أثره في صبغ هذه المنطقة بصبغة خاصة لكنها ظلت تمثل أكثرية عربية بجانب تلك الأقليات (١)

ومجمل القول في طوائف الرعايا في الإمارات العربية هو وجود أقليات تركية وتركانية وكردية وأرمينية وفارسية وموارنة وسط أغلبية عربية لعبت أدواراً هامة في تاريخ الإمارات الثلاث وتبوأ أفراد منها مناصب كبيرة في الحكم وقاموا بنشاط جم واشترك أكثرهم في الجيوش العربية كفرق محاربة وذاب آخرون في محيط الأغلبية ، وبقي آخرون كأمر وادعة متحفظة آمنة في ضواحي الإمارات وبالقرب منها وثار آخرون ورفعوا راية العصيان ومثلوا عنصر قلاقل ومنبع فتن ، وكأن الأمراء العرب لم يهودوا مسئولين فقط عن شعوبهم العربية وبني عموماتهم بل أصبحت إماراتهم تنضم إلى جانب العرب أقليات من أجناس أخرى كان عليهم أن يعترفوا بها بل ويفسحوا لها مكاناً في دولهم في بعض الأحيان ويخضعونهم ويقضون على فتنهم في أحيان أخرى .

هذا فيما يخص بالتناقض العنصري في الإمارات الثلاث أما بالنسبة للتناقض

(٥) حتى : لبنان في التاريخ ص ٣١٤

المذهبي والديني فقد كان أحتمداه شديدا وأثره أقوى في مجريات الأمور في كل من حلب وطرابلس وشبزر — وليس من شك في أن العامل الديني والصراع المذهبي قد أثر تأثيرا واضحا في تاريخ الإمارات العربية نظراً لأن روح العصر بكل ما عراه من فرضي سياسية واتجاهات طائفية قد ألقت ظاهها على الناحية الدينية فكان التناقض فيها شديدا والصراع قويا .

وتشير الدلائل إلى أن التشيع في بلاد الشام وفي شمالها بوجه خاص كان قد وصل إلى درجة كبيرة من الاستفحال على عهد تلك الإمارات وكان أحد العوامل الرئيسية في بزوغ بعضها وإظهارها إلى الوجود وإعطائها بهراً الاستمرار فترات متفاوتة كإمارات مستقلة .

ولقد ظهر التشيع باديء ذي بدء في بلاد الحجاز باعتبارها بلد التشيع له ولكنه كان في أول أدواره باهتاضه في الحول ، ثم استفحل أمره بعدئذ في بلاد العراق زمن خلافة علي بن أبي طالب ، وتؤكد بعض الروايات أن التشيع انتقل إلى بلاد الشام على يد أبي ذر الغفاري أحد صحابة الرسول الكريم والمعروف بحبه لعلي بن أبي طالب وميله إليه خاصة أنه سكن بلاد الشام بعد السنة الخامسة للهجرة واستدعاه عثمان بن عفان لشكوى فيه من معاوية بن أبي سفيان لكنه عاد إلى بلاد الشام حيث استقر في جبل عامل ونشر للتشيع هناك وتوفي سنة ٥٣٢ هـ (٦٥٣/٢م)^(١) ولا زال له مقام يزار في قرية العرفند بين صور وصيدا ومقام آخر في قرية ميس في جبل عامل ، ويبدو أن معاوية

كان قد ضيق على أبي ذر مما دفعه إلى الخروج إلى القرى ونشر التشيع فيها وخاصة المنطقة الواقعة بين أرض البقاع شرقا والبحر المتوسط غربا ومدينة بعلبك وأعمالها ومنها انتشر شمالا وشرقا في أعمال حمص وحلب (١) .

وكان أهل حلب في البداية سنيين على مذهب أبي حنيفة ثم أخذت تتغلل فيهم جيوب - شيعية بعدئذ ونشد إليها أنصارا جدد وفي سنة ١٤١ هـ (٧٥٨ م) ظهر في حلب جماعة من أتباع الراوندي زعموا أنهم بمنزلة الملائكة ولبسوا ثيابا من حرير فضفاض وأحدثوا في حلب اهتماما بالغا ومناوئا في نفس الوقت لأهل السنة . ولما استولى الحمدانيون على حلب سنة ٢٣٣ هـ (٩٤٥ م) وكانوا من الشيعة فحدا المذهب الشيعي هو المذهب الرسمي في الإمارة بأسرها، فكان حكم بني حمدان في حلب من جملة الأسباب الداعية إلى تأصل التشيع في الشمال (٢) إلا أن استئراء المذهب الشيعي بين سكان حلب وأعمالها يرجع في أغلبه لحركة أبو محمد المدوح الذي ينتسب لأسرة علي بن أبي طالب والذي قدم إلى حلب في أواخر أيام سيف الدولة الحمداني ونشط في نشر المذهب الشيعي فلقبت جهوده استجابة بين السكان وتأيدا من الحكومة ، لكن برغم انتشار التشيع في شمال الشام وحلب بصفة خاصة فإن الدلائل كلها تشير إلى أن المذهب السني ظلت له مكانته بين السكان فضلا عن تأصله في قطاعات كبيرة من الأهالي (٣) .

(١) محمد كرد علي : خطط الشام ج ٦ ص ٢٥٢ — ٢٥٣

(٢) محمد كرد علي : خطط الشام ج ٦ ص ٢٥٨

(٣) نهر الذهب في تاريخ حلب ج ١ ص ١٨٩ — ١٩٠

وفي طرابلس آلت السيادة فيها سنة ٣٦٠ هـ (٩٧١ م) إلى الدولة الفاطمية الشيعية وترتب على ذلك أن انتشر المذهب الشيعي في المدينة وفي أغلب الجهات الساحلية وغالى الأهالي في التشيع وانتظموا في جماعات و فرق مغالية في ذلك (١) ولما ورث بنو مرادس وبنو عمار الحكم في حلب وطرابلس بعد الحمدانيين والفاطميين وكانت الغالبية العظمى من رعاياهم من الشيعة ولهذا سارواهم في نفس الاتجاه ورعوا المذهب الشيعي ، وحينما أراد محمود المرداسي أن يتحول إلى المذهب السني و يقيم الخطبة للخليفة العباسي سنة ١٠٧٠ م (٤٦٢ هـ) احتاج الأمر إلى أن يكشف رعاياه بذلك ، فوقف خطيبا في حلب مفندا أسباب تحوله طالبا من رعاياه مساعدته على ذلك ولكن العامة أعلتو غضبهم و أخذت العامة الحصر التي في الجامع وقالوا : هذه حصر على بن أبي طالب فليجىء أبو بكر بحصر حتى يصلى عليها الناس، (٢) وكان أهل طرابلس من الشيعة أيضا ، بل إن القاضي أبو طالب نفسه - مؤسس الإمارة - كان متشيعا ومعتقها على المذهب الشيعي (٣) .

على أن دوران أمراء حلب من بنى مرداس منذ عهد نبال في فلك السياسة الفاطمية، كما أن التزام بنى عمار بسياسة تجميد العلاقات مع الخلافة الفاطمية وعدم الرغبة في توسيع الهوة معها بعد الاستقلال هو الذي ساعد على استمرار

(١) الانصارى البمشقي : نخبة الدهر ص ٢٠٠ ، ص ٢٠٣ ، ص ٢١١

ناصر خسرو : سفرنامه ص ١٣

Buhl ; Encyc. ISL. art « Tarabulus »

(٢) ابن العديم : زبدة ج ٢ ص ١٨

(٣) ابن الفرات : تاريخه ج ٨ ص ٧٧

الشيعة في الشمال وانتشار التشيع هناك ، بعكس ما حدث في شيزر إذ يبدو أن قيام الإمارة بعد ضياع معظم النفوذ الفاطمي في بلاد الشام ، فضلا عن دأب السلاجقة على تقويض دعائم النفوذ السياسي والديني الفاطمي في أرجاء البلاد كان له أثره في عدم انتشار التشيع بين رعايا الإمارة المنقذبة أو التزام أمراء بني منقذ بنصرة هذا المذهب ومعتنقيه ، ولهذا ظلت شيزر وضواحيها سنية في أغلبها .

على أن الأمر لم يقف عند حدود التشيع في أوساط الإمارات العربية في حلب وطرابلس بل إن مقالة فريق من السكان في التشيع كان سمة بارزة في عهد تلك الإمارات بل لأنها أهم السمات التي أعطت للعصر طابعه ، وأكدت تجرده من كثير من مميزات القرون المنصرمة ، فظهرت الجماعات الحاكية والآمرية فضلا عن الدروز والنصيرية والرافضة والإسماعيلية وغيرها من النجل كان مظهرا من مظاهر الفوضى ونجسها لروح العصر ذاته .

وكانت بلدة سلمية الخاضعة الواقعة إلى الجنوب الشرقي من حماه قد غدت في أواخر القرن التاسع (الثالث الهجري) مقرا للزعيم الإسماعيلية محمدا الحبيب قيل أنه ابن حفيد الإمام إسماعيل بن جعفر الصادق سليل علي بن أبي طالب وفاطمة عن طريق الحسين فانخذ محمدا هذا بلدة سلمية مركزا لنشاطه وحمد إلى بث الدعوة سرا في أنحاء العالم الإسلامي للدعوة لإعادة لإسلام الشيعة إلى نصابه . . وانتهى الأمر بإقامة الدولة الفاطمية في المغرب ثم انتقلت إلى مصر وبدأت عهدا هاما في الدعاية الإسماعيلية . (١)

(١) الغزى : نهر الذهب ج ١ ص ٢٠٩

ونظرا لأن الإسماعيلية اعتقدوا أن للعقيدة باطنا وظاهرا وفسروا كثيرة من الأحكام والمرايع طبقا لهذا الفهم وذهبوا إلى أن بوسع أي شخص الإفلات من العقاب إذا هو أدرك كنهه الباطن ، فقد تهادوا في تأويل أحكام الشريعة وأعطوا لكل نوع من العبادات ظاهرا وباطنا وبذلك تزلوا أنفسهم عن جمهرة المسلمين واتهموا بالكفر والإلحاد وسماهم الناس بالباطنية الملاحيد (١) فأنجسوا إلى النخف والانعزال واختيار الأماكن التي تمكنهم من ممارسة نشاطهم في خفاء .

ولقد قدر للدعوة الإسماعيلية الكبرى أن تتطور على يد الخلفاء الفاطميين في مصر وتلقى بعض النجاح في كل من مصر والشام وفارس حيث بدأت موجه جديدة وتيار مذهبي جديد يدب في أوصال العالم الإسلامي وفي جوف الخلافة العباسية راعية المذهب السني (٢) والتي كانت قد وصلت إلى درجة كبيرة من الانحلال والاضمحلال والضعف ، فقد حدثت طفرة كبيرة في الدعوة الإسماعيلية على عهد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (٩٩٦ - ١٠٢٠ م) وغلو في التشيع بلغ على عهد هذا الخليفة درجة كبيرة وربما منافية لمبادئ وأسس الدعوة ذاتها ، وذاك بظهور الجماعات المتطرفة من الحاكية والآمرية وفرق الدروز والنصيرية وغير ذلك من غلاة التشيع .

فلقد كان من دعاة الحاكم رجلا باطنيان أحدهما محمد بن إسماعيل

(١) الرارندى : راحة الصدور ص ٢٣٥ ، Camb. Med. Hist . 4. p 311

(٢) الأهماري الدمشقي : فضة الدهر ص ٢٠٠ - ٢٠٣ ، ص ٢١١

الدرزى (والدرزى تعنى فى الفارسية الخياط) والآخر حمزة بن على بن أحمد وكان هذا الأخير صاحب الرسائل والمكاتبات لدى الحاكم ، وكان محمد بن إسماعيل الدرزى أول من جاهر بتقديس الخليفة الحاكم وبلوغه مرتبة الألوهية ، ولكن هذه الدعوة لقيت استياء كبيرا بين المصريين وحدثت مشاغبات ومظاهر نفور فى القاهرة مما جعل الدرزى يرحل إلى بلاد الشام حيث نزل وادى التيم عند سفح جبل الشيخ (فى لبنان) فلقيت دعوته هناك استجابة بين سكان ذلك الريف الذين عرفوا بالشجاعة وحب الحرية وكانت بعض الآراء الشيعية المتطرفة قد غشت أوساطهم من قبل ، ولكن الدرزى ما لبث أن لقي مصرعه بعد قليل فى غضون سنة ١٠١٩ م (١٠٤١ هـ) فخلقه الداعى الآخر حمزة بن على الملقب بالمهادى (١) .

وكان حمزة أيضا فارسيا نشط فى نشر تعليم المذهب ومحاولة كسب أنصار بين التتوخيين من سكان الجهات الساحلية التى عرفت فيما بعد بلبنان - ولما اختفى الحاكم بأمر الله أنكر حمزة وفاته وأشاع أنه تحول إلى « غيبة » مؤقتة وأنه من الواجب تركب « رجعتة » المظفرة ، ويبدو أن اختفاء الحاكم على تلك الصورة له ضلع فيما عمدت إليه جماعة الدروز بعدئذ فى محاولة ضمها بقائما وسلامتها ، فقد دبر دعائهم مبدعا جديدا هو عدم السماح بإفشاء أى جانب من جوانب المذهب لإبان « غيبة » الحاكم بأمره ومنذ ذلك الحين « قفل الباب »

(١) حتى : تاريخ سورية ج ٢ ص ٢١٧

محمد كرد على : خطط الشام ج ٦ ص ٢٦٩

وحظر على أى كائن الدخول إلى الملة أو الخروج منها^(١) .

ولعل أخطر ما خرجت به جماعة الدرزية على جمهور المسلمين حينئذ ما نادى به حمزة نيابة عن الحاكم من إحلال بعض فرائض الإسلام الكبرى على أتباعه ومنها الصوم والحج واستبدالها بشرائع أخرى تستوجب العمل بالصدق في القول والعون المتبادل بين أتباع الملة ونيز بعض العقائد الباطلة إلى غير ذلك مما ذاع أنه نتاج الاعتقاد في عناصر أفلاطونية جديدة ، العقل الفعال ،^(٢) .

لكن مبدأ العون المتبادل بين أتباع هذه الملة جعل من الدروز فعلا جماعة شديدة التماسك مفرطة الانكماش ، حتى لتكاد تبدو أقرب إلى المنظمة الأخوية الدينية منها إلى الملة المذهبية^(٣) وكان لذلك أثر كبير لإبان نوبات عصيان هذه الفئة وخروجها في وجه أرباب السلطة في بلاد الشام .

ووجه الأهمية في كل ما قيل عن جماعة الدرزية انها مثلت عنصر قلائل بالنسبة لإمارة بنى مرadas في حلب في عهد نصر بن صالح بن مرadas إذ يتحدثنا المؤرخ ابن العديم أنهم آثاروا فتنة سنة ٥٤٢٣ هـ (١٠٣٢) حين اجتمعوا بجبل السماق وجاهروا بمذهبهم وخرّبوا ما عندهم من المساجد وتفاقم أمرهم وتمحصنوا في مغار شامخة على العاصي وانضوى إليهم خلق من فلاحى حلب وطمعوا بالاستيلاء على البلاد ،^(٤) .

(١) حقي : تاريخ سورية ص ٢١٨

(٢) Demombynes ; Moslim institutions. p. 41

(٣) حقي : نفسه ج ٢ ص ٢١٩

(٤) ابن العديم : زبدة ج ١ ص ٢٤٨ - ٢٤٩

ولقد نظر كل من نصر المرداسي وحاكم أنطاكية البيزنطى نقتاس إلى هذه الحركة نظرة شك وريبة واعتبرها كل منها خطرة بالنسبة لأمن وسلامة رعاياه . ولمـذا اتفقا معا على مناهضتها فسارع نقتاس بمهاجمة الدروز « وحاصرهم فى المغائر ودخن عليهم » وكذلك خرج نصر وقام بمعاونته فى ذلك حتى استسلم معظم مشيرى هذه الفئة فقبض على دعايتهم وجرى إعدامهم فى ربيع الاول سنة ٤٢٣ هـ (فبراير سنة ١٠٣٢ م) (١) .

وعلى الرغم مما أثارته هذه الفئة من ضيق لأمير حلب المرداسي بما يؤكده أن جانباً منها مثل طائفة من طوائف رعايا الإمارة إلا أنه من الثابت أن مراكز تجمع الدروز كانت تتبع إمارة بنى عمار فى طرابلس بسبب انتشار تعاليم الدرزي بين سكان تلك المنطقة الساحلية أكثر من غيرها من جهات الشام . فالمعروف أن الدروز بدءوا من جنوب لبنان فى تثبيت أقدامهم وتوثيق أمرهم حتى أنهم اصطدموا بجماعة أخرى لا تقل عنهم تطرفاً هى جماعة النصيرية التى لم يقو أتباعها على مناهضة الدروز فاندفعوا إلى شمال لبنان حيث اتخذوا لهم موطناً جديداً ، وما لبث الدروز بعد ذلك أن أخذوا فى الانتشار إلى منطقة الشوف شرقى مدينة بيروت حيث أصابهم المماليكيون فى تلك الجهات (٢) . وعلى هذا فيمكن القول أن أغلب الدروز مثلوا جانباً من رعايا إمارة

Schlumberger ; L'Epopée P. 91.

(١)

ابن العديم : زبدة ج ١ ص ٢٤٩

Vol I p. 61

(٢) « بنيامين التودلى »

حقى : تاريخ سورية ولبنان ج ٢ ص ٢١٩

بنى عمار في طرابلس ، لكننا مع ذلك لم نعثر على ثمة أخبار عن مصادمات بينهم وبين أمراء تلك الإمارة أو أنباء عن فتن أثاروها ضدهم ولا بد وأن كياسة بنى عمار ولباقتهم فضلا عن أنهم وأغلب رعاياهم من الشيعة لم يجدوا مصلحة في الاصطدام بتلك العنة التي تنتمي أصلا للمذهب الشيعي برغم ما أصابها من التطرف ، ولهذا أغضوا الطرف عن الدروز وتركوا لهم الحرية في التعامل مع جيرانهم من الشيعة أحيانا ومن السنة أحيانا أخرى ، هذا فضلا عن أن الدروز أنفسهم كانوا قد بدأوا عهداً آخر في دعوتهم واتجهوا نحو الانغلاق وعدم الانفتاح على المجتمع المحيط ولذا لم يمتدوا بمناطق أكثر انعزالا طلبا للامن والحماية وبهنا عن مراكز الاصطدام والتوتر .

أما النصيرية فهم فرع من الفروع الباطنية ممن يقولون بأن للنصوص الدينية معنى غير المعنى الظاهر أو الحرفي ومن يغالون في التشيع أيضا أي أنهم إحدى طوائف المذهب الإسماعيلي لكن تطرفهم حاد بهم عن الأصول وغلوهم في التشيع عزلهم عن بقية الشيعة مثل الدروز ، لكنهم أيضا نظروا إلى الأئمة المنحدرين من صلب علي بن أبي طالب نظرة خائفة تدل على غلو في ذلك يجعل بأوائل الأئمة إلى مصاف التقديس (١) .

ويرجح أن النصيرية ينتسبون إلى رجل من أهل الكوفة يدعى محمد بن نصير كان أحد أتباع الإمام العلوي الحادي عشر من أئمة العلويين وهو الحسن العسكري المتوفى سنة ٧٨٤ م (٢٦١ هـ) (٢) وأول أنباء وردت عن هذه

Dem.cnbynes : cp. cit. p. 41-42

(١) .

(٢) . العزى : نور الذهب ج ١ ص ٢٠٤

للطائفة ذكرت في كتابات حمزة بن علي وغيره من دعاة الدرزية لكن آخر مؤسس لهذه الجماعة — علي ما في مدوناتهم — هو حسين بن حمدان الخصبى (المتوفى حوالى ٩٥٧م) وكان قبلاً مولى اسماعيليا من موالى الحمدانيين فى حاب^(١).

واقدر أحسن أنباع هذه النحلة أنهم أقلية صغيرة وسط أغلبية معادية ، لهذا آثروا العمل فى الخفاء مع اللجوء إلى الانزواء ، ولهذا ظلك تعاليمهم ومبادئهم نحتلمهم سرية فى أغلبيتها — ولم يعرف عن مدوناتهم المقدسة بمقدار ما عرف عن مدونات الدروز ويتمثل مذهبهم فى مجموعة من آراء شيعية متطرفة سرية للطابع كهنوتية للنظام باطنية التعاليم مع تقديس كبير لعلى بن أبى طالب وغلو فى ذلك لدرجة ترقى به من رتبة البشر^(٢) ولهذا سمي النصرانية فى تاريخهم المتأخر بالعلويين واشتهروا به هذه التسمية عندما حول الفرنسيون المنطقة التى تكتنف اللاذقية إلى دولة منفصلة سموها العلويين ، وأطلق عليهم فى عهد الحروب الصليبية لقب Nazari^(٣).

ويبدو أن هذه الطائفة لم تتخذ للتمركز فى شمال لبنان بعد أن ألجأهم الدروز إلى ذلك بل انشعبت منها جماعات استوطنت — على عهد الإمارات العربية — فى وسط سورية وشمالها وبالقرب من حلب والسويدية وجبال القصير وجبل

(١) حتى : تاريخ سورية ولبنان ج٢ ص ٢٢٠

(٢) الشهر ستانى : المال والنجل ص ١٤٣-١٤٥

(٣) Conder ; Syrian Stone Lore. p. 423

حتى : نفس المرجع ج٢ ص ٢٢١

الأقارع ولهذا فلقد كان بعضهم من رمايا بنى عمار وبنى منقذ وكان أغامهم من المزارعين الذين غلبت عليهم الفاقة والجهل^(١).

فإذا كانت طائفة الاسماعيلية الباطنية أو من عرفت بالحشيشية قد انتقل نشاطها إلى بلاد الشام بشكل ثابت في بداية القرن الثاني عشر الميلادي أى بعد هدم كل من إمارة بنى مرداس وبنى عمار فإن أتباع المذاهب المتطرفة المتشعبة عن المذهب الاسماعيلي كالدروز والنصيرية قد لعبت دورا هاما إلى مدى القرن الحادى عشر كله ومثلت كل منها إحدى طوائف الرعايا في الإمارات العربية وأعطت للتناقض المذهبي في تلك الجهات مكانا ودورا وكانت سابقة هامة لما قام به الباطنية بعدئذ خاصة ضد إمارة شيزر العربية على عهد أبى العساكر سلطان بن منقذ .

وكانت الدعوة الباطنية — كما سبقت الإشارة — قد انتشرت في بلاد فارس منذ أواخر القرن الحادى عشر الميلادي وكان أول دعائهم هناك هو أحمد بن عبد الملك بن عطاش الذى خلفه الحسن بن الصبّاح ذائع الصيت ، ومن تدين له الدعوة بكثير من عوامل نفوقها وانتشارها وفاعليتها فلقد انتهز هذا الداعى فرصة الفوضى التى تعرضت لها السلطنة السلجوقية عقب وفاة ملكشاه واستشراء الحروب بين ولديه بركياروق وعبد^(٢) مع ضعف الخلافة العباسية وانحلالها وقام بتنظيم الحركة الباطنية ودهم صفوفها بما استنه من نظم ومن

(١) الغزى : نهر الذهب ج ١ ص ٢٠٤

(٢) Browne : Account of a rare manuscript: p. 665-6

ضمه اليها من رجال وشباب كما استطاع الاستيلاء على بعض القلاع الحصينة التي اتخذها مركزاً لنشاطه ومقرّاً لتوجيه دعواته فاستولى على قلعة الموت في طبرستان قرب قزوین وبعض القلاع الأخرى قرب أصفهان ونجح في تخريب دفعات كثيرة من الفدائيين أو من عرفوا بالسداوية وهم أهم مراتب التنظيم الاسماعيلي بوصفهم الإدارة العاملة التي قامت فعلاً بتنفيذ سلسلة الاغتيالات الشهيرة في بلاد الشام خاصة في عصر الحروب الصليبية (١) .

انتقل نشاط الباطنية إذن إلى بلاد الشام مع بداية القرن الثاني عشر الميلادي وكان للعطف والتأييد الذي أبداه رضوان ملك حلب السلاجوقي أثره في اشتداد عود هذه الطائفة فقد حصل كل من الحكيم المنجم وأبو طاهر الصائغ - أول زعماء الباطنية في بلاد الشام - على مكانة خاصة لدى رضوان فاستغل الباطنية ذلك وباشروا أعمالهم الإجرامية واغتيالاتهم لبعض أمراء المسلمين هناك فكان من ضحاياهم جناح الدولة الحسين سنة ١١٠٣ م وخلف بن ملاعب سنة ١١٠٦ والفائز شرف الدين مودود سنة ١١١٣ م (٢) .

ولقد تعرض الباطنية بعد وفاة رضوان في حلب سنة ١١١٣ م للتفكيك من قبل خليفته ألب أرسلان المعروف بالأخرس ، فقتل أبو طاهر الصائغ وإسماعيل الداعي وأخو الحكيم المنجم وحبس الباقون واستصفيت أموالهم وشفع في بعضهم فمنهم من أطلق ومنهم من رمى من أعلى للقلعة وهرب جماعة أفلتوا إلى

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٥٥١ - ٥٥٢

(٢) نفس المرجع ج ١ ص ٥٥٥

الإفرنج وتفرقوا في البلاد (١) .

وتشير كثير من الدلائل إلى أن أغلب أوائل الناجين قد انجموا ناحية أفامية ومعرة النعمان ومعرة مصرين والاستقرار وطلبوا الأمان ، فأضحوا بذلك ضمن نطاق إمارة شير العربية (٢) ومن ثم وجد بنو منقذ أنفسهم أمام حزب قوى متطرف أصبح أتباعه ضمن رعاياهم ، وعندئذ مال بنو منقذ إلى تطبيق سياستهم اللبقة وكياستهم المعروفة في التعامل مع هذه الفئة لتجنب خطرهم وبشير ابن الأثير إلى أن بنى منقذ أحسنوا إلى أولئك الباطنية كل الإحسان لكن هؤلاء جزوا إحسانهم بالإساءة فقد كان إحساس الباطنية بأنهم أضحوا مكروهين في كل من حلب ودمشق وبعد وفاة رضوان ومقتل كبار دعائهم في حلب وبعد اغتيالهم لمودود ، كل ذلك قد أغراهم بمحاولة الوئوب إلى شير وتملكها وطرده آل منقذ منها ، لكن محاوراتهم لم يكتب لها النجاح بل باءت بالفشل الذريع - كما سبقت الإشارة - واستصغى آل منقذ أتباعهم في المدينة وتبعوهم في كل مكان ونجموا في القضاء على أكثرهم (٣) .

لكن مع ذاك ظل الباطنيون يمثلون عنصر قلاقل في كل الجهات القريبة وبؤ كدون صمحه التناقض المذهبي بين رعايا الإمارة المنقذية واستطاعوا بعدئذ أن يقطعوا من أملاكها حصن مصياف سنة ٥٣١ هـ (١١٣٨ م) منهزين

(١) ابن القلانسي : ذيل ص ١٨٩ - ١٩٠ ، ابن العديم : زبدة ج ٢ ص ١٦٤

(٢) سبط بن الجوزي : مرآة ج ١٠ ورقة ٣١٥

(٣) أسامة بن منقذ : الاعتبار ص ٧٧ ، ص ١١٦ - ١١٧ ، ص ١٦٢

فرصة انشغال بنى منقذ في صد هجوم الصليبيين والبيزنطيين ، فاستولوا على ذلك الحصن وحولوه إلى قاعدة باطنية وإلى مراكز من أهم مراكز تجمعهم في بلاد الشام (١) .

وظل الباطنية متخففين في الجهات القريبة من شيزر لسكنهم لم يجرؤا على مهاجمتها من جديد . ثم أنهم اندفعوا بعد تدمير شيزر سنة ٥٥٢ هـ (١١٥٧ م) للدفاع عن المنطقة بأسرها ضد مطامع الفرنج الذين نشطوا حينئذ في الهجوم مستغلين ما أصاب الحصون والقلاع من التخريب بسبب الزلازل ، وظل الباطنية يتحملون عبء الدفاع عن المنطقة حتى قدم نور الدين محمود فعمر شيزر والحصون المجاورة وتكفل بالدفاع عنها وعن المنطقة كلها ضد الفرنج (٢) .

وعلى هذا فيمكن القول أن ما أمست فيه بلاد الشام إبان القرن الحادى عشر الميلادى خاصة فيما يتعلق بالتناقض المذهبي وما قامت به جماعات الدروز والنصيرية خلال حكم بنى مرداس وبنى عمار فى كل من حلب وطرابلس قد مهد لدور كبير من جهة الاسماعيلية الباطنية أو من عرفوا بالحشيشية ابتداء من أوائل القرن الثانى عشر فى بلاد الشام وعلى عهد إمارة بنى منقذ ، فأعطوا للتناقض المذهبي وجودا ومكانا بين رعايا الإمارة وأثبتوا أن روح العصر ذاته بكل ما شابها من فوضى فى الشؤون السياسية والدينية قد انعكست أيضا

(١) ياقوت : معجم ج ٤ ص ٣٥٨ ، ج ١ ص ٢٤٩ ، ص ١٠٣

أبو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٥ ، ابن الوردي ، تاريخه ج ٢ ص ٤٤

(٢) ابن القلانسي : ذيل ص ٣٤٨ - ٣٤٩

على آخر الامارات العربية الثلاث التي لم تنجح هي الأخرى من ذلك التناقض والخلاف ، بل عاشت تلك التجربة ومارستها وإن كان حظها أسوأ من سابقتها ، إذ تعاملت مع فريق من أتباع المذهب تطرفوا كل التطرف وتحمسوا كل الحماس ولم يردعهم سوى مغالاة في البطش وغلو في التنكيل ، ما يعني من ذلك كله أن نعمة تناقض مذهبي قد أقبح على رعايا تلك الامارة أيضا غذته وأغنته عوامل مختلفة بل ربما دخيلة على بلاد الشام ذاتها ، فقدت هي الأخرى تضم إلى جانب أهل السنة جيوشا إسماعيلية باطنية قدر لها أن تغدو خطرا يهدد كيانها فترة من الزمان قبل أن تندثر شيزر المنقذية ويهلك نآل منقذ فيها تحت الأنقاض .

خاتمة

وبعد هذا العرض المستفيض للجوانب المختلفة في حياة الإمارات الثلاث نسجل هنا ما أسفر عنه هذا البحث وأبرز نتائج هذه الدراسة . فليس من شك في أن الظاهرة الهامة المشتركة في تاريخ تلك الإمارات الثلاث أنها كانت حصاد نشاط طويل ودائب من لدن القبائل العربية النازحة إلى بلاد الشام من قلب الجزيرة العربية في أزمنة متفاوتة عبر التاريخ الطويل لهذه البلاد . فالإمارات الثلاث تضرب بنسبها إلى أصول عربية معروفة وتنسب إلى قبائل عربية بدوية وظلت تتحفظ للقيام بدور كبير في بلاد الشام حتى وانتهت الفرصة ففرضت وجودها وأكدت استقلالها ودافعت عنه ودفعت في سبيله كل من سواء بالنفس أو المال .

على أن الأوضاع الدوائية في تلك المرحلة أسهمت بدور كبير في بروز الإمارات الثلاث وكانت عاملا هاما في استمرارها مددا متفاوتة كإمارات عربية مستقلة فالخلافة العباسية كانت قد انحدرت إلى درجة كبيرة من الضعف والاضمحلال وأمس في حالة يرثى لها . واستطاعت دول صغيرة أن تستقل عن نفوذها وتطرح طاعتها وتمثل وضعا غريبا في كيان تلك الخلافة المنهكة . وقد أثبت الحمدانيون من قبل أنه بوسع النفوذ المحلي أن يفرض نفسه ويقيم حكما استقلاليا يصفى في بعض جهاته بقايا نفوذ عباسي وإخشيدى ومكاسب حركات انفصالية أخرى في بلاد الشام . وليس هناك شك في أن التجربة الحمدانية كانت سابقة خطيرة وهامة أمام بني مرداس لإقامه حكم ثابت ودولة مستقلة في شمال الشام تدين بوجودها واستمرارها للظروف السائدة في قلب الخلافتين العباسية والفاطمية

وركود الامبراطوريات القديمة لاسيا الامبراطورية البيزنطية .

ولم تكن التجربة الحمداية والمرادسية بخافية على أولئك الذين أسسوا لإمارة بنى عمار فى طرابلس بل إن الظروف تشابهت كثيراً بينها ، وانتهاز فرصة الأوضاع الراهنة فى بلاد الشام قد أعطى مبرراً لقيام إمارة منعزلة فى طرابلس تسيطر على شريط ساحلى يمتد من جبلة شمالاً حتى مشارف بيروت جنوباً . واقـد ساعد على بروز هذه الإمارة ما أمست فيه الخلافة الفاطمية من ضعف فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى وما نزل بها من كوارث اقتصادية وما اعترأها من فوضى فى الشؤون السياسية والدينية . فضلاً عن ازدياد تمالك الخلافة العباسية وهيمنة السلاجقة على شئونهم واستمرار ركود الامبراطورية البيزنطية وعدم رغبتهم فى جلب متاعب لها فى الشرق .

وكانت الأوضاع فى بلاد الشام والظروف الدولية هى أيضاً وراء قيام الإمارة الثالثة فى شيزر . فلقد زاد تمالك الخلافتين فى الشرق وأنهارت إمارة بنى مرداس . وعكف بنو عمار على إرساء قواعد حكمهم بعيداً عن القوى الأخرى واقتصرت الجهدود البيزنطية على الجانب الآخر من أملاك الامبراطورية فى الغرب إن لم يكن قد اقتصرت على مجاهدة أعدائها هناك دون استطاعتها الالتفاف إلى الشرق . لكن نشاط السلاجقة فى بلاد الشام حينئذ ورغبتهم فى نصفية بقايا النفوذ الفاطمى والإمارات الصغيرة قد فرض على بنى منقذ ضريبة أكبر فى حماية استقلالهم وتكريس انفصالهم ، ولكن برغم ذلك فقد أثبت هؤلاء أنهم استفادوا فعلاً من الأوضاع الراهنة فى بلاد الشام كما فعل نظراؤهم فى حلب وطرابلس .

على أن الظروف التي مكنت هذه الإمارات من البروز إلى الوجود هي نفسها التي أسهمت إلى حد كبير في انهيارها واندثارها . فلو قد خسر بنو مرداس إمارتهم على أثر تدخل دولي من قبل الفاطميين والسلاجقة والعقيليين ففاز بها العقيليون قبل أن تدلف إلى حظيرة السلاجقة .

وتزعزت إمارة بنى عمار على أثر تدخل الخلافة الفاطمية وتقدم جهافل الصليبيين ثم ما لبثت أن تمسأت تحت وطأة هجومات الجيوش الصليبية بعد سنوات قليلة من استقرارهم في الشرق .

وأسهمت الظروف الدولية والأوضاع القاسية في بلاد الشام وتدخل الصليبيين والبيزنطيين والأحزاب المتطرفة في بلاد الشام في زعزعة الإمارة الثالثة وإضعافها ، ثم ما لبثت أن التهمت عوامل طبيعية وزلازل رهيبية جعلتها أثرا بعد عين .

ولكن رغم ذلك كله فقد أثبتت هذه الوحدات الصغيرة أنها قادرة في ظل تلك الأوضاع على فرض انفعالاتها وحماية استقلالها مددا ليست قصيرة مستفيدة من تصارع القوى المختلفة وتكالبها ورغبتها في فرض وجودها في المنطقة وإحكام نفسها على أقدارها .

على أن أهم ما يشد الانتباه في تاريخ الإمارات العربية الثلاث ويفرض نفسه كمنطباع ثابت غير متأثر بالتفاصيل تلك المظاهر المشتركة بينها والاتجاهات المتشابهة في تاريخها فيما يختص بظروف قيامها واتجاهاتها في الحكم ومحاولات الحفاظ على استقلالها سواء بخوض الحرب وشن القتال أو بالتكديف المربع مع اتجاهات القوى المتحفزة وكذلك التشابه الكبير بينها في

الحجم والإمكانات البشرية والمادية وكذلك الرعايا واتجاهاتهم وتناقضهم
العنصرى والمذهبي .

ولا يخفى على الباحث أيضا أن هذه الإمارات العربية بدت وكأنها آخر
محاولات للتشبث بمظاهر الماضى والأوضاع القديمة والنفوذ العربى الأصيل
قبل أن يستفحل النفوذ الأعجمى وغير العربى فى المنطقة بأسرها فيجعل تلك
الإمارات وكأنها جزر صغيرة وسط محيط من نفوذ مغاير لمن لم يكن معاد
للخلافتين الإسلاميتين فى بغداد والقاهرة .

ومع أننا نسلم أن هذه الإمارات العربية كانت بقعا صغيره وسط محيطات
متسعة من النفوذ الأعجمى وغير العربى . إلا أننا نلمسنا فيها آثار الدول
الإسلامية الكبرى إن لم يكن الخلافت العربية فى الشرق بكل مظاهرها وما
شاب عصورها من تيارات طيبة أحيانا وغير طيبة أحيانا أخرى ولعل
الدراسة الدقيقة لتاريخ هذه الإمارات قد أوقفت الباحث على جـوانب ربما
تبدو خافية وغير واضحة لمن تصفح تاريخ تلك الحقبة القلقة مما يعطى انطباعا
ثابتا بأن عهود تلك الإمارات الثلاث حملت معهم عبير الماضى فعلا وروح
القرون المنصرمة بخيرها وشرها .

فقد رسخت أقدام الأمراء العرب — فى الإمارات الثلاث — فى الحضارة
وجاروا مظاهر العهد الجديد فى دولهم المستقلة وبالغوا فى التشبه بالخلفاء
والسلطين وأحيوا كثيرا من الاتجاهات التى ميزت عهود الأمويين والعباسيين
الأوائل ولم يهتموا نواحى الخدمات فى إماراتهم واهتموا بالنواحى العمرانية
والحضارية والعلمية والفكرية . لكنهم لم يستطيعوا أن يذبوا — والفوارق
العنصرية والمذهبية بين قطاعات من رعاياهم ولهذا شغلت الشؤون الدينية بهمة

خاصة حيزا ليس ضئيلا من تفكيرهم ، بل غدت بعض الفرق المتظرفة وجه تهديد لإماراتهم .

ولعل أهم نتائج هذا الموضوع أيضا أن القرن الحادى عشر الميلادى (الخامس الهجرى) وهو القرن الذى شهد مولد هذه الإمارات وشهد الجانب الأكبر من عهودها يعد من أقسى الحقب التى مرت بالمسلمين على امتداد تاريخهم الطويل ومن أشد القرون قسوة بالنسبة لهم ، لما ساد أوساطهم خلاله من نزعات انفصالية وانجهايات انعزالية وقيام تناقض دينى وخلاف مذهبي ودخول عناصر مختلفة و فرق غريبة الى المنطقة . فضلا عن أنه شهد حدثا هاما فى تاريخ بلاد الشام هو تقدم الجيوش الصليبية وقيام الإمارات اللاتينية فى الشرق فى نهايته وفى السنوات الأولى من القرن الثانى عشر وليس من شك فى أن الغزو والاستقرار الصليبي جاء نتيجة حتمية لما غشى الجهة الإسلامية طوال ذلك القرن من ضعف واضمحلال . كما أسهم تقدم للسلاجقة واحتياج فرق التركمان للمنطقة وإفاقات بزنطة المتقطعة فى إضعاف المسلمين وتفكك جبهتهم . فبدأ القرن الحادى عشر لدارسه ومتتبع أحداثه وكأنه قرن أحزان وآلام للمسلمين فى منطقة الشرق الأدنى وظهور كحقيقة من أقسى الحقب التى مرت بهم منذ الفتح العربى الاسلامى فى القرن السابع الميلادى .

أولا : المصادر والمراجع العربية

المطبوعات :

- ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن علي الجزري) :
- التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل (تحقيق عبد القادر طليبات القاهرة ١٩٦٣)
- الكامل في التاريخ (طبعة مصر سنة ١٣٤٨ هـ)
- ابن الجوزي (أبو الفرج عبد الرحمن بن علي) :
- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (حيدر آباد سنة ١٣٥٩)
- ابن حزم الأندلسي :
- جمهرة أنساب العرب (تحقيق عتد السلام هارون)
- ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) :
- العبر وديوان المبتدأ والخبر (بولاق سنة ١٢٨٤ هـ)
- ابن خلكان (شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر) :
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان (تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد القاهرة سنة ١٤٩٨) .
- ابن العبري (غريغوريوس الملقطلي) :
- تاريخ مختصر الدول (طبع الأب أنطون صالحاني اليسوعي — بيروت سنة ١٨٩٠ م) .
- ابن العديم الحلبي (كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة العقيلي) :

— زبدة الحلب من تاريخ حلب (تحقيق سامي الدهان - بيروت سنة ١٩٥٤)

— منتخبات من بغية الطلب في تاريخ حلب (مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية ج ٢) .

* ابن عساكر (أبو القاسم علي بن الحسن) :

— التاريخ الكبير المعروف بتاريخ دمشق (طبع روضة الشام ١٢٣١ هـ)
 ° ابن العماد (عبد الحى بن أحمد) :

— شذرات الذهب في أخبار من ذهب (القاهرة سنة ١٣٥٠ هـ)
 ° ابن الشحنة (أبو الفضل محمد) :

— الدر المنخب في تاريخ مملكة حلب (تحقيق يوسف بن إيلان سر كيس بيروت سنة ١٩٠٩) .

* ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم) :

— تاريخ ابن الفرات (تحقيق زريق ونجلاء عز الدين بيروت سنة ١٩٤٢) .

° ابن القلانسي (أبو يعلى حمزة) :

— ذيل تاريخ دمشق (تحقيق آمدرز — بيروت سنة ١٩٠٨)

* ابن ميسر (أبو عبدالله محمد بن علي) :

— أخبار مصر (تحقيق ونعم جيج هزى ماسيه — القاهرة سنة ١٩١٩)
 ° ابن ناصر (صدر الدين أبو الحسن علي) :

— أخبار ^{شذرات سور الترمذية} الدولة السلجوقية (تحقيق محمد إقبال — لاهور سنة ١٩٣٣)

* ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم) :

— مفرج الكروب في أخبار بني أيوب (تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال سنة ١٩٥٣) .

✓ ابن الوردى (أبو حفص زين الدين) :

— نعمة الخضر في أخبار البشر المعروف بتاريخ بن الوردى (القاهرة سنة ١٨٦١) .

س أبو شامة (شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن ابن اسماعيل المقدسى) :

— الروضة في أخبار التولتين (تحقيق الدكتور محمد حلمي أحمد القاهرة سنة ١٩٥٦ م)

— تراجم رجال القرنين السادس والسابع (القاهرة ١٩٤٧)

ه أبو صالح الأرمنى (النصرانى) :

— تاريخه (طبع أكسفورد ١٨٩٥)

س أبو الفدا (الملك المؤيد اسماعيل) :

— المختصر في أخبار البشر (طبع مصر)

✓ أبو المحاسن (ابن تغرى بردى) :

— الجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (طبع دار الكتب - القاهرة

سنة ١٣٥٢ - ١٩٣٣)

✓ أسامة بن منقذ :

— كتاب الاعتبار (تحقيق فيليب حقى - برنستون - الولايات

المتحدة سنة ١٩٣٠) .

* الأصفهاني (عماد الدين محمد) :

— تاريخ دولة آل سلجوق (مصر سنة ١٩٠٠ - ١٣١٨ هـ)

ه البندارى (المتح بن علي بن محمد البندارى الأصفهاني) :

— مختصر تواريخ آل سلجوق (تحقيق هونسما ليدن سنة ١٨٨٩)

* الخطيب البغدادي (أبو بكر أحمد بن علي) :

— تاريخ بغداد (طبع مصر سنة ١٣٤٩ — ١٩٣١)

* الذهبي (الحافظ شمس الدين أبو عبد الله) :

— العبر في خبر من غير (تحقيق فؤاد سيد — القاهرة سنة ١٩٦١)

* الراوندي (محمد بن علي بن سليمان الراوندي) :

— راحة الصدور وآية السرور في تاريخ آل سلجوق — نشر إقبال

(نقله إلى العربية للدكتور للشواربي وآخرون — القاهرة سنة

١٩٦٠).

* الطبري (محمد بن جرير) :

— تاريخه (طبع القاهرة سنة ١٩٣٩ — ١٣٥٨ هـ)

* الفارقي (ابن الأزرق) :

— تاريخ الفارقي (تحقيق بدوي عبد اللطيف — القاهرة ١٩٥٩)

* القلشغندي (أبو العباس أحمد) :

— صبح الأعشي في صناعة الانشا (طبعة دار الكتب)

— نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب (تحقيق إبراهيم الأبياري

القاهرة سنة ١٩٥٩)

* المؤرخ المجهول :

— أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس

(نقله إلى العربية للدكتور حسن حبشي — القاهرة سنة ١٩٥٨)

* المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي :

— سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة (تحقيق محمد كامل حسين —

القاهرة سنة ١٩٤٩) .

* المقرئى (تقى الدين أحمد بن على) :

— اتعاظ الحنفا بذكر الأئمة الفاطميين الخلفاء (نشر الدكتور الشيال

القاهرة سنة ١٩٤٨)

— إغاثة الأمة بكشف الغمة (نشر الدكتور زيادة والدكتور الشيال

القاهرة سنة ١٩٥٧)

* مجموعة الوثائق الفاطمية (نشرها الدكتور الشيال — القاهرة سنة

(١٩٥٨)

* مختصر تواريخ الأرمن (نقله من الأرمنية إلى العربية القس أنطون

خارجى أورشليم سنة ١٨٦٨) .

• اليافعى (أبو محمد عبدالله بن أسعد) :

— مرآة الجنان وعبرة اليقظان (حيدر آباد سنة ١٣٣٨ هـ)

* النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب) :

— نهاية الأرب فى فنون الأدب (طبعة دار الكتب المصرية) .

• يحى بن سعيد الانطاكى :

— التاريخ المجموع على التحقيق والتعديق (طبعة بيروت سنة ١٩٠٩)

..

* ابن جبير (أبو الحسين محمد بن أحمد) :

— رحلة ابن جبير (تحقيق حسين نصار — القاهرة سنة ١٩٥٥)

• ابن حوقل

— كتاب صورة الأرض (طبع بيروت سنة ١٩٦٤) .

• ابن خرداذبة :

— المسالك والممالك (نشرة غوية سنة ١٨٨٠) .

• الإدريسي :

— نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (نشره روزن مولر) .

• الاصطخرى :

— المسالك والممالك (نشرة مجد جابر الحيني - القاهرة سنة ١٩٦١) .

• الانصاري الدمشقي (أبو عبد الله مجد بن أبي طالب الانصاري) :

— نخبة الدهر في عجائب البر والبحر (نشرة مهترنة - بطرسبورغ

سنة ١٨٦٥)

• العمري (شهاب الدين أبو العباسي أحمد بن يحيى بن فضل الله) .

— مسالك الأبحار (مخطوط مصورة بدار الكتب) .

• المقدسي (شمس الدين أبو عبد الله مجد بن أحمد بن أبو بكر) .

— أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (طبع ليدن سنة ١٩٠٦) .

• ناصر خمررو (علوى) :

— سفر نامه (ترجمة د . يحيى الخشاب - القاهرة سنة ١٩٤٥) .

• اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن واضح) .

— البلدان (ليدن سنة ١٨٩٠) .

• ياقوت (شهاب الدين أبو عبد الله الحموي) :

— معجم البلدان (وستنفلد - طهران سنة ١٩٦٥) .

∴

أبو حصينة :

— ديوان شعره (تحقيق مجد أسعد أطلس - دمشق سنة ١٩٥٦) .

أبو فراس الحمداني :

— ديوان شعره (نشره د . سامي الدهان - ٣ أجزاء - دمشق

سنة ١٩٤٤)

أسامة بن منقذ :

— لباب الآداب (تحقيق أحمد محمد شاكر - القاهرة سنة ١٩٣٥) .

أبـلـاذري :

— فتوح البلدان (نشره د . صلاح الدين المنجد) .

ألتماحي :

— بتيمة الدهر (طبع مصر)

ألمهاد الأصمغاني :

خريدة القصر وخريدة العصر (قسم شعراء الشام) .

الزبيدي :

— تاج المروس (طبع بيروت سنة ١٩٦٦) .

الشهرستاني (محمد بن عبد الكريم) :

— الملل والنحل (تحرير محمد بن فتح الله بدران) .

ابن منظور :

— لسان العرب (طبع بولاق سنة ١٣٠٣ هـ) .

ياقوت :

— معجم الأدباء (طبع مصر) .

..

أحمد رستم :

— الروم والعرب (جزءان - بيروت سنة ١٩٥٠) .

جواد علي (دكتور) :

— تاريخ العرب قبل الاسلام (طبع المجمع العالمي للعراقى سنة ١٩٥٤) —

جورجى بنى :

— تاريخ سورية (بيروت سنة ١٨٨١) .

الحاجى (محمد بن راغب) :

— أعلام النبلاء فى تاريخ حلب الشهباء (حلب سنة ١٣٤٣ - ١٩٢٥)

دائرة المعارف الإسلامية (الأجزاء المترجمة إلى العربية) .

رينه ديسو :

— العرب فى سورية قبل الإسلام (ترجمة الدواخلى - مراجعة د . زياد)

القاهرة سنة ١٩٥٩) .

زامبلاور :

— معجم الأنساب والأسرات الحاكمة (أخرجہ الدكتور زكى محمد)

حسن وآخرون القاهرة سنة ١٩٥١) .

الشدياق (طنوس بن يوسف) :

— أخبار الأعيان فى جبل لبنان (بيروت سنة ١٩٥٤ م) .

صالح بن يحيى :

— تاريخ بيروت (بيروت سنة ١٨٩٨) .

طاهر النعسانى :

— أسامة بن منقذ (حماء سنة ١٩٢٩) .

عمر كحالة :

— معجم قبائل العرب القديمة والحديثة .

الغزى (كامل بن حسين) :

— نهر الذهب في تاريخ حلب (حلب سنة ١٢٤٢ هـ) .

خيليب حقي :

— لبنان في التاريخ (ترجمة علي بن فريجة - بيروت سنة ١٩٥٩)

— تاريخ سورية ولبنان وفلسطين (بيروت سنة ١٩٥٨) .

الحوييس شيخو :

— بيروت تاريخها وآثارها (بيروت سنة ١٩٢٧) .

محمد بهجت ورفيق التميمي :

— ولاية بيروت - القسم الشمالي - طرابلس واللاذقية (بيروت سنة ١٩١٧)

محمد كرد علي :

— خطط الشام (٦ أجزاء - دمشق سنة ١٩٢٥ - ١٩٢٨) .

الدكتور ابراهيم أحمد العدوي :

— الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم (القاهرة - سنة ١٩٥٨) .

الدكتور جمال الدين سرور :

— سياسة الفاطميين الخارجية (القاهرة - سنة ١٩٦٦)

— النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق - القاهرة سنة ١٩٥٩ .

الدكتور جوزيف نسيم سرور :

— العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى (الاسكندرية

سنة ١٩٦٣) .

الدكتور حسن ابراهيم حسن :

— تاريخ الدولة الفاطمية (القاهرة سنة ١٩٥٨) .

— الدكتور حسن حبشي :

- الحرب الصليبية الأولى سنة ١٩٤٧ ، سنة ١٩٥٨ .
- نور الدين والصليبيون (القاهرة سنة ١٩٤٨) .
- ر . دوزى :
- تاريخ مسلمى أسبانيا (ترجمة الدكتور حسن حبشى - القاهرة سنة ١٩٦٣)
- الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور :
- الحركة الصليبية (جزءان - القاهرة سنة ١٩٦٢) .
- أوربا العصور الوسطى (جزءان - ط ٢ القاهرة سنة ١٩٦٢) .
- قبرص والحروب الصليبية (القاهرة ١٩٥٧) .
- الدكتور السيد الباز العرينى :
- الدولة البيزنطية (القاهرة سنة ١٩٦٠) .
- الدكتور السيد عبد العزيز سالم :
- طرابلس الشام في التاريخ الإسلامى (الاسكندرية سنة ١٩٦٦) .
- الدكتور عمر كمال توفيق :
- مقدمات العدوان الصليبي (الاسكندرية سنة ١٩٦٦) .
- تاريخ الإمبراطورية البيزنطية (الاسكندرية سنة ١٩٦٧) .
- الدكتور محمد عبد الهادى شعيرة :
- العرب والروم (مترجم عن فاسيلييف) .

المخطوطات :

- ابن أيبك (أبو بن عبيد الله)
- دور العيجان وغرر نوارىخ الأزمان (مصورة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٦٠٥ تاريخ)

- ابن الجوزى (أبو الفرج عبد الرحمن بن علي) :
 — شذور العهود في تاريخ العمود (مصورة بدار الكتب المصرية تحت
 رقم ٩٩٤ تاريخ) .
- جمال الدين الوزير (أبو الحسن علي بن كمال الدين) :
 أخبار الدول المنقطعة (تصوير شمس بدار الكتب المصرية رقم ٨٩٠ تاريخ)
 الديني (أبو عبد الله محمد بن سعيد بن يحيى) :
 — ذيل على تاريخ بغداد (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٨٣٤٨ ح)
 سبط بن الجوزى (شمس الدين أبو المظفر يوسف) :
 — مرآة الزمان (مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٩٢٧٦ ح) .
- السلامي (شهاب الدين أحمد) :
 — مختصر التواريخ (مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٩٠٥١
 تاريخ)
- العمري (شهاب الدين بن فضل الله) :
 — مسالك الأبصار (مصورة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٥٩
 معارف عامة) .
-

ثانيا : المصادر والمراجع : غير العربية

Archer : (T.A.)

- The Crusades. the history of the Latin Kingdom of Jerusalem. London 1919

Arnold (Thomas.W.) :

- The Caliphate. Oxford. 1924

Bréhier (Louis) :

- Vie et mort de Byzance. Paris 1947
- L'Eglise et L'orient au moyen Age. Paris. 1907

Browne (Edward.G.) :

- Account of a rare, if not unique, manuscript history of the Seljuqs. J.R.A.S. July 1902

Cahen (cl.) :

- La Syrie du Nord a L'epoque des Croisades Paris 1940

Cambridge Medieval History. Cambridge. 1957

Chalandon (Ferdinand) :

- Histoire de la premiere Croisade. Paris. 1952

Conder (C.R.) :

- The Latin Kingdom of Jerusalem. London. 1897

Dembomynes (Maurice) :

- Muslim institutions (trans. by J. Macgregor) London 1950
- La Syrie a L'epoque Mamelonke.

Derenbourg :

— Vie d'ousama ibn mounkidh.

Diehl (charles) :

— History of the Byzantine Empire
(Trans. by George B. Ives) . Princeton 1925

Dussaud (R.) :

— Topographie historique de la syrie Hntique et
Medievale. (Paris 1927)

Encyc. of Islam. (English Vols.).

Enlart :

— Les monuments des Croisades.

Gaston Wiet ;

— Hist. de la nation Egyptienne- L'Egypte Arabe.
(Paris 1937)

Gesta Erancorum

— Trans. by de Chair (England. 1945)

Grousset : (Rene) :

← Histoire des Croisades et du Royame Franc de
Jerusalem (Paris 1934)

— Histoire de L'Armenie (Paris 1947)
L'empire du Levant. (Paris. 1946)

Huart (ct) : Ousama ibn MounKid (J.A. 1890)

Kay :

— Notes on the hist. of the Banu Okayl.
(J.R.A.S. May 1880)

Lammens (H.) :

- La Syrie. Précis Historique 2 vol. Beyrouth. 1921
Lane-pole (S.) :
- A history of Egypt in the middle ages. London.
1924

Saladin and the fall of the kingdom of Jerusalem London.
1898

- Mohammedan Dynasties.

~~Le~~ Strange (Guy) :

- The Lands of the Eastern caliphate. Cambridge.
1930
- Palestine under the moslems. (London 1890)

Marius Canard .

Histoire de la Dynastie des Hamdanides de Jazira
et de Syrie (Paris 1953)

Mills (Charles) :

- The hist. of the Crusades (London 1820)

Michaud :

- Michaud's history of the Crusades
(trans. W. Robson. London 1852)

Norman and Moss :

- Byzantium. Oxford. 1948

Oman :

- The Byzantine Empire. London 1829

Ostrogorsky (George) :

- History of the Byzantine State
(trans. by J. Hussey. Oxford. 1956)]

Rey (E.G.) :

- Essai sur la Domination Francaise en Syrie
durant le moyen Age. (Paris 1886)

Runciman (S.) :

- A History of the Crusades. Gambridge, 1957

Schlumberger :

- L'Epopée byzantine a la fin du dixieme
siecle. 3 vols. (Paris 1896-1905)
- Recits de Byzance et de Groisades (Paris. 1922)

Setton (K.M.) :

- A histoty of the Crusades. Pennsylvania. 1958

Stevenson (W.B.) :

- The Grusaders in the East. Cambridge 1907

Vasiliev (A.A.) :

- Histoire de L'Empire Byzantin
(trans. du Russe par p. Brodin et A. Bourguina
Paris 1932)

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٧
أولاً : أنساب الإمارات العربية ومراكز قيامها في بلاد الشام ...	١٣
١ - أنساب الإمارات العربية	١٣
٢ - شمال سورية ومراكز الإمارات العربية	٣٨
(جند حمص ص ٤١ - جند قنمر بن ص ٤٩ - جند العواصم (ص ٥٨	
ثانياً : بنو مرداس في حلب ١٠٢٤ - ١٠٧٩ م	٩٥
أ - حلب قبل تأسيس الإمارة المرداسية فيها (نشاط بني كلاب	
حينئذ)	٦٦
ب - تأسيس الإمارة المرداسية في حلب ...	٩١
ج - خلفاء صالح بن مرداس	١١٣
١ - شبل الدولة نصر بن صالح	١١٣
٢ - معز الدولة ثمال بن صالح	١١٩
٣ - عطية بن صالح	١٢٩
٤ - محمود بن نصر بن صالح	١٣٣
٥ - نصر بن محمود	١٤١
٦ - سابق بن محمود	١٤٥
د - بنو مرداس والدولة البيزنطية	١٥٣
هـ - بنو مرداس والخلافة الفاطمية	١٧٣

الموضوع	صفحة
ثالثاً : بنو عمار في طرابلس ١٠٧٠ — ١١٠٩ م	١٨٩
أ - قيام الإمارة وعصر جلال الملك أبو الحسن علي بن عمار	١٩١
ب - نصر فخر الملك بن عمار وجهود هذا الأمير ضد الصليبيين	٢٢٥
١ — بداية عهد فخر الملك بن عمار	٢٢٨
٢ — فخر الملك بن عمار وريموند الصنجيلي	٢٣٢
٣ — فخر الملك بن عمار ووليم جوردان	٤٣٢
ج - الانقلاب الداخلي في طرابلس ودخولها في حوزة	٢٠٩
الفاطميون	
د - سقوط طرابلس في أيدي الصليبيين	٢٦٣
رابعاً : بنو منقذ في شيرز (١٠٨١ — ١١٥٧ م)	٢٧٩
أ - بنو منقذ قبل امتلاكهم قلعة شيرز	٢٨١
ب - تأسيس الإمارة في شيرز سنة ١٠٨١ م (عهد سديد	
الملك أبو الحسن علي بن منقذ)	٢٩٣
ج - خلفاء سديد الملك أبو الحسن علي بن منقذ وسياساتهم	
تجاه السلاجقة والصليبيين	٣٠٣
١ — عز الدولة أبو المرهف نصر بن علي	٣٠٣
٢ — عز الدين أبو العساكر سلطان	٣١٥
٣ — سلطان وعلاقته بالأمراء المجاورين	٣٢٠
د - بنو منقذ والبيزنطيون	٣٥٧
هـ - نهاية بني منقذ	٣٦٩

٣٧٧	خامساً : المظاهر الحضارية للإمارات العربية ...
٣٧٩	أ - اتجاهات الحكم في الإمارات العربية ...
٣٧٩	- مدى الحفاظ على المقومات القبلية ...
					الاتجاه نحو الاستقلال الذاتي في الحكم مع التكيف
٣٩٦	طبقاً لاتجاهات القوى الأخرى ...
					- مدى العناية بالسكان في النواحي الاقتصادية
٤٠٥	والسياسية والاجتماعية ...
٤١٧	ب - النواحي الحضارية والعمرانية ...
٤١٧	- بعض مظاهر الترف في حياة الأمراء العرب ...
٤٢٥	- العناية بالفنون والآداب ...
٤٢٠	- أهم المنشآت في الإمارات العربية ...
٤٤٧	ج - الأحوال الداخلية في الإمارات العربية ...
٤٤٧	- طوائف السكان والفرق المحاربة ...
٤٥٥	- التناقض العنصري والمذهبي بين الرعايا ...
٤٧١	خاتمة ...
٤٧٧	المصادر والمراجع العربية ...
٤٨٩	المصادر والمراجع غير العربية ...

تخذیر امام

كل نسخة مصورة ، وكل نسخة ليس عليها توقيع المؤلف ، أو مقلدة التوقيع ، وأيضا كل نسخة غير مختومة بخاتم الهيئة العامة للكتاب تعتبر مسروقة ، ويقع حاملها وبائعها تحت طائلة القانون .

د. محمد محمد الشبيخ

(تم بحمد الله وحسن توفيقه)

رقم الإيداع ٨٠/٤٧٧٠

الترقيم الدولى ٩٧٧-٢٠١-٩٣٤-٥



منتدى سور الأندلس

WWW.BOOKS4ALL.NET

<https://www.facebook.com/books4all.net>